تهذيب

مدارج السالكين

للإمام السلفى العلامة المحقق
أبى عبد الله محمد بن أبى بكر بن أيوب
ابن قيم الجوزية

هَذَّبَهُ وخَرَّجَ أحاديثهُ وعلَّق عليه
محمد بيومى

مكتبة الإيمان
المنصورة . أمام جامعة الأزهر
ت ٣٥٧٨٨٢

رقم الإيداع : ٨١١٨/ ٢٠٠٤

مكتبة الإيمان
المنصورة ـ أمام جامعة الأزهر
تليفون: ٣٥٧٨٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على من بعثه الله رحمة للعالمين ﷺ

وبعد:

يبحث كتاب «مدارج السالكين» فى تزكية النفوس وتهذيبها وتطهيرها وتطييبها وتنقيتها من قبائحها.

فالنفس الزكية هى الطيبة الطاهرة النقية، وقد أقسم الله سبحانه وتعالى أن الفلاح منوط بتزكية النفس وتطهيرها، وذلك من سورة الشمس بعد أحد عشر قسمًا، وليس فى القرآن أقسام متوالية بهذه الكثرة على حقيقة واحدة إلا فى هذه السورة.

قال تعالى: ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾[1].

ويبن سبحانه وتعالى فى آيات أخر: أنه لا يدخل الجنة إلا من زكت نفسه وطابت، كما قال تعالى ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾[2].

وأهل السنة والجماعة يزكون أنفسهم بما شرعه الله فى كتابه وفى سنة رسوله ﷺ، وليس بما ابتدعه المبتدعون من الصوفية وغيرهم.

وكتاب «مدارج السالكين» لابن القيم، هو شرح لكتاب« منازل السائرين» للإمام أبى إسماعيل عبد الله بن محمد بن على الهروى الحنبلى رحمه الله.

وقد أورد الهروى - رحمه الله - فى «منازله» بعض العبارات التى تخالف منهج أهل السنة والجماعة فى التزكية.

وكان موقف الإمام ابن القيم - رحمه الله - من هذه العبارات أحد أمرين

الأول: أن يحمل هذه العبارات على أحسن وجه إن استطاع إلى ذلك سبيلا.

الثانى: أن ينكر عليه مالا يحتمل التأويل، ثم يردف إنكاره ببعض العبارات التى تدل

---

(١) سورة الشمس الآيات: ١ - ١٠.

(٢) سورة الزمر الآية: ٧٣.

على تجرده للحق، كقوله: «شيخ الإسلام حبيب إلى قلوبنا والحق أحب إلينا من شيخ الإسلام» أو قوله: «وكل من عدا المعصوم ﷺ فمأخوذ من قوله ومتروك ونحن نحمل كلامه على أحسن محامله ثم نبين ما فيه» أو يقول: «ولا توجب هذه الزلة من شيخ الإسلام، إهدار محاسنه وإساءة الظن به فمحله من العلم والإمامة والمعرفة والتقدم فى طريق السلوك المحل الذى لا يجهل، وكل أحد فمأخوذ من قوله ومتروك إلا المعصوم صلوات الله وسلامه عليه».

قلت: وهذه العبارات التى أنكرها ابن القيم على الهروى كانت هى الباعث لى على اختصار هذا الكتاب وتصفيته من مثل هذه العبارات، حتى يسهل الكتاب على السالكين.

فهذا طريق الحق لا خفاء فيه   فدعنى عن بنيات الطريق

والله أسأل أن يجعلنا من السائرين على منهج أهل السنة والجماعة. وأن يتقبل منى هذا العمل خالصًا لوجهه.

وسبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

وكتبه

أبو عبد الرحمن

محمد بن السيد بن بيومى

مصر - المنصورة

*****

ترجمة الإمام الهروى

هو شيخ الإسلام، الإمام القدوة، الحافظ الكبير، أبو إسماعيل، عبد الله بن محمد بن على بن محمد بن أحمد بن على بن جعفر بن منصور بن متّ الأنصارى الهَرَوىُّ، مصنف كتاب «ذم الكلام» وشيخ خراسان من ذرية صاحب النبى ﷺ أبى أيوب الأنصارى.

ولد فى سنة ستٍّ وتسعين وثلاثة مئة وكان رحمه الله : حنبلى المذهب، حافظًا للحديث، عالمًا بالتفسير بارعًا فى اللغة، آية فى لسان التذكير، وكان يروى فى مجالس وعظه الأحاديث بالإسناد وينهى عن تعليقها عنه. قال الإمام الذهبى: رحمه الله ـ: «ولقد بالغ أبو إسماعيل فى «ذم الكلام» على الاتباع فأجاد، ولكنه له نَفَسٌ عجيب لا يُشْبه نَفَس أئمة السلف فى كتابه منازل السائرين» ففيه أشياءُ مُطربة، وفيه أشياء مشكلة، ومن تأمَّله لاح له ما أشرتُ إليه، والسُّنّةُ المحمدية صلفة، ولا ينهض الذوق والوجدُ إلا على تأسيس الكتاب والسنة. وقد كان هذا الرجل سيفًا مسلولاً على المتكلمين، له صَوْلةٌ وهيبةٌ واستيلاءٌ على النفوس ببلده، ويُعظمونه ويتغالون فيه، ويبذلون أرواحهم فيما يأمر به. كان عندهم أطوع وأرفع من السلطان بكثير، وكان طَوْدًا راسيًا فى السنة لا يتزلزل ولا يلين، لولا ما كَدَّر كتابه «الفاروق فى الصفات» بذكر أحاديث باطلة يجب بيانُها وهَتْكُها، والله يغفر له بحسن قصده، وصنَّف« الأربعين» فى التوحيد، و«أربعين» فى السنة، وقد امتحن مرات وأُوذى ونُفى من بلده»

قال ابن طاهر: سمعتُه يقول: عُرِضت على السيف خمس مرات، لا يقال لى: ارجعْ عن مذهبك، لكن يُقال لى: اسكت عمن خالفك، فأقول: لا أسكُتُ.

وسمعته يقول: أحفظ اثنى عشر ألف حديث أسردها سردًا.

قال الحافظ أبو النضر الفامى: كان شيخ الإسلام أبو إسماعيل بِكْر الزمان، وواسطة عقد المعانى، وصورة الإقبال فى فنون الفضائل وأنواع المحاسن، منها نصرةُ الدين بالسنة، من غير مداهنة ولا مراقبة لسلطان ولا وزير، وقد قاسى بذلك قصدَ الحُساد فى كل وقت، وسعوا فى رُوحه مرارًا وعمدوا إلى إهلاكه أطوارًا، فوقاهُ الله شرهم وجعل قصدهم أقوى سبب لارتفاع شأنه.

قلت[1]: قد انتفع به خلق، وجهل آخرونٌ فإن طائفةً من صفوة الفلسفة والاتحاد

(١) أى الإمام الذهبى.

يخضعون لكلامه فى «منازل السائرين» وينتحلونه، ويزعمون أنه موافقهم كلا بل هو رجل أثرى، لهجٌ بإثبات نصوص الصفات، منافر للكلام وأهله جدًا، وفى «منازله» إشارات إلى المحو والفناء وإنما مراده بذلك الفناء هو الغيبة عن شُهود السوى ولم يُرِدْ مَحْو السوى فى الخارج، وياليته لا صنَّف ذلك، فما أحلى تصوف الصحابة والتابعين [1]! ما خاضوا فى هذه الخطرات والوساوس، بل عبدوا الله، وذلُّوا له وتوكلوا عليه، وهم من خشيته مشفقون، ولأعدائه مجاهدون، وفى الطاعة مُسارعون، وعن اللغو مُعرضون، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

وفاته رحمه الله.

قال أبو النضر الفامى: تُوفى شيخ الإسلام فى ذى الحجة، سنة احدى وثمانين وأربع مئة، عن أربع وثمانون سنة وأشهر»[2].

*****

(١) لا يقصد الإمام الذهبى بتصوف الصحابة والتابعين هذا التصوف المحدث والمخالف لهدى السلف الصالح، وذلك أن مسمى التصوف لم يكن موجودًا أصلاً فى عصر الصحابة والتابعين، وإنما يقصد الإمام الذهبى بتصوف الصحابة والتابعين، أى علم السلوك المستمد من الكتاب وصحيح سنة النبى ﷺ. فينبغى الاحتراز من إطلاق هذا الوصف على الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أجمعين

(٢) انظر «سيرة أعلام النبلاء» (١٨/ ٣ ٥)

ترجمة الإمام ابن قيم الجوزية

اسمه ونسبه:

هو أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعد بن حريز بن مكى، زين الدين الزرعى ثم الدمشقى الحنبلى الشهير بابن قيم الجوزية.

مولــــده:

وُلد رحمه الله الله فى اليوم السابع من شهر صفر سنة ٦٩١ هـ، وقد نشأ فى جو علمى كريم حيث كان أبوه قيما على المدرسة الجوزية بدمشق مدة من الزمن فقيل له (قيم الجوزية) ولذا اشتهر مترجمنا بين أهل العلم بابن قيم الجوزية.

اجتهاده فى طلب العلم:

كان رحمه الله - لديه رغبة صادقة فى طلب العلم وجلد عظيم فى البحث والنظر منذ نعومه أظافره، حيث ابتدأ فى طلب العلم فى السابعة من عمره، فقد رزقه الله موهبة متحركة تنبض بالعقل الواسع والفكر الخصب والحافظة المدهشة والقدرة العجيبة، فلا عجب إذا رأيناه يزاحم بالركب فى شتى الحلق على أعداد متكاثرة من الشيوخ بروح متعطشة ونفس ومتألقة ليشفى غلته ويروى نهمته فينهل من كل عالم متخصص حتى تفنن فى علوم الإسلام، وصارت له اليد الطولى فى فنون شتى.

قال عنه تلميذه ابن رجب الحنبلى: «كان عارفا فى التفسير لا يجارى فيه وبأصول الدين وإليه فيهما المنتهى، والحديث ومعانيه وفقهه ودقائق الاستنباط منه، لا يُلحق فيه ذلك، وبالفقه وأصوله وبالعربية وله فيها اليد الطولى. وعلم الكلام والنحو وغير ذلك وكان عالمًا بعلوم السلوك»[1]. وقال: «ولا رأيت أوسع منه علمًا ولا أعرف بمعانى القرآن والسنة وحقائق الإيمان أعلم منه وليس المعصوم ولكن لم أر فى معناه مثله»[2].

وقال ابن كثير: «سمع الحديث واشتغل بالعلم وبرع فى علوم متعددة لا سيما علم التفسير والحديث والأصلين»[3].

وقال الذهبى: «عنى بالحديث ومتونه ورجاله وكان يشتغل بالفقه ويجيد تقريره وفى النحو ويدريه وفى الأصلين»[4].

---

(١) «ذيل طبقات الحنابلة» (٢/٤٤٨).

(٢) «ذيل طبقات الحنابلة» (٢/ ٤٥٠).

(٣) «البداية والنهاية» (١٤/ ٢٠٢).

(٤) «المعجم المختص لشيوخه» حرف الميم (مخطوط).

وقال الحافظ ابن حجر: «كان جرىء الجنان واسع العمل عارفًا بالخلاف ومذاهب السلف»[1].

وقال السيوطى: «وقد صنف وناظر واجتهد وصار من الأئمة الكبار فى التفسير والحديث والفروع والأصليين والعربية»[2].

وقال ابن تغرى بردى «وكان بارعًا فى عدة علوم ما بين تفسير وفقه وعربية ونحو وحديث وأصول وفروع ولزم شيخ الإسلام ابن تيمية بعد عودته من القاهرة سنة ٧١٢ هـ وأخذ عنه علمًا كثيرًا حتى صار أحد أفراد زمانه وانتفع به الناس»[3].

شيوخـــه

تتلمذ ابن القيم رحمه الله ـ على جمع غفير من مشاهير العلماء ممن كان لهم الأثر فى تكوينه الفكرى ونضوجه العلمى. ومن هؤلاء: والدهُ «أبو بكر بن أيوب» (قيم الجوزية) و«إسماعيل بن محمد الفراء المعروف بالمجد الحرانى» شيخ الحنابلة بدمشق و«شرف الدين ابن تيمية» أخو شيخ الإسلام ابن تيمية. و«الإمام المزى» الشافعى إمام المحدثين وخاتمة الحافظ. و«شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية» وقد كان لشيخ الإسلام ابن تيمية أثرًا بالغًا فى نضوج علم ابن القيم وقد تبنى ابن القيم كثيرًا من آراء ابن تيمية ودافع عنها مما سبب له ذلك إيذاءً بالغًا من المتعصبة والمقلدة لآراء الرجال، حتى زُجَّ به فى السجن مع شيوخه ابن تيمية فى القلعة ولم يفرج عنه إلا بعد موت ابن تيمية رحمه الله.

تــلاميــذه:

انتفع الناس بعلم ابن القيم وصار له تلاميذه من مشاهير العلماء ومن هؤلاء ابنه«برهان الدين إبراهيم ابن القيم» و «الحافظ ابن كثير الإمام الشافعى المشهور» و«الحافظ ابن رجب الحنبلى صاحب المؤلفات النافعة» و«عبد الله بن محمد الملقب بشرف الدين ابن القيم الجوزية وهو ابن مترجمنا أيضًا وكان مفرط الذكاء وتسلم التدريس فى الصدرية بعد والده» و«تقى الدين على بن عبد الكافى السبكى» و «والإمام الحافظ محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبى، صاحب التصانيف الكثيرة فى الحديث وغيره و «الحافظ أحمد بن عبد الهادى» وغيرهم كثير.

---

(١) «الدرر الكامنة» (٤/٢١).

(٢) «بغية الوعاة» (١/٦٣).

(٣) «النجوم الزاهرة فى أخبار مصر القاهرة» (١٠/٢٤٩).

مؤلفاته:

كان ابن القيم - رحمه الله - مكثرًا من التأليف، مما جعل الحديث عن تعداد مؤلفاته على وجه الدقة أمرٌ فيه عناء.

وإليك ثبت بأسماء المؤلفات التى رصدها له أهل العلم مرتبة على حروف المعجم.

(١) الاجتهاد التقليد.

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية . مطبوع.

(٣) أحكام أهل الذمة. مطبوع.

(٤) أسماء مؤلفات ابن تيمية . مطبوع

(٥) أصول التفسير.

(٦) الإعلام باتساع طرق الأحكام

(٧) أعلام الموقعين عن رب العالمين مطبوع

(٨) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان طبع بتحقيقى.

(٩) إغاثة اللهفان فى حكم طلاق الغضبان. مطبوع

(١٠) اقتضاء الذكر بحصول الخير ودفع الشر.

(١١) الأمالى المكية.

(١٢) أمثال القرآن. مطبوع.

(١٣) الإيجار

(١٤) بدائع الفوائد . مطبوع

(١٥) بيان الاستدلال من أربعين وجهًا

(١٦) بيان الاستدلال على بطلان اشتراط محلل السباق والنضال.

(١٧) التبيان فى أقسام القرآن. مطبوع

(١٨) التحبير لما يحل ويحرم من لباس الحرير

(١٩) التحفة المكية

(٢٠) تحفة المودود فى أحكام المولود مطبوع

(٢١) تحفة النازلين بجوار رب العالمين

(٢٢) تدبير الرآسة فى القواعد الحكمية بالذكاء والقريحة.

(٢٣) التعليق على الأحكام

(٢٤) التفسير القيم. مطبوع
(٢٥) تفضيل مكة على المدينة
(٢٦) تهذيب مختصر سنن أبى داود مطبوع
(٢٧) الجامع بين السنن والآثار
(٢٨) جلاء الأفهام فى الصلاة والسلام على خير الأنام. طبع بتحقيقى
(٢٩) جوابات عابدى الصلبان وأن ماهم عليه دين الشيطان.
(٣٠) الجواب الشافى لمن سأل عن ثمرة الدعاء إذا كان ما قدر واقع.
(٣١) حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح. مطبوع.
(٣٢) الحاوى.
(٣٣) حرمة السمع.
(٣٤) حكم تارك الصلاة. مطبوع.
(٣٥) حكم إغماء هلال رمضان.
(٣٦) حكم تفضيل بعض الأولاد عل بعض فى العطية.
(٣٧) الداء والدواء مطبوع. ويسمى «الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى».
(٣٨) دواء القلب.
(٣٩) ربيع الأبرار فى الصلاة والسلام على النبى المختار.
(٤٠) الرسالة الحلبية فى الطريقة المحمدية.
(٤١) الرسالة الشافعية فى أحكام المعوذتين.
(٤٢) رسالة ابن القيم إلى أحد إخوته.
(٤٣) الرسالة التبوكية . مطبوع.
(٤٤) رفع التنزيل.
(٤٥) رفع اليدين فى الصلاة.
(٤٦)روضة المحبين ونزهة المشتاقين. مطبوع.
(٤٧) الروح . مطبوع
(٤٨) الروح والنفس
(٤٩) زاد المسافرين إلى منازل السعداء ف هدى خاتم النبيين.
(٥٠) زاد المعاد فى هدى خير العباد. مطبوع.

(٥١) السنة والبدعة.

(٥٢) شرح أسماء الكتاب العزيز.

(٥٣) شرح الأسماء الحسنى.

(٥٤) شفاء العليل فى مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل. مطبوع

(٥٥) الصبر والسكن.

(٥٦) الصراط المتقيم فى أحكام أهل الجحيم.

(٥٧) الصواعق المنزلة على الجهمية والمعطلة.

(٥٨) الطاعون.

(٥٩) طب القلوب.

(٦٠) الطب النبوى . مطبوع.

(٦١) طريق الهجرتين وباب السعادتين . مطبوع.

(٦٢) الطرق الحكيمة فى السياسة الشرعية . مطبوع

(٦٣) طريقة البصائر إلى حديقة السائر فى نظم الكبائر

(٦٤) طلاق الحائض.

(٦٥) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين . مطبوع.

(٦٦) عقد محكم الأخبار بين الكلم الطيب والعمل الصالح المرفوع إلى رب السماء.

(٦٧) الفتاوى.

(٦٨) الفتح القدسى.

(٦٩) الفتح المكى.

(٧٠) الفتوحات القدسية.

(٧١) الفرق بين الخلة والمحبة ومناظرة الخليل لقومه.

(٧٢) الفروسية. مطبوع.

(٧٣) الفروسية الشرعية.

(٧٤) فضل العلم وأهله.

(٧٥) فوائد فى الكلام على حديث الغمامة والضب وغيره.

(٧٦) الفوائد. مطبوع.

(٧٧) قرة عيوم المحبين وروضة قلوب العارفين.

(٧٨) الكافية الشافية فى النحو

(٧٩) الكافية الشافية فى الانتصار للفرقة الناجية   مطبوع

(٨٠) الكبائر.

(٨١) كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء.

(٨٢) الكلم الطيب والعمل الصالح. مطبوع.

(٨٣) اللمحة فى الرد عل ابن طلحة.

(٨٤) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين. وهو كتابنا هذا الذى قمنا بتهذيبه..

(٨٥) المسائل الطرابلسية

(٨٦) معانى الأدوات والحروف

(٨٧) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة. طبع فى مجلدين بتحقيقى.

(٨٨) المنار المنيف فى الصحيح والضعيف. مطبوع.

(٨٩) المورد الصافى والظل الوافى.

(٩٠) مولد النبى ﷺ.

(٩١) المهدى.

(٩٢) المهذب.

(٩٣) نقد المنقول والمحك المميز بين المقبول والمردود

(٩٤) نكاح المحرم.

(٩٥) نور المؤمن وحياته

(٩٦) هداية الحيارى فى أجوبة اليهود والنصارى. مطبوع

وفاتـــــــه رحمه الله

تتفق كتب التراجم على أنه وفاته ـ رحمه الله ـ كانت ليلة الخميس ثالث عشر رجب وقت آذان العشاء سنة ٧٥١ هجرية وبه كمل له من العمر ستون سنة رحمه الله تعالى.

وقد صُلى عليه من الغد بعد صلاة الظهر بالجامع الأموى ثم بجامع جراح ودفن بدمشق بمقبرة الباب الصغير عند والدته رحمهما الله

****

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة ابن القيم

(وبه نستعين. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم)

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك لهُ رب العالمين، وإله المرسلين، وقيوم السموات والأرضين. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المبعوث بالكتاب المبين، الفارق بين الهدى والضلال، والغى والرشاد، والشك واليقين. أنزله لنقرأه تدبراً، ونتأمله تبصراً ونسعد به تذكراً، ونحمله على أحسن وجوهه ومعانيه، ونصدِّقَ به ونجتهد على إقامة أوامره ونواهيه. ونجتنى ثمار علومه النافعة الموصلة إلى الله سبحانه من أشجاره، ورياحين الحِكَم من بين رياضه وأزهاره. فهو كتابه الدالُّ عليه لمن أراد معرفته، وطريقه الموصلة لسالكها إليه، ونوره المبين الذى أشرقت له الظلمات، ورحمته المهداة التى بها صلاح جميع المخلوقات، والسبب الواصل بينه وبين عباده إذا انقطعت الأسباب، وبابه الأعظم الذى منه الدخول، فلا يغلق إذا غُلِّقت الأبواب. وهو الصراط المستقيم الذى لا تميل به الآراء، والذكر الحكيم الذى لا تزيغُ به الأهواء، والنُّزُلُ الكريم الذى لا يَشبع منه العلماء، لا تفنى عجائبه، ولا تُقلع سحائبه، ولا تنقضى آياته، ولا تختلف دلالاته، كلما ازدادت البصائر فيه تأملاً وتفكيراً، زادها هداية وتبصيراً. وكلما بَجَّست مَعينهُ فَجَّر لها ينابيع الحِكمة تفجيراً. فهو نور البصائر من عماها، وشفاء الصدور من أدوائها وجَوَاها، وحياة القلوب، ولذة النفوس، ورياض القلوب، وحادى الأرواح، إلى بلاد الأفراح، والمنادى بالمساء والصباح: يا أهلَ الفلاح حَيَّ على الفلاحِ. نادى منادى الإيمان على رأس الصراط المستقيم ﴿ **يا قَوْمَنا أجيبوا داعىَ اللّه وآمنوا به يَغْفِرْ لكُم من ذُنُوبِكُم ويُجِرْكم مِن عَذابٍ أليم** ﴾[1].

أسمَعَ ـ والله ـ لو صادف آذاناً واعية، وبَصَّرَ لو صادف قلوباً من الفساد خالية. لكن عَصَفَت على القلوب هذه الأهواء فأطفأت مصابيحها. وتمكنت منها آراء الرجال فأغلقت أبوابها وأضاعت مفاتيحها. ورانَ عليها. كَسْبها فلم تجد حقائق القرآن إليها منفذاً. وتحكمت فيها أسقام الجهل فلم تنتفع معها بصالح العمل.

واعجباً لها ! كيف جعلت غذاءها من هذه الآراء التى لا تُسْمِن ولا تُغْنِى من جوع ولم تقبل الاغتذاء بكلام رب العالمين، ونصوص حديث نبيه المرفوع. أم كيف اهتدت فى

---

(١) سورة الأحقاف: الآية ٣١.

ظلم الآراء إلى التمييز بين الخطإ والصواب، وخفى عليها ذلك فى مطالع الأنوار من السنة والكتاب ؟

واعجباً لها ! كيف ميزت بين صحيح الآراء وسقيمها، ومقبولها ومردودها، وراجحها ومرجوحها، وأقرّت على أنفسها بالعجز عن تلقى الهدى والعلم مَنْ كلام من كلامه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وهو الكفيل بإيضاح الحق مع غاية البيان؟ وكلام من أوتى جوامع الكلم، واستولى كلامه على الأقصى من البيان.

كلا، بل هى والله فتنة أعمت القلوب عن مواقع رشدها. وحيرت العقول عن طرائق قصدها. يُرَبّى فيها الصغير، ويهرمُ فيها الكبير.

وظنت خفافيش البصائر أنها الغاية التى يتسابق إليها المتسابقون، والنهاية التى تنافس فيها المتنافسون، وتزاحموا عليها. وهيهات. أين السُّهَى من شمس الضحى ؟ وأينُ الثُّرى من كواكب الجوزاء ؟ وأين الكلام الذى لم تُضمن لنا عصمة قائله بدليل معلوم، من النقل المصدَّق عن القائل المعصوم ؟ وأين الأقوال التى أعلى درجاتها : أن تكون سائغة الاتباع، من النصوص الواجب على كل مسلم تقديمها وتحكيمها والتحاكم إليها فى محل النزاع وأين الآراء التى نهى قائلُها عن تقليده فيها وحَذّر ، من النصوص التى فُرض على كل عبدٍ أن يَهْتدىَ بها ويتبصر ؟ وأين المذاهب التى إذا مات أربابها فهى من جملة الأموات، من النصوص التى لا تزول إذا زالت الأرض والسموات؟.

(هداية القرآن)

سبحان الله! ماذا حُرم المعرضون عن نصوص الوحى، واقتباسَ العلم من مشكاته من كنوز الذخائر ؟! وماذا فاتهم من حياة القلوب واستنارة البصائر ؟ قنعوا بأقوال استنبطتها معاول الآراء فكْرا، وتقطعوا أمرهم بينهم لأجلها زبُرا. وأوحى بعضهم إلى بعض زُخْرُف القول غروراً. فاتخذوا لأجل ذلك القرآن مهجوراً.

(شرح)

دَرَسَت معالم القرآن فى قلوبهم فليسوا يعرفونها. ودثّرت معاهده عندهم فليسوا يعمرونها. ووقعت ألويته وأعلامه من أيديهم فليسوا يرفعونها. وأفَلَتْ كواكبه النيرة من آفاق نفوسهم فلذلك لا يحبونها. وكُسفت شمسه عند اجتماع ظلم آرائهم وعقدها فليسوا يبصرونها.

خلعوا نصوص الوحى عن سلطان الحقيقة، وعزلوها عن ولاية اليقين وشنوا عليها غارات التأويلات الباطلة فلا يزال يخرج عليها من جيوشهم كمين بعد كمين. نزلت

عليهم نزول الضيف على أقوام لئام. فعاملوها بغير ما يليق بها من الإجلال والإكرام وتلقوها من بعيد، ولكن بالدفع فى صدورها والأعجاز. وقالوا: ما لك عندنا من عبور، وإن كان لابد، فعلى سبيل الاجتياز. أنزلو النصوص منزلة الخليفة فى هذا الزمان. له السكة والخطبة وما له حكم نافذ ولا سلطان، المتمسك عندهم بالكتاب والسنة صاحب ظواهر، مبخوس حظه من المعقول. والمقلد للآراء المتناقضة المتعارضة والأفكار المتهافتة لديهم هو الفاضل المقبول. وأهل الكتاب والسنة، المقدمون لنصوصها على غيرها، جهال لديهم منقوصون ﴿ وإذا قيلَ لهم آمنوا كما آمَنَ النَّاسُ قالوا أنُؤمنُ كما آمنَ السفهاءُ ألا إنَّهم هُمُ السُّفَهاءُ ولَكِنْ لا يَعْلَمُونَ ﴾[1].

حرموا - والله - الوصول، بعدولهم عن منهج الوحى، وتضييعهم الأصول. وتمسكوا بأعجاز لا صدور لها، فخانتهم أحرص ما كانوا عليها. وتقطعت بهم أسبابها أحوج ما كانوا إليها. حتى إذا بُعثر ما فى القبور، وحُصِّل ما فى الصدور، وتميز لكل قوم حاصلهم الذى حصَّلوه. انكشفت لهم حقيقة ما اعتقدوه، وقدموا على ما قدَّموه ﴿وبَدَا لَهُم منَ اللهِ مَا لَم يكُونُوا يَحتَسِبون﴾[2] وسُقط فى أيديهم عند الحَصاد لَمَّا عاينوا غَلة ما بذروه

فيا شدَّة الحسرة عند ما يعاين المبطل سعيه وكَدَّه هباءً منثوراً ، ويا عُظْمَ المصيبة عندما يتبين بَوارِقَ أمانيه خُلَّباً وآماله كاذبة غروراً. فما ظنُّ من انطوت سريرته على البدعة والهوى، والتعصب للآراء، بربِّه يوم تُبلَى السرائر ؟ وما عذر مَنْ نبذ الوحيين وراء ظهره فى يوم لا تنفع الظالمين فيه المعاذر ؟.

أفيظن المعرض عن كتاب ربه وسنة رسوله أنْ ينجو من ربه بآراء الرجال ؟ أو يتخلص من بأس الله بكثرة البحوث والجدال، وضروب الأقيسة وتنوع الأشكال ؟ أو بالإشارات والشطحات، وأنواع الخيال ؟.

هيهات والله. لقد ظن أكذبَ الظن، ومَنَّتْهُ نفسه أبين المحال. وإنما ضُمنت النجاة لمن حكَّم هدى الله على غيره، وتزود التقوى وائتم بالدليل. وسلك الصراط المستقيم، واستمسك من الوحى بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها والله سميع عليم.

وبعد، فلما كان كمال الإنسان إنما هو بالعلم النافع، والعمل الصالح. وهما الهدى ودين الحق، وبتكميله لغيره فى هذين الأمرين، كما قال تعالى: ﴿والعَصْرِ إنَّ الإنسانَ لفى خُسْرٍ. إلاَّ الَّذين آمنوا وعَمِلوا الصالِحات. وتواصَوْا بالحقِّ وتَواصَوْا بالصَّبْرِ﴾[3] أقسم سبحانه أن كل أحد خاسرٌ إلا من كَمَّلَ قوته العلمية بالإيمان، وقوته العملية بالعمل الصالح، وكمل غيره بالتوصية بالحق والصبر عليه، فالحق هو الإيمان والعمل، ولا يتمان

(١) سورة البقرة: الآية ١٣. (٢) سورة الزمر: الآية ٤٧. (٣) سورة العصر.

إلا بالصبر عليهما، والتواصى بهما - كان حقيقاً بالإنسان أن يُنفق ساعات عمره - بل أنفاسه - فيما ينال به المطالب العالية، ويخلُص به من الخسران المبين. وليس ذلك إلا بالإقبال على القرآن وتفهمه وتدبُّره واستخراج كنوزه وإثارة دفائنه، وصرف العناية إليه، والعكوف بالهمة عليه. فإنه الكفيل بمصالح العباد، فى المعاش والمعاد. والموصل لهم إلى سبيل الرشاد. فالحقيقة والطريقة، والأذواق والمواجيد الصحيحة، كلها لا تقتبس إلا من مشكاته، ولا تُستثمرُ إلا من شجراته.

ونحن - بعون الله - ننبه على هذا بالكلام على فاتحة الكتاب وأُم القرآن، وعلى بعض ما تضمنته هذه السورة من هذه المطالب، وما تضمنته من الرد على جميع طوائف أهل البدع والضلال. وما تضمنته من منازل السائرين، ومقامات العارفين، والفرق بين وسائلها وغاياتها، ومواهبها وكسبياتها، وبيان أنه لا يقوم غير هذه السورة مقامها، ولا مسدها. ولذلك لم ينزل الله فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى القرآن مثلها.

والله المستعان، وعليه التكلان. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

*****

(المطالب العالية التى اشتملت عليها سورة الفاتحة)

اعلم أن هذه السورة اشتملت على أمهات المطالب العالية أتم اشتمال، وتضمنتها أكمل تضمن.

فاشتملت على التعريف بالمعبود - تبارك وتعالى - بثلاثة أسماء، مرجع الأسماء الحسنى والصفات العليا إليها، ومدارها عليها. وهى «الله، والرب، الرحمن» وبنيت السورة على الإلهية، والربوبية، والرحمة فـ«إيَّاكَ نعبد» مبنى على الإلهية. و«إياك نستعين» على الربوبية. وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم بصفة الرحمة. والحمد يتضمن الأمور الثلاثة: فهو المحمود فى إلهيته، وربوبيته، ورحمته. والثناء والمجد كمالان لجده.

وتضمنت إثبات المعاد، وجزاء العباد بأعمالهم، حَسنها وسيِّئها وتفرد الرب تعالى بالحكم إذ ذاك بين الخلائق، وكون حكمه بالعدل. وكل هذا تَحت قوله «مالك يوم الدين».

وتضمنت إثبات النبوات من جهات عديدة.

أحدها: كونه رب العالمين[1]. فلا يليق به أن يترك عباده سدىً هملاً. لا يعرفهم ما ينفعهم فى معاشهم ومعادهم وما يضرهم فيهما، فهذا هَضْمٌ للربوبية، ونسبة الرب تعالى

(١) أى مربيهم بالنعم - وأجلها الوحى، وإرسال الرسل، وإنزال الهدى والعلم والحكمة - والآلاء المتتالية، التى لا تنقطع عنهم طرفة عين

إلى ما لا يليق به. وما قدره حق قدره من نسبه إليه.

الثاني: أخذها من اسم ﴿الله﴾ وهو المألوه المعبود. ولا سبيل للعباد إلى معرفة عبادته إلا من طريق رسله.

الموضع الثالث: من اسمه ﴿الرحمن﴾ فإن رحمته تمنع إهمال عباده، وعدم تعريفهم ما ينالون به غاية كمالهم. فمن أعطى اسم «الرحمن» حقه عرف أنه متضمن لإرسال الرسل، وإنزال الكتب، أعظم من تضمنه إنزال الغيث وإنبات الكلأ، وإخراج الحب. فاقتضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح أعظم من اقتضائها لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح، لكن المحجوبون إنما أدركوا من هذا الاسم حظ البهائم والدواب. وأدرك منه أولو الألباب أمراً وراء ذلك.

الموضع الرابع: من ذكر ﴿يوم الدين﴾ فإنه اليوم الذى يدين الله العباد فيه بأعمالهم، فيثيبهم على الخيرات، ويعاقبهم على المعاصى والسيئات. وما كان الله ليعذب أحداً قبل إقامة الحجة عليه. والحجة إنما قامت برسله وكتبه. وبهم استحق الثواب والعقاب. وبهم قام سوق يوم الدين. وسيق الأبرار إلى النعيم. والفجار إلى الجحيم.

الموضع الخامس: من قوله ﴿إياك نعبد﴾ فإن ما يعبد به الرب تعالى لا يكون إلا على ما يحبه ويرضاه. وعبادته ـ وهى شكره وحبه وخشيته ـ فطرى ومعقول للعقول السليمة. لكنّ طريق التعبد وما يعبد به لا سبيل إلى معرفته إلا برسله وبيانهم. وفى هذا بيان أن إرسال الرسل أمر مستقر فى العقول. يستحيل تعطيل العالم عنه، كما يستحيل تعطيله عن الصانع. فمن أنكر الرسول فقد أنكر الْمُرسِل. ولم يؤمن به. ولهذا جعل الله سبحانه الكفر برسله كفراً به.

الموضع السادس: من قوله ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ فالهداية: هى البيان والدلالة، ثم التوفيق والإلهام، وهو بعد البيان والدلالة. ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل. فإذا حصل البيان والدلالة والتعريف ترتب عليه هداية التوفيق، وجعل الإيمان فى القلب، وتحبيبه إليه، وتزيينه فى القلب، وجعله مؤثراً له، راضياً به راغباً فيه.

وهما هدايتان مستقلتان، لا يحصل الفلاح إلا بهما، وهما متضمنتان تعريف ما لم نعلمه من الحق تفصيلاً وإجمالاً. وإلهامنا له، وجعلنا مريدين لاتباعه ظاهراً وباطناً. ثم خلق القدرة لنا على القيام بموجب الهدى بالقول والعمل والعزم. ثم إدامة ذلك لنا وتثبيتنا عليه إلى الوفاة.

ومن هنا يُعْلَمُ اضطرار العبد إلى سؤال هذه الدعوة فوق كل ضرورة، وبطلان قول من

يقول : إذا كنا مهتدين، فكيف نسأل الهداية ؟ فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم. وما لا نريد فعله تهاوناً وكسلاً مثل ما نريده، أو أكثر منه أو دونه. وما لا نقدر عليه ـ مما نريده ـ كذلك. وما نعرف جملته ولا نهتدى لتفاصيله، فأمر يفوت الحصر. ونحن محتاجون إلى الهداية التامة. فمن كَمُلَتْ له هذه الأمور كان سؤال الهداية له سؤال التثبيت والدوام.

وللهداية مرتبة أخرى ـ وهى آخر مراتبها ـ وهى الهداية يوم القيامة إلى طريق الجنة. وهو الصراط الموصل إليها. فمن هُدى فى هذه الدار إلى صراط الله المستقيم، الذى أرسل به رسله، وأنزل به كتبه، هدى هناك إلى الصراط المستقيم، الموصل إلى جنته ودار ثوابه. وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذى نصبه الله لعباده فى هذه الدار، يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم. وعلى قدر سيره على هذه الصراط يكون سيره على ذاك الصراط. فمنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كشدِّ الركاب، ومنهم من يسعى سعياً، ومنهم من يمشى مشياً، ومنهم من يحبو حبوا، ومنهم المخدوش المسلَّم، ومنهم المُكردَسُ فى النار. فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا، حَذْوَ القُذَّة بالقذة، جزاء وفاقا ﴿هل تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ (١).

ولْيَنظُرِ الشبهات والشهوات التى تعوقه عن سيره على هذا الصراط المستقيم. فإنها الكلاليب التى بجنبتى ذاك الصراط، تخطفه وتعوقه عن المرور عليه. فإن كثرت هنا وقويت فكذلك هى هناك ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ (٢).

فسؤال الهداية متضمن لحصول كل خير، والسلامة من كل شر.

الموضع السابع: من معرفة نفس المسئول. وهو الصراط المستقيم. لا تكون الطريق صراطاً حتى تتضمن خمسة أمور: الاستقامة، والإيصال إلى المقصود، والقرب، وسعته للمارين عليه، وتعينه طريقاً للمقصود. ولا يخفى تضمن الصراط المستقيم لهذه الأمور الخمسة.

فوصفه بالاستقامة يتضمن قربه، لأن الخط المستقيم هو أقرب خط فاصل بين نقطتين وكلما تعوَّج طال وبَعُدَ. واستقامته تتضمن إيصاله إلى المقصود. ونصبه لجميع من يمر عليه يستلزم سعته. وإضافته إلى المُنْعَم عليهم، ووصفه بمخالفة صراط أهل الغضب والضلال، يستلزم تعينه طريقاً.

---

(١) سورة النمل الآية ٩٠.

(٢) سورة فصلت الآية ٤٦.

والصراط تارة يضاف إلى الله، إذ هو الذى شرعه ونصبه، كقوله تعالى: ﴿وأن هذا صراطى مستقيماً﴾(١) وقوله :﴿وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم : صراط الله﴾(٢) وتارة يضاف إلى العباد، كما فى الفاتحة. لكونهم أهل سلوكه. وهو المنسوب لهم. وهم المارون عليه.

الموضع الثامن: من ذكر المُنعمَ عليهم، وتمييزهم عن طائفتى الغضب والضلال فانقسم الناس بحسب معرفة الحق والعمل به إلى هذه الأقسام الثلاثة. لأن العبد إما أن يكون عالماً بالحق، أو جاهلاً به. والعالمُ بالحق إما أن يكون عاملاً بموجبه أو مخالفاً له. فهذه أقسام المكلفين. لا يخرجون عنها ألبتة. فالعالمُ بالحق العامل به: هو المُنعمُ عليه. وهو الذى زكى نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح. وهو المفلح ﴿قد أفلح من زكاها﴾(٣) والعالِمُ به المتبع هواه: هو المغضوب عليه. والجاهل بالحق : هو الضال. والمغضوب عليه ضال عن هداية العمل. والضال مغضوب عليه لضلاله عن العلم الموجب للعمل. فكل منهما ضال مغضوب عليه، ولكن تارك العمل بالحق بعد معرفته به أولى بوصف الغضب وأحقُ به. ومن هنا كان اليهود أحق به. وهو متغلّظ فى حقهم. كقوله تعالى فى حقهم: ﴿بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده، فباءوا بغضب على غضب﴾(٤) وقوله تعالى :﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه،وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت. أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل﴾(٥) والجاهل بالحق:أحق باسم الضلال. ومن هنا وصفت النصارى به فى قوله تعالى : ﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً، وضلوا عن سواء السبيل﴾(٦) فالأولى : فى سياق الخطاب مع اليهود. والثانية : فى سياقه مع النصارى. وفى الترمذى وصحيح ابن حبان. من حديث عدى بن حاتم قال : قال رسول الله ﷺ «اليهود مغضوب عليهم. والنصارى ضالون»(٧).

ففى ذكر المُنعمَ عليهم - وهم من عرف الحق واتبعه - والمغضوب عليهم - وهم من عرفه واتبع هواه - والضالين - وهم من جهله - : ما يستلزم ثبوت الرسالة والنبوة. لأن انقسام الناس إلى ذلك هو الواقع المشهود. وهذه القسمة إنما أوجبها ثبوت الرسالة.

وأضاف النعمة إليه، وحذف فاعل الغضب لوجوه.

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٥٣ (٢) سورة الشورى الآية ٥٢ و ٥٣

(٣) سورة الشمس الآية ٩. (٤) سورة البقرة الآية ٩٠

(٥) سورة المائدة الآية ٦٠. (٦) سورة المائدة الآية ٧٧

(٧) حسن، رواه الترمذى ٢٩٥٤ وابن حبان (٦٢٤٦-الاحسان) وقال الترمذى حسن غريب

منها: أن النعمة هى الخير والفضل. والغضب من باب الانتقام والعدل. والرحمة تغلب الغضب، فأضاف إلى نفسه أكمل الأمرين، وأسبقهما وأقواهما. وهذه طريقة القرآن فى إسناد الخيرات والنعم إليه. وحذف الفاعل فى مقابلتهما. كقول مؤمنى الجن ﴿وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض، أم أراد بهم ربهم رشداً ؟ ﴾[1] ومنه قول الخضر فى شأن الجدار واليتيمين ﴿فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما﴾[2] وقال فى خرق السفينة ﴿فأردت أن أعيبها ﴾[3] ثم قال بعد ذلك ﴿وما فعلته عن أمرى﴾وتأمل قوله تعالى :﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ﴾[4] وقوله : ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير﴾[5] وقوله: ﴿حرمت عليكم أمهاتكم﴾[6] ثم قال : ﴿وأحل لكم ما وراء ذلكم﴾[7].

وفى تخصيصه لأهل الصراط المستقيم بالنعمة ما دل على أن النعمة المطلقة هى الموجبة للفلاح الدائم. وأما مطلق النعمة : فعلى المؤمن والكافر. فكل الخلق فى نعمة. وهذا فصل النزاع فى مسألة : هل لله على الكافر من نعمة أم لا ؟.

فالنعمة المطلقة لأهل الإيمان. ومطلق النعمة تكون للمؤمن والكافر، كما قال تعالى:﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار﴾[8].

والنعمة من جنس الإحسان، بل هى الإحسان. والرب تعالى إحسانه على البر والفاجر. والمؤمن والكافر.

وأما الإحسان المطلق : فللذين اتقوا والذين هم محسنون.

الوجه الثانى: أن الله سبحانه هو المنفرد بالنعم ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾[9] فأضيف إليه ما هو منفرد به. وإن أُضيفَ إلى غيره فلكونه طريقاً ومجرى للنعمة. وأما الغضب على أعدائه : فلا يختص به تعالى، بل ملائكته وأنبياؤه ورسله وأولياؤه يغضبون لغضبه. فكان فى لفظة ﴿المغضوب عليهم﴾ بموافقة أوليائه له: من الدلالة على تفرده بالإنعام، وأن النعمة المطلقة منه وحده، هو المنفرد بها ـ ما ليس فى لفظة «المنعم عليهم».

الوجه الثالث: أن فى حذف فاعل الغضب من الإشعار بإهانة المغضوب عليه، وتحقيره وتصغير شأنه ما ليس فى ذكر فاعل النعمة، من إكرام المُنعمَ عليه والإشادة بذكره، ورفع قدره، ما ليس فى حذفه. فإذا رأيت من قد أكرمه ملك وشرَّفه، ورفع قدره فقلت: هذا الذى أكرمه السلطان، وخلع عليه وأعطاه ما تمناه. كان أبلغ فى الثناء والتعظيم من قولك :

---

(١) سورة الجن الآية ١٠ (٢) سورة الكهف الآية ٨٢ (٣) سورة الكهف الآية ٧٩
(٤) سورة البقرة الآية ١٨٧ (٥) سورة المائدة الآية ٣ (٦) سورة النساء الآية ٢٣.
(٧) سورة النساء الآية ٢٤ (٨) سورة إبراهيم الآية ٣٤ (٩) سورة النحل الآية ٥٣.

هذا الذى أكرم وخُلع عليه وشُرف وأُعطى.

وتأمل سراً بديعاً فى ذكر السبب والجزاء للطوائف الثلاثة بأوجز لفظ وأخصره. فإن الإنعام عليهم يتضمن إنعامه بالهداية، التى هى العلم النافع والعمل الصالح. وهى الهدى ودين الحق. ويتضمن كمال الإنعام بحسن الثواب والجزاء. فهذا تمام النعمة. ولفظ «أنعمت عليهم» يتضمن الأمرين. وذكر غضبه على المغضوب عليهم يتضمن أيضاً أمرين: الجزاء بالغضب الذى موجبه غاية العذاب والهوان، والسبب الذى استحقوا به غضبه سبحانه، فإنه أرحم وأرأف من أن يغضب بلا جناية منهم ولا ضلال. فكأن الغضب عليهم مستلزم لضلالهم. وذكر الضالين مستلزم لغضبه عليهم وعقابه لهم. فإن من ضل استحق العقوبة التى هى موجب ضلاله، وغضب الله عليه.

فاستلزم وصف كل واحد من الطوائف الثلاث للسبب والجزاء أبين استلزام، واقتضاه أكمل اقتضاء، فى غاية الإيجاز والبيان والفصاحة مع ذكر الفاعل فى أهل السعادة، وحذفه فى أهل الغضب. وإسناد الفعل إلى السبب فى أهل الضلال.

وتأمل المقابلة بين الهداية والنعمة. والغضب والضلال. فذكر «المغضوب عليهم» و«الضالين» فى مقابلة المهتدين المنعم عليهم. وهذا كثير فى القرآن، يقرن بين الضلال والشقاء، وبين الهدى والفلاح. فالثانى كقوله: ﴿أولئك على هدى من ربهم، وأولئك هم المفلحون﴾[1] وقوله: ﴿أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾[2] والاول كقوله تعالى ﴿إن المجرمين فى ضلال وسعر﴾[3]

وقوله ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، وعلى أبصارهم غشاوة. ولهم عذاب عظيم﴾[4] وقد جمع سبحانه بين الأمور الأربعة فى قوله: ﴿فإما يأتينكم منى هدى، فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى﴾[5] فهذا الهدى والسعادة. ثم قال: ﴿ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً. ونحشره يوم القيامة أعمى. قال: رب، لم حشرتنى أعمى، وقد كنت بصيراً؟ قال. كذلك أتتك آياتنا فنسيتها، وكذلك اليوم تنسى﴾[6] فذكر الضلال والشقاء.

فالهدى والسعادة متلازمان. والضلال والشقاء متلازمان.

فصل

وذُكر «الصراط المستقيم» مفرداً معرفاً تعريفين: تعريفاً باللام، وتعريفاً بالإضافة

---

(١) سورة البقرة الآية ٤.
(٢) سورة الانعام الآية ٨٢.
(٣) سورة القمر الآية ٤٧.
(٤) سورة البقرة الآية ٧.
(٥) سورة طه الآية ١٢٣.
(٦) سورة طه الآية ١٢٤

وذلك يفيد تعينه واختصاصه، وأنه صراط واحد. وأما طرق أهل الغضب والضلال فإنه سبحانه يجمعها ويفردها، كقوله: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾[1] فوحّد لفظ «الصراط» و«سبيله». وجمع «السبل» المخالفة له. وقال ابن مسعود «خطّ لنا رسول الله ﷺ خطاً، وقال: هذا سبيل الله، ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن يساره، وقال: هذه سبل، على كل سبيل شيطان يدعو إليه ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾[2]»[3] وهذا لأن الطريق الموصل إلى الله واحد. وهو ما بعث به رسله وأنزل به كتبه. لا يصل إليه أحد إلا من هذه الطريق. ولو أتى الناس من كل طريق. واستفتحوا من كل باب، فالطرق عليهم مسدودة، والأبواب عليهم مغلقة، إلا من هذا الطريق الواحد. فإنه متصل بالله، موصل إلى الله. قال الله تعالى: ﴿هذا صراط عليّ مستقيم﴾[4] قال الحسن: معناه صراط إليّ مستقيم. وهذا يحتمل أمرين: أن يكون أراد به أنه من باب إقامة الادوات بعضها مقام بعض، فقامت أداة «على» مقام «إلى» والثاني: أنه أراد التفسير على المعنى. وهو الأشبه بطريق السلف. أى صراط موصل إليّ. وقال مجاهد: الحق يرجع إلى الله، وعليه طريقه، لا يعرج على شيء.. وهذا مثل قول الحسن وأبين منه. وهو من أصح ما قيل فى الآية. وقيل: «على» فيه للوجوب. أى على بيانه وتعريفه والدلالة عليه. والقولان نظير القولين فى آية النحل. وهى ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾[5] والصحيح فيها كالصحيح فى آية الحجر: أن السبيل القاصد - وهو المستقيم المعتدل - يرجع إلى الله، ويوصل إليه، قال طفيل الغنوى:

مضوا سلفاً، قصد السبيل عليهم وصرف المنايا بالرجال تَقَلَّبُ

أى ممرنا عليهم، وإليهم وصولنا. وقال الآخر:

فهن المنـايـا: أى واد سلكتـه عليها طريقي، أو عليّ طريقها

فإن قيل: لو أريد هذا المعنى لكان الأليق به أداة «إلى» التى هى للانتهاء، لا أداة «على» التى هو للوجوب. ألا ترى أنه لما أراد الوصول قال: ﴿إن إلينا إيابهم، ثم إن علينا حسابهم﴾[6] وقال: ﴿إلينا مرجعهم﴾[7] وقال: ﴿ثم إلى ربهم مرجعهم﴾[8] وقال. لما أراد الوجوب

---

(1) سورة الأنعام الآية ١٥٣

(2) سورة الأنعام الآية ١٥٣

(3) صحيح ،رواه أحمد ١ /٤٣٥، ٤٦٥

(4) سورة الحجر الآية ٤١

(5) سورة النحل الآية ٩

(6) سورة الغاشية الآية ٢٢ - ٢٣

(7) سورة لقمان الآية : ٢٣

(8) سورة الأنعام الآية ١ ٨

﴿ثم إن علينا حسابهم﴾[1] وقال: ﴿إن علينا جمعه وقرآنه﴾[2] وقال ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾[3] ونظائر ذلك؟.

قيل: فى أداة «على» سر لطيف. وهو الإشعار بكون السالك على هذا الصراط على هدى.. وهو حق. كما قال فى حق المؤمنين ﴿أولئك على هدى من ربهم﴾[4] وقال لرسوله ﷺ: ﴿فتوكل على الله إنك على الحق المبين﴾[5] والله عز وجل هو الحق، وصراطه حق، ودينه حق فمن استقام على صراطه فهو على الحق والهدى. فكان فى أداة «على» على هذا المعنى ما ليس فى أداة «إلى» فتأمله، فإنه سر بديع.

فإن قلت: فما الفائدة فى ذكر «على» فى ذلك أيضاً. وكيف يكون المؤمن مستعلياً على الحق، وعلى الهدى؟

قلت: لما فيه من استعلائه وعلوه بالحق والهدى[6]، مع ثباته عليه واستقامته إليه. فكان فى الإتيان بأداة «على» ما يدل على علوه وثبوته واستقامته. وهذا بخلاف الضلال والريب. فإنه يؤتى فيه بأداة «فى» الدالة على انغماس صاحبه، وانقماعه وتدسسه فيه، كقوله تعالى: ﴿فهم فى ريبهم يترددون﴾[7] وقوله: ﴿والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم فى الظلمات﴾[8] وقوله: ﴿فذرهم فى غمرتهم حتى حين﴾[9] وقوله: ﴿وإنهم لفى شك منه مريب﴾[10].

وتأمل قوله تعالى: ﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين﴾[11] فإن طريق الحق تأخذ علواً صاعدة بصاحبها إلى العلى الكبير، وطريق الضلال تأخذ سفلاً، هاوية بسالكها فى أسفل سافلين.

والصراط المستقيم: هو صراط الله. وهو يخبر أن الصراط عليه سبحانه، كما ذكرنا، ويخبر أنه سبحانه على الصراط المستقيم. وهذا فى موضوعين من القرآن: فى هود، والنحل. قال فى هود: ﴿ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها، إن ربى على صراط مستقيم﴾[12] وقال فى النحل: ﴿وضرب الله مثلا: رجلين، أحدهما أبكم لا يقدر على شىء، وهو كَلّ على مولاه، أينما يوجّهه لا يأت بخير، هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم؟﴾[13] فهذا مثل ضربه الله للأصنام التى لا تسمع، ولا تنطق ولا تعقل، وهى

---

(1) سورة الغاشية الآية :٢٦.
(2) سورة القيامة الآية : ١٧.
(3) سورة هود الآية ٦.
(4) سورة البقرة الآية ٤.
(5) سورة النمل الآية :٧٩.
(6) فالهداية تورث الاستعلاء بالحق.
(7) سورة التوبة الآية ٤٥.
(8) سورة الأنعام الآية ٣٩.
(9) سورة المؤمنون الآية ٥٤
(10) سورة فصلت الآية ٤٥
(11) سورة سبأ الآية ٢٤
(12) سورة هود الآية ٥٦
(13) سورة النحل الآية ٧٦.

كَلّ على عابدها، يحتاج الصنم إلى أن يحمله عابده، ويضعه ويقيمه ويخدمه. فكيف يسوونه فى العبادة بالله الذى يأمر بالعدل والتوحيد ؟ وهو قادر متكلم، غنى. وهو على صراط مستقيم فى قوله وفعله. فقوله صدق ورشد ونصح وهدى. وفعله حكمة وعدل ورحمة ومصلحة. هذا أصح الأقوال فى الآية. وهو الذى لم يذكر كثير من المفسرين غيره. ومن ذكر غيره قدمه على الأقوال، ثم حكاها بعده، كما فعل البغوى. فإنه جزم به، وجعله تفسير الآية. ثم قال: وقال الكلبى: يدلكم على صراط مستقيم.

قلت: ودلالته لنا على الصراط هى من موجب كونه سبحانه على الصراط المستقيم. فإن دلالته بفعله وقوله، وهو على الصراط المستقيم فى أفعاله وأقواله. فلا يناقض قول من قال: إنه سبحانه على الصراط المستقيم.

قال: وقيل: هو رسول الله ﷺ يأمر بالعدل. وهو على صراط مستقيم

قلت: وهذا حق لا يناقض القول الأول. فالله على الصراط المستقيم، ورسوله عليه فإنه لا يأمر ولا يفعل إلا مقتضاه وموجبه. وعلى هذا يكون المثل مضروباً لإمام الكفار وهاديهم، وهو الصنم الذى هو أبكم، لايقدر على هدى ولا خير. ولإمام الأبرار، وهو رسول الله ﷺ الذى يأمر بالعدل. وهو على صراط مستقيم.

وعلى القول الأول: يكون مضروباً لمعبود الكفار ومعبود الأبرار. والقولان متلازمان فبعضهم ذكر هذا. وبعضهم ذكر هذا. وكلاهما مراد فى الآية. قال، وقيل: كلاهما للمؤمن والكافر. يرويه عطية عن ابن عباس. وقال عطاء: الأبكم أبى بن خلف، ومن يأمر بالعدل: حمزة وعثمان بن عفان، وعثمان بن مظعون

قلت: والآية تحتمله. ولا يناقض القولين قبله، فإن الله على صراط مستقيم، ورسوله وأتباع رسوله. وضد ذلك: معبود الكفار وهاديهم، والكافر التابع والمتبوع والمعبود. فيكون بعض السلف ذكر أعلى الأنواع. وبعضهم ذكر الهادى. وبعضهم ذكر المستجيب القابل. وتكون الآية متناولة لذلك كله. ولذلك نظائر كثيرة فى القرآن.

وأما آية هود. فصريحة لاتحتمل إلا معنى واحداً. وهو أن الله سبحانه على صراط مستقيم. وهو سبحانه أحق من كان على صراط مستقيم. فإن أقواله كلها صدق ورشد وهدى وعدل وحكمة ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا ﴾[1] وأفعاله كلها مصالح وحكم، ورحمة وعدل وخير. فالشر لا يدخل فى أفعاله ولا أقواله ألبتة، لخروج الشر عن الصراط

---

(١) سورة الأنعام الآية ١١٥.

المستقيم. فكيف يدخل فى أفعال من هو على الصراط المستقيم، أو أقواله؟ وإنما يدخل فى أفعال من خرج عنه وفى أقواله.

وفى دعائه عليه الصلاة والسلام: «لبيك وسعديك، والخير كله بيديك، والشر ليس إليك»[1] ولا يلتفت إلى تفسير من فسره بقوله: والشر لا يتقرب به إليك، أو لا يصعد إليك. فإن المعنى أجل من ذلك، وأكبر وأعظم قدراً. فإن مَنْ أسماؤه كلها حسنى، وأوصافه كلها كمال، وأفعاله كلها حكم، وأقواله كلها صدق وعدل: يستحيل دخول الشر فى أسمائه أو أوصافه، أو أفعاله أو أقواله. فطابق بين هذا المعنى وبين قوله: ﴿إن ربى على صراط مستقيم﴾ وتأمل كيف ذكر هذا عقيب قوله ﴿إنى توكلت على الله ربى وربكم﴾[2] أى هو ربى، فلا يسلمنى ولا يضيعنى. وهو ربكم فلا يسلطكم على ولا يمكنكم منى. فإن نواصيكم بيده، لا تفعلون شيئاً بدون مشيئته. فإن ناصية كل دابة بيده، لا يمكنها أن تتحرك إلا بإذنه. فهو المتصرف فيها. ومع هذا، فهو فى تصرفه فيها وتحريكه لها، ونفوذ قضائه وقدره فيها: على صراط مستقيم. لا يفعل ما يفعل من ذلك إلا بحكمة وعدل ومصلحة ولوسلَّطكم علىَّ فله من الحكمة فى ذلك ما له الحمد عليه، لأنه تسليط من هو على صراط مستقيم. لا يظلم ولا يفعل شيئاً عبثاً بغير حكمة.

(هداية المؤمنين وضلال المعرضين)

ولما كان طالب الصراط المستقيم طالب أمر أكثر الناس ناكبون عنه مريداً لسلوك طريق مرافقه فيها فى غاية القلة والعزة. والنفوس مجبولة على وحشة التفرد، وعلى الأنس بالرفيق، نبه الله سبحانه على الرفيق فى هذه الطريق، وأنهم هم الذين ﴿أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. وحسن أولئك رفيقاً﴾[3] فأضاف الصراط إلى الرفيق السالكين له. وهم الذين أنعم اللهُ عليهم، ليزول عن الطالب للهداية وسلوك الصراط وحشة تفرده عن أهل زمانه وبنى جنسه. وليعلم أن رفيقه فى هذا الصراط: هم الذين أنعم الله عليهم. . فلا يكترث بمخالفة الناكبين عنه له. فإنهم هم الأقلون قدراً، وإن كانوا الأكثرين عدداً، كما قال بعض السلف «عليك بطريق الحق، ولاتستوحش لقلة السالكين. وإياك وطريق الباطل، ولا تغتر بكثرة الهالكين» وكلما استوحشت فى تفردك فانظر إلى الرفيق السابق، واحرص على اللحاق بهم. وغض الطرف عمن سواهم. فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً. وإذا صاحوا بك فى طريق سيرك، فلا تلتفت إليهم. فإنك متى التفت إليهم أخذوك وعاقوك.

---

(1) رواه مسلم . (٧٧١)، والنسائى(٢/ ١٣٠) من حديث على بن أبى طالب رضى الله عنه.

(2) سور هود الآية ٥٦ . (3) سورة النساء الآية ٦٩ .

وقد ضربت لذلك مثلين. فليكونا منك على بال:

المثل الأول: رجل خرج من بيته إلى الصلاة، لا يريد غيرها. فعرض له فى طريقه شيطان من شياطين الإنس فألقى عليه كلاماً يؤذيه. فوقف ورد عليه، وتماسكا. فربما كان شيطان الإنس أقوى منه، فقهره، ومنعه عن الوصول إلى المسجد، حتى فاتته الصلاة وربما كان الرجل أقوى من شيطان الإنس، ولكن اشتغل بمهاوشته عن الصف الأول، وكمال إدراك الجماعة. فإن التفت إليه أطمعه فى نفسه. وربما فترت عزيمته. فإن كان له معرفة وعلم زاد فى السعى والجمز[1] بقدر التفاته أو أكثر. فإن أعرض عنه واشتغل بما هو بصدده، وخاف فوت الصلاة أو الوقت: لم يبلغ عدوه منه ما شاء.

المثل الثانى: الظبى أشد سعياً من الكلب، ولكنه إذا أحس به التفت إليه فيضعف سعيه. فيدركه الكلب فيأخذه.

والقصد: أن فى ذكر هذا الرفيق: ما يزيل وحشة التفرد، ويحث على السير والتشمير للحاق بهم.

وهذه إحدى الفوائد فى دعاء القنوت: «اللهم اهدنى فيمن هديت»[2] أى أدخلنى فى هذه الزمرة، واجعلنى رفيقاً لهم ومعهم.

والفائدة الثانية: أنه توسل إلى الله بنعمه، وإحسانه إلى من أنعم عليه بالهداية أى قد أنعمت بالهداية على من هديت، وكان ذلك نعمة منك. فاجعل لى نصيباً من هذه النعمة، واجعلنى واحداً من هؤلاء المنعم عليهم. فهو توسل إلى الله بإحسانه.

والفائدة الثالثة: كما يقول السائل للكريم: تصدق عليَّ فى جملة من تصدقت عليهم، وعلمنى فى جملة من علمته. وأحسن إلى فى جملة من شملته بإحسانك.

(الصراط المستقيم أجل المطالب):

ولما كان سؤال الله الهداية إلى الصراط المستقيم أجل المطالب، ونيله أشرف المواهب: علَّم الله عباده كيفية سؤاله، وأمرهم أن يقدموا بين يديه حمده والثناء عليه، وتمجيده، ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم. فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم: توسل إليه بأسمائه وصفاته، وتوسل إليه بعبوديته. وهاتان الوسيلتان لا يكاد يُرَد معهما الدعاء. ويؤيدهما الوسيلتان المذكورتان فى حديثى الاسم الأعظم اللذين رواهما ابن حبان فى صحيحه. والإمام أحمد

---

(١) الجمز: سرعة السير والعدو.

(٢) صحيح، رواه أحمد(١/١٩٩)، ومصنف بن أبى شيبة(٢/ ٣٠٠) وأبو داود (١٤٢٥) والترمذي (٤٦٤) والنسائى (٣/٢٤٨) من حديث الحسن بن على رضى الله عنهما.

والترمذى.

أحدهما: حديث عبد الله بن بُريدة عن أبيه قال: «سمع النبى ﷺ رجلاً يدعو، ويقول: اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك الله الذى لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذى لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد. فقال: والذى نفسى بيده، لقد سأل الله باسمه الأعظم، الذى إذا دُعى به أجاب، وإذا سئل به أعطى»[1] قال الترمذى: حديث صحيح. فهذا توسل إلى الله بتوحيده، وشهادة الداعى له بالوحدانية. وثبوت صفاته المدلول عليها باسم «الصمد» وهو كما قال ابن عباس: «العالم الذى كَمُلَ علمه، القادر الذى كَمُلَت قدرته» وفى رواية عنه: «هو السيد الذى قد كَمُل فيه جميع أنواع السؤدد» وقال أبو وائل «هو السيد الذى انتهى سؤدده» وقال سعيد بن جبير: «هو الكامل فى جميع صفاته وأفعاله وأقواله» وبنفى التشبيه والتمثيل عنه بقوله «ولم يكن له كفواً أحد» وهذه ترجمة عقيدة أهل السنة والتوسل بالإيمان بذلك، والشهادة به هو الاسم الأعظم.

والثانى: حديث أنس «أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يدعو: «اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت، المنان، بديع السموات والأرض. ذا الجلال والإكرام، يا حى يا قيوم. فقال: لقد سأل الله باسمه الأعظم»[2] فهذا توسل إليه بأسمائه وصفاته.

وقد جمعت الفاتحة الوسيلتين، وهما التوسل بالحمد، والثناء عليه وتمجيده، والتوسل إليه بعبوديته وتوحيده. ثم جاء سؤال أهم المطالب، وأنجح الرغائب - وهو الهداية - بعد الوسيلتين. فالداعى به حقيق بالإجابة.

ونظير هذا: دعاء النبى ﷺ، الذى كان يدعو به إذا قام يصلى من الليل. رواه البخارى فى صحيحه من حديث ابن عباس «اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن. ولك الحمد، أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن. ولك الحمد، أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، والساعة حق، ومحمد حق. اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت. وبك خاصمت، وإليك حاكمت. فاغفر لى ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت إلهى لا إله إلا أنت»[3] فذكر التوسل إليه بحمده والثناء عليه وبعبوديته له. ثم سأله المغفرة.

---

(1) صحيح رواه الترمذي ٣٤٧٥ وأحمد ٥/٣٤٩ وابو داود (١٤٩٣) وابن ماجه (٣٨٥٧).

(2) صحيح رواه الحاكم (١/٥٠٤) عن أنس رضى الله عنه. ورواه الطبراني في الكبير (٥/١٠١) برقم (٤٧٢٢) وفي الدعاء (١١٧) عن أبي طلحة وإسناده ضعيف، فيه أبان بن أبي عياش وهو متروك.

(3) رواه البخارى ٨/٨٦ـ ومسلم كتاب صلاة المسافرين ١٩٩.

اشتمال الفاتحة على أنواع التوحيد الثلاثة

فى اشتمال هذه السورة على أنواع التوحيد الثلاثة التى اتفقت عليها الرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

التوحيد نوعان: نوع فى العلم والاعتقاد. ونوع فى الإرادة والقصد. ويسمى **الأول:** التوحيد العلمى. **والثانى:** التوحيد القصدى الإرادى. لتعلق الأول بالأخبار والمعرفة. والثانى بالقصد والإرادة. وهذا الثانى أيضاً نوعان: توحيد فى الربوبية، وتوحيد فى الإلهية. فهذه ثلاثة أنواع.

فأما توحيد العلم: فمداره على إثبات صفات الكمال، وعلى نفى التشبيه والمثال. والتنزيه عن العيوب والنقائص. وقد دل على هذا شيئان: مجمل، ومفصَّل.

أما المجمل: فإثبات الحمد له سبحانه. **وأما المفصل:** فذكر صفة الإلهية والربوبية، والرحمة والملك. وعلى هذه الأربع مدار الاسماء والصفات.

فأما تَضمنُ الحمد لذلك: فإن الحمد يتضمَن مدح المحمود بصفات كماله، ونعوت جلاله، مع محبته والرضا عنه، والخضوع له. فلا يكون حامداً من جحد صفات المحمود، ولامن أعرض عن محبته والخضوع له. وكلما كانت صفات كمال المحمود أكثر كانَ حمده أكمل، وكلما نقص من صفات كماله نقصٍ من حمده بحسبها. ولهذا كان الحمد كله لله حمداً لا يحصيه سواه، لكمال صفاته وكثرتها. ولأجل هذا لا يحصى أحد من خلقه ثناء عليه، لما له من صفات الكمال، ونعوت الجلال التى لا يحصيها سواه.

ولهذا ذم الله تعالى آلهة الكفار، وعابها بسلب أوصاف الكمال عنها. فعابها بأنها لا تسمع ولا تُبصر، ولا تتكلم ولا تهدى، ولا تنفع ولا تضر. وهذه صفة إله الجهمية[1]، التى عاب بها الأصنام، نسبوها إليه، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً. فقال تعالى حكاية عن خليله إبراهيم عليه السلام فى محاجته لأبيه ﴿يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً ؟﴾[2] فلو كان إله إبراهيم بهذه الصفة والمثابة لقال له آزر: وأنت إلهك بهذه المثابة، فكيف تنكر علىَّ؟ لكنَ كان - مع شركه - أعرف بالله من الجهمية. وكذلك كفار قريش كانوا - مع شركهم - مقرين بصفات الصانع سبحانه وعلوه على خلقه. وقال تعالى: ﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حُلِّيهم عجلاً جسداً له خوار. ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً ؟ اتخذوه وكانوا ظالمين ﴾[3] فلو كان إله

(١) الجهمية: هم فرقة ضالة تنتسب إلى جهم بن صفوان السمرقندى، وهو الذى أظهر نفى صفات الله وتعطيلها. انظر: «العقيدة الطحاوية»(ص٥٢٢)، «الفرق بين الفرق»(ص٢١١).

(٢) سورة مريم الآية ٤٢

(٣) سورة الأعراف الآية ١٤٨

الخلق سبحانه كذلك لم يكن فى هذا إنكارعليهم واستدلال على بطلان الإلهية بذلك.

فإن قيل: فالله تعالى لا يكلم عباده.

قيل: بلى قد كلمهم. فمنهم من كلمه الله من وراء حجاب، منه إليه بلا واسطة، كموسى. ومنهم من كلمه الله على لسان رسوله الملكى. وهم الأنبياء. وكلم الله سائر الناس على ألسنة رسله. فأنزل عليهم كلامه الذى بلَّغته رسله عنه. وقالوا لهم: هذا كلام الله الذى تكلم به، وأمرنا بتبليغه إليكم. ومن ههنا قال السلف: من أنكر كون الله متكلما فقد أنكر رسالة الرسل كلهم. لأن حقيقتها تبليغ كلامه الذى تكلم به إلى عباده. فإذا انتفى كلامه انتفت الرسالة. وقال تعالى فى سورة طه عن السامرى ﴿فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار، فقالوا: هذا إلهكم وإله موسى، فنسى. أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ﴾(1) ورَجْعُ القول: هو التكلم والتكليم. وقال تعالى: ﴿وضرب الله مثلاً: رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شىء، وهو كلٌ على مولاه، أينما يوجه لا يأت بخير، هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل، وهو على صراط مستقيم ؟﴾(2) فجعل نفى صفة الكلام موجباً لبطلان الإلهية. وهذا أمر معلوم بالفطر والعقول السليمة والكتب السماوية: أن فاقد صفات الكمال لا يكون إلهاً، ولا مدبراً، ولا رباً، بل هو مذموم، معيب ناقص، ليس له الحمد، لا فى الأولى، ولا فى الآخرة وإنما الحمد فى الأولى والآخرة لمن له صفات الكمال، ونعوت الجلال، التى لأجلها استحق الحمد. ولهذا سمى السلف كتبهم التى صنفوها فى السنة، وإثبات صفات الرب وعلوه على خلقه، وكلامه وتكليمه: توحيداً. لأن نفى ذلك وإنكاره والكفر به إنكار للصانع، وجحد له. وإنما توحيده: إثبات صفات كماله، وتنزيهه عن التشبيه والنقائص. فجعل المعطلة جحد الصفات وتعطيل الصانع عنها توحيداً. وجعلوا إثباتها لله تشبيهاً وتجسيماً وتركيباً. فسموا الباطل باسم الحق، ترغيباً فيه، وزخرفاً ينفقونه به. وسموا الحق باسم الباطل تنفيراً عنه. والناس أكثرهم مع ظاهر السكة ليس لهم نقد النقاد ﴿من يهد الله فهو المهتد. ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشداً﴾(3) والمحمود لا يحمد على العدم والسكوت ألبتة، إلا إذا كانت سلب عيوب ونقائص، تتضمن إثبات أضدادها من الكمالات الثبوتية، وإلا فالسلب المحض لا حمد فيه، ولا مدح ولا كمال.

وكذلك حمده لنفسه على عدم اتخاذ الولد المتضمن لكمال صمديته وغناه وملكه، وتعبيد كل شىء له. فاتخاذ الولد ينافى ذلك، كما قال تعالى ﴿قالوا اتخذ الله ولداً، سبحانه، هو الغنى له ما فى السموات وما فى الأرض﴾ (4).

---

(1) سورة طه الآية ٨٨ (2) سورة النحل الآية ٧٦ (3) سورة الكهف الآية ١٧.
(4) سورة يونس اليه ٦٨

وحمد نفسه على عدم الشريك، المتضمن تفرده بالربوبية والإلهية، وتوحده بصفات الكمال التي لا يوصف بها غيره، فيكون شريكاً له فلو عدمها لكان كل موجود أكمل منه لأن الموجود أكمل من المعدوم ولهذا لا يحمد نفسه سبحانه بعدم إلا إذا كان متضمناً لثبوت كمال. كما حمد نفسه بكونه لا يموت لتضمنه كمال حياته وحمد نفسه بكونه لا تأخذه سنة ولا نوم، لتضمن ذلك كمال قيوميته وحمد نفسه بأنه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، لكمال علمه وإحاطته. وحمد نفسه بأنه لايظلم أحداً، لكمال عدله وإحسانه. وحمد نفسه بأنه لا تدركه الأبصار، لكمال عظمته، يرى ولا يدرك، كما أنه يعلم ولا يحاط به علماً. فمجرد نفي الرؤية ليس بكمال. لأن العدم لا يرى. فليس في كون الشيء لا يرى كمال ألبته. وإنما الكمال في كونه لا يحاط به رؤية ولا إدراكاً، لعظمته في نفسه، وتعاليه عن إدراك المخلوق له. وكذلك حمد نفسه بعدم الغفلة والنسيان، لكمال علمه

فكل سلب في القرآن حمد الله به نفسه فلمضادته لثبوت ضده،ولتضمنه كمال ثبوت ضده

فعلمت أن حقيقة الحمد تابعة لثبوت أوصاف الكمال، وأن نفيها نفي لحمده، ونفي الحمد مستلزم لثبوت ضده.

(دلالة الحمد على توحيد الأسماء والصفات)

فهذه دلالة على توحيد الأسماء والصفات.

وأما دلالة الأسماء الخمسة عليها، وهي (الله، والرب، والرحمن، والرحيم، والملك) فمبني على أصلين.

أحدهما: أن أسماء الرب تبارك وتعالى دالة على صفات كماله. فهي مشتقة من الصفات. فهي أسماء، وهي أوصاف. وبذلك كانت حسنى، إذ لو كانت ألفاظاً لا معاني فيها لم تكن حسنى، ولا كانت دالة على مدح ولا كمال. ولساغ وقوع أسماء الإنتقام والغضب في مقام الرحمة والإحسان، وبالعكس فيقال اللهم إني ظلمت نفسي،فاغفر لي إنك أنت المنتقم واللهم أعطني،فإنك أنت الضار المانع،ونحو ذلك

ونفي معاني أسمائه الحسنى من أعظم الإلحاد فيها قال تعالى: ﴿وذروا الذين يلحدون في أسمائه، سيجزون ما كانوا يعملون﴾[1] ولأنها لو لم تدل على معان وأوصاف لم يجُز أن يخبر عنها بمصادرها ويوصف بها. لكنّ الله أخبر عن نفسه بمصادرها، وأثبتها لنفسه،

(١) سورة الأعراف الآية ١٧.

وأثبتها له رسوله، كقوله تعالى: ﴿إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾[1] فعلم أن «القوى» من أسمائه، ومعناه الموصوف بالقوة. وكذلك قوله: ﴿فلله العزة جميعاً﴾[2] فالعزيز من له العزة، فلولا ثبوت القوة والعزة له لم يُسَمَّ قوياً ولا عزيزاً.

وكذلك قوله: ﴿أنزله بعلمه﴾[3] ﴿فاعلموا أنما أنزل بعلم الله﴾[4] ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه﴾[5]

وفى الصحيح عن النبى ﷺ «إن الله لاينام، ولا ينبغى له أن ينام، يخفض الميزان القسط ويرفعه يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[6] فأثبت المصدر الذى اشتُق منه اسمه «البصير».

وفى صحيح البخارى عن عائشة رضى الله عنها «الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات»

وفى الصحيح حديث الاستخارة «اللهم إنى أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك»[7] فهو قادر بقدرة.

وقال تعالى لموسى: ﴿إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى﴾[8] فهو متكلم بكلام.

وهو العظيم الذى له العظمة، كما فى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم «يقول الله تعالى: العظمة إزارى، والكبرياء ردائى»[9] وهو الحكيم الذى له الحكم ﴿فالحكم لله العلى الكبير﴾[10] وأجمع المسلمون أنه لو حلف بحياة الله، أو سمعه، أو بصره، أو قوته، أو عزته أو عظمته: انعقدت يمينه، وكانت مكفرة. لأن هذه صفات كماله التى اشتُقت منها أسماؤه

وأيضاً: لو لم تكن أسماؤه مشتملة على معان وصفات لم يسغ أن يُخبَرَ عنه بأفعالها. فلا يقال يسمع ويرى، ويعلم ويقدر ويريد فإن ثبوت أحكام الصفات فرع ثبوتها. فإذا انتفى أصل الصفة استحال ثبوت حكمها

---

(1) سورة الذاريات الآية ٥٨ (2) سورة فاطر الآية ١

(3) سورة النساء الآية ١٦٦ (4) سورة هود الآية ١٤ (5) سورة البقرة الآية ٢٥٥

(6) رواه مسلم كتاب الإيمان (٢٢٩٤) و (٢٢٩٥) وابن ماجه (١٩٥، ١٩٦) وأحمد (٤ : ٣٩٥).

(7) رواه البخارى (١١٦٦) وأحمد (٣ : ٣٤٤) وأبو داود (١٥٣٨) والترمذى (٤٨٠) والنسائى (٦/ ٨٠) وابن ماجه (١٣٨٣) عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه.

(8) سورة الأعراف الآية ١٤٤ (9) رواه مسلم (٢٦٢) كتاب البر والصلة باب: تحريم الكبر

(10) سورة المؤمن الآية ١٢

وأيضاً فلو لم تكن أسماؤه ذوات معان وأوصاف لكانت جامدة كالأعلام المحضة، التى لم توضع لمسماها باعتبار معنى قام به. فكانت كلها سواء، ولم يكن فرق بين مدلولاتها وهذا مكابرة صريحة، وبُهت بيِّن. فإن من جعل معنى اسم «القدير» هو معنى اسم «السميع، البصير» ومعنى اسم «التواب» هو معنى اسم «المنتقم» ومعنى اسم «المعطى» هو معنى اسم «المانع» فقد كابر العقل واللغة والفطرة

فنفى معانى أسمائه من أعظم الإلحاد فيها: والإلحاد فيها أنواع، هذا أحدها.

الثانى: تسمية الأوثان بها، كما يسمونها آلهة. وقال ابن عباس ومجاهد «عدلوا بأسماء الله تعالى عما هى عليه، فسموا بها أوثانهم، فزادوا ونقصوا. فاشتقوا اللات من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان» وروى عن ابن عباس (يلحدون فى أسمائه) «يكذبون عليه» وهذا تفسير بالمعنى.

وحقيقة الإلحاد فيها: العدول بها عن الصواب فيها، وإدخال ما ليس من معانيها فيها، وإخراج معانيها عنها. هذا حقيقة الإلحاد. ومن فعل ذلك فقط كذب على الله. ففسر ابن عباس الإلحاد بالكذب، أو هو غاية الملحد فى أسمائه تعالى، فإنه إذا أدخل فى معانيها ماليس منها، وخرج بها عن حقائقها، أو بعضها، فقد عدل بها عن الصواب والحق، وهو حقيقة الإلحاد.

فالإلحاد: إما بجحدها وإنكارها، وإما بجحد معانيها وتعطيلها، وإما بتحريفها عن الصواب، وإخراجها عن الحق بالتأويلات الباطلة، وإما بجعلها أسماء لهذه المخلوقات المصنوعات.

(دلالة الأسماء الخمسة على الذات والصفات)

الأصل الثانى. أن الإسم من أسمائه تبارك وتعالى كما يدل على الذات والصفة التى اشتق منها بالمطابقة. فإنه يدل على دلالتين أخريين بالتضمن[1] واللزوم. فيدل على الصفة بمفردها بالتضمن، وكذلك على الذات المجردة عن الصفة. ويدل على الصفة الأخرى باللزوم. فإن اسم «السميع» يدل على ذات الرب وسمعه بالمطابقة. وعلى الذات وحدها. وعلى السمع وحده بالتضمن. ويدل على اسم «الحى» وصفة الحياة بالالتزام. وكذلك سائر أسمائه وصفاته. ولكن يتفاوت الناس فى معرفة اللزوم وعدمه. ومن ههنا يقع اختلافهم فى كثير من الأسماء والصفات والأحكام. فإن من علم أن الفعل الاختيارى لازم للحياة، وأن السمع والبصر لازم للحياة الكاملة، وأن سائر الكمال من لوازم الحياة الكاملة - أثبت من أسماء الرب وصفاته وأفعاله ما ينكره من لم يعرف لزوم ذلك، ولا عرف

(١) يقصد الشيخ ضرورة فهم لوازم صفات الله تعالى لما لها من أكبر الأثر فى مراقبة الله تعالى

حقيقة الحياة ولوازمها، وكذلك سائر صفاته.

فإن إسم «العظيم» له لوازم ينكرها من لم يعرف عظمة الله ولوازمها.

وكذلك اسم «العلى» واسم «الحكيم» وسائر أسمائه، فإن من لوازم اسم «العلى» العلو المطلق، بكل اعتبار. فله العلو المطلق من جميع الوجوه: علو القدر، وعلو القهر، وعلى الذات. فمن جحد علو الذات فقد جحد لوازم اسمه «العلى».

وكذلك اسمه «الظاهر» من لوازمه: أن لا يكون فوقه شيء، كما فى الصحيح عن النبى ﷺ «وأنت الظاهر، فليس فوقك شيء» بل هو سبحانه فوق كل شيء. فمن جحد فوقيته سبحانه فقد جحد لوازم اسمه«الظاهر» ولا يصح أن يكون «الظاهر» هو من له فوقية القدر فقط، كما يقال: الذهب فوق الفضة، والجوهر فوق الزجاج. لأن هذه الفوقية تتعلق بالظهور، بل قد يكون المفوَّق أظهر من الفائق فيها. ولا يصح أن يكون ظهور القهر والغلبة فقط، وإن كان سبحانه ظاهراً بالقهر الغلبة، لمقابلة الإسم بـ «الباطن» وهو الذى ليس دونه شيء، كما قابل «الأول» الذى ليس قبله شيء، بـ «الآخر» الذى ليس بعده شيء.

وكذلك اسم «الحكيم» من لوازمه ثبوت الغايات المحمودة المقصودة له بأفعاله، ووضعه الأشياء فى مواضعها، وإيقاعها على أحسن الوجوه. فإنكار ذلك إنكار لهذا الإسم ولوازمه. وكذلك سائر أسمائه الحسنى.

(دلالة اسم الجلالة على الأسماء والصفات)

إذا تقرر هذان الأصلان. فاسم«الله» دال على جميع الأسماء الحسنى. والصفات العليا بالدلالات الثلاث. فإنه دال على إلهيته المتضمنة لثبوت صفات الإلهية له، مع نفى أضدادها عنه.

وصفات الإلهية: هى صفات الكمال، المنزهة عن التشبيه والمثال، وعن العيوب والنقائص. ولهذا يضيف الله تعالى سائر الأسماء الحسنى إلى هذا الاسم العظيم، كقوله تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى ﴾[1] ويقال «الرحمن والرحيم، والقدوس والسلام، والعزيز، والحكيم» من أسماء الله، ولا يقال: «الله» من أسماء «الرحمن» ولا من أسماء «العزيز» ونحو ذلك.

فعُلِمَ أن اسمه «الله» مستلزم لجميع معانى الأسماء الحسنى، دال عليها بالإجمال والأسماء الحسنى تفصيل وتبيين لصفات الإلهية، التى اشتق منها اسم «الله»واسم «الله» دال على كونه مألوهاً معبوداً، تألهه الخلائق محبة وتعظيماً وخضوعاً، وفزعاً إليه فى الحوائج

(١) سورة الأعراف الآية ١٨٠.

والنوائب. وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته، المتضمنين لكمال الملك والحمد. وإلهيته وربوبيته ورحمانيته وملكه مستلزم لجميع صفات كماله. إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحي، ولا سميع، ولا بصير، ولا قادر، ولا متكلم، ولا فعال لما يريد، ولا حكيم في أفعاله.

(الاستواء على العرش)

وصفات الجلال والجمال: أخص باسم «الله».

وصفات الفعل القدرة، والتفرد بالضر والنفع. والعطاء والمنع. ونفوذ المشيئة وكمال القوة. وتدبير أمر الخليقة: أخص باسم «الرب».

وصفات الإحسان، والجود والبر، والحنان والمنة، والرأفة واللطف: أخص باسم «الرحمن» وكرر إيذاناً بثبوت الوصف، وحصول أثره، وتعلقه بمتعلقاته.

فالرحمن: الذي الرحمة وصفه. والرحيم: الراحم لعباده. ولهذا يقول تعالى: ﴿وكان بالمؤمنين رحيماً﴾[1] ﴿إنه بهم رؤوف رحيم﴾[2] ولم يجيء رحمان بعباده، ولا رحمان بالمؤمنين، مع ما في اسم «الرحمن» الذي هو على وزن فعلان من سعة هذا الوصف، وثبوت جميع معناه الموصوف به.

ألا ترى أنهم يقولون: غضبان، للممتلىء غضباً، وندمان وحيران وسكران ولهفان لمن ملىء بذلك، فبناء فعلان للسعة والشمول. ولهذا يقرن استواءه على العرش بهذا الإسم كثيراً، كقوله تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾[3] ﴿ثم استوى على العرش الرحمن﴾[4] فاستوى على عرشه باسم الرحمن، لأن العرش محيط بالمخلوقات، وقد وسعها. والرحمن محيطة بالخلق واسعة لهم، كما قال تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾[5] فاستوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات. فلذلك وسعت رحمته كل شيء. وفي الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «لما قضى الله الخلق كتب في كتاب، فهو عنده موضوع على العرش. إن رحمتي تغلب غضبي»[6] وفي لفظ «فهو عنده على العرش».

فتأمل اختصاص هذا الكتاب بذكر الرحمة ووضعه عنده على العرش، وطابق بين ذلك وبين قوله ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ وقوله: ﴿ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٤٣. (٢) سورة التوبة الآية ١١٧.
(٣) سورة طه الآية ٥. (٤) سورة الشعراء الآية ٥٩.
(٥) سورة الأعراف الآية ١٥٦.
(٦) مسلم (٦٨٣٧) كتاب التوبة باب: في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه.

به خبيراً﴾[1] ينفتح لك باب عظيم من معرفة الرب تبارك وتعالى، إن لم يغلقه عنك التعطيل والتجهم.

وصفات العدل، والقبض والبسط، والخفض والرفع، والعطاء والمنع، والإعزاز والإذلال، والقهر والحكم، ونحوها: أخص باسم «الملك» وخصه بيوم الدين، وهو الجزاء بالعدل، لتفرده بالحكم فيه وحده، ولأنه اليوم الحق، وما قبله كساعة. ولأنه الغاية، وأيام الدنيا مراحل إليه.

(ارتباط الخلق والأمر بأسمائه «الله ـ الرب ـ الرحمن»)

وتأمل ارتباط الخلق والأمر بهذه الأسماء الثلاثة. وهى «الله، والرب، والرحمن» كيف نشأ عنها الخلق، والأمر، والثواب، والعقاب؛ وكيف جمعت الخلق وفرقتهم؛ فلها الجمع. ولها الفرق.

فاسم «الرب» له الجمع الجامع لجميع المخلوقات. فهو رب كل شىء وخالقه، والقادر عليه، لا يخرج شىء عن ربوبيته. وكل من فى السموات والأرض عبد له فى قبضته، وتحت قهره. فاجتمعوا بصفة الربوبية، وافترقوا بصفة الإلهية، فألهه وحده السعداء، وأقروا له طوعاً بأنه الله الذى لا إله إلا هو الذى لا تنبغى العبادة والتوكل، والرجاء والخوف، والحب والإنابة والإخبات والخشية، والتذلل والخضوع إلا له.

وهنا افترق الناس، وصاروا فريقين: فريقاً مشركين فى السعير، وفريقاً موحدين فى الجنة.

فالإلهية هى التى فرقتهم، كما أن الربوبية هى التى جمعتهم.

فالدين والشرع، والأمر والنهى ـ مظهره، وقيامه ـ: من صفة الإلهية والخلق والإيجاد والتدبير والفعل: من صفة الربوبية. والجزاء بالثواب والعقاب والجنة والنار: من صفة الملك. وهو ملك يوم الدين. فأمرهم بإلهيته، وأعانهم ووفقهم وهداهم وأضلهم بربوبيته. وأثابهم وعاقبهم بملكه وعدله. وكل واحدة من هذه الأمور لا تنفك عن الأخرى.

وأما الرحمة: فهى التعلق، والسبب الذى بين الله وبين عباده. فالتأليه منهم له، والربوبية منه لهم. والرحمة سبب واصل بينه وبين عباده، بها أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه. وبها هداهم. وبها أسكنهم دار ثوابه. وبها رزقهم وعافاهم وأنعم عليهم. فبينهم وبينه سبب العبودية، وبينه وبينهم سبب الرحمة.

---

(1) سورة الفرقان الآية ٥٩.

واقتران ربوبيته برحمته كاقتران استوائه على عرشه برحمته. فـ ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ مطابق لقوله: ﴿رب العالمين، الرحمن الرحيم﴾ فإن شمول الربوبية وسعتها بحيث لا يخرج شيء عنها أقصى شمول الرحمة وسعتها. فوسع كل شيء برحمته وربوبيته، مع أن في كونه رباً للعالمين ما يدل على علوه على خلقه، وكونه فوق كل شيء، كما يأتي بيانه إن شاء الله.

(إيقاع الحمد على مضمون هذه الأسماء)

في ذكر هذه الأسماء بعد الحمد، وإيقاع الحمد على مضمونها ومقتضاها: ما يدل على أنه محمود في إلهيته، محمود في ربوبيته، محمود في رحمانيته، محمود في ملكه، وأنه إله محمود، ورب محمود، ورحمان محمود، وملك محمود. فله بذلك جميع أقسام الكمال: كمال من هذا الاسم بمفرده، وكمال من الآخر بمفرده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر.

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿والله غني حميد﴾ ﴿والله عليم حكيم﴾ ﴿والله قدير والله غفور رحيم﴾ فالغنى صفة كمال. والحمد صفة كمال، واقتران غناه بحمده كمال أيضاً. وعلمه كمال، وحكمته كمال، واقتران العلم بالحكمة كمال أيضاً. وقدرته كمال ومغفرته كمال، واقتران القدرة بالمغفرة كمال، وكذلك العفو بعد القدرة ﴿فإن الله كان عفوا قديراً﴾ [1] واقتران العلم بالحلم ﴿والله عليم حليم﴾[2].

فما كل من قدر عفا، ولا كل من عفا يعفو عن قدرة، ولا كل من علم يكون حليماً، ولا كل حليم عالم. فما قُرن شيء إلى شيء أزين من حلم إلى علم. ومن عفو إلى قدرة ومن ملك إلى حمد، ومن عزة إلى رحمة ﴿وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾[3] ومن ههنا كان قول المسيح عليه السلام ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك. وإن تغفر فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ [4] أحسن من أن يقول: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم. أي إن غفرت لهم كان مصدر مغفرتك عن عزة. وهي كمال القدرة. وعن حكمة، وهي كمال العلم. فمن غفر عن عجز وجهل بجرم الجاني [لا يكون قادراً حكيماً عليماً. بل لا يكون ذلك إلا عجزاً][5] فأنت لاتغفر إلا عن قدرة تامة، وعلم تام، وحكمة تضع بها الأشياء مواضعها. فهذا أحسن من ذكر «الغفور الرحيم» في هذا الموضع، الدال ذكره على التعريض بطلب المغفرة في غير حينها، وقد فاتت. فإنه لو قال: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم.

---

(١) سورة النساء الآية ١٤٩ (٢) سورة النساء الآية ١٢

(٣) سورة الشعراء الآية ٩. (٤) سورة المائدة الآية ١١٨.

(٥) ما بين المربعين زياده ليتصل الكلام. (قاله الفقي).

كان فى هذا ـ من الاستعطاف والتعريض بطلب المغفرة لمن لا يستحقها ـ ما يُنَزَّه عنه منصب المسيح عليه السلام، لا سيما والموقف موقف عظمة وجلال، وموقف انتقام ممن جعل لله ولداً، واتخذه إلهاً. من دونه. فذكر العزة والحكمة فيه أليق من ذكر الرحمة المغفرة. وهذا بخلاف قول الخليل عليه السلام: ﴿واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام. رب إنهن أضللن كثيراً من الناس. فمن تبعنى فإنه منى، ومن عصانى فإنك غفور رحيم﴾[1] ولم يقل: فإنك عزيز حكيم. لأن المقام مقام استعطاف وتعريض بالدعاء، أى إن تغفر لهم وترحمهم، بأن توفقهم للرجوع من الشرك إلى التوحيد، ومن المعصية إلى الطاعة، كما فى الحديث «اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون»[2].

وفى هذا أظهر الدلالة على أن أسماء الرب تعالى مشتقة من أوصاف ومعان قامت به، وأن كل اسم يناسب ما ذُكر معه، واقترن به، من فعله وأمره. والله الموفق للصواب.

(مراتب الهداية)

فى مراتب الهداية الخاصة والعامة. وهى عشر مراتب

المرتبة الأولى: مرتبة تكليم الله عز وجل لعبده يقظة بلا واسطة، بل منه إليه. وهذه أعلى مراتبها، كما كلم موسى بن عمران، صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه. قال الله تعالى: ﴿وكلم الله موسى تكليماً﴾[3] فذكر فى أول الآية وحيه إلى نوح والنبيين من بعده، ثم خص موسى من بينهم بالإخبار بأنه كلمه. وهذا يدل على أن التكليم الذى حصل له أخص من مطلق الوحى الذى ذُكِرَ فى أول الآية.

المرتبة الثانية: مرتبة الوحى المختص بالأنبياء. قال الله تعالى: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾[4] وقال: ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب﴾[5] ـ الآية فجعل الوحى فى هذه الآية قسماً من أقسام التكليم. وجعله فى آية النساء قسيماً للتكليم. وذلك باعتبارين. فإنه قسيم التكليم الخاص الذى هو بلا واسطة، وقسم من التكليم العام الذى هو إيصال المعنى بطرق متعددة.

المرتبة الثالثة: إرسال الرسول الملكى إلى الرسول البشرى. فيوحى إليه عن الله ما أمره أن يوصله إليه.

فهذه المراتب الثلاث خاصة بالأنبياء، لا تكون لغيرهم.

ثم هذا الرسول الملكى قد يتمثل للرسول البشرى رجلاً، يراه عياناً ويخاطبه. وقد يراه

(١) سورة إبراهيم الآيات (٣٥ -٣٦).

(٢) رواه البخارى (٣٤٧٧) ومسلم (٤٥٦٥) وأحمد (١ :٤٤١ و ٤٥٣)وابن ماجه (٤٠٢٥)

(٣) سورة النساء الآية ١٦٣ — (٤) سورة النساء الآية ١٦٣ — (٥) سورة الشورى الآية ٥١

على صورته التي خلق عليها. وقد يدخل في الملك، ويوحى إليه مايوحيه، ثم يفصم عنه، أى يقلع. والثلاثة حصلت لنبينا ﷺ.

المرتبة الرابعة: مرتبة التحديث. وهذه دون مرتبة الوحى الخاص، وتكون دون مرتبة الصديقين، كما كانت لعمر بن الخطاب رضى الله عنه، كما قال النبى ﷺ: «إنه كانَ فى الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن فى هذه الأمة فعمر بن الخطاب»(1).

وسمعت شيخ الإسلام تقى الدين ابن تيمية رحمه الله يقول: جزم بأنهم كائنون فى الامم قبلنا. وعلق وجودهم فى هذه الأمة بـ «إن» الشرطية، مع أنها أفضل الأمم، لاحتياج الأمم قبلنا إليهم، واستغناء هذه الأمة عنهم بكمال نبيها ورسالته، فلم يحوج الله الأمة بعده إلى محدث ولا ملهم، ولا صاحب كشف ولا منام، فهذا التعليق لكمال الأمة واستغنائها لا لنقصها.

والمحدث: هو الذى يحدث فى سره وقلبه بالشيء، فيكون كما يحدث به.

قال شيخنا: والصِّدِّيق أكمل من المحدث. لأنه استغنى بكمال صديقيته ومتابعته عن التحديث والإلهام والكشف. فإنه سلم قلبه كله وسره وظاهره وباطنه للرسول. فاستغنى به عما منه (2).

قال: وكان هذا المحدث يعرض ما يحدث به على ما جاء به الرسول. فإن وافقه قبله، وإلا ردَّه. فعلم أن مرتبة الصديقية فوق مرتبة التحديث.

قال: وأما ما يقوله كثير من أصحاب الخيالات والجهالات «حدثنى قلبى عن ربى» فصحيح أن قلبه حدثه، ولكن عمن؟ عن شيطانه، أو عن ربه؟ فإذا قال «حدثنى قلبى عن ربى» كان مسنداً الحديث إلى من لم يعلم أنه حدثه به، وذلك كذب. قال: ومحدث الأمة لم يكن يقول ذلك، ولا تفوه به يوماً من الدهر. وقد أعاذه الله من أن يقول ذلك. بل كتب كاتبه يوماً «هذا ما أرى الله أمير المؤمنين، عمر بن الخطاب» فقال: «لا. امحه، واكتب: هذا ما أرى عمر بن الخطاب. فإن كان صواباً فمن الله، وإن كان خطأ فمن عمر، والله ورسوله منه برىء» وقال فى الكلالة «أقول فيها برأيى. فإن يكن صواباً فمن الله. وإن يكن خطأ فمنى ومن الشيطان» فهذا قول المحدث بشهادة الرسول ﷺ. وأنت ترى الإتحادى والحلولى والإباحى الشطاح، والسماعى. مجاهر بالقحة والفرية. يقول «حدثنى

(1) رواه البخاري (6/ 512) من حديث أبي هريرة. ومسلم (6087) وأحمد (6/ 55) من حديث عائشة.

(2) كذا في الأصل. ولعل الصواب «برسالة الرسول، فاستغنى بها عن التحديث» لأن الصديقية تكون أيضاً بعد موت الرسول، كما نرجو أن يكون شيخ الإسلام وتلميذه من الصديقين، وإنما كان تسليمهم لرسالة الرسول ﷺ علماً وعقيدة وعملاً وحالاً وأدباً وخلقاً، ودعوة وحباً وكرهاً وموالاة. (قاله الفقي)

قلبى عن ربى».

فانظر إلى ما بين القائلين والمرتبتين والقولين والحالين. وأعط كل ذى حق حقه، ولا تجعل الزغل والخالص شيئاً واحداً.

المرتبة الخامسة: مرتبة الإفهام. قال الله تعالى: ﴿وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث، إذ نفشت فيه غنم القوم، وكنا لحكمهم شاهدين. ففهمناها سليمان، وكلا آتينا حكما وعلماً﴾ (١) فذكر هذين النبيين الكريمين. وأثنى عليهما بالعلم والحكم. وخص سليمان بالفهم فى هذه الواقعة المعينة. وقال على بن أبى طالب - وقد سُئل «هل خصكم رسول الله ﷺ بشىء دون الناس؟» - فقال: «لا، والذى فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهما يؤتيه الله عبداً فى كتابه ما فى هذه الصحيفة. وكان فيها العقل، وهو الديات، وفكاك الأسير، وأن لا يُقْتَل مسلم بكافر»(٢) وفى كتاب عمر بن الخطاب لأبى موسى الأشعرى رضى الله عنهما « والفهم الفهم فيما أدلى إليك» فالفهم نعمة من الله على عبده، ونور يقذفه الله فى قلبه. يعرف به، ويدرك ما لا يدركه غيره ولا يعرفه، فيفهم من النص مالا يفهمه غيره، مع استوائهما فى حفظه. وفهم أصل معناه.

فالفهم عن الله ورسوله عنوان الصديقية، ومنشور الولاية النبوية، وفيه تفاوتت مراتب العلماء، حتى عُدَّ ألف بواحد. فانظر إلى فهم ابن عباس، وقد سأله عمر، ومن حضر من أهل بدر وغيرهم عن سورة ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾(٣) وما خُصَّ به ابن عباس من فهمه منها «أنها نعى الله سبحانه نبيه إلى نفسه» وإعلامه بحضور أجله، وموافقة عمر له على ذلك، وخفائه عن غيرهما من الصحابة وابن عباس إذ ذاك أحدثهم سناً. وأين تجد فى هذه السورة الإعلام بأجله، لولا الفهم الخاص ؟ ويدق هذا حتى يصل إلى مراتب تتقاصر عنها أفهام أكثر الناس، فيحتاج مع النص إلى غيره. ولا يقع الاستغناء بالنصوص فى حقه. وأما فى حق صاحب الفهم: فلا يحتاج مع النصوص إلى غيرها.

المرتبة السادسة: مرتبة البيان العام. وهو تبيين الحق وتمييزه من الباطل بأدلته وشواهده وأعلامه. بحيث يصير مشهوداً للقلب، كشهود العين للمرئيات.

وهذه المرتبة هى حجة الله على خلقه، التى لا يعذب أحداً ولا يضله إلا بعد وصوله إليها. قال الله تعالى: ﴿وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون﴾(٤) فهذا الإضلال عقوبة منه لهم، حين بين لهم، فلم يقبلوا ما بينه لهم، ولم يعملوا به فعاقبهم بأن أضلهم عن الهدى، وما أضل الله سبحانه أحداً قط إلا بعد هذا البيان.

---

(٣) سورة الأنبياء الآيات (٧٨ - ٧٩) .
(٣) رواه البخاري (٦٩١٥) كتاب الديات، باب: لا يقتل المسلم بالكافر.
(٢) سورة النصر الآية ١.
(٤) سورة التوبة الآية ١١٥

وإذا عرفت هذا عرفت سر القدر، وزالت عنك شكوك كثيرة، وشبهات فى هذا الباب. وعلمت حكمة الله فى إضلاله من يضله من عباده. والقرآن يصرح بهذا فى غير موضع، كقوله: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [1] ﴿وقولهم قلوبنا غلف. بل طبع الله عليها بكفرهم ﴾ [2] فالأول: كفر عناد. والثانى: كفر طبع، وقوله: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون﴾ [3] فعاقبهم على ترك الإيمان به حين تيقنوه وتحققوه، بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم فلم يهتدوا له.

فتأمل هذا الموضع حق التأمل. فإنه موضع عظيم.

وقال تعالى: ﴿وأما ثمود فهدينا هم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ [4] فهذا هدى بعد البيان والدلالة. وهو شرط لا موجب له. فإنه إن لم يقترن به هدى آخر بعده لم يحصل به كمال الاهتداء. وهو هدى التوفيق والإلهام.

وهذا البيان نوعان: بيان بالآيات المسموعة المتلوة، وبيان بالآيات المشهودة المرئية. وكلاهما أدلة وآيات على توحيد الله وأسمائه وصفاته وكماله، وصدق ما أخبرت به رسله عنه. ولهذا يدعو عباده بآياته المتلوة إلى التفكر فى آياته المشهودة ويحضهم على التفكر فى هذه وهذه. وهذا البيان هو الذى بُعثت به الرسل. وجعل إليهم وإلى العلماء بعدهم، وبعد ذلك يضل الله من يشاء.

قال الله تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم. فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء. وهو العزيز الحكيم ﴾ [5] فالرسل تبين. والله هو الذى يضل من يشاء ويهدى من يشاء بعزته وحكمته.

المرتبة السابعة: البيان الخاص. وهو البيان المستلزم للهداية الخاصة، وهو بيان تقارنه العناية والتوفيق والاجتباء، وقطع أسباب الخذلان وموادها عن القلب فلا تتخلف عنه الهداية ألبتة. قال تعالى فى هذه المرتبة: ﴿إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل﴾ [6] وقال: ﴿إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء﴾ [7] فالبيان الأول شرط. وهذا موجب.

المرتبة الثامنة: مرتبة الإسماع. قال الله تعالى: ﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون﴾ [8] وقد قال تعالى: ﴿وما يستوى الأعمى والبصير.

---

(١) سورة الصف الآية ٥
(٢) سورة النساء الآية ١٥٥.
(٣) سورة الأنعام الآية ١١٠
(٤) سورة فصلت الآية ١٧
(٥) سورة إبراهيم الآية ٤
(٦) سورة النحل الآية ٣٧.
(٧) سورة ص الآية ٥٦.
(٨) سورة الأنفال الآية ٢٣.

ولا الظلمات ولا النور. ولا الظل ولا الحرور. وما يستوى الأحياء ولا الأموات. إن الله يسمع من يشاء. وما أنت بمسمع من فى القبور إن أنت إلا نذير﴾ (١)

وهذا الإسماع أخص من إسماع الحجة والتبليغ. فإن ذلك حاصل لهم، وبه قامت الحجة عليهم لكن ذاك إسماع الآذان، وهذا إسماع القلوب فإن الكلام له لفظ ومعنى، وله نسبه إلى الأذن والقلب وتعلق بهما. فسماع لفظه حظ الأذن، سماع حقيقة معناه ومقصوده حظ القلب. فإنه سبحانه نفى عن الكفار سماع المقصود المراد الذى هو حظ القلب، وأثبت لهم سماع الألفاظ الذى هو حظ الأذن فى قوله: **﴿ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون، لاهية قلوبهم﴾**(٢) وهذا السماع لا يفيد السامع إلا قيام الحجة عليه، أو تمكنه منها. وأما مقصود السماع وثمرته، والمطلوب منه: فلا يحصل مع لهو القلب وغفلته وإعراضه، بل يخرج السامع قائلاً للحاضر معه: **﴿ماذا قال آنفاً ؟ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم﴾** (٣)

والفرق بين هذه المرتبة ومرتبة الإفهام: أن هذه المرتبة إنما تحصل بواسطة الأذن، ومرتبة الإفهام أعم. فهى أخص من مرتبة الفهم من هذا الوجه. ومرتبة الفهم أخص من وجه آخر. وهى أنها تتعلق بالمعنى المراد ولوازمه ومتعلقاته وإشاراته. ومرتبة السماع مدارها على إيصال المقصود بالخطاب إلى القلب ويترتب على هذا السماع سماع القبول.

فهو إذن ثلاث مراتب: سماع الأذن وسماع القلب، وسماع القبول والإجابة.

المرتبة التاسعة: مرتبة الإلهام. قال تعالى: **﴿ونفس وما سواها. فألهمها فجورها وتقواها﴾** (٤) .

وقد جعل صاحب المنازل «الإلهام» هو مقام المحدثين.

قلت: التحديث أخص من الإلهام. فإن الإلهام عام للمؤمنين بحسب إيمانهم فكل مؤمن قد ألهمه الله رشده الذى حصل له به الإيمان. فأما التحديث: فالنبى ﷺ قال فيه: «**إن يكن فى هذه الأمة أحد فعمر**» يعنى من المحدثين. فالتحديث إلهام خاص. وهو الوحى إلى غير الأنبياء إما من المكلفين، كقوله تعالى: **﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه﴾**(٥) وقوله: **﴿وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى﴾**(٦) وإما من غير المكلفين، كقوله تعالى: **﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون﴾** (٧) فهذا كله وحى إلهام.

---

(١) سورة فاطر الآية ٢٢

(٢) محدث تنزيله بالوحي سورة الأنبياء الآية ٢.

(٣) سورة محمد الآية ١٦

(٤) سورة الشمس الآية ٧- ٩.

(٥) سورة القصص الآية ٧

(٦) سورة المائدة الآية ١١١

(٧) سورة النحل الآية ٢٩.

درجات الإلهام

قال:[١] وهو على ثلاث درجات.

الدرجة الأولى. نبأ يقع وحياً قاطعاً مقروناً بسماع. إذ مطلق النبأ الخبر الذى له شأن. فليس كل خبر نبأ، وهو نبأ خبر عن غيب معظم.

ويريد بالوحى والإلهام: الإعلام الذى يقطع من وصل إليه بموجبه، إما بواسطة سمع، أو هو الإعلام بلا واسطة.

قلت: أما حصوله بواسطة سمع: فليس ذلك إلهاماً. بل هو من قبيل الخطاب. وهذا يستحيل حصوله لغير الأنبياء. وهو الذى خُصَّ به موسى، إذ كان المخاطب هو الحق عز وجل.

وأما ما يقع لكثير من أرباب الرياضات من سماع: فهو من أحد وجوه ثلاثة. لا رابع لها أعلاها: أن يخاطبه الملك خطاباً جزئياً. فإن هذا يقع لغير الأنبياء. فقد كانت الملائكة تخاطب عمران بن حصين بالسلام. فلما اكتوى تركت خطابه. فلما ترك الكى عاد إليه خطاب ملكى. وهو نوعان.

أحدهما: خطاب يسمعه بأذنه. وهو نادر بالنسبة إلى عموم المؤمنين.

والثاني: خطاب يُلقى فى قلبه يخاطب به الملك روحه، قال تعالى: ﴿إذ يوحى ربك إلى الملائكة: أنى معكم. فثبتوا الذين آمنوا﴾[٢] قيل فى تفسيرها: قوُّوا قلوبهم، وبشِّروهم بالنصر. وقيل: احضروا معهم القتال. والقولان حق. فإنهم حضروا معهم القتال، وثبتوا قلوبهم.

ومن هذا الخطاب: واعظ الله عز وجل فى قلوب عباده المؤمنين. كما فى جامع الترمذى ومسند أحمد من حديث النواس بن سمعان عن النبى ﷺ قال: «إن الله تعالى ضرب مثلاً: صراطاً مستقيماً. وعلى كتفى الصراط سوران، لهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وداع يدعو على رأس الصراط. فالصراط المستقيم: الإسلام. والسوران: حدود الله. والأبواب المفتحة: محارم الله. فلا يقع أحد فى حد من حدود الله حتى يُكشفَ الستر. والداعى على رأس الصراط: كتاب الله والداعى فوق الصراط: واعظ الله فى قلب كل مؤمن»[٣] فهذا الواعظ فى قلوب المؤمنين هو الإلهام الإلهى بواسطة الملائكة

---

(١) أى الهروى: صاحب «المنازل» (٢) سورة الأنفال الآية : ١٢.

(٣) صحيح رواه أحمد (٤/ ١٨٢- ١٨٣) والترمذي (٢٨٥٩).

وأما وقوعه بغير واسطة: فمما لم يتبين بعد. والجزم فيه بنفي أو إثبات موقوف على الدليل. والله أعلم.

النوع الثاني: من الخطاب المسموع: خطاب الهواتف من الجان. وقد يكون المخاطب جنياً مؤمناً صالحاً. وقد يكون شيطاناً. وهذا أيضاً نوعان.

أحدهما: أن يخاطبه خطاباً يسمعه بأذنه.

والثاني: أن يُلقى في قلبه عندما يُلمُّ به. ومنه وعده وتمنيته حين يعد الإنسي ويمنيه، ويأمره وينهاه. كما قال تعالى: ﴿يعدهم ويمنيهم. وما يعدهم الشيطان إلا غرورا﴾ (١) وقال: ﴿الشيطان يعدكم الفقرة ويأمركم بالفحشاء ﴾ (٢) وللقلب من هذا الخطاب نصيب. وللأذن أيضاً منه نصيب. والعصمة منتفية إلا عن الرسل. ومجموع الأمة.

فمن أين للمخاطب أن هذا الخطاب رحماني، أو ملكي ؟ بأي برهان ؟ أو بأي دليل ؟ والشيطان يقذف في النفس وحيه. ويلقى في السمع خطابه. فيقول المغرور المخدوع « قيل لي، وخُوطِبْتُ» صدقت، لكن الشأن في القائل لك والمخاطِب. وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لغيلان بن سلمة – وهو من الصحابة لما طلق نساءه، وقسم ماله بين بنيه – « إني لأظن الشيطان – فيما يَستَرِقُ من السمع – سمع بموتك. فقذفه في نفسك».

النوع الثالث: خطاب حالي. تكون بدايته من النفس، وعوده إليها. فيتوهمه من خارج. وإنما هو من نفسه، منها بدا وإليها يعود.

فهذه الوجوه الثلاثة هي وجوه الخطاب. ومن سمَّع نفسه غيرها فإنما هو غرور، وخدع وتلبيس. وهذا الموضع مقطع القول، وهو من أجل المواضع لمن حققه وفهمه. والله الموفق للصواب.

المرتبة العاشرة من مراتب الهداية : الرؤيا الصادقة . وهي من أجزاء النبوة كما ثَبَتَ عن النبي ﷺ أنه قال «الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»(٣).

وقد قيل في سبب هذا التخصيص المذكور : إن أول مبتدأ الوحي كان هو الرؤيا الصادقة ، وذلك نصف سنة . ثم انتقل إلى وحي اليقظة مدة ثلاث وعشرين سنة ، من حين بُعثَ إلى أن توفي ، صلوات الله وسلامه عليه . فنسبة مدة الوحي في المنام من ذلك جزء من ستة وأربعين جزءاً . وهذا حسن لولا ما جاء في الرواية الأخرى الصحيحة «إنها جزء من سبعين جزءاً »(٤)

(١) سورة النساء الآية ١٢٠ (٢) سورة البقرة الآية ٢٦٨.

(٣) رواه البخاري (٦٩٨٩) عن أبي سعيد الخدري. والبخاري (٦٩٨٨) ومسلم (٢٢٦٣) عن أبي هريرة. والبخاري (٦٩٨٧) ومسلم (٢٢٦٤) عن عبادة بن الصامت. (٤) رواه مسلم

وقد قيل في الجمع بينهما : إن ذلك بحسب حال الرائي ، فإن رؤيا الصديقين من ستة وأربعين . ورؤيا عموم المؤمنين الصادقة من سبعين . والله أعلم .

والرؤيا : مبدأ الوحي . وصدقها بحسب صدق الرائي . وأصدق الناس رؤيا أصدقهم حديثاً . وهي عند اقتراب الزمان لا تكاد تخطىء ، كما قال النبي ﷺ . وذلك لبعد العهد بالنبوة وآثارها . فيتعوض المؤمنون بالرؤيا . وأما في زمن قوة نور النبوة : ففي ظهور نورها وقوته ما يغني عن الرؤيا .

ونظير هذا الكرامات التي ظهرت بعد عصر الصحابة . ولم تظهر عليهم ، لاستغنائهم عنها بقوة إيمانهم ، واحتياج من بعدهم إليها لضعف إيمانهم . وقال النبي ﷺ « لم يبق من النبوة إلا المبشرات . قيل : وما المبشرات ، يا رسول الله ؟ قال : الرؤيا الصالحة ، يراها المؤمن أو تُرى له »(1) وإذا تواطأت رؤيا المسلمين لم تكذب . وقد قال النبي ﷺ لأصحابه لما أروا ليلة القدر في العشر الأواخر قال: «أرى رؤياكم قد تواطأت في العشر الأواخر . فمن كان منكم متحريها فليتحرها في العشر الأواخر من رمضان» (2).

والرؤيا، منها رحماني . ومنها نفساني . ومنها شيطاني . وقال النبي ﷺ : «الرؤيا ثلاثة : رؤيا من الله ، ورؤيا تحزين من الشيطان ، ورؤيا مما يحدث به الرجل نفسه في اليقظة . فيراه في المنام»(3).

والذي هو من أسباب الهداية : هو الرؤيا التي من الله خاصة .

ورؤيا الأنبياء وحي فإنها معصومة من الشيطان . وهذا باتفاق الأمة ، ولهذا أقدم الخليل على ذبح ابنه إسماعيل عليهما السلام بالرؤيا .

وأما رؤيا غيرهم : فتُعْرَض على الوحي الصريح . فإن وافقته وإلا لم يعمل بها .

فإن قيل : فما تقولون إذا كانت رؤيا صادقة ، أو تواطأت ؟ .

قلنا : متى كانت كذلك استحال مخالفتها للوحي ، بل لا تكون إلا مطابقة له منبهة عليه ، أو منبهة على اندراج قضية خاصة في حكمه ، لم يعرف الرائي اندراجها فيه، فيتنبه بالرؤيا على ذلك . ومن أراد أن تصدق رؤياه فليتحر الصدق وأكل الحلال ، والمحافظة على الأمر والنهي . ولينم على طهارة كاملة مستقبل القبلة . ويذكر الله حتى تغلبه عيناه . فإن رؤياه لا تكاد تكذب ألبتة .

(1) رواه مسلم (207) وأحمد (219/1) وأبو داود (876) والنسائي (2/ 89ـ 90) وابن ماجه (3899) من حديث ابن عباس

(2) رواه البخاري ((1158) من حديث ابن عمر

(3)رواه مسلم (2263) عن أبي هريرة.

وأصدق الرؤيا : رؤيا الأسحار . فإنه وقت النزول الإلهى ، واقتراب الرحمة والمغفرة، وسكون الشياطين . وعكسه رؤيا العتمة ، عند انتشار الشياطين والأرواح الشيطانية.

وللرؤيا ملك موكل بها ، يريها العبد فى أمثال تناسبه وتشاكله . فيضربها لكل أحد بحسبه .

(بيان اشتمال الفاتحة على الشفاءين شفاء القلوب ، وشفاء الأبدان):

فأما اشتمالها على شفاء القلوب : فإنها اشتملت عليه أتم اشتمال . فإن مدار اعتلال القلوب وأسقامها على أصلين : فساد العلم . وفساد القصد.

ويترتب عليهما داءان قاتلان ، وهما الضلال والغضب . فالضلال نتيجة فساد العلم. والغضب نتيجة فساد القصد . وهذان المرضان هما ملاك أمراض القلوب جميعها . فهداية الصراط المستقيم : تتضمن الشفاء من مرض الضلال . ولذلك كان سؤال هذه الهداية : أفرض دعاء على كل عبد . وأوجبه عليه كل يوم وليلة . فى كل صلاة ، لشدة ضرورته وفاقته إلى الهداية المطلوبة . ولا يقوم غير هذا السؤال مقامه.

والتحقق بـ ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ علماً ومعرفة ، وعملاً وحالاً : يتضمن الشفاء من مرض فساد القلب والقصد . فإن فساد القصد يتعلق بالغايات والوسائل . فمن طلب غاية منقطعة مضمحلة فانية ، وتوسل إليها بأنواع الوسائل الموصلة إليها كان كلا نوعى قصده فاسداً . وهذا شأن كل من كان غاية مطلوبه غير الله وعبوديته: من المشركين ، ومتبعى الشهوات ، الذين لا غاية لهم وراءها ، وأصحاب الرياسات المُتَّبِعين لإقامة رياستهم بأى طريق كان من حق أو باطل . فإذا جاء الحق معارضاً فى طريق رياستهم طحنوه وداسوه بأرجلهم . فإن عجزوا عن ذلك دفعوه دفع الصائل . فإن عجزوا عن ذلك حبسوه فى الطريق ، وحادوا عنه إلى طريق أخرى . وهم مستعدون لدفعه بحسب الإمكان. فإذا لم يجدوا منه بدأ أعطوه السكة والخطبة[1] وعزلوه عن التصرف والحكم والتنفيذ ، وإن جاء الحق ناصراً لهم وكان لهم صالوا به وجالوا ، وأتوا إليه مذعنين . لا لأنه حق ، بل لموافقته غرضهم وأهواءهم ، وانتصارهم به ﴿وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون . وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين . أفى قلوبهم مرض،أم ارتابوا؟ أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ؟ بل أولئك هم الظالمون﴾[2].

والمقصود أن قصد هؤلاء فاسد فى غاياتهم ووسائلهم وهؤلاء إذا بطلت الغايات

(١) السكة المراد منها الإسم والشعار يضرب على النقود ، ويقصد بذلك ما كان عليه الخلفاء فى وقته إذ لم يكن لهم من الخلافة إلا الصور أما الحكم النافذ فى الأمور فلغيرهم (قاله الفقى)

(٢) سورة النور الآيات ٤٨ - ٥

التى طلبوها ، واضمحلت وفنيت ، حصلوا على أعظم الخسران والحسرات . وهم أعظم الناس ندامة وتحسراً ، إذا حَقَّ الحق وبطل الباطل ، وتقطعت بهم أسباب الوصل التى كانت بينهم ، وتيقنوا انقطاعهم عن ركب الفلاح والسعادة . وهذا يظهر كثيراً فى الدنيا . ويظهر أقوى من ذلك عند الرحيل منها والقدوم على الله ويشتد ظهوره وتحققه فى البرزخ . وينكشف كل الإنكشاف يوم اللقاء ، إذا حقت الحقائق . وفاز المحقون وخسر المبطلون . وعلموا أنهم كانوا كاذبين ، وكانوا مخدوعين مغرورين . فياله هناك من علم لا ينفع عالمه ويقين لا ينجى مستيقنه .

وكذلك من طلب الغاية العليا والمطلب الأسمى ، ولكن لم يتوسل إليه بالوسيلة الموصلة له وإليه ، بل توسل إليه بوسيلة ظنها موصلة إليه ، وهى من أعظم القواطع عنه . فحاله أيضاً كحال هذا . وكلاهما فاسد القصد . ولا شفاء من هذا المرض إلا بدواء «إياك نعبد وإياك نستعين ».

فإن هذا الدواء مركب من ستة أجزاء (١) عبودية الله لا غيره (٢) بأمره وشرعه (٣) لا بالهوى (٤) ولا بآراء الرجال وأوضاعهم ، ورسومهم ، وأفكارهم (٥) بالإستعانة على عبوديته به (٦) لا بنفس العبد وقوته وحوله ولا بغيره.

فهذه هى أجزاء ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ فإذا ركّبها الطبيب اللطيف ، العالم بالمرض ، واستعملها المريض ، حصل بها الشفاء التام . وما نقص من الشفاء فهو لفوات جزء من أجزائها ، أو اثنين أو أكثر.

ثم إن القلب يعرض له مرضان عظيمان ، إن لم يتداركهما العبد تراميا به إلى التلف ولا بد. وهما الرياء، والكبر. فدواء الرياء بـ (إياك نعبد) ودواءالكبر بـ (إياك نستعين).

وكثير ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول (إياك نعبد) تدفع الرياء (وإياك نستعين) تدفع الكبرياء.

فإذا عوفى من مرض الرياء بـ (إياك نعبد) ومن مرض الكبرياء والعجب بـ (إياك نستعين) ومن مرض الضلال والجهل بـ (اهدنا الصراط المستقيم) عوفى من أمراضه وأسقامه ، ورفل فى أثواب العافية ، وتمت عليه النعمة . وكان من المُنعَم عليهم «غير المغضوب عليهم» وهم أهل فساد القصد ، الذين عرفوا الحق وعدلوا عنه «والضالين» وهم أهل فساد العلم ، الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه.

وحُقّ لسورة تشتمل على هذين الشفاءين: أن يُستشفى بها من كل مرض ، ولهذا لما اشتملت على هذا الشفاء الذى هو أعظم الشفاءين ، كان حصول الشفاء الأدنى بها أولى ،

كما سنبينه . فلا شيء أشفى للقلوب التى عقلت عن الله وكلامه ، وفهمت عنه فهماً خاصاً ، اختصها به ، من معانى هذه السورة.

وسنبين إن شاء الله تعالى تضمنها للرد على جميع أهل البدع بأوضح البيان وأحسن الطرق .

وأما تضمنها لشفاء الأبدان : فنذكر منه ما جاءت به السنة ، وما شهدت به قواعد الطب ، ودلت عليه التجربة.

فأما ما دلت عليه السنة : ففى الصحيح من حديث أبى المتوكل الناجى عن أبى سعيد الخدرى «أن ناساً من أصحاب النبى ﷺ مروا بحى من العرب . فلم يقروهم ، ولم يضيفوهم . فلُدِغَ سيد الحى . فأتوهم . فقالوا : هل عندكم من رقية ، أو هل فيكم من راق ؟ فقالوا : نعم ، ولكنكم لم تقرونا . فلا نفعل حتى تجعلوا لنا جُعْلاً ، فجعلوا لهم على ذلك قطيعاً من الغنم ، فجعل رجل منا يقرأ عليه بفاتحة الكتاب . فقام كأن لم يكن به قلبة . فقلنا :لا تعجلوا حتى نأتى النبى ﷺ. فأتيناه، فذكرنا له ذلك. فقال:ما يدريك أنها رقية ؟ كلوا، واضربوا لى معكم بسهم»[1].فقد تضمن هذا الحديث حصول شفاء هذا اللديغ بقراءة الفاتحة عليه . فأغنته عن الدواء . وربما بلغت من شفائه ما لم يبلغه الدواء.

هذا مع كون المحل غير قابل، إما لكون هؤلاء الحى غير مسلمين ، أو أهل بخل ولؤم. فكيف إذا كان المحل قابلاً.

(فصل)

وأما شهادة قواعد الطب بذلك : فاعلم أن اللدغة تكون من ذوات الحمات والسموم . وهى ذوات الأنفس الخبيثة التى تتكيف بكيفية غضبية ، تثير فيها سمية نارية ، يحصل بها اللدغ . وهى متفاوتة بحسب تفاوت خبث تلك النفوس وقوتها وكيفيتها . فإذا تكيفتْ أنفسها الخبيثة بتلك الكيفية الغضبية أحدث لها ذلك طبيعة سمية ، تجد راحة ولذة فى إلقائها إلى المحل القابل ، كما يجد الشرير من الناس راحة ولذة فى إيصال شره إلى من يوصله إليه . وكثير من الناس لا يهنأ له عيش فى يوم لا يؤذى فيه أحداً من بنى جنسه . ويجد فى نفسه تأذياً بحمل تلك السمية والشر الذى فيه ،حتى يفرغه فى غيره . فيبرد عند ذلك أنينه. وتسكن نفسه. ويصيبه فى ذلك نظير ما يصيب من اشتدت شهوته إلى الجماع. فيسوء خلقه. وتثقل نفسه حتى يقضى وطره. هذا فى قوة الشهوة. وذاك فى قوة الغضب

وقد أقام الله تعالى بحكمته السلطان وازعاً لهذه النفوس الغضبية . فلولا هو لفسدت

(١) رواه البخاري (١٠/١٧٨) فى الطب: باب النفث في الرقية، ومسلم (١ ٢٢٠) في السلام. باب جواز الأخذ على الرقية.

الأرض وخربت ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾[1] وأباح الله - بلطفه ورحمته - لهذه النفوس من الأرواح وملك اليمين ما يكسر حدتها.

والمقصود: أن هذه النفوس الغضبية إذا اتصلت بالمحل القابل أثرت فيه، ومنها ما يؤثر في المحل بمجرد مقابلته له، وإن لم يمسه، فمنها ما يطمس البصر، ويُسقط الحبل.

ومن هذا نظر العائن. فإنه إذا وقع بصره على المَعين حدثت في نفسه كيفية سُمِّية أثرت في المعين بحسب عدم استعداده. وكونه أعزل من السلاح، وبحسب قوة تلك النفس. وكثير من هذه النفوس يؤثر في المعين إذا وُصِفَ له. فتتكيف نفسه وتقابله على البعد فيتأثر به. ومُنْكِرُ هذا ليس معدوداً من بني آدم إلا بالصورة والشكل. فإذا قابلت النفس الزكية العلوية الشريفة التي فيها غضب وحمية للحق هذه النفوس الخبيثة السمية. وتكيفت بحقائق الفاتحة وأسرارها ومعانيها، وما تضمنته من التوحيد والتوكل، والثناء على الله، وذكر أصول أسمائه الحسنى، وذكر اسمه الذي ما ذكر على شر إلا أزاله ومحقه، ولا على خير إلا نمّاه وزاده. دفعت هذه النفس بما تكيفت به من ذلك أثر تلك النفس الخبيثة الشيطانية، فحصل البرء. فإن مبنى الشفاء والبرء على دفع الضد بضده. وحفظ الشيء بمثله. فالصحة تحفظ بالمثل. والمرض يدفع بالضد أسباب وربطها بمسبباتها الحكيم العليم خلقاً وأمراً. ولا يتم هذا إلا بقوة من النفس الفاعلة. وقبول من الطبيعة المنفعلة. فلو لم تنفعل نفس الملدوغ لقبول الرقية، ولم تقو نفس الراقي على التأثير، لم يحصل البرء. فهنا أمور ثلاثة: موافقة الدواء للداء، وبذل الطبيب له، وقبول طبيعة العليل. فمتى تخلّف واحد منها لم يحصل الشفاء. وإذا اجتمعت حصل الشفاء ولا بد بإذن الله سبحانه وتعالى.

ومن عرف هذا كما ينبغي تبين له أسرار الرقى. وميز بين النافع منها وغيره. ورقَى الداء بما يناسبه من الرقى. وتبين له أن الرقية براقيها وقبول المحل، كما أن السيف بضاربه مع قبول المحل للقطع وهذه إشارة مُطْلِعة على ما وراءها لمن دق نظره، وحسن تأمله. والله أعلم

وأما شهادة التجارب بذلك فهي أكثر من أن تذكر. وذلك في كل زمان. وقد جربت أنا من ذلك في نفسي وفي غيري أموراً عجيبة. ولا سيما مدة المقام بمكة. فإنه كان يعرض لي آلام مزعجة، بحيث تكاد تقطع الحركة مني. وذلك في أثناء الطواف وغيره. فأبادر إلى قراءة الفاتحة، وأمسح بها على محل الألم فكأنه حصاة تسقط. جربت ذلك مراراً عديدة

(١) سورة البقرة ٢٥١

وكنت آخذ قدحاً من ماء زمزم فأقرأ عليه الفاتحة مراراً. فأشر به فأجد به من النفع والقوة ما لم أعهد مثله في الدواء. والأمر أعظم من ذلك. ولكن بحسب قوة الإيمان، وصحة اليقين. والله المستعان.

(فصل)

(في اشتمال الفاتحة على الرد على جميع المبطلين من أهل الملل والنحل، والرد على أهل البدع والضلال من هذه الأمة):

وهذا يُعْلَمَ بطريقين، مجمل ومفصل:

أما المجمل: فهو أن الصراط المستقيم متضمن معرفة الحق، وإيثاره، وتقديمه على غيره، ومحبته والانقياد له، والدعوة إليه، وجهاد أعدائه بحسب الإمكان.

والحق: هو ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وما جاء به علماً في باب صفات الرب سبحانه، وأسمائه وتوحيده، وأمره ونهيه، ووعده ووعيده، وفي حقائق الإيمان، التي هي منازل السائرين إلى الله تعالى. وكل ذلك مسلم إلى رسول الله ﷺ، دون آراء الرجال وأوضاعهم وأفكارهم واصطلاحاتهم.

فكل علم أو عمل أو حقيقة، أو حال أو مقام خرج من مشكاة نبوته، وعليه السِّكَّة المحمدية، بحيث يكون من ضَرْب المدينة. فهو من الصراط المستقيم وما لم يكن كذلك فهو من صراط أهل الغضب والضلال. فما ثَمَّ خروج عن هذه الطرق الثلاث: طريق الرسول ﷺ وما جاء به، وطريق أهل الغضب، وهي طريق من عرف الحق وعانده.[1] وطريق أهل الضلال: وهي طريق من أضله الله عنه [2]. ولهذا قال عبد الله ابن عباس وجابر بن عبد الله رضي الله عنهم «الصراط المستقيم: هو الإسلام» وقال عبد الله بن مسعود وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما «هو القرآن» وفيه حديث مرفوع في الترمذي وغيره [3]، وقال سهل بن عبد الله «طريق السنة والجماعة» وقال بكر بن عبد الله المُزني «طريق رسول الله ﷺ».

ولا ريب أن ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه علماً وعملاً وهو معرفة الحق وتقديمه، وإيثاره على غيره. فهو الصراط المستقيم.

وكل هذه الأقوال المتقدمة دالة عليه جامعة له.

فبهذا الطريق المجمل يعلم أن كل ما خالفه فباطل. وهو من صراط الأمتين: الأمة الغضبية، وأمة أهل الضلال

---

(١) وهم اليهود (٢) وهم النصارى

(٣) ضعيف، رواه الترمذي (٢٩٠٦)، والدارمي (٢/ ٤٣٥-٤٣٦) وابن أبي شيبة في المصنف (١٠/ ٤٨٢) وضعفه الترمذي.

(فصل)

وأما المفصل: فبمعرفة المذاهب الباطلة، واشتمال كلمات الفاتحة على إبطالها. فنقول: الناس قسمان: مقر بالحق تعالى، وجاحد له. فتضمنت الفاتحة إثبات الخالق تعالى، والرد على من جحده، بإثبات ربوبيته تعالى للعالمين.

وتأمل حال العالم كله، عُلْويه وسُفْليه، بجميع أجزائه: تجده شاهداً بإثبات صانعه وفاطره ومليكه. فإنكار صانعه وجحده فى العقول والفطر بمنزلة إنكار العلم وجحده، لافرق بينهما، بل دلالة الخالق على المخلوق، والفعال على الفعل، والصانع على أحوال المصنوع عند العقول الزكية المشرقة العلوية، والفطر الصحيحة: أظهر من العكس.

فالعارفون أرباب البصائر يستدلون بالله على أفعاله وصنعه، إذا استدل الناس بصنعه وأفعاله عليه. ولا ريب أنهما طريقان صحيحان، كل منهما حق؛ والقرآن مشتمل عليهما.

فأما الاستدلال بالصنعة فكثير. وأما الاستدلال بالصانع فله شأن. وهو الذى أشارت إليه الرسل بقولهم لأممهم ﴿أفى الله شك﴾ [1] أى أيشك فى الله حتى يطلب إقامة الدليل على وجوده ؟ وأى دليل أصح وأظهر من هذا المدلول ؟ فكيف يستدل على الأظهر بالأخفى؟ثم نبهوا على الدليل بقولهم: ﴿فاطر السموات والأرض﴾[2].

وسمعت شيخ الإسلام تقى الدين بن تيمية - قدس الله روحه - يقول : كيف يطلب الدليل على من هو دليل على كل شىء ؟ وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت :

وليس يصح فى الأذهان شىء ... إذا احتاج النهار إلى دليل

ومعلوم أن وجود الرب تعالى أظهر للعقول والفطر من وجود النهار ، ومن لم ير ذلك فى عقله وفطرته فليتهمها.

(الرد على المجوس والقدرية)

والمقرون بالرب سبحانه وتعالى : أنه صانع العالم نوعان:

نوع ينفى مباينته لخلقه ، ويقولون : لا مباين ولا محايث، ولا داخل العالم ولا خارجه ، ولا فوقه ولا تحته ، ولا عن يمينه ولا عن يساره، ولا خلفه ولا أمامه ، ولا فيه ولا بائن عنه.

فتضمنت الفاتحة الرد على هؤلاء من وجهين[3].

أحدهما : إثبات ربوبيته تعالى للعالم . فإن الربوبية المحضة تقتضى مباينة الرب للعالم بالذات ،كما باينهم بالربوبية ، وبالصفات والأفعال ، فمن لم يثبت رباً مباينا

---

(1) سورة إبراهيم الآية ١٠. (2) سورة فاطر: الآية ١

(3) لم يذكر إلا وجهًا واحدًا.

للعالم ، فما أثبت رباً. فإنه إذا نفى المباينة لزمه أحد أمرين ، لزوماً لا انفكاك له عنه ألبتة: إما أن يكون هو نفس هذا العالم. وحينئذ يصح قوله. فإن العالم لا يباين ذاته ونفسه . ومن ههنا دخل أهل الوحدة، وكانوا معطلة أولاً ، واتحادية ثانياً.

وإما أن يقول : ما ثم رب يكون مبايناً ولا محايثاً ، ولا داخلاً ولا خارجاً ، كما قالته الدهرية المعطلة للصانع .

وأما هذا القول الثالث المشتمل على جمع النقيضين : إثبات رب مغاير للعالم مع نفى مباينته للعالم ، وإثبات خالق قائم بنفسه لا فى العالم ولا خارج العالم ، ولا فوق العالم ولا تحته ، ولا خلفه ولا أمامه ، ولا يَمْنته ولا يَسْرته : فقول له خَبِيء . والعقول لا تتصوره حتى تصدق به . فإذا استحال فى العقل تصوره . فاستحالة التصديق به أظهر وأظهر . وهو منطبق على العدم المحض ، والنفى الصرف . وصدقه عليه أظهر عند العقول والفطر من صدقه على رب العالمين .

فضع هذا النفى وهذه الألفاظ الدالة عليه على العدم المستحيل . ثم ضعها على الذات العلية القائمة بنفسها ، التى لم تحل فى العالم ، ولا حل العالم فيها ، ثم انظر أى المعلومين أولى به ؟

واستيقظ لنفسك ، وقم لله قومة مفكر فى نفسه فى الخلوة فى هذا الأمر ، متجرد عن المقالات وأربابها ، وعن الهوى والحميّة والعصبية ، صادقاً فى طلب الهداية من الله. فالله أكرم من أن يخيب عبداً هذا شأنه. وهذه المسألة لا تحتاج إلى أكثر من إثبات رب قائم بنفسه ، مباين لخلقه . بل هذا نفس ترجمتها.

(الرد على الجهمية)

ثم المثبتون للخالق تعالى نوعان:

أهل توحيد ، وأهل إشراك . وأهل الإشراك نوعان:

أحدهما : أهل الإشراك به فى ربوبيته وإلهيته ، كالمجوس ومن ضاهاهم من القدرية. فإنهم يثبتون مع الله خالقاً آخر، وإن لم يقولوا : إنه مكافىء له . والقدرية المجوسية تثبت مع الله خالقين للأفعال ، ليست أفعالهم مقدورة لله ، ولا مخلوقه لهم . وهى صادرة بغير مشيئته . ولا قدرة له عليها ، ولا هو الذى جعل أربابها فاعلين لها ، بل هم الذين جعلوا أنفسهم شائين مريدين فاعلين .

فربوبية العالم الكاملة المطلقة الشاملة تبطل أقوال هؤلاء كلهم لأنها تقتضى ربوبيته لجميع ما فيه من الذوات والصفات والحركات والأفعال .

وحقيقة قول القدرية المجوسية : أنه تعالى ليس رباً لأفعال الحيوان ، ولا تناولتها ربوبيته. وكيف تتناول ما لا يدخل تحت قدرته ومشيئته وخلقه ؟ مع أن فى عموم حمده ما يقتضى حمده على طاعات خلقه . إذ هو المُعين عليها والموفق لها . وهو الذى شاءها منهم، كما قال فى غير موضع من كتابه ﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله﴾[1] فهو محمود على أن شاءها لهم ، وجعلهم فاعليها بقدرته ومشيئته . فهو المحمود عليها فى الحقيقة . وعندهم :أنهم هم المحمودون عليها ، ولهم الحمد على فعلها . وليس لله حمد على نفس فاعليتها عندهم،ولا على ثوابه وجزائه عليها . أما الأول: فلأن فاعليتها بهم لا به. وأما الثانى: فلأن الجزاء مستحق عليه استحقاق الأجرة على المستأجر. فهو محض حقهم، الذى عاوضوه عليه .

وفى قوله : (وإياك نستعين) رد ظاهر عليهم . إذ استعانتهم به إنما تكون عن شىء هو بيده وتحت قدرته ومشيئته. فكيف يستعين من بيده الفعل وهو موجده ، إن شاء أوجده وإن شاء لم يُوجِدْه ، بمن ليس ذلك الفعل بيده ولا هو داخل تحت قدرته ولا مشيئته؟

وفى قوله:(اهدنا الصراط المستقيم) أيضاً رد عليهم. فإن الهداية المطلقة التامة هى المستلزمة لحصول الاهتداء. ولولا أنها بيده تعالى دونهم لما سألوه إياها. وهى المتضمنة للإرشاد والبيان، والتوفيق والإقدار، وجعلهم مهتدين. وليس مطلوبهم مجرد البيان والدلالة، كما ظنته القدرية. لأن هذا القدر وحده لا يوجب الهدى، ولا ينجى من الردى. وهو حاصل لغيرهم من الكفار، الذين استحبوا العمى على الهدى، واشتروا الضلالة بالهدى .

النوع الثانى : أهل الإشراك به فى إلهيته وهم المقرون بأنه وحده رب كل شىء ، ومليكه وخالقه ، وأنه ربهم ورب آبائهم الأولين ، ورب السموات السبع ، ورب العرش العظيم . وهم مع هذا يعبدون غيره ، ويعدلون به سواه فى المحبة والطاعة والتعظيم وهم الذين اتخذوا من دون الله أنداداً . فهؤلاء لم يوفوا «إياك نعبد» حقه ، وإن كان لهم نصيب من «نعبدك» لكن ليس لهم نصيب من «إياك نعبد» المتضمن معنى لا نعبد إلا إياك، حباً وخوفاً ورجاء وطاعة وتعظيماً، فـ «إياك نعبد» تحقيق لهذا التوحيد ، وإبطال للشرك فى الإلهية ، كما أن «إياك نستعين » تحقيق لتوحيد الربوبية، وإبطال للشرك به

---

(١) سورة الإنسان : الآية ٣٠

فيها، وكذلك قوله ﴿اهدنا الصراط المستقيم ● صراط الذين أنعمت عليهم﴾ فإنهم أهل التوحيد، وهم أهل تحقيق «إياك نعبد ، وإياك نستعين» وأهل الإشراك : هم أهل الغضب والضلال.

(فى تضمنها الرد على الجهمية معطلة الصفات)

وذلك من وجوه :

أحدها: من قوله (الحمد لله) فإن إثبات الحمد الكامل له يقتضى ثبوت كل ما يحمد عليه، من صفات كماله، ونعوت جلاله. إذ من عدم صفات الكمال فليس بمحمود على الإطلاق. وغايته: أنه محمود من وجه دون وجه. ولا يكون محموداً بكل وجه، وبكل اعتبار، بجميع أنواع الحمد: إلا من استولى على صفات الكمال جميعها. فلو عدم منها صفة واحدة لنقص من حمده بحسبها.

وكذلك فى إثبات صفة الرحمة له : ما يتضمن إثبات الصفات التى تستلزمها : من الحياة ، والإرادة والقدرة ، والسمع والبصر ، وغيرها.

وكذلك صفة الربوبية : تستلزم جميع صفات الفعل وصفة الإلهية تستلزم جميع أوصاف الكمال : ذاتا وأفعالاً ، كما تقدم بيانه.

فكونه محموداً إلهاً رباً ، رحماناً ، رحيماً ، ملكاً معبوداً ، مستعاناً ، هادياً منعماً، يرضى ويغضب - مع نفى قيام الصفات به : جمع بين النقيضين . وهو من أمحل المحال.

وهذه الطريق تتضمن إثبات الصفات الخبرية من وجهين :

أحدهما : أنها من لوازم كماله المطلق . فإن استواءه على عرشه من لوازم علوه ، ونزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا فى نصف الليل الثانى: من لوازم رحمته وربوبيته . وهكذا سائر الصفات الخبرية .

الوجه الثانى : أن السمع ورد بها . ثناء على الله ومدحاً له ، وتعرفاً منه إلى عباده بها . فجحدها وتحريفها عما دلت عليه ، وعما أريد بها: مناقض لما جاءت به . فلك أن تستدل بطريق السمع على أنها كمال ، وأن تستدل بالعقل كما تقدم .

(فى تضمنها للرد على الجبرية)[1]

وذلك من وجوه:

أحدها : من إثبات عموم حمده سبحانه فإنه يقتضى أن لا يعاقب عبيده على لا قدرة لهم عليه، ولا هو من فعلهم .بل هو بمنزلة ألوانهم، وطولهم وقصرهم، بل هو يعاقبهم على نفس فعله بهم. فهو الفاعل لقبائحهم فى الحقيقة . وهو المعاقب لهم عليها . فحمده عليها يأبى ذلك أشد الإباء ، وينفيه أعظم النفى . فتعالى من له الحمد كله عن ذلك علواً كبيراً ، بل إنما يعاقبهم على نفس أفعالهم التى فعلوها حقيقة . فهى أفعالهم لا أفعاله . وإنما أفعاله العدل ، والإحسان والخيرات.

الوجه الثانى : إثبات رحمته ورحمانيته ينفى ذلك . إذ لا يمكن اجتماع هذين الأمرين قط - أن يكون رحماناً رحيماً - ويعاقب العبد على ما لا قدرة له عليه ، ولا هو من فعله ، بل يكلفه ما لا يطيقه ، ولا له عليه قدرة ألبتة ، ثم يعاقبه عليه . وهل هذا إلا ضد الرحمة . ونقض لها وإبطال ؟ وهل يصح فى معقول أحد اجتماع ذلك ، والرحمة التامة الكاملة ، فى ذات واحدة ؟

الوجه الثالث : إثبات العبادة والاستعانة لهم ، ونسبتها إليهم ، بقولهم «نعبد ، ونستعين» وهى نسبة حقيقية لا مجازية . والله لا يصح وصفه بالعبادة والاستعانة التى هى من أفعال عبيده ، بل العبد حقيقة هو العابد المستعين . والله هو المعبود المستعان به .

(فصل)

(فى بيان تضمنها للرد على منكرى النبوات)

وذلك من وجوه :

أحدها : إثبات حمده التام . فإنه يقتضى كمال حكمته ، وأن لا يخلق خلقه عبثاً، ولا يتركهم سدى ، لا يُؤمَرون ولا يُنَهون . ولذلك نزه الله نفسه عن هذا فى غير موضع من كتابه . وأخبر أن من أنكر الرسالة والنبوة ، وأن يكون ما أنزل على بشر من شىء - فإنه ما عرفه حق معرفته ، ولا عظَّمه حق تعظيمه ، ولا قدره حق قدره ، بل نسبه إلى ما لا يليق به ، ويأباه حمده ومجده.

فمن أعطى الحمد حقه - علماً ومعرفة وبصيرة - استنبط منه «أشهد أن محمداً

---

(١) الجبرية: فرقة ضالة تزعم أن الإنسان ليس له أى اختيار فى أفعاله وأنه مجبر على فعل الخير والشر.

رسول الله» كما يستنبط منه «أشهد أن لا إله إلا الله» وعلم قطعاً أن تعطيل النبوات فى منافاته للحمد ، كتعطيل صفات الكمال ، وكإثبات الشركاء والأنداد.

الثانى : إلهيته، وكونه إلهاً . فإن ذلك مستلزم لكونه معبوداً مطاعاً . ولا سبيل إلى معرفة ما يُعْبد به ويطاع إلا من جهة رسله .

الثالث: كونه رباً. فإن الربوبية تقتضى أمر العباد ونهيهم. وجزاء محسنهم بإحسانه، ومسيئهم بإساءته. هذا حقيقة الربوبية. وذلك لا يتم إلا بالرسالة والنبوة .

الرابع: كونه رحماناً رحيماً . فإن من كمال رحمته : أن يُعَرِّف عباده نفسه وصفاته ويدلهم على ما يقربهم إليه ، ويباعدهم منه . ويثيبهم على طاعته ، ويجزيهم بالحسنى . وذلك لا يتم إلا بالرسالة والنبوة . فكانت رحمته مقتضية لها.

الخامس: ملكه . فإن المُلك يقتضى التصرف بالقول ، كما أن الملك يقضى التصرف بالفعل . فالملك هو المتصرف بأمره وقوله ، فتنفذ أوامره ومراسيمه حيث شاء . والمالك هو المتصرف فى ملكه بفعله . والله له المُلك وله المِلك. فهو المتصرف فى خلقه بالقول والفعل .

وتصرفه بقوله نوعان : تصرف بكلماته الكونية ، وتصرف بكلماته الدينية ، وكمال الملك بهما. فإرسال الرسل : موجب كمال ملكه وسلطانه ، وهذا هو الملك المعقول فى فطر الناس وعقولهم . فكل ملك لا تكون له رسل يبثهم فى أقطار مملكته فليس بملك .

وبهذه الطريق يعلم وجود ملائكته ، وأن الإيمان بهم من لوازم الإيمان بملكه فإنهم رسل الله فى خلقه وأمره.

السادس: ثبوت «يوم الدين» وهو يوم الجزاء، الذى يدين الله فيه العباد بأعمالهم خيراً وشراً . وهذا لا يكون إلا بعد ثبوت الرسالة والنبوة ، وقيام الحجة التى بسببها يُدان المطيع والعاصى .

السابع: كونه معبوداً . فإنه لا يُعبد إلا بما يحبه ويرضاه . ولا سبيل للخلق إلى معرفة ما يحبه ويرضاه إلا من جهة رسله : فإنكار رسله إنكار لكونه معبوداً

الثامن: كونه هادياً إلى الصراط المستقيم. وهو معرفة الحق والعمل به، وهو أقرب الطرق الموصلة إلى المطلوب. فإن الخط المستقيم : هو أقرب خط موصل بين نقطتين. وذلك لا يُعلم إلا من جهة الرسل . فتوقفه على الرسل ضرورى ، أعظم من توقف الطريق الحسى على سلامة الحواس .

التاسع : كونه منعماً على أهل الهداية إلى الصراط المستقيم . فإن إنعامه عليهم إنما تم بإرسال الرسل إليهم ، وجعلهم قابلين الرسالة ، مستجيبين لدعوته . وبذلك ذكّرهم منته عليهم وإنعامه في كتابه.

العاشر : انقسام خلقه إلى منّعَم عليهم ، ومغضوب عليهم ، وضالين . فإن هذا الانقسام ضرورى - بحسب انقسامهم فى معرفة الحق ، والعمل به - إلى عالم به ، عامل بموجبه . وهم أهل النعمة . وعالم به معاند له . وهم أهل الغضب . وجاهل به وهم الضالون. هذا الانقسام إنما نشأ بعد إرسال الرسل . فلولا الرسل لكانوا أمة واحدة . فانقسامهم إلى هذه الأقسام مستحيل بدون الرسالة . وهذا الانقسام ضرورى بحسب الواقع . فالرسالة ضرورية.

وقد تبين لك بهذه الطريق ، والتى قبلها : بيان تضمنها للرد على من أنكر المعاد الجسمانى ، وقيامة الأبدان . وعرفت اقتضاءها ضرورة لثبوت الثواب والعقاب والأمر والنهى . وهو الحق الذى خلقت به وله السموات والأرض ، والدنيا والآخرة . وهو مقتضى الخلق والأمر، ونفيه نفى لهما .

(إذا ثبتت النبوات والرسالة ثبتت صفة التكلم والتكليم)

فإن حقيقة الرسالة : تبليغ كلام المرسل . فإذا لم يكن ثَمّ كلام فماذا يبلغ الرسول ؟ بل كيف يُعْقَل كونه رسولاً ؟ ولهذا قال غير واحد من السلف : من أنكر أن يكون الله متكلماً ، أو يكون القرآن كلامه : فقد أنكر رسالة محمد ﷺ ، بل ورسالة جميع الرسل، التى حقيقتها : تبليغ كلام الله تبارك وتعالى . ولهذا قال منكرو رسالته ﷺ عن القرآن ﴿إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر﴾[1] وإنما عنوا القرآن المسموع الذى بلّغوه وأنذروا به .

فمن قال : إن الله لم يتكلم به ، فقد ضاهأ قوله قولهم . تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

(فى بيان تضمنها للرد على الرافضة [2])

وذلك من قوله : (اهدنا الصراط المستقيم) إلى آخرها .

---

(١) سورة المدثر : الآية ٢٤ - ٢٥.

(٢) الرافضة: هم الشيعة الذين يسبون أصحاب النبى ﷺ، بل ويكفرونهم، كما أن للرافضة أيضا اعتقادات كفرية كثيرة، كالقول بتحريف القرآن، وعصمة الأئمة وغير ذلك قبحهم الله.

ووجه تضمنه إبطال قولهم : أنه سبحانه قسم الناس إلى ثلاثة أقسام «منعم عليهم» وهم أهل الصراط المستقيم ، الذين عرفوا الحق واتبعوه .

و«مغضوب عليهم» وهم الذين عرفوا الحق ورفضوه . و«ضالون» وهم الذين جهلوه فأخطأوه.

فكل من كان أعرف للحق ، وأتبع له ، كان أولى بالصراط المستقيم .

ولا ريب أن أصحاب رسول الله ﷺ ، ورضى الله عنهم ، هم أولى بهذه الصفة من الروافض . فإنه من المحال أن يكون أصحاب رسول الله ﷺ - ورضى الله عنهم - جهلوا الحق وعرفه الروافض ، أورفضوه وتمسك به الروافض .

ثم إنا رأينا آثار الفريقين تدل على أهل الحق منهما . فرأينا أصحاب رسول الله ﷺ فتحوا بلاد الكفر ، وقلبوها بلاد إسلام . وفتحوا القلوب بالقرآن والعلم والهدى . فآثارهم تدل على أنهم هم أهل الصراط المستقيم . ورأينا الرافضة بالعكس فى كل زمان ومكان . فإنه قط ما قام للمسلمين عدو من غيرهم إلا كانوا أعوانهم على الإسلام . وكم جروا على الإسلام وأهله من بلية؟ وهل عاثت سيوف المشركين عبّاد الأصنام - من عسكر هولاكو وذويه من التتار - إلا من تحت رؤوسهم ؟ وهل عُطّلت المساجد ، وحرقت المصاحف ، وقتل سروات المسلمين وعلماؤهم وعبادهم وخليفتهم ، إلا بسببهم ومن جرائهم ؟ ومظاهرتهم للمشركين والنصارى معلومة عند الخاصة والعامة ، وآثارهم فى الدين معلومة. فأى الفريقين أحق بالصراط المستقيم ؟ وأيهم أحق بالغضب والضلال ، إن كنتم تعلمون؟

ولهذا فسّر السلف الصراط المستقيم وأهله : بأبى بكر وعمر ، وأصحاب رسول الله ﷺ ، ورضى الله عنهم ، وهو كما فسروه . فإنه صراطهم الذى كانوا عليه . وهو عين صراط نبيهم . وهم الذين أنعم الله عليهم، وغضب على أعدائهم، وحكم لأعدائهم بالضلال ، وقال أبو العالية - رفيع الرياحى - والحسن البصرى، وهما من أجل التابعين «الصراط المستقيم : رسول الله ﷺ وصاحباه » وقال أبو العالية أيضاً فى قوله : «صراط الذين أنعمت عليهم: هم آل رسول الله ﷺ [1] ، وأبو بكر وعمر» وهذا حق . فإن آله وأبا بكر وعمر على طريق واحدة . ولا خلاف بينهم ، وموالاة بعضهم بعضاً ، وثناؤهم عليهما ، ومحاربة من حاربا ، ومسالمة من سالما : معلومة عند الأمة . خاصها وعامها .

(١) الآل: كل من يؤول الى النبى ﷺ بأخص صفاته وأبرز مزاياه.

وقال زيد بن أسلم «الذين أنعم الله عليهم : هو رسول الله ﷺ ، وأبو بكر وعمر».

ولا ريب أن المُنْعمَ عليهم : هم أتباعه ، والمغضوب عليهم : هم الخارجون عن أتباعه ، وأتبع الأمة له وأطوعهم : أصحابه وأهل بيته . وأتبع الصحابة له : السمع والبصر، أبو بكر وعمر. وأشد الأمة مخالفة له: هم الرافضة ، فخلافهم له معلوم عند جميع فرق الأمة. ولهذا يبغضون السنة وأهلها ، ويعادونها ويعادون أهلها. فهم أعداء سنته ﷺ. وأهل بيته وأتباعه من بنيهم أكمل ميراثاً ؟ بل هم ورثته حقاً.

فقد تبين أن الصراط المستقيم : طريق أصحابه وأتباعه . وطريق أهل الغضب والضلال : طريق الرافضة.

وبهذه الطريق - بعينها - يُرد على الخوارج . فإن معاداتهم الصحابة معروفة .

(الفاتحة واشتمالها على جميع معانى القرآن)

وسر الخلق والأمر ، والكتب والشرائع ، والثواب والعقاب : انتهى إلى هاتين الكلمتين . وعليهما مدار العبودية والتوحيد . حتى قيل : أنزل الله مائة كتاب وأربعة كتب . جمع معانيها فى التوراة والإنجيل والقرآن وجمع معانى هذه الكتب الثلاثة فى القرآن. وجمع معانى القرآن فى المفصل. وجمع معانى المفصل فى الفاتحة، فى «إياك نعبد وإياك نستعين».

وهما الكلمتان المقسومتان بين الرب وبين عبده نصفين . فنصفهما له تعالى وهو «إياك نعبد» ونصفهما لعبده . وهو « إياك نستعين».

وسيأتى سر هذا ومعناه إن شاء الله فى موضعه.

و«العبادة» تجمع أصلين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع . والعرب تقول: طريق معبد أى مذلل. والتعبد: التذلل والخضوع. فمن أحببته ولم تكن خاضعاً له، لم تكن عابداً له . ومن خضعت له بلا محبة، لم تكن عابداً له، حتى تكون محباً خاضعاً . ومن ههنا كان المنكرون محبة العباد لربهم منكرين حقيقة العبودية ، والمنكرون لكونه محبوباً لهم . بل هو غاية مطلوبهم - ووجهه الأعلى نهاية بغيتهم - : منكرين لكونه إلهاً ، وإن أقروا بكونه رباً للعالمين وخالقاً لهم . فهذا غاية توحيدهم وهو توحيد الربوبية ، الذى اعترف به مشركو العرب ، ولم يخرجوا به عن الشرك،كما قال تعالى ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ؟ ليقولن الله﴾[2] ﴿قل

(١) سورة الزخرف الآية ٨٧ (٢) سورة الزمر الآية ٣٨

لمن الأرض ومن فيها ؟ - إلى قوله - سيقولون لله ، قل فأنى تسحرون ؟﴾[1] ولهذا يحتج عليهم به على توحيد إلهيته ، وأنه لا ينبغى أن يعبد غيره ، كما أنه لا خالق غيره ، ولا رب سواه .

و«الاستعانة » تجمع أصلين : الثقة بالله ، والاعتماد عليه . فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس ، ولا يعتمد عليه فى أموره - مع ثقته به - لاستغنائه عنه . وقد يعتمد عليه - مع عدم ثقته به - لحاجته إليه ، ولعدم من يقوم مقامه . فيحتاج إلى اعتماده عليه . مع أنه غير واثق به .

و«التوكل » معنى يلتئم من أصلين : من الثقة ، والاعتماد . وهو حقيقة «إياك نعبد وإياك نستعين» وهذان الأصلان - وهما التوكل ، والعبادة - قد ذكرا فى القرآن فى عدة مواضع ، قُرِنَ بينهما فيها . هذا أحدها .

الثانى: قول شعيب ﴿وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب ﴾[2].

الثالث: قوله تعالى : ﴿ولله غيب السموات والأرض ، وإليه يرجع الأمر كله ، فاعبده وتوكل عليه ﴾[3].

الرابع: قوله تعالى حكاية عن المؤمنين:﴿ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير﴾[4]

الخامس:قوله تعالى : ﴿واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً . رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو ، فاتخذه وكيلاً ﴾[5].

السادس: قوله تعالى: ﴿قل : هو ربى . لا إله إلا هو ، عليه توكلت وإليه متاب﴾[6].

فهذه ستة مواضع يجمع فيها بين الأصلين . وهما «إياك نعبد وإياك نستعين ».

وتقديم «العبادة» على «الاستعانة» فى الفاتحةمن باب تقديم الغايات على الوسائل. إذ «العبادة» غاية العباد التى خلقوا لها ، و«الاستعانة» وسيلة إليها. ولأن «إياك نعبد» متعلق بألوهيته واسمه «الله» و«إياك نستعين» متعلق بربوبيته واسمه «الرب» فقدم «إياك نعبد» على «إياك نستعين»كما قدم اسم «الله»على«الرب»فى أول السورة. ولأن «إياك نعبد» قسم الرب. فكان من الشطر الأول، الذى هو ثناء على الله تعالى، لكونه أولى به. و«إياك نستعين»

(١) سورة الحج الآيات (٨٤ - ٨٩).
(٢) سورة هود الآية ٨٨.
(٣) سورة يونس الاية ٢٣.
(٤) سورة الممتحنة الآية ٤.
(٥) سورة الزمر (٨ - ٩)
(٦) سورة الرعد الآية ٣٠.

قسم العبد. فكان من الشطر الذى له، وهو «إهدنا الصراط المستقيم » إلى آخر السورة .

ولأن «العبادة» المطلقة : تتضمن «الاستعانة » من غير عكس . فكل عابد لله عبودية تامة: مستعين به ولا ينعكس . لأن صاحب الأغراض والشهوات قد يستعين به على شهواته . فكانت العبادة أكمل وأتم . ولهذا كانت قسم الرب.

ولأن «الاستعانة » جزء من «العبادة » من غير عكس . ولأن «الاستعانة » طلب منه، و«العبادة» طلب له .

ولأن العبادة لا تكون إلا من مخلص ، و «الاستعانة» تكون من مخلص ومن غير مخلص .

ولأن «العبادة » حقه الذى أوجبه عليك . و «الاستعانة» طلب العون على العبادة . وهو بيان صدقته التى تصدق بها عليك . وأداء حقه : أهم من التعرض لصدقته.

ولأن «العبادة » شكر نعمته عليك ، والله يحب أن يشكر ، و«الإعانة» فعله بك وتوفيقه لك . فإذا التزمت عبوديته ، ودخلت تحت رقها أعانك عليها . فكان التزامها والدخول تحت رقها سبباً لنيل الإعانة . وكلما كان العبد أتم عبودية كانت الإعانة من الله له أعظم.

و«العبودية» محفوفة بإعانتين : إعانة قبلها على التزامها والقيام بها ، وإعانة بعدها على عبودية أخرى و هكذا أبداً ، حتى يقضى العبد نحبه .

ولأن « إياك نعبد » له . و«إياك نستعين » به . وما له مقدم على ما به . لأن ماله متعلق بمحبته ورضاه . وما به متعلق بمشيئته. وما تعلق بمحبته أكمل مما تعلق بمجرد مشيئته، فإن الكون كله متعلق بمشيئته ، والملائكة والشياطين والمؤمنون والكفار ، والطاعات والمعاصى . والمتعلق بمحبته: طاعتهم وإيمانهم . فالكفار أهل مشيئته ، والمؤمنون أهل محبته . ولهذا لا يستقر فى النار شىء لله أبداً . وكل ما فيها فإنه به تعالى وبمشيئته .

فهذه الأسرار يتبين بها حكمة تقديم «إياك نعبد »على «إياك نستعين ».

وأما تقديم المعبود والمستعان على الفعلين ،ففيه : أدبهم مع الله بتقديم اسمه على فعلهم . وفيه الاهتمام وشدة العناية به . وفيه الإيذان بالاختصاص ، المسمى بالحصر ، فهو فى قوة : لا نعبد إلا إياك ، ولا نستعين إلا بك . والحاكم فى ذلك ذوق العربية والفقه فيها، واستقراء موارد استعمال ذلك مقدماً . وسيبويه نص على الاهتمام ، ولم ينف غيره.

ولأنه يقبح من القائل : أن يعتق عشرة أعبد مثلاً ، ثم يقول لأحدهم : إياك أعتقت. ومن سمعه أنكر ذلك عليه ، وقال : وغيره أيضاً أعتقت . ولولا فهم الاختصاص لما قبح هذا الكلام ، ولا حسن إنكاره .

وتأمل قوله تعالى : ﴿وإياى فارهبون﴾[1] ﴿وإياى فاتقون﴾[2] كيف تجده فى قوة : لا ترهبوا غيرى ، ولا تتقوا سواى ؟ وكذلك « إياك نعبد وإياك نستعين » هو فى قوة: لا نعبد غيرك . ولا نستعين بسواك . وكل ذى ذوق سليم يفهم هذا الاختصاص من علة السياق.

وفى إعادة «إياك» مرة أخرى دلالة على تعلق هذه الأمور بكل واحد من الفعلين . ففى إعادة الضمير من قوة الاقتضاء لذلك ماليس فى حذفه ، فإذا قلت لملك مثلاً : إياك أحب ، وإياك أخاف. كان فيه من اختصاص الحب والخوف بذاته، والاهتمام بذكره ، ماليس فى قولك: إياك أحب وأخاف .

(تقسيم الناس إلى أهل عبادة ومعرضين)

إذا عرفت هذا، فالناس فى هذين الأصلين - وهما العبادة والاستعانة - أربعة أقسام.

القسم الأول : أجلها وأفضلها : أهل العبادة والاستعانة بالله عليها . فعبادة الله غاية مرادهم وطلبهم منه أن يعينهم عليها، ويوفقهم للقيام بها. ولهذا كان من أفضل ما يُسأل الرب تبارك وتعالى : الإعانة على مرضاته . وهو الذى علمه النبى ﷺ للنحب معاذ بن جبل رضى الله عنه ، فقال « يا معاذ ، والله إنى لأحبك . فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»[3].

فأنفع الدعاء : طلب العون على مرضاته . وأفضل المواهب : إسعافه بهذا المطلوب .وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا ، وعلى دفع ما يضاده ، وعلى تكميله وتيسير أسبابه . فتأملها .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - :تأملت أنفع الدعاء : فإذا هو سؤال العون على مرضاته . ثم رأيته فى الفاتحة فى «إياك نعبد وإياك نستعين».

ومقابل هؤلاء:

القسم الثانى : وهم المعرضون عن عبادته والاستعانة به . فلا عبادة ولا استعانة . بل

(١) سورة البقرة الآية : ٤٠ (٢) سورة البقرة: الآية ٤١

(٣)صحيح، رواه أحمد (٥/(٢٤٤) و ابن خزيمة (٧٥١)، وابن حبان (٢٠١٧. ـ احسان)

إن سأله أحدهم واستعان به ، فعلى حظوظه وشهواته ، لا على مرضاة ربه وحقوقه . فإنه سبحانه يسأله من فى السموات والأرض : يسأله أولياؤه وأعداؤه ويمد هؤلاء وهؤلاء . وأبغض خلقه : عدوه إبليس ، ومع هذا فقد سأله حاجة فأعطاه إياها ، ومتعه بها . ولكن لما لم تكن عوناً له على مرضاته . كانت زيادة له فى شقوته، وبُعْده عن الله وطرده عنه. وهكذا كل من استعان به على أمر وسأله إياه ، ولم يكن عوناً على طاعته : كان مبعداً له عن مرضاته ، قاطعاً له عنه ولا بد.

وليتأمل العاقل هذا فى نفسه وفى غيره . وليعلم أن إجابة الله لسائليه ليست لكرامة السائل عليه ، بل يسأل عبده الحاجة فيقضيها له ، وفيها هلاكه وشقوته . ويكون قضاؤها له من هوانه عليه وسقوطه من عينه . ويكون منعه منها لكرامته عليه ومحبته له . فيمنعه حماية وصيانة وحفظاً لا بخلاً . وهذا إنما يفعله بعبده الذى يريد كرامته ومحبته ، ويعامله بلطفه . فيظن - بجهله - أن الله لا يحبه ولا يكرمه . ويراه يقضى حوائج غيره ، فيسىء ظنه بربه . وهذا حشو قلبه ولا يشعر به . والمعصوم من عصمه الله . والإنسان على نفسه بصيرة وعلامة هذا : حمله على الأقدار . وعتابه الباطن لها . كما قيل :

وعــاجــز الرأى مضـياع لفرصته ... حـتى إذا فـات أمر عـاتب القـدرا

فوالله لو كشف عن حاصله وسره لرأى هناك معاتبة القدر واتهامه ، وأنه قد كان ينبغى أن يكون كذا وكذا ، ولكن ما حيلتى ، والأمر ليس إلى ؟ والعاقل خصم نفسه . والجاهل خصم أقدار ربه.

فاحذر كل الحذر أن تسأله شيئاً معيناً خيرته وعاقبته مغيبة عنك . وإذا لم تجد من سؤاله بدأ ، فعلقه على شرط علمه تعالى فيه الخيرة . وقدم بين يدى سؤالك الاستخارة . ولا تكن استخارة باللسان بلا معرفة ، بل استخارة من لا علم له بمصالحه ، ولا قدرة له عليها ، ولا اهتداء له إلى تفاصيلها . ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، بل إن وكل إلى نفسه هلك كل الهلاك ،وانفرط عليه أمره .

وإذا أعطاك ما أعطاك بلا سؤال : تسأله أن يجعله عوناً لك على طاعته وبلاغاً إلى مرضاته، ولا يجعله قاطعاً لك عنه ، ولا مبعداً عن مرضاته . ولا تظن أن عطاءه كل ما أعطى لكرامة عبده عليه ؛ ولا منعه كل ما يمنعه لهوان عبده عليه ، ولكن عطاؤه ومنعه ابتلاء وامتحان ، يمتحن بهما عباده . قال الله تعالى :﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه ، فيقول : ربى أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول : ربى أهانن

كلا ﴾[1] أى ليس كل من أعطيته ونعمته وخولته : فقد أكرمته ، وما ذاك لكرامته على . ولكنه ابتلاء منى ، وامتحان له : أيشكرنى فأعطيه فوق ذلك ، أم يكفرنى فأسلبه إياه ، وأخول فيه غيره ؟ وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه ، وجعلته بقدر لا يفضل عنه ، فذلك من هوانه على ، ولكنه ابتلاء وامتحان منى له : أيصبر ؟ فأعطيه أضعاف أضعاف ما فاته من سعة الرزق . أم يتسخط ؟ فيكون حظه السخط .

فرد الله سبحانه على من ظن أن سعة الرزق إكرام ، وأن الفقر إهانة ، فقال : لم أبتل عبدى بالغنى لكرامته على ، ولم أبتله بالفقر لهوانه على. فأخبر أن الإكرام، والإهانة لايدوران على المال وسعة الرزق وتقديره . فإنه سبحانه يوسع على الكافر لا لكرامته، ويقتر على المؤمن لا لإهانته . إنما يكرم من يكرمه بمعرفته ومحبته وطاعته، ويهين من يهينه بالإعراض عنه ومعصيته . فله الحمد على هذا وعلى هذا . وهو الغنى الحميد .

فعادت سعادة الدنيا والآخرة إلى «إياك نعبد وإياك نستعين».

القسم الثالث : من له نوع عبادة بلا استعانة. وهؤلاء نوعان:أحدهما : القدرية ، القائلون بأنه قد فعل بالعبد جميع مقدوره من الألطاف ، وأنه لم يبق فى مقدوره إعانة له على الفعل . فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها ، وتعريف الطريق ، وإرسال الرسل ، وتمكينه من الفعل . فلم يبق بعد هذا إعانة مقدورة يسأله إياها . بل قد ساوى بين أوليائه وأعدائه فى الإعانة. فأعان هؤلاء كما أعان هؤلاء . ولكن أولياءه اختاروا لنفوسهم الإيمان، وأعداءه اختاروا لنفوسهم الكفر ، من غير أن يكون الله سبحانه وفق هؤلاء بتوفيق زائد ، أوجب لهم الإيمان . وخذل هؤلاء بأمر آخر، أوجب لهم الكفر . فهؤلاء لهم نصيب منقوص من العبادة لا استعانة معه . فهم موكولون إلى أنفسهم . مسدود عليهم طريق الاستعانة والتوحيد . قال ابن عباس رضى الله عنهما : الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن آمن بالله وكذّب بقدره نقض تكذيبه توحيده

النوع الثانى : من لهم عبادات وأوراد ، ولكن حظهم ناقص من التوكل والاستعانة ، لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر ، وتلاشيها فى ضمنه ، وقيامها به ، وأنها بدون القدر كالموات الذى لا تأثير له ، بل كالعدم الذى لا وجود له ، وأن القدر كالروح المحرك لها ، والمعول على المحرك الأول .

فلم تنفذ قوى بصائرهم من المتحرك إلى المحرك ، ومن السبب إلى المسبب . ومن

---

(١) سورة الفجر الآية : (١٥و١٦).

الآلة إلى الفاعل . فضعفت عزائمهم وقصرت هممهم ، فقل نصيبهم من «إياك نستعين» ولم يجدوا ذوق التعبد بالتوكل والاستعانة ، وإن وجدوا ذوقه بالأوراد والوظائف.

فهؤلاء لهم نصيب من التوفيق والنفوذ والتأثير ، بحسب استعانتهم وتوكلهم . ولهم من الخذلان والضعف والمهانة والعجز بحسب قلة استعانتهم وتوكلهم . ولو توكل العبد على الله حق توكله فى إزالة جبل عن مكانه ، وكان مأموراً بإزالته ، لأزاله.

فإن قلت : فما معنى التوكل والاستعانة؟.

قلت :هو حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله ، والإيمان بتفرده بالخلق ، والتدبير والضر والنفع ، والعطاء والمنع ، وأنه ما شاء كان ، وإن لم يشأ الناس . وما لم يشأ لم يكن، وإن شاءه الناس . فيوجب له هذا اعتماداً عليه ، وتفويضاً إليه ، وطمأنينة به ، وثقة به ، ويقيناً بكفايته لما توكل عليه فيه ، وأنه ملىٌّ به . ولا يكون إلا بمشيئته ، شاءه الناس أم أبوه.

فتشبه حالته الطفل مع أبويه فيماينويه من رغبة ورهبة هما مليان بهما . فانظر فى تجرد قلبه عن الالتفات إلى غير أبويه ، وحبس همه على إنزال ما ينويه بهما . فهذه حال المتوكل . ومن كان هكذا مع الله ، فالله كافيه ولابد . قال الله تعالى : ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾[1] أى كافيه . و«الحسب» الكافى . فإن كان - مع هذا - من أهل التقوى كانت له العاقبة الحميدة ، وإن لم يكن من أهل التقوى فهو . . .

القسم الرابع : وهو من شهد تفرد الله بالنفع والضر ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولم يدر مع ما يحبه ويرضاه . فتوكل عليه ، واستعان به على حظوظه وشهواته وأغراضه ، وطلبها منه ، وأنزلها به . فقُضيت له ، وأُسعف بها . سواء كانت أموالاً أو رياسة أو جاهاً عند الخلق ، أو أحوالا من كشف وتأثير وقوة وتمكين ، ولكن لا عاقبة له . فإنها من جنس الملك الظاهر والأموال ، لا تستلزم الإسلام ، فضلاً عن الولاية والقرب من الله . فإن الملك والجاه والمال والحال معطاة للبر والفاجر ، والمؤمن والكافر . فمن استدل بشىء من ذلك على محبة الله لمن آتاه إياه ورضاه عنه ، وأنه من أوليائه المقربين . فهو من أجهل الجاهلين ، وأبعدهم عن معرفة الله ومعرفة دينه ، والتمييز بين ما يحبه ويرضاه ، ويكرهه ويسخطه . فالحال من الدنيا . فهو كالملك والمال ،إن أعان صاحبه على طاعة الله ومرضاته ، وتنفيذ أوامره ألحقه بالملوك العادلين البررة ، وإلا فهو وبال على صاحبه ، ومبعد له عن الله ، وملحق له بالملوك الظلمة ، والأغنياء الفجرة

(١) سورة الطلاق الآية ٣.

(التحقق بـ «إياك نعبد»)

إذا عرف هذا فلا يكون العبد متحققاً بـ«إياك نعبد» إلا بأصلين عظيمين أحدهما متابعة الرسول ﷺ

والثانى الإخلاص للمعبود. فهذا تحقيق «إياك نعبد»

والناس منقسمون بحسب هذين الأصلين أيضاً إلى أربعة أقسام

أحدها: أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة. وهم أهل «إياك نعبد» حقيقة. فأعمالهم كلها لله، وأقوالهم لله، وعطاؤهم لله، ومنعهم لله، وحبهم لله، وبغضهم لله فمعاملتهم ظاهراً وباطناً لوجه الله وحده. لا يريدون بذلك من الناس جزاء ولا شكوراً، ولا ابتغاء الجاه عندهم، ولا طلب المحمدة والمنزلة فى قلوبهم، ولا هرباً من ذمهم. بل قد عدوا الناس بمنزلة أصحاب القبور، لا يملكون لهم ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً فالعمل لأجل الناس، وابتغاء الجاه والمنزلة عندهم، ورجائهم للضر والنفع منهم: لا يكون من عارف بهم ألبتة، بل من جاهل بشأنهم، وجاهل بربه. فمن عرف الناس أنزلهم منازلهم. ومن عرف الله أخلص له أعماله وأقواله، وعطاءه ومنعه وحبه وبغضه. ولا يعامل أحد الخلق دون الله إلا لجهله بالله وجهله بالخلق، وإلا فإذا عرف الله وعرف الناس آثر معاملة الله على معاملتهم.

وكذلك أعمالهم كلها وعبادتهم موافقة لأمر الله، ولما يحبه ويرضاه. وهذا هو العمل الذى لا يقبل الله من عامل سواه. وهو الذى بلا عباده بالموت والحياة لأجله. قال الله تعالى ﴿الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾[1] وجعل ما على الأرض زينة لها ليختبرهم أيهم أحسن عملاً. قال الفضيل بن عياض: العمل الحسن هوَ أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا على ما أخلصه وأصوبه ؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً: لم يقبل. وإذا كان صواباً، ولم يكن خالصاً: لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً. والخالص ما كان لله. والصواب: ما كان على السنة. وهذا هو المذكور فى قوله تعالى ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾[2] وفى قوله ﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن﴾[3] فلا يقبل الله من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه، على متابعة أمره وما عدا ذلك فهو مردود على عامله، يرد عليه - أحوج ما هو إليه - هباء منثوراً وفى الصحيح من حديث

---

(١) سورة الملك الآية ٢ (٢) سورة الكهف الآية ١١٠ (٣) سورة النساء الآية ١٢٥

عائشة عن النبي ﷺ «كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد»[١] وكل عمل بلا اقتداء فإنه لا يزيد عامله من الله إلا بعداً . فإن الله تعالى إنما يعبد بأمره ، لا بالآراء والأهواء

(فصل)

الضرب الثاني [٢] من لا إخلاص له ولا متابعة فليس عمله موافقاً لشرع ، وليس هو خالصاً للمعبود، كأعمال المتزيين للناس، المرائين لهم بما لم يشرعه الله ورسوله وهؤلاء شرار الخلق، وأمقتهم إلى الله عز وجل ولهم أوفر نصيب من قوله ﴿لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا . فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب . ولهم عذاب أليم﴾[٣] يفرحون بما أتوا من البدعة والضلالة والشرك ، ويحبون أن يحمدوا باتباع السنة والإخلاص .

وهذا الضرب يكثر فيمن انحرف - من المنتسبين إلى العلم والفقر والعبادة - عن الصراط المستقيم فإنهم يرتكبون البدع والضلالات ، والرياء والسمعة ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوه من الاتباع والإخلاص والعلم . فهم أهل الغضب والضلال.

(فصل)

الضرب الثالث : من هو مخلص في أعماله ، لكنها على غير متابعة الأمر ، كجهال العبَّاد ، والمنتسبين إلى طريق الزهد والفقر ، وكل من عبد الله بغير أمره ، واعتقد عبادته هذه قربة إلى الله فهذا حاله . كمن يظن أن سماع المكاء والتصدية قربة ، وأن الخلوة التي يترك فيها الجمعة والجماعة قربة ، وأن مواصلة صوم النهار بالليل قربة ، وأن صيام يوم فطر الناس كلهم قربة . وأمثال ذلك .

(فصل)

الضرب الرابع . من أعماله على متابعة الأمر ، لكنها لغير الله . كطاعة المرائين ، وكالرجل يقاتل رياء وحمية وشجاعة ، ويحج ليقال ، ويقرأ القرآن ليقال . فهؤلاء أعمالهم ظاهرها أعمال صالحة مأمور بها ، لكنها غير صالحة . فلا تقبل ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾[٤] فكل أحد لم يؤمر إلا بعبادة الله بما أمر . والإخلاص له في العبادة . وهم أهل «إياك نعبد وإياك نستعين».

---

(١) رواه مسلم (١٧١٨)

(٢) هذا هو القسم الثاني من الأقسام الأربعة التي انقسم إليها الناس بحسب الإخلاص والمتابعة

(٣) سورة آل عمران الآية ١٨٨ (٤) سورة البينة الآية ٥

(فضل أهل مقام «إياك نعبد»)

ثم أهل مقام «إياك نعبد» لهم فى أفضل العبادة وأنفعها وأحقها بالإيثار والتخصيص أربع طرق فهم فى ذلك أربعة أصناف :

الصنف الأول : عندهم أنفع العبادات وأفضلها: أشقها على النفوس وأصعبها. قالوا: لأنه أبعد الأشياء عن هواها ، وهو حقيقة التعبد .

قالوا : والأجر على قدر المشقة.

وهؤلاء : هم أهل المجاهدات والجور على النفوس.

قالوا : وإنما تستقيم النفوس بذلك . إذ طبعها الكسل والمهانة ، والإخلاد إلى الأرض. فلا تستقيم إلا بركوب الأهوال وتحمل المشاق.

الصنف الثانى : قالوا : أفضل العبادات التجرد ، والزهد فى الدنيا ، والتقلل منها غاية الإمكان ، واطراح الاهتمام بها ، وعدم الاكثرات بكل ما هو منها .

الصنف الثالث: رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها : ما كان فيه نفع متعد ، فرأوه أفضل من ذى النفع القاصر . فرأوا خدمة الفقراء ، والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم ، ومساعدتهم بالمال والجاه والنفع أفضل .فتصدوا له وعملوا عليه واحتجوا بأن عمل العابد قاصر على نفسه ، وعمل النفاع متعد إلى الغير . وأين أحدهما من الآخر؟.

قالوا : ولهذا كان فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب .

قالوا : وقد قال رسول الله ﷺ لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه « لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم» [1] وهذا التفضيل إنما هو للنفع المتعدى . واحتجوا بقوله ﷺ «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه ، من غير أن ينقص من أجورهم شىء » [2]. واحتجوا بقوله ﷺ «إن الله وملائكته يصلون على معلمى الناس الخير» [3] وبقوله ﷺ «إن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض، حتى الحيتان فى البحر ، والنملة فى جحرها» [4].

---

(١) رواه أحمد (٥ /٣٣٣)، والبخارى (٢٩٤٢) ومسلم (٢٤٠٦) عن سهل بن سعد

(٢) رواه مسلم (٦٦٧٨) و أبو داود (٤٦٠٩) و الترمذى (٢٦٧٤) و أحمد (٢/ ٣٩٧)

(٣) حسن. رواه الترمذى (٢٨٦٥) والطبرانى فى «الكبير» (٧٩١٢) عن ابن أمامة الباهلى رضى الله عنه

(٤) صحيح رواه أبو داود (٦٣٤١) و الترمذى (٢٦٨٢)

واحتجوا بأن صاحب العبادة إذا مات انقطع عمله، وصاحب النفع لا ينقطع عمله، مادام نفعه الذى نسب إليه .

واحتجوا بأن الأنبياء إنما بُعثوا بالإحسان إلى الخلق وهدايتهم، ونفعهم فى معاشهم ومعادهم. لم يبعثوا بالخلوات والانقطاع عن الناس والترهب .

الصنف الرابع: قالوا: إن أفضل العبادة : العمل على مرضاة الرب فى كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته. فأفضل العبادات فى وقت الجهاد: الجهاد ، وإن آل إلى ترك الأوراد، من صلاة الليل وصيام النهار. بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض، كما فى حالة الأمن.

والأفضل فى وقت حضور الضيف مثلاً : القيام بحقه ، والاشتغال به عن الورد المستحب . وكذلك فى أداء حق الزوجة والأهل .

والأفضل فى أوقات السحر : الاشتغال بالصلاة والقرآن ، والدعاء والذكر والاستغفار.

والأفضل فى وقت استرشاد الطالب، وتعليم الجاهل: الإقبال على تعليمه والاشتغال به.

والأفضل فى أوقات الأذان : ترك ما هو فيه من ورده ، والاشتغال بإجابة المؤذن.

والأفضل فى أوقات الصلوات الخمس: الجد والنصح فى إيقاعها على أكمل الوجوه، والمبادرة إليها فى أول الوقت، والخروج إلى الجامع. وإن بَعُدَ كان أفضل.

والأفضل فى أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه أو البدن أو المال : الاشتغال بمساعدته، وإغاثة لهفته، وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك .

والأفضل فى وقت قراءة القرآن: جمعية القلب والهمة على تدبره وتفهمه حتى كأن الله تعالى يخاطبك به . فتجمع قلبك على فهمه وتدبره ، والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك .

والأفضل فى وقت الوقوف بعرفة : الاجتهاد فى التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المُضْعِف عن ذلك

والأفضل فى أيام عشر ذى الحجة: الإكثار من التعبد، لا سيما التكبير والتهليل والتحميد. فهو أفضل من الجهاد غير المتعين

والأفضل فى العشر الأخيرة من رمضان : لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف دون التصدى لمخالطة الناس والاشتغال بهم ، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم ، وإقرائهم القرآن ، عند كثير من العلماء .

والأفضل فى وقت مرض أخيك المسلم أو موته : عيادته ، وحضور جنازته وتشييعه، وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيتك .

والأفضل فى وقت نزول النوازل وأذاة الناس لك : أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم، دون الهرب منهم . فإن المؤمن الذى يخالط الناس ليصبر على أذاهم أفضل من الذى لا يخالطهم ولا يؤذونه .

والأفضل خلطتهم فى الخير . فهى خير من اعتزالهم فيه ، واعتزالهم فى الشر ، فهو أفضل من خلطتهم فيه . فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلله فخلطتهم حينئذ أفضل من اعتزالهم.

فالأفضل فى كل وقت وحال : إيثار مرضاة الله فى ذلك الوقت والحال . والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه.

وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق[1] : والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد . فمتى خرج أحدهم عن النوع الذى تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته . فهو يعبد الله على وجه واحد . وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض فى تعبد بعينه يؤثره على غيره ، بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت . فمدار تعبده عليها . فهو لا يزال متنقلاً فى منازل العبودية ، كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها ، واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى . فهذا دأبه فى السير حتى ينتهى سيره . فإن رأيت العلماء رأيته معهم وإن رأيت العباد . رأيته معهم . وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم . وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم ، وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيته معهم . وإن رأيت أرباب الجمعية وعكوف القلب على الله رأيته معهم . فهذا هو العبد المطلق ، الذى لم تملكه الرسوم، ولم تقيده القيود ، ولم يكن عمله على مراد نفسه،وما فيه لذتها وراحتها من العبادات. بل هو على مراد ربه،ولو كانت راحة نفسه ولذتها فى سواه. فهذا هو المتحقق بـ«إياك نعبد وإياك نستعين» حقاً ، القائم بهما صادقًا. ملبسه ما تهيأ. ومأكله ما تيسر.

---

(1) أى هذا الصنف الرابع هم الذين حققوا طاعة الوقت لله عز وجل، فهم يعبدون الله فى كل حركة وسكنة، فهذا الصنف أفضل من الأصناف الثلاثة السابق ذكرهم.

واشتغاله بما أمر الله به فى كل وقت بوقته. ومجلسه حيث انتهى به المكان ووجده خالياً. لا تملكه إشارة. ولا يتعبده قيد. ولا يستولى عليه رسم. حر مجرد. دائر مع الأمر حيث دار، يدين بدين الأمر أنى توجهت ركائبه. ويدور معه حيث استقلت مضاربه. يأنس به كل محق. ويستوحش منه كل مبطل، كالغيث حيث وقع نفع. وكالنخلة لا يسقط ورقها. وكلها منفعة حتى شوكها. وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله، والغضب إذا انتهكت محارم الله. فهو لله وبالله ومع الله. قد صحب الله بلا خلق، وصحب الناس بلا نفس. بل إذا كان مع الله عزل الخلائق عن البين، وتخلى عنهم. وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلى عنها. فواهاً له! ما أغربه بين الناس! وما أشد وحشته منهم! وما أعظم أنسه بالله وفرحه به، وطمأنينته وسكونه إليه!! والله المستعان. وعليه التكلان.

سر العبودية

اعلم أن سر العبودية، وغايتها وحكمتها: إنما يطلع عليها من عرف صفات الرب عز وجل، ولم يعطلها. وعرف معنى الإلهية وحقيقتها، ومعنى كونه إلهاً، بل هو الإله الحق، وكل إله سواه فباطل، بل أبطل الباطل. وأن حقيقة الإلهية لا تنبغى إلا له، وأن العبادة موجب إلهيته وأثرها ومقتضاها، وارتباطها بها كارتباط متعلق الصفات بالصفات، وكارتباط المعلوم بالعلم، والمقدور بالقدرة، والأصوات بالسمع، والإحسان بالرحمة، والعطاء بالجود.

فمن أنكر حقيقة الإلهية ولم يعرفها كيف يستقيم له معرفة حكمة العبادات وغاياتها ومقاصدها، وما شُرِعَت لأجله؟ وكيف يستقيم له العلم بأنها هى الغاية المقصودة بالخلق، والتى لها خُلِقُوا، ولها أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، ولأجلها خلقت الجنة والنار؟ وأن فرض تعطيل الخليقة عنها: نسبة لله إلى مالا يليق به، ويتعالى عنه من خلق السموات والأرض بالحق، ولم يخلقهما باطلاً. ولم يخلق الإنسان عبثاً ولم يتركه سدى مهملاً. قال تعالى: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون؟﴾ [1] أى لغير شيء ولا حكمة، ولا لعبادتى ومجازاتى لكم، وقد صرح تعالى بهذا فى قوله: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾[2] فالعبادة: هى الغاية التى خلق لها الجن والإنس والخلائق كلها. قال الله تعالى: ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى؟﴾ [3] أى مهملاً. قال الشافعى: لا يؤمر ولا ينهى، وقال غيره: لا يثاب ولا يعاقب والصحيح: الأمران. فإن الثواب والعقاب مترتبان على الأمر والنهى. والأمر والنهى طلب العبادة وإرادتها. وحقيقة

---

(١) سـ - المؤمنون الآية ١١٥.
(٢) سورة الذاريات الآية ٥٦.
(٣) ـ القيامة الآية ٣٦.

العبادة امتثالهما. قال تعالى: ﴿ويتفكرون في خلق السموات والأرض: ربنا ما خلقت هذا باطلاً، سبحانك فقنا عذاب النار﴾(١) وقال: ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾(٢) وقال: ﴿وخلق الله السموات والأرض بالحق، ولتجزى كل نفس بما كسبت﴾(٣).

فأخبر أنه خلق السموات والأرض بالحق، المتضمن أمره ونهيه، وثوابه وعقابه.

فإذا كانت السموات والأرض وما بينهما خلقت لهذا، وهو غاية الخلق، فكيف يقال: إنه لا علة له، ولا حكمة مقصودة هي غايته؟ أو إن ذلك لمجرد استئجار العباد حتى لا ينكد عليهم الثواب بالمنة، أو لمجرد استعداد النفوس للمعارف العقلية، وارتياضها بمخالفة العوائد؟.

فليتأمل اللبيب الفرقان بين هذه الأقوال، وبين ما دل عليه صريح الوحي يجد أن أصحاب هذه الأقوال ما قدروا الله حق قدره، ولا عرفوه حق معرفته.

فالله تعالى إنما خلق الخلق لعبادته، الجامعة لكمــال محبته. مع الخضوع له والانقياد لأمره.

فأصل العبادة: محبة الله، بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الحب كله لله. فلا يحب معه سواه، وإنما يحب لأجله وفيه، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه. فمحبتنا لهم من تمام محبته، وليست محبة معه، كمحبة من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحبه.

وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته وسرها. فهي إنما تتحقق باتباع أمره، واجتناب نهيه. فعند اتباع الأمر واجتناب النهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة. ولهذا جعل تعالى اتباع رسوله علماً عليها، وشاهداً لمن ادعاها، فقال تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾(٤) فجعل اتباع رسوله مشروطاً بمحبتهم لله، وشرطاً لمحبة الله لهم. ووجود المشروط ممتنع بدون وجود شرطه وتحققه بتحققه فعلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة. فانتفاء محبتهم لله لازم لانتفاء المتابعة لرسوله، وانتفاء المتابعة ملزوم لانتفاء محبة الله لهم. فيستحيل إذاً ثبوت محبتهم لله، وثبوت محبة الله لهم بدون المتابعة لرسوله.

ودل على أن متابعة الرسول ﷺ: هي حب الله ورسوله، وطاعة أمره. ولا يكفي ذلك في العبودية، حتى يكون الله ورسوله أحب إلى العبد مما سواهما. فلا يكون عنده شيء أحب إليه من الله ورسوله. ومتى كان عنده شيء أحب إليه منهما فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله لصاحبه ألبتة، ولا يهديه الله. قال الله تعالى: ﴿قل إن كان آباؤكم

(١) سورة آل عمران الآية ١٩١
(٢) سورة الحجر الآية ٨٥.
(٣) سورة الجاثية الآية ٢٢
(٤) سورة آل عمران الآية ٣١.

وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره. والله لا يهدى القوم الفاسقين﴾[1]

فكل من قدّم طاعة أحد من هؤلاء على طاعة الله ورسوله، أو قول أحد منهم على قول الله ورسوله، أو مرضاة أحد منهم على مرضاة الله ورسوله، أو خوف أحد منهم ورجاءه والتوكل عليه على خوف الله ورجاءه والتوكل عليه. أو معاملة أحدهم على معاملة الله: فهو ممن ليس الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وإن قاله بلسانه فهو كذب منه، وإخبار بخلاف ما هو عليه. وكذلك من قدّم حكم أحد على حكم الله ورسوله. فذلك المقدم عنده أحب إليه من الله ورسوله، لكن قد يشتبه الأمر على من يقدم قول أحد أو حكمه، أو طاعته أو مرضاته، ظناً منه أنه لا يأمر ولا يحكم ولا يقول إلا ما قاله الرسول. فيطيعه، ويحاكم إليه، ويتلقى أقواله كذلك. فهذا معذور إذا لم يقدر على غير ذلك. وأما إذا قدر على الوصول إلى الرسول، وعرف أن غير من اتجه هو أولى به مطلقاً، أو في بعض الأمور. ولم يلتفت إلى الرسول ولا إلى من هو أولى به. فهذا الذى يخاف عليه. وهو داخل تحت الوعيد. فإن استحل عقوبة من خالفه وأذله، ولم يوافقه على اتباع شيخه. فهو من الظلمة المعتدين. وقد جعل الله لكل شيء قدراً.

(بناء «إياك نعبد»)

وبنى «إياك نعبد» على أربع قواعد: التحقق بما يحبه الله ورسوله ويرضاه، من قول اللسان والقلب، وعمل القلب والجوارح.

فالعبودية: اسم جامع لهذه المراتب الأربع. فأصحاب «إياك نعبد» حقاً هم أصحابها.

فقول القلب: هو اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه، وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه على لسان رسله.

وقول اللسان: الإخبار عنه بذلك، والدعوة إليه، والذّبُّ عنه، وتبيين بطلان البدع المخالفة له، والقيام بذكره، وتبليغ أوامره.

وعمل القلب: كالمحبة له، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والخوف منه والرجاء له، وإخلاص الدين له، والصبر على أوامره، وعن نواهيه، وعلى أقداره، والرضى به وعنه، والموالاة فيه، والمعاداة فيه، والذل له والخضوع، والإخبات إليه، والطمأنينة به، وغير ذلك

(١) سورة التوبة الآية ٢٤.

من أعمال القلوب التى فرضها أفرض من أعمال الجوارح ومستحبها أحب إلى الله من مستحبها. وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة.

وأعمال الجوارح: كالصلاة والجهاد، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات، ومساعدة العاجز، والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك.

فـ«إياك نعبد» التزام لأحكام هذه الأربعة، وإقرار بها، و«إياك نستعين» طلب للإعانة عليها والتوفيق لها، و«اهدنا الصراط المستقيم» متضمن للتعريف بالأمرين على التفصيل، وإلهام القيام بهما، وسلوك طريق السالكين إلى الله بها.

(دعوة الرسل إلى التوحيد وإخلاص العبادة)

وجميع الرسل إنما دعوا إلى «إياك نعبد، وإياك نستعين» فإنهم كلهم دعوا إلى توحيد الله وإخلاص عبادته، من أولهم إلى آخرهم. فقال نوح لقومه: ﴿اعبدوا الله مالكم من إله غيره﴾ (١) وكذلك قال هود وصالح وشعيب وإبرهيم (٢). قال الله تعالى: ﴿ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ (٣) وقال: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا توحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ (٤) وقال تعالى: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً. إنى بما تعملون عليم، وإن هذه أمتكم أمة واحدة. وأنا ربكم فاتقون﴾ (٥).

(مقام العبودية)

والله تعالى جعل العبودية وصف أكمل خلقه، وأقربهم إليه. فقال: ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله، ولا الملائكة المقربون. ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً﴾(٦) وقال: ﴿إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون﴾ (٧) وهذا يبين أن الوقف التام فى قوله فى سورة الأنبياء ﴿وله من فى السموات والأرض﴾(٨) ههنا. ثم يبتدىء ﴿ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾(٩) فهما جملتان تامتان مستقلتان، أى إن له من فى السموات ومن فى الأرض عبيداً وملكاً. ثم استأنف جملة أخرى فقال ﴿ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته﴾ يعنى أن الملائكة الذين عنده لا يستكبرون عن عبادته يعنى لا يأنفون عنها، ولا يتعاظمون ولا يستحسرون، فيعيون وينقطعون - يقال: حسر واستحسر،

---

(١) سورة الأعراف الآية ٥٩
(٢) انظر سورة الأعراف الآيات (٧٣-٨٥)
(٣) سورة النحل الآية ٣٦.
(٤) سورة الأنبياء الآية ٢٥
(٥) سورة المؤمنون الآية (٥١ - ٥٢)
(٦) سورة النساء الآية ١٧٢
(٧) سورة الأعراف الآية ٢٠٦.
(٨) سورة الأنبياء الآية ١٩
(٩) سورة الأنبياء الآية (١٩ - ٢)

إذا تعب وأعيا - بل عبادتهم وتسبيحهم كالنفس لبنى آدم. فالأول: وصف لعبيد ربوبيته. والثانى: وصف لعبيد إلهيته. قال تعالى: ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً﴾ [1] إلى آخر السورة وقال: ﴿عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً﴾[2] وقال: ﴿واذكر عبدنا داود﴾ [3]وقال: ﴿واذكر عبدنا أيوب﴾ [4] وقال: ﴿واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب﴾[5] وقال عن سليمان: ﴿نعم العبد إنه أواب﴾ [6] وقال عن المسيح: ﴿إن هو إلا عبد أنعمنا عليه﴾[7] فجعل غايته العبودية لا الإلهية، كما يقول أعداؤه النصارى. ووصف أكرم خلقه عليه، وأعلاهم عنده منزلة بالعبودية فى أشرف مقاماته. فقال تعالى: ﴿وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا﴾ [8] وقال تبارك وتعالى: ﴿تبارك الذى نزل الفرقان على عبده﴾[9] وقال: ﴿الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب﴾[10] فذكره بالعبودية فى مقام إنزال الكتاب عليه، وفى مقام التحدى بأن يأتوا بمثله، وقال: ﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً﴾ [11] فذكره بالعبودية فى مقام الدعوة إليه. وقال: ﴿سبحان الذى أسرى بعبده ليلا﴾ [12] فذكره بالعبودية فى مقام الإسراء. وفى الصحيح عنه ﷺ أنه قال «لا تطرونى كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم. فإنما أنا عبد. فقولوا عبد الله ورسوله» [13] وفى الحديث «أنا عبد. آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد»[14] وفى صحيح البخارى عن عبد الله بن عمرو قال: «قرأت فى التوراة صفة محمد ﷺ: محمد رسول الله، عبدى ورسولى، سميته المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخَّاب بالأسواق، ولا يجزى بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر» [15].

وجعل الله سبحانه البشارة المطلقة لعباده. فقال تعالى ﴿فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾ [16] وجعل الأمن المطلق لهم. فقال تعالى: ﴿يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون. الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين﴾ [17] وعزل الشيطان عن سلطانه عليهم خاصة، وجعل سلطانه على من تولاه وأشرك به. فقال: ﴿إن عبادى ليس

---

(١) سورة الفرقان الآيات ٦٣ (٢) سورة الدهر الآية ٦. (٣) سورة ص الآية ١٧.

(٤) سورة ص الآية ٤١. (٥) سورة ص الاية ٤٥. (٦) سورة ص الآية ٣٠

(٧) سورة الزخرف الآية ٥٩. (٨) سورة البقرة الآية ٢٥. (٩) سورة الفرقان الآية ١

(١٠) سورة الكهف الآية ١ (١١) سورة الجن الآية ١٩. (١٢) سورة الاسراء الآية ١.

(١٣) رواه البخارى (٣٤٤٥) وأحمد (١/ ٢٤ و ٤٧ ، ٥٥) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

(١٤) حسن. رواه البغوى فى «شرح السنة» (٢٦٨٣) وأبو الشيخ فى «أخلاق النبى» (ص٢١٣) عن عائشة رضى الله عنها.

(١٥) رواه البخارى (٤٨٣٨) (١٦) الزمر الآية ١٨.

(١٧) الزخرف الآية (٦٨-٦٩).

لك عليهم سلطان، إلا من اتبعك من الغاوين﴾ [1] وقال: ﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، إنما سلطانه على الذى يتولونه والذين هم به مشركون﴾ [2].

وجعل النبى ﷺ إحسان العبودية أعلى مراتب الدين، وهو الإحسان.. فقال فى حديث جبريل - وقد سأله عن الإحسان - «أن تعبد الله كأنك تراه. فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[3].

فصل

(فى لزوم «إياك نعبد» لكل عبد إلى الموت)

قال الله تعالى لرسوله: ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ [4] وقال أهل النار ﴿وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين﴾ [5] واليقين ههنا: هو الموت بإجماع أهل التفسير. وفى الصحيح - فى قصة موت عثمان بن مظعون رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال: «أما عثمان فقد جاءه اليقين من ربه» [6] أى الموت وما فيه. فلا ينفك العبد من العبودية ما دام فى دار التكليف، بل عليه فى البرزخ عبودية أخرى لما يسأله الملكان «من كان يعبد؟ وما يقول فى رسول الله ﷺ؟» ويلتمسان منه الجواب. وعليه عبودية أخرى يوم القيامة، يوم يدعو الله الخلق كلهم إلى السجود فيسجد المؤمنون. ويبقى الكفار والمنافقون لا يستطيعون السجود. فإذا دخلوا دار الثواب والعقاب انقطع التكليف هناك، وصارت عبودية أهل الثواب تسبيحاً مقروناً بأنفاسهم لا يجدون له تعباً ولا نصباً.

ومن زعم أنه يصل إلى مقام يسقط عنه فيه التعبد، فهو زنديق كافر بالله وبرسوله. وإنما وصل إلى مقام الكفر بالله، والانسلاخ من دينه. بل كلما تمكن العبد فى منازل العبودية كانت عبوديته أعظم، والواجب عليه منها أكبر وأكثر من الواجب على من دونه. ولهذا كان الواجب على رسول الله ﷺ - بل على جميع الرسل - أعظم من الواجب على أممهم. والواجب على أولى العزم: أعظم من الواجب على من دونهم. والواجب على أولى العلم: أعظم من الواجب على من دونهم. وكل أحد بحسب مرتبته.

فصل

(فى انقسام العبودية إلى عامة وخاصة)

العبودية نوعان: عامة، وخاصة.

فالعبودية العامة: عبودية أهل السموات والأرض كلهم لله، برهم وفاجرهم، مؤمنهم

(1) سورة الحجر الآية ٤٢.
(2) سورة النحل الآية (٩٩-١٠٠)
(3) رواه البخاري (٥٠) و مسلم كتاب الإيمان (١, ٥)
(4) سورة الحجر الآية ٩٩.
(5) سورة المدثر الآية (٤٦-٤٧)
(6) في صحيح البخاري بلفظ «أما عثمان فقد جاءه من الله اليقين (٣:٢٣٨)

وكافرهم. فهذه عبودية القهر والملك. قال تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً. لقد جئتم شيئاً إدا. تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا. أن دعوا للرحمن ولداً. وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً. إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً﴾ (١) فهذا يدخل فيه مؤمنهم وكافرهم.

وقال تعالى: ﴿ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله. فيقول: أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء؟﴾ (٢) فسماهم عباده مع ضلالهم. لكن تسمية مقيدة بالإشارة. وأما المطلقة: فلم تجىء إلا لأهل النوع الثانى، كما سيأتى بيانه إن شاء الله.

وقال تعالى: ﴿قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون﴾(٣) وقال: ﴿وما الله يريد ظلماً للعباد﴾(٤) وقال: ﴿إن الله قد حكم بين العباد﴾ (٥) فهذا يتناول العبودية الخاصة والعامة.

وأما النوع الثانى: فعبودية الطاعة والمحبة، واتباع الأوامر. قال تعالى: ﴿يا عبادى لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون﴾ (٦) وقال: ﴿فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾ (٧) وقال: ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون علىٰ الأرض هونا * وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما﴾(٨) وقال تعالى عن إبليس: ﴿لأغوينهم أجمعين. إلا عبادك منهم المخلَصين﴾ (٩) فقال تعالى عنهم: ﴿إن عبادى ليس لك عليهم سلطان﴾(١٠)

فالخلق كلهم عبيد ربوبيته. وأهل طاعته وولايته: هم عبيد إلهيته ولا يجىء فى القرآن إضافة العباد إليه مطلقاً إلا لهؤلاء.

وأما وصف عبيد ربوبيته بالعبودية: فلا يأتى إلا على أحد خمسة أوجه: إما منكراً. كقوله ﴿إن كل من فى السموات والأرض إلا آت الرحمن عبداً﴾ (١١) والثانى: معرفاً باللام، كقوله: ﴿وما الله يريد ظلماً للعباد﴾ (١٢) ﴿إن الله قد حكم بين العباد﴾(١٣).

الثالث: مقيداً بالإشارة أو نحوها، كقوله ﴿أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء﴾.

---

(١) سورة مريم (٨٨-٩٣).
(٢) سورة الفرقان الآية ١٧
(٣) سورة الزمر الآية ٤٦.
(٤) سورة المؤمن الآية ٣١.
(٥) سورة المؤمن الآية ٤٨.
(٦) سورة الزخرف الآية ٦٨.
(٧) سورة الزمر الآية ١٨
(٨) سورة الفرقان الآية ٦٣
(٩) سورة الحجر الآية ٤٠.
(١٠) سورة الحجر الآية ٤١
(١١) سورة مريم الآية ٩٣
(١٢) سورة المؤمن الآية ٣١
(١٣) سورة المؤمن الآية ٤٨

الرابع: أن يذكروا فى عموم عباده. فيندرجوا مع أهل طاعته فى الذكر. كقوله: ﴿أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون﴾ (١).

الخامس: أن يذكروا موصوفين بفعلهم. كقوله: ﴿قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾ (٢).

وقد يقال: إنما سماهم «عباده» إذ لم يقنطوا من رحمته، وأنابوا إليه، واتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربهم، فيكونون من عبيد الإلهية والطاعة.

وإنما انقسمت العبود ية إلى خاصة وعامة، لأن أصل معنى اللفظة: الذل والخضوع. يقال «طريق معبد» إذا كان مذللاً بوطء الأقدام، و«فلان عبده الحب» إذا ذلله، لكن أولياءه خضعوا له وذلوا طوعاً واختياراً، وانقياداً لأمره ونهيه. وأعداءه خضعوا له قهراً ورغماً.

ونظير انقسام العبودية إلى خاصة وعامة: انقسام «القنوت» إلى خاص وعام، و«السجود» كذلك. قال تعالى فى القنوت الخاص ﴿أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه﴾(٣) وقال فى حق مريم ﴿وكانت من القانتين﴾(٤) وهو كثير فى القرآن.

وقال فى القنوت العام ﴿وله من فى السموات والأرض كل له قانتون﴾ (٥) أى خاضعون أذلاء.

وقال فى السجود الخاص ﴿إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون﴾ (٦) وقال: ﴿إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً﴾ (٧) وهو كثير فى القرآن.

وقال فى السجود العام ﴿ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرها وظلالهم بالغدو والآصال﴾ (٨).

ولهذا كان هذا السجود الكُرْه غير السجود المذكور فى قوله ﴿ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب

---

(١) سورة الزمر الآية ٤٦.
(٢) سورة الزمر الآية ٥٣.
(٣) سورة الزمر الآية ٩.
(٤) سورة التحريم الآية ١٢.
(٥) سورة الروم الآية ٢٦.
(٦) سورة الأعراف الآية ٢٠٦
(٧) سورة مريم الآية ٥٨.
(٨) سورة الرعد الآية ١٥

وكثير من الناس﴾[1] فخصّ بالسجود هنا كثيراً من الناس وعممهم بالسجود في سورة النحل ﴿ولله يسجد ما في السموات والأرض من دابة والملائكة﴾[2] وهو سجود الذل والقهر و الخضوع. فكل أحد خاضع لربوبيته ذليل لعزته. مقهور تحت سلطانه تعالى.

فصل

(في مراتب «إياك نعبد» علماً وعملاً)

للعبودية مراتب، بحسب العلم والعمل. فأما مراتبها العلمية فمرتبتان.

إحداهما: العلم بالله. والثانية: العلم بدينه.

فأما العلم به سبحانه، فخمس مراتب: العلم بذاته، وصفاته، وأفعاله وأسمائه، وتنزيهه عما لا يليق به.

والعلم بدينه مرتبتان. إحداهما: دينه الأمري الشرعي. وهو الصراط المستقيم الموصل إليه.

والثانية: دينه الجزائي، المتضمن ثوابه وعقابه. وقد دخل في هذا العلم العلم بملائكته وكتبه ورسله.

وأما مراتبها العلمية، فمرتبتان:

مرتبة لأصحاب اليمين، ومرتبة للسابقين المقربين. فأما مرتبة أصحاب اليمين: فأداء الوجبات، وترك المحرمات، مع ارتكاب المباحات وبعض المكروهات، وترك بعض المستحبات.

وأما مرتبة المقربين: فالقيام بالواجبات والمندوبات. وترك المحرمات والمكروهات، زاهدين فيما لا ينفعهم في معادهم، متورعين عما يخافون ضرره.

وخاصتهم: قد انقلبت المباحات في حقهم طاعات وقربات بالنية[3] فليس في حقهم مباح متساوي الطرفين، بل كل أعمالهم راجحة. ومن دونهم يترك المباحات مشتغلاً عنها بالعبادات. وهؤلاء يأتونها طاعات وقربات. ولأهل هاتين المرتبتين درجات لا يحصيها إلا الله.

(قواعد العبودية)

ورحى العبودية تدور على خمس عشرة قاعدة. من كمّلها كمّل مراتب العبودية.

---

(١) سورة الحج الآية ١٨ (٢) سورة النحل الآية ٤٩.

(٣) وذلك أن استحضار النية الصادقة تتحول بها المباحات إلى طاعات، كما قال بعض السلف «إني لأحتسب نومتي كم احتسب قومتي» أي أنه يتقوى بالنوم على قيام الليل.

وبيانها: أن العبودية منقسمة على القلب، واللسان، والجوارح. وعلى كل منها عبودية تخصه.

والأحكام التى للعبودية خمسة: واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح. وهى لكل واحد من القلب، واللسان، والجوارح.

فواجب القلب: منه متفق على وجوبه، ومختلف فيه.

فالمتفق على وجوبه: كالإخلاص، والتوكل، والمحبة، والصبر، والإنابة، والخوف، والرجاء، والتصديق الجازم، والنية فى العبادة. وهذه قدر زائد على الإخلاص. فإن الإخلاص هو إفراد المعبود عن غيره.

ونية العبادة لها مرتبتان.

إحداهما: تمييز العبادة عن العادة.

والثانية: تمييز مراتب العبادات بعضها عن بعض.

والأقسام الثلاثة واجبة.

وكذلك الصدق. والفرق بينه وبين الإخلاص: أن للعبد مطلوباً وطلباً، فالإخلاص: توحيد مطلوبه. والصدق: توحيد طلبه.

فالإخلاص: أن لا يكون المطلوب منقسماً. والصدق: أن لا يكون الطلب منقسماً. فالصدق بذل الجهد، والإخلاص إفراد المطلوب.

واتفقت الأمة على وجوب هذه الأعمال على القلب من حيث الجملة. وكذلك النصح فى العبودية ومدار الدين عليه وهو بذل الجهد فى إيقاع العبودية على الوجه المحبوب للرب المرضى له. وأصل هذا واجب. وكماله مرتبة المقربين.

وكذلك كل واحد من هذه الواجبات القلبية له طرفان، واجب مستحق. وهو مرتبة أصحاب اليمين، وكمال مستحب. وهو مرتبة المقربين.

وكذلك الصبر واجب باتفاق الأمة، قال الإمام أحمد: ذكر الله الصبر فى تسعين موضعاً من القرآن، أو بضعاً وتسعين، وله طرفان أيضاً: واجب مستحق، وكمال مستحب.

وأما المختلف فيه فكالرضا. فإن فى وجوبه قولين للفقهاء .

والقولان لأصحاب أحمد. فمن أوجبه قال: السخط حرام. ولا خلاص عنه إلا بالرضا. وما لا خلاص عن الحرام إلا به فهو واجب.

واحتجوا بأثر «من لم يصبر على بلائى، ولم يرض بقضائى، فليتخذ رباً سواى»[1].

ومن قال هو مستحب، قال: لم يجيء الأمر به فى القرآن ولا فى السنة، بخلاف الصبر، فإن الله أمر به فى مواضع كثيرة من كتابه. وكذلك التوكل. قال: ﴿إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾ وأمر بالإنابة. فقال: ﴿وأنيبوا إلى ربكم﴾[2] وأمر بالإخلاص كقوله: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾[3] وكذلك الخوف كقوله: ﴿فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾[4] وقوله: ﴿فلا تخشوهم واخشون﴾[5] وقوله: ﴿وإياى فارهبون﴾[6] وكذلك الصدق. قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾[7] وكذلك المحبة. وهى أفرض الواجبات. إذ هى قلب العبادة المأمور بها، ومخها وروحها.

وأما الرضا: فإنما جاء فى القرآن مدح أهله، والثناء عليهم. لا الأمر به. قالوا: وأما الأثر المذكور فإسرائيلى. لا يحتج به.

قالوا: وأما قولكم «لا خلاص عن السخط إلا به» فليس بلازم. فإن مراتب الناس فى المقدور ثلاثة: الرضا. وهو أعلاها، والسخط. وهو أسفلها. والصبر عليه بدون الرضا به. وهو أوسطها. فالأولى للمقربين السابقين. والثالثة للمقتصدين. والثانية للظالمين، وكثير من الناس يصبر على المقدور فلا يسخط. وهو غير راض به. فالرضا أمر آخر.

وقد أشكل على بعض الناس اجتماع الرضا مع التألم، وظن أنهما متباينتان. وليس كما ظنه. فالمريض الشارب للدواء الكريه متألم به راض به، والصائم فى شهر رمضان فى شدة الحر متألم بصومه راض به، والبخيل متألم بإخراج زكاة ماله راض بها فالتألم كما لا ينافى الصبر لا ينافى الرضا به.

وهذا الخلاف بينهم، إنما هو فى الرضا بقضائه الكونى، وأما الرضا به رباً وإلهاً، والرضا بأمره الدينى: فمتفق على فرضيته، بل لا يصير العبد مسلماً إلا بهذا الرضا: أن يرضى بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولاً.

وعلى القولين اختلافهم فى وجوب الإعادة على من غلب عليه الوسواس فى صلاته. فأوجبها ابن حامد من أصحاب أحمد، وأبو حامد الغزالى فى إحيائه، ولم يوجبها أكثر

---

(١) ضعيف جداً، رواه الطبرانى فى «الكبير» (٢٢/ ٣٢) برقم (٧ ٨) و ابن حبان فى «المجروحين» (١/ ٣٢٧) و قال الهيثمى فى «المجمع» (٧/ ٢٠٧) فيه سعيد بن زياد بن هند وهو متروك

(٢) سورة الزمر الآية ٥٤.

(٣) سورة البينة الاية ٥.

(٤) سورة آل عمران الآية ١٧٥

(٥) سورة البقرة الآية الآية١٥

(٦) سورة البقرة الآية ٤٠

(٧) سورة التوبة الآية ١١٩.

الفقهاء.

واحتجوا بأن النبى ﷺ أمر من سها فى صلاته بسجدتى السهو ولم يأمره بالإعادة مع قوله «إن الشيطان يأتى أحدكم فى صلاته، فيقول: اذكر كذا اذكر كذا - لما لم يكن يذكر - حتى يضل الرجل أن يدرى كم صلى»[1] ولكن لا نزاع أن هذه الصلاة لايثاب على شىء منها إلا بقدر حضور قلبه وخضوعه. كما قال النبى ﷺ «إن العبد لينصرف من الصلاة ولم يكتب له إلا نصفها، ثلثها، وربعها - حتى بلغ عشرها» [2] وقال ابن عباس رضى الله عنهما «ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها» فليست صحيحة باعتبار ترتب كمال مقصودها عليها، وإن سميت صحيحة باعتبار أنا لا نأمره بالإعادة ولا ينبغى أن يعلق لفظ الصحة عليها. فيقال «صلاة صحيحة» مع أنه لا يثاب عليها فاعلها.

والقصد: أن هذه الأعمال - واجبها ومستحبها - هى عبودية القلب. فمن عطلها فقد عطل عبودية الملك، وإن قام بعبودية رعيته من الجوارح.

والمقصود: أن يكون ملك الأعضاء - وهو القلب - قائماً بعبوديته لله سبحانه، وهو ورعيته.

وأما المحرمات التى عليه: فالكبر، والرياء، والعُجْب، والحسد، والغفلة، والنفاق. وهى نوعان: كفر، ومعصية.

فالكفر: كالشك، والنفاق، والشرك، وتوابعها. والمعصية نوعان: كبائر، وصغائر.

فالكبائر: كالرياء، والعُجْب، والكبر، والفخر، والخيلاء، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله، والفرح والسرور بأذى المسلمين، والشماتة بمصيبتهم، ومحبة أن تشيع الفاحشة فيهم، وحسدهم على ما آتاهم الله من فضله، وتمنى زوال ذلك عنهم، وتوابع هذه الأمور التى هى أشد تحريماً من الزنا، وشرب الخمر وغيرها من الكبائر الظاهرة. ولا صلاح للقلب ولا للجسد إلا باجتنابها، والتوبة منها. وإلا فهو قلب فاسد. وإذا فسد القلب فسد البدن.

وهذه الآفات إنما تنشأ من الجهل بعبودية القلب، وترك القيام بها.

فوظيفة «إياك نعبد» على القلب قبل الجوارح. فإذا جهلها وترك القيام بها امتلأ بأضدادها ولا بد. وبحسب قيامه بها يتخلص من أضدادها.

وهذه الأمور ونحوها قد تكون صغائر فى حقه، وقد تكون كبائر، بحسب قوتها

---

(١) رواه البخارى (١٢٣١) ومسلم (١٢٤٤) والنسائى (٣/ ٣١) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) حسن رواه أحمد (٤/ ٢٦٤و ٣١٩ و ٣٢١) وأبو داود (٧٩٦) والنسائى فى «الكبرى» كما فى «التحفة» (٧/ ٤٧٨) والطيالسى (٦٥٠) وأبو يعلى(٦٦٢٤) وعنه ابن حبان (١٨٨٩ ـ احسان) عن عمار بن ياسر رضى الله عنه.

وغلظها، وخفتها ودقتها.

ومن الصغائر أيضاً: شهوة المحرمات وتمنيها. وتفاوت درجات الشهوة فى الكبر والصغر، بحسب تفاوت درجات المشتهى. فشهوة الكفر والشرك: كفر. وشهوة البدعة: فسق. وشهوة الكبائر: معصية. فإن تركها لله مع قدرته عليها أثيب. وإن تركها عجزاً بعد بذله مقدوره فى تحصيلها: استحق عقوبة الفاعل، لتنزيله منزلته فى أحكام الثواب والعقاب، وإن لم ينزل منزلته فى أحكام الشرع. ولهذا قال النبى ﷺ «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول فى النار. قالوا: هذا القاتل. يارسول الله. فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»[1] فنزله منزلة القاتل، لحرصه على قتل صاحبه، فى الإثم دون الحكم. وله نظائر كثيرة فى الثواب والعقاب. وقد علم بهذا مستحب القلب ومباحه.

وأما عبوديات اللسان الخمس: فواجبها: النطق بالشهادتين، وتلاوة ما يلزمه تلاوته من القرآن. وهو ما تتوقف صحة صلاته عليه، وتلفظه بالأذكار الواجبة فى الصلاة التى أمر الله بها ورسوله، كما أمر بالتسبيح فى الركوع والسجود، وأمر بقول «ربنا ولك الحمد» بعد الاعتدال، وأمر بالتشهد، وأمر بالتكبير.

ومن واجبه: رد السلام. وفى ابتدائه قولان.

ومن واجبه: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتعليم الجاهل، وإرشاد الضال، وأداء الشهادة المتعينة، وصدق الحديث.

وأما مستحبه: فتلاوة القرآن، ودوام ذكر الله - والمذاكرة فى العلم النافع، وتوابع ذلك.

وأما محرمه: فهو النطق بكل ما يبغضه الله ورسوله، كالنطق بالبدع المخالفة لما بعث الله به رسوله، والدعاء إليها، وتحسينها وتقويتها، وكالقذف يسب المسلم، وأذاه بكل قول. والكذب، وشهادة الزور، والقول على الله بلا علم. وهو أشدها تحريماً. ومكروهه: التكلم بما تركه خير من الكلام به، مع عدم العقوبة عليه.

وقد اختلف السلف: هل فى حقه كلام مباح، متساوى الطرفين؟ على قولين. ذكرهما ابن المنذر وغيره. أحدهما: أنه لا يخلو كل ما يُتَكَلَّمُ به: إما أن يكون له أو عليه

و ليس فى حقه شىء لا له ولا عليه

و احتجوا بالحديث المشهور. وهو «كل كلام ابن آدم عليه، لا له. إلا ما كان من ذكر

---

[1] رواه البخاري (٣١) و مسلم (٧١١٢)و أبو داود (٤٢٦٨) و النسائي(٧: ١٢٥) عن أبي بكر رضي الله عنه.

الله وما والاه» [1].

واحتجوا بأنه يكتب عليه كلامه كله، ولا يكتب إلا الخير و الشر.

وقالت طائفة: بل هذا الكلام مباح، لا له ولا عليه، كما فى حركات الجوارح

قالوا: لأن كثيراً من الكلام لا يتعلق به أمر ولا نهى. و هذا شأن المباح.

و التحقيق: أن حركة اللسان بالكلام لا تكون متساوية الطرفين، بل إما راجحة وإما مرجوحة. لأن للسان شأناً ليس لسائر الجوارح. و أكثر ما يُكِبُّ الناس على مناخرهم فى النار حصائد ألسنتهم. و كل ما يتلفظ به اللسان فإما أن يكون مما يرضى الله و رسوله أولا. فإن كان كذلك فهو الراجح، و إن لم يكن كذلك فهو المرجوح. و هذا بخلاف حركات سائر الجوارح. فإن صاحبها ينتفع بتحريكها فى المباح المستوى الطرفين، لما له فى ذلك من الراحة و المنفعة، فأُبيح له استعمالها فيما فيه منفعة له، ولا مضرة عليه فيه فى الآخرة. و أما حركة اللسان بما لا ينتفع به فلا يكون إلا مضرة فتأمله

فإن قيل: فقد يتحرك بما فيه منفعة دنيوية مباحة مستوية الطرفين. فيكون حكم حركته حكم ذلك الفعل.

قيل: حركته بها عند الحاجة إليها راجحة، و عند عدم الحاجة إليها مرجوحة لا تفيده، فتكون عليه لا له.

فإن قيل: فإذا كان الفعل متساوى الطرفين، كانت حركة اللسان التى هى الوسيلة إليه كذلك، إذ الوسائل تابعة للمقصود فى الحكم.

قيل: لا يلزم ذلك. فقد يكون الشيء مباحاً، بل واجباً، ووسيلته مكروهة -كالوفاء بالطاعة المنذورة- هو واجب، مع أن وسيلته - وهو النذر - مكروه منهى عنه. وكذلك الحلف المكروه مرجوح، مع وجوب الوفاء به أو الكفارة و كذلك سؤال الخلق عند الحاجة مكروه، و يباح له الانتفاع بما أخرجته له المسألة. و هذا كثير جداً. فقد تكون الوسيلة متضمنة مفسدة تكره أو تحرم لأجلها، وما جعلت وسيلة إليه ليس بحرام ولا مكروه.

فصل

و أما العبوديات الخمس على الجوارح: فعلى خمس و عشرين مرتبة أيضاً. إذ

---

(1) ضعيف، رواه الترمذى (٢٤١٤) وابن ماجه (٣٩٧٤) والطبرانى فى «الكبير» (٢٣/ ٢٤٣) برقم (٤٨٤) وابو يعلى (٧١٣٢) و (٧١٣٤) و ابن السنى فى «عمل اليوم والليلة» (٥) والشهاب القضاعى فى «المسند» (٢/ ٢٠٢) برقم (٣٠٥) والخطيب البغدادى فى «تاريخه» (١٢/ ٣٢١ و ٤٣٣ ـ ٤٣٤) والحاكم (٥١٢ ـ ٥١٣) عن أم حبيبة زوج النبى ﷺ . وفى سنده محمد بن يزيد بن خنيس وهو مقبول كما فى «التقريب» (٢/ ٢١٩).

الحواس خمسة. و على كل حاسة خمس عبوديات.

فعلى السمع: وجوب الإنصات، و الاستماع لما أوجبه الله و رسوله عليه، من استماع الإسلام و الإيمان و فروضهما، و كذلك استماع القراءة فى الصلاة إذا جهر بها الإمام، و استماع الخطبة للجمعة، فى أصح قولى العلماء.

و يحرم عليه استماع الكفر و البدع، إلا حيث يكون فى إستماعه مصلحة راجحة من ردّه، أو الشهادة على قائله، أو زيادة قوة الإيمان و السنة بمعرفة ضدهما من الكفر والبدعة و نحو ذلك، و كاستماع أسرار من يهرب عنك بسره، ولا يحب أن يطلعك عليه، ما لم يكن متضمناً لحق لله يجب القيام به، أو لأذى مسلم يتعين نصحه، و تحذيره منه.

و كذلك استماع أصوات النساء الأجانب التى تُخْشى الفتنة بأصواتهن، إذا لم تدع إليه حاجة: من شهادة، أو معاملة، أو استفتاء، أو محاكمة، أو مداواة و نحوها.

و كذلك استماع المعازف، و آلات الطرب و اللهو، كالعود و الطنبور و اليراع ونحوها. ولا يجب عليه سد أذنه إذا سمع الصوت، وهو لا يريد استماعه، إلا إذاخاف السكون إليه و الإنصات. فحينئذ يجب لتجنب سماعها وجوب سد الذرائع.

و نظير هذا المحرم: لا يجوز له تعمد شم الطيب. و إذا حملت الريح رائحته وألقتها فى مشامّه لم يجب عليه سد أنفه.

و نظير هذا: نظرة الفجاءة لا تحرم على الناظر، و تحرم عليه النظرة الثانية إذا تعمدها.

و أما السمع المستحب: فكاستماع المستحب من العلم، و قراءة القرآن، و ذكر الله، و استماع كل ما يحبه الله، و ليس بفرض.

و المكروه: عكسه. و هو استماع كل ما يكره ولا يعاقب عليه

و المباح ظاهر.

و أما النظر الواجب: فالنظر فى المصحف، و كتب العلم عند تعين تعلم الواجب منها، و النظر إذا تعين لتمييز الحلال من الحرام فى الأعيان التى يأكلها أو ينفقها أو يستمتع بها، و الأمانات التى يؤديها إلى أربابها ليميز بينها، و نحو ذلك.

والنظر الحرام: النظر إلى الأجنبيات بشهوة مطلقاً، و بغيرها إلا لحاجة، كنظر الخاطب، و المستام و المعامل، والشاهد، و الحاكم، والطبيب، و ذى المحرم.

و المستحب: النظر فى كتب العلم و الدين التى يزداد بها الرجل إيمانا وعلماً و النظر فى المصحف، ووجوه العلماء الصالحين و الوالدين، و النظر فى آيات الله المشهودة،

ليستدل بها على توحيده و معرفته و حكمته .

والمكروه: فضول النظر الذى لا مصلحة فيه. فإنَّ له فضولاً كما للسان فضولاً. وكم قاد فضولها إلى فضول عزَّ التخلص منها، و أعيى دواؤها. و قال بعض السلف: كانوا يكرهون فضول النظر، كما يكرهون فضول الكلام.

و المباح: النظر الذى لا مضرة فيه فى العاجل و الآجل و لا منفعة

ومن النظر الحرام: النظر إلى العورات. وهى قسمان.

عورة وراء الثياب، و عورة وراء الأبواب.

و لو نظر فى العورة التى وراء الأبواب فرماه صاحب العورة، ففقأ عينه، لم يكن عليه شىء، و ذهبت هَدَراً، بنص رسول الله ﷺ فى الحديث المتفق عليه صحته[1]. وإن ضعفه بعض الفقهاء، لكونه لم يبلغه النص، أو تأوله.

و هذا إذا لم يكن للناظر سبب يُباح النظر لأجله، كعورة له هناك ينظرها أو ريبة هو مأمور - أو مأذون له - فى الاطلاع عليها.

و أما الذوق الواجب: فتناول الطعام والشراب عند الاضطرار إليه، و خوف الموت. فإن تركه حتى مات مات عاصياً قاتلاً لنفسه. قال الإمام أحمد و طاووس: من اضطر إلى أكل الميتة فلم يأكل حتى مات، دخل النار.

و من هذا: تناول الدواء إذا تيقن النجاة به من الهلاك،على أصح القولين. و إن ظن الشفاء به. فهل هو مستحب مباح،أو الأفضل تركه؟فيه نزاع معروف بين السلف والخلف.

و الذوق الحرام: كذوق الخمر،و السموم القاتلة.و الذوق الممنوع منه للصوم الواجب.

و أما المكروه: فكذوق المشتبهات، والأكل فوق الحاجة، و ذوق طعام الفجاءة.وهوَ الطعام الذى تفجأ أكله،ولم يُرد أن يدعوك إليه، و كأكل أطعمة المرائين فى الولائم والدعوات و نحوها. و فى السنن: أن رسول الله ﷺ «نهى عن طعام المتبارين»[2] وذوق طعام من يطعمك حياء منك لا بطيبة نفس.

و الذوق المستحب: أكل ما يعينك على طاعة اللّه عز وجل، مما أذن الله فيه، والأكل مع الضيف ليطيب له الأكل، فينال منه غرضه. و الأكل من طعام صاحب الدعوة الواجب

---

(١) فى البخارى ومسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « من اطلع فى بيت قوم بغير إذنهم فقد حل لهم أن يفقؤوا عينه» ورواه أبو داود وفيه «ففقؤوا عينه فقد هدرت».

(٢) صحيح ، رواه أبو داود (٣٧٥٤).والحاكم (٤/١٢٩) و الطبرانى « فى الكبير » (١١/ ٣٤٠) وصححه الحاكم ووافقه الذهبى.

إجابتها أو المستحب.

و قد أوجب بعض الفقهاء الأكل من الوليمة الواجب إجابتها، للأمر به عن الشارع.

و الذوق المباح: ما لم يكن فيه إثم ولا رجحان.

و أما تعلق العبوديات الخمس بحاسة الشم، فالشم الواجب: كل شم تعين طريقاً للتمييز بين الحلال والحرام، كالشم الذى تعلم به هذه العين هل هى خبيثة أو طيبة؟ و هل هى سم قاتل أو لا مضرة فيه؟ أو يميز به بين ما يملك الانتفاع به، وما لا يملك؟ و من هذا شم المقوم و ربُّ الخِبْرة، عند الحكم بالتقويم و [شم]العبيد و نحو ذلك.

و أما الشم الحرام: فالتعمد لشم الطيب فى الإحرام و شم الطيب المغصوب والمسروق، وتعمد شم الطيب من النساء الأجنبيات خشية الافتتان بما وراءه.

و أما الشم المستحب: فشم ما يعينك على طاعة الله، و يقوى الحواس و يبسط النفس للعلم و العمل. و من هذا: هدية الطيب و الريحان إذا أُهديت لك. ففى صحيح مسلم عن النبى ﷺ «من عُرض عليه ريحان فلا يرده. فإنه طيِّب الريح، خفيف المحمل»[1]

و المكروه: كشم طيب الظَّلمة، و أصحاب الشبهات، و نحو ذلك.

و المباح: ما لا منع فيه من الله ولا تبعة، ولا فيه مصلحة دينية، ولا تعلق له بالشرع.

و أماتعلق هذه الخمسة بحاسة اللمس، فاللمس الواجب: كلمس الزوجة حين يجب جماعها، و الأمة الواجب إعفافها.

و الحرام: لمس ما لا يحل من الأجنبيات.

و المستحب: إذا كان فيه غض بصره، و كف نفسه عن الحرام، و إعفاف أهله.

و المكروه: لمس الزوجة فى الإحرام للذة. و كذلك فى الاعتكاف، و فى الصيام، إذا لم يأمن على نفسه.

و من هذا لمس بدن الميت – لغير غاسله – لأن بدنه قد صار بمنزلة عورة الحى تكريماً له. و لهذا يستحب ستره عن العيون، و تغسيله فى قميصه فى أحد القولين، و لمس فخذ الرجل، إذا قلنا: هى عورة.

و المباح: ما لم يكن فيه مفسدة ولا مصلحة دينية.

---

(١) رواه مسلم (٥٧٧٤) وأبو داود (٤١٧٢) والنسائى (٨/١٨٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

و هذه المراتب أيضاً مُرَتَّبة على البطش باليد، و المشى بالرجل. و أمثلتها لا تخفى.

فالتكسب المقدور للنفقة على نفسه و أهله و عياله: واجب. و فى وجوبه لقضاء دينه خلاف. والصحيح: وجوبه ليمكنه من أداء دينه ولا يجب لإخراج الزكاة، وفى وجوبه لأداء فريضة الحج نظر. و الأقوى فى الدليل: وجوبه لدخوله فى الاستطاعة، وتمكنه بذلك من أداء النسك. و المشهور عدم وجوبه.

و من البطش الواجب: إعانة المضطر، و رمى الجمار، و مباشرة الوضوء و التيمم.

و الحرام: كقتل النفس التى حرم الله قتلها، و نهب المال المعصوم، و ضرب من لا يحل ضربه، و نحو ذلك، و كأنواع اللعب المحرم بالنص كالنرد، أو ما هو أشد تحريما منه عن أهل المدينة، كالشطرنج، أو مثله عند فقهاء الحديث كأحمد و غيره، أو دونه عند بعضهم. و نحو كتابة البدع المخالفة للسنة تصنيفاً أو نسخاً إلا مقروناً بردها و نقضها، وكتابة الزور و الظلم، و الحكم الجائر، والقذف و التشبيب بالنساء الأجانب، و كتابة ما فيه مضرة على المسلمين فى دينهم أو دنياهم، ولا سيما إن كسبت عليه مالاً ﴿فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾[1] و كذلك كتابة المفتى على الفتوى ما يخالف حكم الله ورسوله، إلا أن يكون مجتهداً مخطئاً، فالإثم موضوع عنه.

وأما المكروه: فكا لعبث و اللعب الذى ليس بحرام، و كتابة ما لا فائدة فى كتابته، ولا منفعة فيه فى الدنيا و الآخرة.

و المستحب: كتابة كل ما فيه منفعة فى الدين، أو مصلحة لمسلم، و الإحسان بيده بأن يعين صانعاً أو يصنع لأخرق، أو يُفرغ من دلوه فى دلو المستسقى، أو يحمل له على دابته، أو يمسكها حتى يحمل عليها، أو يعاونه بيده فيما يحتاج إليه و نحو ذلك. و منه: لمس الركن بيده فى الطواف، و فى تقبيلها بعد اللمس قولان.

فالمباح: ما لا مضرة فيه ولا ثواب.

و أما المشى الواجب: فالمشى إلى الجمعات والجماعات، فى أصح القولين،

لبضعة و عشرين دليلاً، مذكورة فى غير هذا الموضع، و المشى حول البيت للطواف الواجب، و المشى بين الصفا و المروة بنفسه أو بمركوبه، و المشى إلى حكم الله و رسوله، إذادُعى إليه، و المشى إلى صلة رحمه، و بر والديه، و المشى إلى مجالس العلم الواجب طلبه و تعلمه، و المشى إلى الحج إذا قربت المسافة ولم يكن عليه فيه ضرر.

و الحرام: المشى إلى معصية الله، وهو من رَجِلِ الشيطان. قال تعالى: ﴿و أجلبْ

(١) سورة البقرة الآية ٧٩.

عليهم بخيلك و رجلك﴾[1] قال مقاتل: استعن عليهم بركبان جندك و مُشاتهم، فكل راكب و ماش فى معصية الله فهو من جند إبليس.

و كذلك تتعلق هذه الأحكام الخمس بالركوب أيضاً

فواجبه: فى الركوب فى الغزو، و الجهاد، و الحج الواجب

و مستحبه: فى الركوب المستحب من ذلك، و لطلب العلم و صلة الرحم و بر الوالدين. و فى الوقوف بعرفة نزاع: هل الركوب فيه أفضل، أم على الأرض؟ و التحقيق: أن الركوب أفضل إذا تضمن مصلحة: من تعليم للمناسك و اقتداء به، و كان أعون على الدعاء. و لم يكن فيه ضرر على الدابة.

وحرامه: الركوب فى معصية الله عز و جل.

ومكروهه: الركوب للهو و اللعب، و كل ما تركه خير من فعله.

و مباحه: الركوب لما لم يتضمن فوت أجر، ولا تحصيل وزر.

فهذه خمسون مرتبة على عشرة أشياء: القلب، و اللسان، و السمع، و البصر، والأنف، و الفم، و اليد، و الرجل، و الفرج، و الإستواء على ظهر الدابة.

فصل

منازل إياك نعبد و إياك نستعين

فى منازل «إياك نعبد» التى ينتقل فيها القلب منزلة في حال سيره إلى الله.

و قد أكثر الناس فى صفة المنازل و عددها، فمنهم من جعلها ألفاً، و منهم من جعلها مائة. و منهم من زاد و نقص. فكلٌّ وصفها بحسب سيره و سلوكه.

و سأذكر فيها أمراً مختصراً جامعاً نافعاً. إن شاء الله تعالى.

فأول منازل العبودية «اليقظة»، وهى انزعاج القلب لروعة الانتباه من رقدة الغافلين. والله ما أنفع هذه الروعة! وما أعظم قدرها! وما أشد إعانتها على السلوك! فمن أحسّ بها فقد أحس و الله بالفلاح، وإلا فهو فى سكرات الغفلة فإذا انتبه شمّر لله بهمته إلى السفر إلى منازله الأولى، و أوطانه التى سُبى منها

فحىَّ على جنـــــات عـــدن فإنها	منازلك الأولى و فيهـا المخيم
و لكننــــا سبىُ العدو. فهل ترى	نعــــود إلى أوطاننا و نُسَلَّـــم؟

---

(1) سورة الإسراء الآية ٦٤.

فأخذ فى أهبة السفر، فانتقل إلى منزلة « العزم» وهو العقد الجازم على المسير، ومفارقة كل قاطع و مُعوِّق، و مرافقة كل معين و موصل. و بحسب كمال انتباهه ويقظته يكون عزمه، و بحسب قوة عزمه يكون استعداده.

فإذا استيقظ أوجبت له اليقظة « الفكرة» و هى تحديق القلب نحو المطلوب الذى قد استعدَّ له مجملاً، و لما يهتد إلى تفصيله و طريق الوصول إليه.

فإذا صحت فكرته أوجبت له «البصيرة» فهى نور فى القلب يبصر به الوعد والوعيد، و الجنة و النار، و ما أعد الله فى هذه لأوليائه، وفى هذه لأعدائه. فأبصرَ الناسَ وقد خرجوا من قبورهم مُهْطعين لدعوة الحق، و قد نزلت ملائكة السموات فأحاطت بهم. و قد جاء الله، و قد نُصب كرسيه لفصل القضاء. و قد أشرقت الارض بنوره، ووُضع الكتاب، و جيء بالنبيين و الشهداء. و قد نُصب الميزان، و تطايرت الصحف. واجتمعت الخصوم. و تعلّق كل غريم بغريمه ولاح الحوض و أكوابه عن كثَب و كثر العطاش و قل الوارد. و نُصب الجسر للعبور، ولُزّ الناس إليه. و قسمت الأنوار دون ظلمته للعبور عليه، والنار يَحْطِم بعضها بعضاً تحته. و المتساقطون فيها أضعاف أضعاف الناجين.

فينفتح فى قلبه عين يرى بها ذلك. و يقوم بقلبه شاهد من شواهد الآخرة يريه الآخرة و دوامها، والدنيا و سرعة انقضائها.

فـ«البصيرة» نور يقذفه الله فى قلب، يرى به حقيقة ما أخبرت به الرسل. كأنه يشاهده رأى عين. فيتحقق - مع ذلك - انتفاعه بما دعت إليه الرسل و تضرره بمخالفتهم. و هذا معنى قول بعض العارفين «البصيرة: تحقق الانتفاع بالشيء و التضرر به» و قال بعضهم «البصيرة: ما خلَّصك من الحيرة، إما بإيمان و إما بعيان».

و «البصيرة» على ثلاث درجات. من استكملها فقد استكمل البصيرة: بصيرة فى الأسماء و الصفات، و بصيرة فى الأمر و النهى، و بصيرة فى الوعد و الوعيد.

فالبصيرة فى الأسماء و الصفات: أن لا يتأثر إيمانك بشبهة تعارض ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله. بل تكون الشُبه المعارضة لذلك عندك بمنزلة الشُبه و الشكوك فى وجود الله. فكلاهما سواء فى البلاء عند أهل البصائر.

و عقد هذا: أن يشهد قلبك الرب تبارك و تعالى مستوياً على عرشه، متكلماً بأمره و نهيه، بصيراً بحركات العالم علويِّه و سُفليِّه، وأشخاصه، و ذواته، سميعاً لأصواتهم، رقيباً على ضمائرهم و أسرارهم، و أمرُ الممالك تحت تدبيره، نازل من عنده و صاعد إليه، و أملاكه بين يديه تنفذ أوامره فى أقطار الممالك. موصوفاً بصفات الكمال، منعوتاً بنعوت

الجلال، منزها عن العيوب و النقائص و المثال. هو كما وصف نفسه فى كتابه، وفوق ما يصفه به خلقه. حى لا يموت. قيوم لا ينام. عليم لا يخفى عليه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض. بصير يرى دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصماء، فى الليلة الظلماء. سميع يسمع ضجيج الأصوات،باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات، تمت كلماته صدقاً و عدلاً. و جلت صفاته أن تقاس بصفات خلقه شبهاً و مثلاً. وتعالت ذاته أن تشبه شيئاً من الذوات أصلاً. ووسعت الخليقة أفعاله عدلاً.و حكمة و رحمة وإحساناً و فضلاً. له الخلق و الأمر. و له النعمة والفضل. و له الملك و الحمد. و له الثناء و المجد.أولٌ ليس قبله شيء. و آخر ليس بعده شيء. ظاهر ليس فوقه شيء. باطن ليس دونه شيء. أسماؤه كلها مَدْح و حمد و ثناء و تمجيد.و للذلك كانت حسنى. و صفاته كلها صفات كمال،و نعوته كلها نعوت جلال، و أفعاله كلها حكمة و رحمة و مصلحة وعدل. كل شيء من مخلوقاته دال عليه، و مرشد لمن رآه بعين البصيرة إليه. لمُ يخلق السموات و الأرض و ما بينهما باطلاً، ولا ترك الإنسان سُدى عاطلاً، بل خلق الخلق لقيام توحيده و عبادته،و أسبغ عليهم نعمه ليتوسلوا بشكرها إلى زيادة كرامته. تعرّف إلى عباده بأنواع التعرفات. و صرّف لهم الآيات. و نوّع لهم الدلالات. و دعاهم إلى محبته من جميع الأبواب. و مدّ بينه و بينهم من عهده أقوى الأسباب. فأتمّ عليهم نعمه السابغة. و أقام عليهم حجته البالغة، أفاض عليهم النعمة،و كتب على نفسه الرحمة. وضمّن الكتاب الذى كتبه: أن رحمته تغلب غضبه.

و تفاوتُ الناس فى هذه البصيرة بحسب تفاوتهم فى معرفة النصوص النبوية وفهمها، و العلم بفساد الشبه المخالفة لحقائقها.

و تجد أضعف الناس بصيرة أهلَ الكلام الباطل المذموم الذى ذمه السلف لجهلهم بالنصوص و معانيها، و تمكن الشبه الباطلة من قلوبهم. و إذا تأملت حال العامة – الذين ليسوا مؤمنين عند أكثرهم – رأيتهم أتم بصيرة منهم، و أقوى إيماناً، و أعظم تسليماً للوحى، و انقياداً للحق.

(المرتبة الثانية من البصيرة)

البصيرة فى الأمر والنهى وهى تجريده عن المعارضة بتأويل، أو تقليد، أو هوى. فلا يقوم بقلبه شبهة تعارض العلم بأمر الله ونهيه، ولا شهوة تمنع من تنفيذه وإمتثاله، والأخذ به، ولا تقليد يريحه عن بذل الجهد فى تلقى الأحكام من مشكاة النصوص

وقد علمت بهذا أهل البصائر من العلماء من غيرهم

وهى أن تشهد قيام الله على كل نفس بما كسبت فى الخير والشر، عاجلاً وآجلاً، فى دار العمل ودار الجزاء، وأن ذلك هو موجب إلهيته وربوبيته وعدله وحكمته فإن الشك فى ذلك شك فى إلهيته وربوبيته بل شك فى وجوده. فإنه يستحيل عليه خلاف ذلك. ولا يليق أن ينسب إليه تعطيل الخليقة، وإرسالها هملاً، وتركها سدى. تعالى الله عن هذا الحسبان علواً كبيراً.

فشهادة العقل بالجزاء كشهادته بالوحدانية. ولهذا كان الصحيح: أن المعاد معلوم بالعقل. وإنما اهتدى إلى تفاصيله بالوحى. ولهذا يجعل الله سبحانه إنكار المعاد كفراً به سبحانه. لأنه إنكار لقدرته ولإلهيته. وكلاهما مستلزم للكفر به. قال تعالى ﴿وإن تعجب، فعجب، قولهم: أئذا كنا تراباً أئنا لفى خلق جديد؟ أولئك الذين كفروا بربهم. وأولئك الأغلال فى أعناقهم. وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾[1].

وفى الآية قولان:

أحدهما: إن تعجب من قولهم «أئذا كنا تراباً أئنا لفى خلق جديد» فعجب قولهم! كيف ينكرون هذا. وقد خلقوا من تراب، ولم يكونوا شيئاً.

والثانى: إن تعجب من شركهم مع الله غيره، وعدم انقيادهم لتوحيده وعبادته وحده لا شريك له. فانكارهم للبعث، وقولهم «أئذا كنا تراباً أئنا لفى خلق جديد» أعجب.

وعلى التقديرين: فانكار المعاد عجب من الإنسان. وهو محض إنكار الرب والكفر به، والجحد لإلهيته وقدرته، وحكمته وعدله وسلطانه.

ولصاحب المنازل فى «البصيرة» طريقة أخرى قال:

«البصيرة ما يخلصك من الحيرة. وهى على ثلاث درجات. الدرجة الأولى: أن تعلم أن الخبر القائم بتمهيد الشريعة يصدر عن عين لا يُخاف عواقبها، فترى من حقه أن تؤديه يقيناً، وتغضب له غيرة».

ومعنى كلامه: أن ما أخبر به الرسول ﷺ صادر عن حقيقة صادقة، لا يخاف متبعها فيما بعد مكروهاً. بل يكون آمناً من عاقبة اتباعها. إذ هى حق. ومتبع الحق لا خوف عليه، ومن حق ذلك الخبر عليك: أن تؤدى ما أمرت به منه من غير شك ولا شكوى، والأحوط بك والذى لا تبرأ ذمتك إلا به تناول الأمر بامتثال صادر عن تصديق محقق، لا يصحبه شك، وأن تغضب على من خالف ذلك غيرة عليه أن يضيع حقه، ويهمل جانبه.

(١) سورة الرعد الآية ٥.

وإنما كانت الغيرة عند شيخ الإسلام من تمام «البصيرة» لأنه على قدر المعرفة بالحق ومستحقه ومحبته وإجلاله: تكون الغيرة عليه أن يضيع، والغضب على من أضاعه. فإن ذلك دليل على محبة صاحب الحق وإجلاله وتعظيمه. وذلك عين البصيرة فكما أن الشك القادح فى كمال الامتثال مُعْمٍ لعين البصيرة، فكذلك عدم الغضب والغيرة على حقوق الله - إذا ضيعت ومحارمه إذا انتهكت - معم لعين البصيرة.

قال «الدرجة الثانية: أن تشهد فى هداية الحق وإضلاله. إصابة العدل، وفى تلوين أقسامه رعاية البر، وتعاين فى جذبه. حبل الوصل».

يريد - رحمه الله - بشهود العدل فى هدايته من هداه، وفى إضلاله من أضله أمرين

أحدهما: تفرده بالخلق. والهدى والضلال.

والثانى: وقوع ذلك منه على وجه الحكمة والعدل، لا بالإتفاق، ولا بمحض المشيئة المجردة عن وضع الأشياء مواضعها، وتنزيلها منازلها، بل بحكمة اقتضت هدى من علم أنه يزكو على الهدى، ويقبله ويشكره عليه، ويثمر عنده. فالله أعلم حيث يجعل رسالته، أصلا وميراثاً. قال تعالى: ﴿وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا: أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا؟ أليس الله بأعلم بالشاكرين؟﴾[1] وهم الذين يعرفون قدر نعمته بالهدى، ويشكرونه عليها، ويحبونه ويحمدونه على أن جعلهم من أهله. فهو سبحانه ما عدل عن موجب العدل والإحسان فى هداية من هدى وإضلال من أضل، ولم يطرد عن بابه، ولم يبعد عن جنابه، من يليق به التقريب والهدى والإكرام، بل طرد من لا يليق به إلا الطرد والإبعاد. وحكمته وحمده تأبى تقريبه وإكرامه، وجعله من أهله وخاصته وأوليائه.

ولا يبقى إلا أن يقال: فَلِمَ خَلَقَ من هو بهذه المثابة؟

فهذا سؤال جاهل ظالم ضال، مفرط فى الجهل والظلم والضلال. لأن خلق الأضداد والمقابلات هو من كمال الربوبية، كالليل والنهار، والحر والبرد، واللذة والألم والخير والشر، والنعيم والجحيم.

قوله «وفى تلوين أقسامه رعاية البر»

يريد بتلوين الأقسام: اختلافها فى الجنس والقدر والصفة، من أقسام الأموال والقوى، والعلوم والأعمال، والصنائع وغيرها قسَّمها على وجه البر والمصلحة، فأعطى كلا منهم ما يصلحه، وما هو الأنفع له، براً وإحساناً.

وقوله «وتعاين فى جذبه حبل الوصال»

يريد تعاين فى توفيقه لك للطاعة، وجذبه إياك من نفسك. أنه يريد تقريبك منه فاستعار للتوفيق الخاص الجذب، وللتقريب الوصال. وأراد بالحبل السبب الموصل لك إليه

(١) سورة الأنعام الآية ٥٣.

فأشار بهذا إلى أنك تستدل بتوفيقه لك، وجذبك نفسك، وجعلك متمسكاً بحبله - الذى هو عهده ووصيته إلى عباده - على تقريبه لك. تشاهد ذلك ليكون أقوى فى المحبة والشكر، وبذل النصيحة فى العبودية. وهذا كله من تمام البصيرة.

فمن لا بصيرة له فهو بمعزل عن هذا.

قال «الدرجة الثالثة: بصيرة تُفَجِّرُ المعرفة، وتثبت الإشارة، وتنبت الفراسة».

يريد بالبصيرة فى الكشف والعيان: أن تتفجر بها ينابيع المعارف من القلب، ولم يقل «تفجر العلم» لأن المعرفة أخص من العلم عند القوم. ونسبتها إلى العلم نسبة الروح إلى الجسد. فهى روح العلم ولبه.

وصدق - رحمه الله - فإن بهذه البصيرة تتفجر من قلب صاحبها ينابيع من المعارف، التى لا تنال بكسب ولا دراسة. إن هو إلا فهم يؤتيه الله عبداً فى كتابه ودينه، على قدر بصيرة قلبه.

وقوله «وتثبت الإشارة».

يريد بالإشارة: ما يشير إليه القوم من الأحوال والمنازلات، والأذواق التى ينكرها الأجنبى من السلوك، ويثبتها أهل البصائر. وكثير من هذه الأمور ترد على السالك. فإن كان له بصيرة ثبتت بصيرته ذلك له وحققته عنده. وعرفته تفاصيله. وإن لم يكن له بصيرة، بل كان جاهلاً، لم يعرف تفصيل ما يرد عليه. ولم يهتد لتثبيته.

قوله «وتنبت الفراسة».

يعنى أن البصيرة تنبت فى أرض القلب الفراسة الصادقة. وهى نور يقذفه الله فى القلب، يفرِّقُ به بين الحق والباطل، والصادق والكاذب. قال الله تعالى: ﴿إن فى ذلك لآيات للمتوسمين﴾[1] قال مجاهد: للمتفرسين. وفى الترمذى من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ أن قال «اتقوا فراسة المؤمن. فإنه ينظر بنور الله عز وجل»[2] ثم قرأ (إن فى ذلك لآيات للمتوسِّمين).

(١) سورة الحجر الآية ٧٥.

(٢) ضعيف رواه الترمذى (٣١٢٧) والبخارى فى «التاريخ الكبير» (٧/ ٣٥٤) والطبرى فى «التفسير» (١٤/ ٣١ - ٣٢) وأبو نعيم فى «الحلية» (١٠/ ٢٨١) والعقيلى فى «الضعفاء» (٤/ ١٢٩) وأبو الشيخ فى «الأمثال» (ص٧٨) والخطيب فى «تاريخه» (٣/ ١٩١ و ٧/ ٢٤٢) والقضاعى فى «مسند الشهاب» (١/ ٣٨٧) من حديث أبى سعيد الخدرى. ورواه الطبرانى فى «مسند الشاميين» (٢/ ٤٠٧) وفى «المعجم الكبير» (٨/ ١٢١/ ٧٤٩٧) وأبو نعيم فى «الحلية» (٦/ ١١٨) والبيهقى فى «الزهد الكبير» (ص ١٩٣) وابن عبد البر فى «جامع بيان العلم» (١/ ٢٤٠) والخطيب فى «تاريخه» (٥/ ٩٩) وابن عدى فى «الكامل» (٤/ ١٥٢٣و ٦/ ٢٤٠١) من حديث أبى أمامة الباهلى. ورواه الطبرى فى «تفسيره» (١٤/ ٣٢) وأبو الشيخ فى «الأمثال (ص ٧٨) وأبو نعيم فى «الحلية» (٤/ ٨١) من حديث ثوبان. ورواه الطبرى فى «تفسيره» (١٤/ ٣٢) وأبو نعيم فى «الحلية» (٤/ ٩٤) وابن الجوزى فى «الموضوعات» (٣/ ١٤٧) من حديث ابن عمر . ورواه أبو الشيخ الأصبهانى فى «الأمثال» (ص٧٧) وابن الجوزى فى «الموضوعات» (٣/ ١٤٧) من حديث أبى هريرة رضى الله عنهم وجميع هذه الطرق لا تخلوا من ضعف . وانظر «الضعيفة» (١٨٢١).

و«التوسم» تفعل من السيما وهى العلامة. فسمى المتفرس متوسماً. لأنه يستدل بما يشهد على ماغاب فيستدل بالعيان على الإيمان. ولهذا خص الله تعالى بالآيات والانتفاع بها هؤلاء لأنهم يستدلون بما يشاهدون منها على حقيقة ما أخبرت به الرسل، من الأمر والنهى، والثواب والعقاب. وقد ألهم الله ذلك لآدم، وعلمه إياه حين علمه أسماء كل شيء. وبنوه هم نسخته وخلفاؤه فكل قلب فهو قابل لذلك. وهو فيه بالقوة. وبه تقوم الحجة، وتحصل العبرة، وتصح الدلالة وبعث الله رسله مذكرين ومنبهين، ومكملين لهذا الاستعداد، بنور الوحى والإيمان. فينضاف ذلك إلى نور الفراسة والاستعداد. فيصير نوراً على نور. فتقوى البصيرة، ويعظم النور، ويدوم، بزيادة مادته ودوامها. ولا يزال فى تزايد حتى يُرى على الوجه والجوارح، والكلام والأعمال. ومن لم يقبل هدى الله ولم يرفع به رأساً دخل قلبه فى الغلاف والأكنة. فأظلم، وعمى عن البصيرة. فحجبت عنه حقائق الإيمان. فيرى الحق باطلا، والباطل حقاً، والرشد غياً، والغى رشدا. قال تعالى: ﴿كلا، بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾[1] و«الرين» و«الران» هو الحجاب الكثيف المانع للقلب من رؤية الحق، والانقياد له

وعلى حسب قوة البصيرة وضعفها تكون الفراسة.

مقام القصد

فإذا انتبه وأبصر أخذ فى «القصد» وصدق الإرادة. وأجمع القصد والنية على سفر الهجرة إلى الله. وعلم وتيقن أنه لا بد له منه. فأخذ فى أُهْبة السفر، وتعبئة الزاد ليوم المعاد. والتجرد عن عوائق السفر، وقطع العلائق التى تمنعه من الخروج.

وقد قسم صاحب المنازل «القصد» إلى ثلاث درجات فقال:

«الدرجة الأولى قصد يبعث على الارتياض، ويخلص من التردد، ويدعو إلى مجانبة الأغراض».

فذكر له ثلاث فوائد: أنه يبعث على السلوك بلا توقف، ولا تردد، ولا علة غير العبودية، من رياء أو سمعة، أو طلب محمدة، أو جاه ومنزلة عند الخلق.

قال «الدرجة الثانية: قصد لا يلقى سبباً إلا قطعه، ولا حائلا إلا منعه ولا تحاملا إلا سهله».

يعنى أنه لا يلقى سبباً يعوق عن المقصود إلا قطعه، ولا حائلا دونه إلا منعه ولا صعوبة إلا سهلها.

(١) سورة المطففين الآية ١٤

قال «الدرجة الثالثة: قصد الاستسلام لتهذيب العلم، وقصد إجابة داعى الحكم، وقصد اقتحام بحر الفناء».

يريد أنه ينقاد إلى العلم ليتهذب به ويصلح. ويقصد إجابة داعى الحكم الدينى الأمرى كلما دعاه. فإن للحكم فى كل مسألة من مسائل العلم منادياً ينادى للإيمان بها علما وعملاً. فيقصد إجابة داعيها. ولكن مراده بداعى الحكم: الأسرار والحِكم الداعية إلى شرع الحُكْم. فإجابتها قدر زائد على مجرد الامتثال. فإنها تدعو إلى المحبة والإجلال، والمعرفة والحمد. فالأمر يدعو إلى الامتثال. وما تضمنه من الحِكم. والغايات تدعو إلى المعرفة والمحبة.

وقوله «وقصد اقتحام بحر الفناء».

هذا هو الغاية المطلوبة عند القوم. وهو عند بعضهم لازم من لوازم الطريق. وليس بغاية. وعند آخرين عارض من عوارض الطريق. وليس بغاية. ولا هو لازم لكل سالك. وأهل القوة والعزم لا يعرض لهم. وحال البقاء أكمل منه، ولهذا كان البقاء حال نبينا ﷺ ليلة الإسراء. وقد رأى ما رأى. وحال موسى الفناء، ولهذا خر صعقاً عند تَجَلّى الله للجبل، وامرأة العزيز كانت أكمل حباً ليوسف من النسوة، ولم يعرض لها ما عرض لهن عند رؤية يوسف لفنائهن وبقاءها، وسيأتى إن شاء الله تحقيق الكلام فيه.

مقام العزم

فإذا استحكم قصده صار «عزماً» جازماً، مستلزماً للشروع فى السفر، مقروناً بالتوكل على الله. قال تعالى: ﴿فإذا عزمت فتوكل على الله﴾[1]

و«العزم» هو القصد الجازم المتصل بالفعل. ولذلك قيل: إنه أول الشروع فى الحركة لطلب المقصود، وأن التحقيق: أن الشروع فى الحركة ناشىء عن العزم، لا أنه هو نفسه، ولكن لما اتصل به من غير فصل ظن أنه هو.

وحقيقته: هو استجماع قوى الإرادة على الفعل.

و«العزم» نوعان. أحدهما: عزم المريد على الدخول فى الطريق. هو من البدايات.

والثانى: عزم فى حال السير معه. وهو أخص من هذا. وهو من المقامات. وسنذكره فى موضعه إن شاء الله.

وفى هذه المنزلة يحتاج السالك إلى تميز ما له مما عليه، ليستصحب ما له ويؤدى ما

---

(١) سورة ال عمران الاية: ١٥٩.

عليه. وهو «المحاسبة» وهى قبل «التوبة» فى المرتبة فإنه إذا عرف ماله وما عليه أخذ فى أداء ما عليه، والخروج منه وهو «التوبة»

وصاحب المنازل قدّم التوبة على المحاسبة ووجه هذا: أنه رأى «التوبة» أول منازل السائر بعد يقظته، ولا تتم التوبة إلا بالمحاسبة فالمحاسبة تكميل مقام التوبة فالمراد بالمحاسبة الإستمرار على حفظ التوبة، حتى لا يخرج عنها وكأنه وفاء بعقد التوبة

* * *

واعلم أن ترتيب هذه المقامات ليس باعتبار أن السالك يقطع المقام، ويفارقه وينتقل إلى الثانى كمنازل السير الحسى هذا محال ألا ترى أن «اليقظة» معه فى كل مقام لا تفارقه، وكذلك «البصيرة» و«الإرادة» و«العزم» وكذلك «التوبة» فإنها كما أنها من أول المقامات فهى آخرها أيضاً. بل هى فى كل مقام مُستَصحبة ولهذا جعلها الله تعالى آخر مقامات خاصته. فقال تعالى فى غزوة تبوك. وهى آخر الغزوات التى قطعوا فيها الأودية والبدايات والأحوال والنهايات ﴿لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم. ثم تاب عليهم. إنه بهم رءوف رحيم﴾[1] فجعل التوبة أول أمرهم وآخره. وقال فى سورة أَجَلَ رسول الله ﷺ التى هى آخر سورة أنزلت ﴿إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾

وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها «أن رسول الله ﷺ ما صلى صلاة بعد إذ أنزلت عليه هذه السورة، إلا قال فى ركوعه وسجوده. سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفرلى، يتأول القرآن»[2] فالتوبة هى نهاية كل سالك وكل ولى لله. وهى الغاية التى يجرى إليها العارفون بالله وعبوديته وما ينبغى له قال تعالى ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً * ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات. وكان الله غفوراً رحيماً﴾[3] فجعل سبحانه التوبة غاية كل مؤمن ومؤمنة

وكذلك «الصبر» فإنه لا ينفك عنه فى مقام من المقامات

---

(١) سورة التوبة الآية ١١٧

(٢) رواه البخارى (٧٩٤) و مسلم (٦٦ ١) وأحمد (٦/ ٤٣و ٤٩ و ١٩٠) و النسائى (٢/ ١٩) وأبو داود (٨٧٧) وابن ماجه (٨٨٩)

(٣) سورة الأحزاب الآية (٧٢ - ٧٣)

وإنما هذا الترتيب ترتيب المشروط المتوقف على شرطه المصاحب له. ومثال ذلك: أن «الرضا» مترتب على «الصبر» لتوقف الرضا عليه. واستحالة ثبوته بدونه فإذا قيل: إن مقام «الرضا» أوحاله - على الخلاف بينهم: هل هو مقام أو حال؟- بعد مقام «الصبر» لا يعنى به أنه يفارق الصبر وينتقل إلى الرضا وإنما يعني أنه لا يحصل له مقام الرضا حتى يتقدم له قبله مقام الصبر. فافهم هذا الترتيب فى مقامات العبودية.

وإذا كان كذلك علمت أن «القصد»و«العزم» متقدم على سائر المنازل فلا وجه لتأخيره. وعلمت بذلك أن«المحاسبة» متقدمة على «التوبة» بالرتبة أيضاً. فإنه إذا حاسب العبد نفسه خرج مما عليه. وهى حقيقة التوبة. وأن منزلة «التوكل» قبل منزلة «الإنابة» لأنه يتوكل فى حصولها. فالتوكل وسيلة. والإنابة غاية. وأن مقام التوحيد أولى المقامات أن يبدأ به كما أنه أول دعوة الرسل كلهم. قال النبى ﷺ لمعاذ بن جبل - حين بعثه إلى اليمن - «فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله»[1] وفى رواية «إلى أن يعرفوا الله» ولأنه لا يصح مقام من المقامات، ولا حال من الأحوال إلا به، فلا وجه لجعله آخر المقامات. وهو مفتاح دعوة الرسل. وأول فرض فرضه الله على العباد. وما عدا هذا من الأقوال فخطأ. كقول من يقول: أول الفروض النظر، أو القصد إلى النظر، أو المعرفة، أو الشك الذى يوجب النظر.

وكل هذه الأقوال خطأ، بل أول الواجبات: مفتاح دعوة المرسلين كلهم. وهو أول ما دعا إليه فاتحهم نوح. فقال: ﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾[2] وهو أول ما دعا إليه خاتمهم محمد ﷺ.

ولأرباب السلوك اختلاف كثير فى عدد المقامات وترتيبها، كُلٌّ يصف منازل سيره، وحال سلوكه. ولهم اختلاف فى بعض منازل السير: هل هى من قسم الأحوال والفرق بينهما: أن المقامات كَسْبِية. والأحوال وهبية. ومنهم من يقول: الأحوال من نتائج المقامات والمقامات نتائج الأعمال، فكل من كان أصلح عملاً كان أعلى مقاماً، وكل من كان أعلى مقاما كان أعظم حالاً.

فما اختلفوا فيه «الرضا» هو: حال، أو مقام؟ فيه خلاف بين الخراسانيين والعراقيين.

وحكم بينهم بعض الشيوخ، فقال: إن حصل بكسب فهو مقام. وإلا فهو حال.

والصحيح فى هذا: أن الواردات والمنازلات لها أسماء باعتبار أحوالها، فتكون لوامع

(١)رواه البخارى (١٣٩٥) ومسلم (١٢١) وأحمد (١/ ٢٣٣) وأبو داود (١٥٨٤) والترمذى (٦٢٥، ١٤ ٢) والنسائى (٥/ ٢) وابن ماجه (١٧٨٣).

(٢) سورة الأعراف الآية ٥٩

وبوارق ولوائح عند أول ظهورها وبُدوّها، كما يلمع البارق ويلوح عن بعد، فإذا نازلته وباشرها فهى أحوال، فإذا تمكنت منه وثبتت له من غير انتقال فهى مقامات. وهى لوامع ولوائح فى أولها، وأحوال فى أوسطها، ومقامات فى نهايتها. فالذى كان بارقاً هو بعينه الحال. والذى كان حالاً هو بعينه المقام. وهذه الأسماء له باعتبار تعلقه بالقلب، وظهوره له، وثباته فيه وقد ينسلخ السالك من مقامه كما ينسلخ من الثوب، وينزل إلى ما دونه. ثم قد يعود إليه، وقد لا يعود.

ترتيب المقامات

ومن المقامات: ما يكون جامعاً لمقامين.

ومنها ما يكون جامعاً لأكثر من ذلك.

ومنها ما يندرج فيه جميع المقامات. فلا يستحق صاحبه اسمه إلا عند استجماع جميع المقامات فيه.

فالتوبة جامعة لمقام المحاسبة ومقام الخوف، لا يتصور وجوده بدونهما.

و«التوكل» جامع لمقام التفويض والاستعانة والرضى. لا يتصور وجوده بدونها.

و«الرجاء» جامع لمقام الخوف والإرادة.

و«الخوف» جامع لمقام الرجاء والإرادة.

و«الإنابة»جامعة لمقام المحبة والخشية. لا يكون العبد منيباً إلا باجتماعهما.

و«الإخبات» له جامع لمقام المحبة والذل والخضوع. لا يكمل أحدها بدون الآخر إخباتاً.

و«الزهد» جامع لمقام الرغبة والرهبة. لا يكون زاهداً من لم يرغب فيما يرجو نفعه، ويرهب مما يخاف ضرره.

ومقام «المحبة» جامع لمقام المعرفة والخوف والرجاء والإرادة. فالمحبة معنى يلتئم من هذه الأربعة. وبها تحققها

ومقام «الخشية» جامع لمقام المعرفة بالله، والمعرفة بحق عبوديته. فمتى عرف الله وعرف حقه اشتدت خشيته له. كما قال تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾[1] فالعلماء به وبأمره هم أهل خشيته. قال النبى ﷺ «أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية»[2]

ومقام «الهيبة» جامع لمقام المحبة والإجلال والتعظيم.

(١) سورة فاطر الآية ٢٨. (٢) رواه البخارى (٢٠) كتاب الإيمان باب قول النبى ﷺ «أنا أعلمكم بالله».

ومقام «الشكر» جامع لجميع مقامات الإيمان. ولذلك كان أرفعها وأعلاها. وهو فوق «الرضا» وهو يتضمن «الصبر» من غير عكس. و يتضمن «التوكل» و«الإنابة»و«الحب» و«الإخبات» و«الخشوع»و«الرجاء» فجميع المقامات مندرجة فيه. لا يستحق صاحبه اسمه على الإطلاق إلا باستجماع المقامات له. ولهذا كان الإيمان نصفين: نصف صبر ونصف شكر. والصبر داخل فى الشكر. فرجع الإيمان كله شكراً. والشاكرون هم أقل العباد، كما قال تعالى: ﴿وقليل من عبادى الشكور﴾[1].

ومقام «الحياء «جامع لمقام المعرفة والمراقبة.

ومقام «الأنس» جامع لمقام الحب مع القرب. فلو كان المحب بعيداً من محبوبه لم يأنس به. ولو كان قريباً من رجل ولم يحبه لم يأنس به، حتى يجتمع له حبه مع القرب منه.

ومقام «الصدق» جامع للإخلاص والعزم. فباجتماعهما يصح له مقام الصدق.

ومقام «المراقبة» جامع للمعرفة مع الخشية. فبحسبهما يصح له مقام المراقبة. ومقام «الطمأنينة» جامع للإنابة والتوكل، والتفويض والرضى والتسليم.

فهو معنى ملتئم من هذه الأمور. إذا اجتمعت صار صاحبها صاحب طمأنينة. وما نقص منها نقص من الطمأنينة.

وكذلك «الرغبة»و«الرهبة» كل منهما ملتئم من «الرجاء» و«الخوف» والرجاء على الرغبة أغلب، والخوف على الرهبة أغلب.

وكل مقام من هذه المقامات فالسالكون بالنسبة إليه نوعان: أبرار، ومقربون. فالأبرار فى أذياله، والمقربون فى ذروة سنامه. وهكذا مراتب الإيمان جميعها. وكل من النوعين لا يُحصى تفاوتهم، وتفاضل درجاتهم إلا الله.

منازل العبودية

اعلم أن العبد قبل وصول الداعى إليه فى نوم الغفلة، قلبه نائم و طَرْفه يقظان. فصاح به الناصح. و أسمعه داعى النجاح. و أذن به مؤذن الرحمن: حى على الفلاح.

فأول مراتب هذا النائم: اليقظة و الانتباه من النوم. و قد ذكرنا: أنها انزعاج القلب لروعة الانتباه.

و صاحب المنازل يقول «هى القومة لله المذكورة فى قوله ﴿قل: إنما أعظكم بواحدة. أن تقوموا لله مثنى و فرادى﴾ [2]

(١) سورة سبأ الآية ٣٤. (٣) سورة سبأ الآية ٤٦.

قال «القومة لله هى اليقظة من سِنَة الغفلة، والنهوض عن ورطة الفترة. وهى أول ما يستنير قلب العبد بالحياة لرؤية نور التنبيه. وهى على ثلاثة أشياء: لَحْظ القلب إلى النعمة، على اليأس من عَدِّها، والوقوف على حدها، والتفرغ إلى معرفة المنة بها، والعلم بالتقصير فى حقها».

وهذا الذى ذكره: هو موجب اليقظة وأثرها. فإنه إذا نهض من ورطة الغفلة لاستنارة قلبه برؤية نور التنبيه. أوجب له ملاحظة نعم الله الباطنة والظاهرة. وكلما حَدَّق قلبه وطَرْفَه فيها، شاهد عظمتها وكثرتها. فيئس من عدها، والوقوف على حدها. وفَرَّغ قلبه لمشاهدة منه الله عليه بها، من غير استحقاق، ولا استجلاب لها بثمن. فتيقن حينئذ تقصيره فى واجبها. وهوالقيام بشكرها. فأوجب له شهود تلك المنة والتقصير نوعين جليلين من العبودية: محبة المنعم. واللهج بذكره، وتذكُّر الله وخضوعه له، وإزراءه على نفسه. حيث عجز عن شكر نعمه. فصار متحققاً بـ «أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبى فاغفر لى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»[1] وعلم حينئذ أن هذا الاستغفار حقيق بأن يكون سيد الاستغفار. وعلم حينئذ أن الله لو عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم. وعلم أن العبد دائماً سائر إلى الله بين مطالعة المنة، ومشاهدة التقصير.

قال: «الثانى: مطالعة الجناية، والوقوف على الخطر فيها، والتشمير لتداركها، والتخلص من رقها، وطلب النجاة بتمحيصها».

فينظر إلى ما سلف منه من الإساءة. ويعلم أنه على خطر عظيم فيها، وأنه مشرف على الهلاك بمؤاخذة صاحب الحق بموجب حقه. وقد ذم الله تعالى فى كتابه من نسى ما تَقَدَّم يداه. فقال ﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه﴾[2] فإذا طالع جنايته شمَّر لاستدراك الفارط بالعلم و العمل. و تخلص من رق الجناية بالاستغفار والندم. و طلب التمحيص. و هو تخليص إيمانه و معرفته من خبث الجناية، كتمحيص الذهب و الفضة، و هو تخليصهما من خبثهما. و لا يمكن دخوله الجنة إلا بعد هذا التمحيص. فإنها طيبة لا يدخلها إلا طيب. و لهذا تقول لهم الملائكة ﴿سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين﴾[3] و قال تعالى ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون: سلام عليكم ادخلوا الجنة﴾ [4] فليس فى الجنة خبث.

---

(١) رواه البخارى (٦٣٠٦) وأحمد (٤/ ١٢٢ و ١٢٥) عن شداد بن أوس رضى الله عنه.

(٢) سورة الكهف الآية ٥٧.	(٣) سورة الزمر الآية ٧٣.	(٤) سورة النحل الآية: ٣٢.

وهذا التمحيص يكون فى دار الدنيا بأربعة أشياء: بالتوبة، والاستغفار، وعمل الحسنات الماحية، والمصائب المكفرة. فإن محَّصَتْهُ هذه الأربعة وخلَّصته: كان من الذين تتوفاهم الملائكة طيبين. يبشرونهم بالجنة، وكان من الذين ﴿تتنزل عليهم الملائكة﴾[1] عند الموت ﴿أن لا تخافوا ولا تحزنوا. وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون. نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة. ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلاً من غفور رحيم﴾[2].

وإن لم تف هذه الأربعة بتمحيصه وتخليصه، فلم تكن التوبة نصوحاً - وهى العامة الشاملة الصادقة - ولم يكن الاستغفار كاملاً تاماً - وهو المصحوب بمفارقة الذنب، والندم عليه - وهذا هو الاستغفار النافع، لا استغفار من فى يده قدح السكر، وهو يقول: أستغفر الله، ثم يرفعه إلى فيه. ولم تكن الحسنات فى كميتها وكيفيتها وافية بالتفكير، ولا المصائب. وهذا إما لعظم الجناية، وإما لضعف المحص، وإما لهما - مُحِّصَ فى البرزخ بثلاثة أشياء.

أحدها: صلاة أهل الإيمان الجنازة عليه، واستغفارهم له، وشفاعتهم فيه.

الثانى: تمحيصه بفتنة القبر، وروعة الفتان، والعصرة والانتهار، وتوابع ذلك.

الثالث: ما يهدى إخوانه المسلمون إليه من هدايا الأعمال، من الصدقة عنه، والحج، والصيام عنه، وقراءة القرآن عنه، والصلاة. وجعل ثواب ذلك له. وقد أجمع الناس على وصول الصدقة والدعاء. قال الإمام أحمد: لا يختلفون فى ذلك. وما عداهما فيه اختلاف. والأكثرون يقولون بوصول الحج. وأبو حنيفة يقول: إنما يصل إليه ثواب الإنفاق، وأحمد ومن وافقه: مذهبهم فى ذلك أوسع المذاهب. يقولون: يصل إليه ثواب جميع القرب. بدنيها وماليها، والجامع للأمرين. واحتجوا بأن النبى ﷺ قال لمن سأله «يا رسول الله، هل بقى من بر أبوىَّ شىء أبرهما به بعد مماتهما؟ قال: نعم. فذكر الحديث»[3] وقد قال ﷺ «من مات وعليه صيام صام عنه وليُّه»[4].

فإن لم تف هذه بالتمحيص. مُحِّصَ بين يدى ربه فى الموقف بأربعة أشياء: أهوال القيامة. وشدة الموقف. وشفاعة الشفعاء. وعفو الله عز وجل.

فإن لم تف هذه الثلاثة بتمحيصه فلا بد له من دخول الكير، رحمة فى حقه ليتخلص

---

(١) سورة فصلت الآية (٣٠-٣٢). (٢) سورة فصلت الآية ٣٠.

(٣) ضعيف، رواه أبوداود(٥١٤٢) و ابن ماجة (٣٦٦٤) والمزى فى «تهذيب الكمال» (٢١/ ٥٧)وتمامه: «الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإيفاء بعهودهما من بعد موتهما، وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التى لاتوصل إلا بهما». وفى سنده على بن عبيد الأنصارى وهو مقبول كما فى «التقريب» (٢/ ٤١).

(٤) رواه البخارى (١٩٥٢) و مسلم (٢٦٥٠) و أبو داود (٢٤٠٠)عن عائشة رضى الله عنها.

ويتمحص، ويتطهر فى النار. فتكون النار طُهْرَة له وتمحيصاً لخبثه. ويكون مكثه فيها على حسب كثرة الخبث وقلته، وشدته وضعفه وتراكمه. فإذا خرج خبثه وصفى ذهبه. وصار خالصاً طيباً، أُخْرِجَ من النار، وأُدْخِلَ الجنة

قال: «الثالث» يعنى من مراتب اليقظة «الانتباه لمعرفة الزيادة والنقصان من الأيام، والتنصل من تضييعها، والنظر إلى الظن بها لتدارك فائتها، وتعمير باقيها».

يعنى أنه يعرف ما معه من الزيادة والنقصان. فيتدارك ما فاته فى بقية عمره التى لا ثمن لها، ويبخل بساعاته - بل بأنفاسه - عن ذهابها ضياعاً فى غير ما يقرب به إلى الله. فهذا هو حقيقة الخسران المشترك بين الناس، مع تفاوتهم فى قدره، قلة وكثرة. فكل نَفَس يخرج فى غير ما يقرب إلى الله فهو حسرة على العبد فى معاده، ووقفة له فى طريق سيره، أو نكسة إن استمر، أو حجاب إن انقطع به.

(معرفة النعمة)

قال: «فأما معرفة النعمة: فإنها تصفو بثلاثة أشياء: بنور العقل، وشَيْم بروق المنَّة. والاعتبار بأهل البلاء».

يعنى أن حقيقة مشاهدة النعمة: يصفو بهذه الثلاثة. فهى النور الذى أوجب اليقظة، فاستنار القلب به لرؤية التنبه. وعلى حسبه - قوة وضعفاً - تصفو له مشاهدة النعمة. فإن من لم ير نعمة الله عليه إلا فى مأكله وملبسه، وعافية بدنه، وقيام وجهه بين الناس. فليس له نصيب من هذا النور ألبتة. فنعمة الله بالإسلام والإيمان، وجذب عبده إلى الإقبال عليه، والتنعم بذكره. والتلذذ بطاعته: هو أعظم النعم. هذا إنما يدرك بنور العقل، وهداية التوفيق.

وكذلك شيمه بروق منن الله عليه. وهو النظر إليها، ومطالعتها من خلال سحب الطبع. وظلمات النفس. والنظر إلى أهل البلاء - وهم أهل الغفلة عن الله، والابتداع فى دين الله - فهذان الصنفان هم أهل البلاء حقاً. فإذا رآهم وعلم ما هم عليه، عظمت نعمة الله عليه فى قلبه، وصفت له وعرف قدرها * فالضد يظهر حسنه الضد * وبضدها تتميز الأشياء

حتى إن من تمام نعيم أهل الجنة: رؤية أهل النار وما هم فيه من العذاب قال: «وأما مطالعة الجناية: إنها تصح بثلاثة أشياء. بتعظيم الحق، ومعرفة النفس، وتصديق الوعيد»

يعنى أن من كملت عظمة الحق تعالى فى قلبه عظمت عنده مخالفته. لأن مخالفة العظيم ليست كمخالفة من هو دونه. ومن عرف قدر نفسه وحقيقتها، وفقرها الذاتى إلى

مولاها الحق فى كل لحظة ونفس، وشدة حاجتها إليه، عظمت عنده جناية المخالفة لمن هو شديد الضرورة إليه فى كل لحظة ونفس.

وأيضاً فإذ عرف حقارتها - مع عظم قدر من خالفه - عظمت الجناية عنده. فشمر فى التخلص منها. وبحسب تصديقه بالوعيد ويقينه به، يكون تشميره فى التخلص من الجناية التى تلحق به.

ومدار السعادة، وقطب رحاها: على التصديق بالوعيد. فإذا تعطل من قلبه التصديق بالوعيد خرب خراباً لا يرجى معه فلاح ألبتة. والله تعالى أخبر أنه إنما تنفع الآيات والنُّذر لمن صدق بالوعيد. وخاف عذاب الآخرة، فهؤلاء هم المقصودون بالإنذار، والمنتفعون بالآيات، دون من عداهم. قال الله تعالى: ﴿إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة﴾[1] وقال: ﴿إنما أنت منذر من يخشاها﴾[2] وقال: ﴿فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾[3] وأخبر تعالى أن أهل النجاة فى الدنيا والآخرة هم المصدقون بالوعيد، الخائفون منه. فقال تعالى: ﴿ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد﴾[4].

قال: «وأما معرفة الزيادة والنقصان من الأيام: فإنها تستقيم بثلاثة أشياء: سماع العلم، وإجابة داعى الحرمة، وصحبة الصالحين. وملاك ذلك كله: خلع العادات».

يعنى أن السالك: على حسب علمه بمراتب الأعمال، ونفائس الكسب. تكون معرفته بالزيادة والنقصان فى حاله وإيمانه. وكذلك تفقد إجابة داعى تعظيم حرمات الله من قلبه: هل هو سريع الإجابة لها. أم هو بطىء عنها؟ فبحسب إجابة الداعى - سرعة وإبطاء - تكون زيادته ونقصانه.

وكذلك صحبة أرباب العزائم، المشمرين إلى اللحاق بالملأ الأعلى، يعرف به ما معه من الزيادة والنقصان.

والذى يملك به ذلك كله خروجه عن العادات والمألوفات، وتوطين النفس على مفارقتها، والغربة بين أهل الغفلة والإعراض. وما على العبد أضر من ملك العادات له. وما عارض الكفار الرسل إلا بالعادات المستقرة، والموروثة لهم عن الأسلاف الماضين. فمن لم يوطن نفسه على مفارقتها والخروج عنها، والاستعداد للمطلوب منه. فهو مقطوع، وعن فلاحه وفوزه ممنوع ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة. ولكن كره الله انبعاثهم. فثبطهم. وقيل اقعدوا مع القاعدين﴾[5].

---

(١) سورة هود الآية: ١٠٣.
(٢) سورة النازعات الآية: ٤٥.
(٣) سورة ق الآية: ٤٥.
(٤) سورة إبراهيم الآية: ١٤.
(٥) سورة التوبة الآية: ٤٦.

فإذا استحكمت يقظته أوجبت له الفكرة. وهى - كما تقدم - تحديق القلب إلى جهة المطلوب التماساً له.

(منزلة المحاسبة)

(عودة إلى منازل «إياك نعبد وإياك نستعين»)

فلنرجع إلى ذكر منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» التى لا يكون العبد من أهلها حتى ينزل منازلها.

فذكرنا منها «اليقظة» و«البصيرة» و«الفكرة» و«العزم».

وهذه المنازل الأربعة لسائر المنازل كالأساس للبنيان، وعليها مدار منازل السفر إلى الله. ولا يتصور السفر إليه بدون نزولها ألبتة. وهى على ترتيب السير الحسى. فإن المقيم فى وطنه لا يتأتى منه السفر حتى يستيقظ من غفلته عن السفر. ثم يتبصر فى أمر سفره وخطره، وما فيه من المنفعة له والمصلحة. ثم يفكر فى أهبة السفر والتزود وإعداد عدته. ثم يعزم عليه. فإذا عزم عليه وأجمع قصده انتقل إلى منزلة «المحاسبة» وهى «التمييز» بين ما له وعليه. فيستصحب ما له.ويؤدى ما عليه. لأنه مسافر سفر من لا يعود.

ومن منزلة «المحاسبة» يصح له نزول منزلة «التوبة» لأنه إذا حاسب نفسه، عرف ما عليه من الحق، فخرج منه، وتنصل منه إلى صاحبه. وهى حقيقة «التوبة» فكان تقديم «المحاسبة» عليها لذلك أولى.

ولتأخيرها عنها وجه أيضاً. وهو أن «المحاسبة» لا تكون إلا بعد تصحيح التوبة.

والتحقيق: أن التوبة بين محاسبتين. محاسبة قبلها، تقتضى وجوبها. ومحاسبة بعدها، تقتضى حفظها. فالتوبة محفوفة بمحاسبتين. وقد دل على المحاسبة قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله، ولتنظر نفس ما قدمت لغد﴾[1] فأمر سبحانه العبد أن ينظر ما قدّم لغد. وذلك يتضمن محاسبة نفسه على ذلك، والنظر. هل يصلح ما قدمه أن يلقى الله به أو لا يصلح؟.

والمقصود من هذا النظر ما يوجبه ويقتضيه. من كمال الاستعداد ليوم المعاد. وتقديم ما ينجيه من عذاب الله، ويبيض وجهه عند الله وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا. وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر» ﴿يومئذ تُعْرَضُون لا تخفى منكم خافية﴾[1] أو قال «على من لا تخفى عليه أعمالكم»

---

(١) سورة الحشر الآية ١٨.

(٢) سورة الحاقة الآية ١٨.

(أركان المحاسبة)

قال صاحب المنازل «المحاسبة لها ثلاثة أركان:

أحدها: أن تقايس بين نعمته وجنايتك».

يعنى تقايس بين ما مِنَ الله وما منك. فحينئذ يظهر لك التفاوت. وتعلمُ أنه ليس إلا عفوه ورحمته، أو الهلاك والعطب.

وبهذه المقايسة تعلم أن الرب رب والعبد عبد. ويتبين لك حقيقة النفس وصفاتها، وعظمة جلال الربوبية، وتفرد الرب بالكمال والإفضال. وأن كل نعمة منه فضل. وكل نقمة منه عدل. وأنت قبل هذه المقايسة جاهل بحقيقة نفسك، وبر بوبية فاطرها وخالقها. فإذا قايست ظهر لك أنها منبع كل شر، وأساس كل نقص. وأن حدها: الجاهلة الظالمة، وأنه لولا فضل الله ورحمته بتزكيته لها ما زكت أبداً. ولولا هداه ما اهتدت. ولولا إرشاده وتوفيقه لما كان لها وصول إلى خير ألبتة وأن حصول ذلك لها من بارئها وفاطرها وتوقفه عليه كتوقف وجودها على إيجاده. فكما أنها ليس لها من ذاتها وجود. فكذلك ليس لها من ذاتها كمال الوجود. فليس لها من ذاتها إلا العدم عدم الذات، وعدم الكمال - فهناك تقول حقاً! «أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي»[1].

ثم تقايس بين الحسنات والسيئات. فتعلم بهذه المقايسة: أيهما أكثر وأرجح قدراً وصفة.

وهذه المقايسة الثانية مقايسة بين أفعالك وما منك خاصة.

***

قال «وهذه المقايسة تشق على من ليس له ثلاثة أشياء: نور الحكمة، وسوء الظن بالنفس، وتمييز النعمة من الفتنة».

يعنى أن هذه المقايسة والمحاسبة تتوقف على نور الحكمة. وهو النور الذى نَوَّر الله به قلوب أتباع الرسل. وهو نور الحكمة. فبقدره ترى التفاوت. وتتمكن من المحاسبة.

ونور الحكمة ههنا: هو العلم الذى يميز به العبد بين الحق والباطل، والهدى والضلال. والضار والنافع. والكامل والناقص. والخير والشر. ويبصر به مراتب الأعمال، راجحها ومرجوحها ، ومقبولها ومردودها. وكلما كان حظه من هذا النور أقوى، كان حظه من المحاسبة أكمل وأتم.

---

(١) سبق تخريجه.

وأما سوء الظن بالنفس: فإنما احتاج إليه لأن حسن الظن بالنفس يمنع من كمال التفتيش. ويلبس عليه. فيرى المساوىء محاسن، والعيوب كمالاً. فإن المحب يرى مساوىء محبوبه وعيوبه كذلك.

فعين الرضى عن كل عيب كليلة   كما أن عين السخط تبدى المساويا

ولا يسيء الظن بنفسه إلا من عرفها. ومن أحسن ظنه بنفسه فهو من أجهل الناس بنفسه.

(الفرقان بين النعمة والفتنة)

وأما تمييز النعمة من الفتنة: فليفرق بين النعمة التى يرى بها الإحسان واللطف، ويعان بها على تحصيل سعادته الأبدية. وبين النعمة التى يرى بها الاستدراج، فكم من مُسْتَدْرَج بالنعم وهو لا يشعر، مفتون بثناء الجهال عليه، مغرور بقضاء الله حوائجه وستره عليه وأكثر الخلق عندهم: أن هذه الثلاثة علامة السعادة والنجاح. ذلك مبلغهم من العلم.

فإذا كملت هذه الثلاثة فيه عرف حينئذ أن ما كان من نعم الله عليه بجمعه على الله فهو نعمة حقيقة. وما فرقه عنه وأخذه منه فهو البلاء فى صورة النعمة، والمحنة فى صورة المنحة. فليحذر فإنما هو مستدرج. ويميز بذلك أيضاً بين المنة والحجة. فكم تلتبس إحداهما عليه بالأخرى.

فإن العبد بين منّة من الله عليه. وحجة منه عليه. ولا ينفك عنهما. فالحكم الدينى متضمن لمنته وحجته. قال الله تعالى: ﴿لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم﴾[1] وقال: ﴿بل الله يَمُنُّ عليكُم أن هداكم للإيمان﴾[2] وقال: ﴿فلله الحجة البالغة﴾[3]

والحكم الكونى أيضاً متضمن لمنته وحجته. فإذا حكم له كوناً حكماً مصحوباً باتصال الحكم الدينى به فهو منّة عليه. وإن لم يصحبه الدينى فهو حجة منه عليه.

وكذلك حكمه الدينى إذا اتصل به حكمه الكونى. فتوفيقه للقيام به منّة منه عليه. وإن تجرد عن حكمه الكونى صار حجة منه عليه. فالمنة باقتران أحد الحكمين بصاحبه.

---

١) سورة آل عمران الآية ١٦٤.

٢) سورة الحجرات الآية ١٧.

٣) سورة الأنعام الآية ١٤٩

والحجة: فى تجرد أحدهما عن الآخر. فكل علم صحبه عمل يرضى الله سبحانه فهومنة. وإلا فهو حجة.

وكل قوة ظاهرة وباطنة صحبها تنفيذ لمرضاته وأوامره فهى منة. وإلا فهى حجة.

وكل حال صحبه تأثير فى نصرة دينه، والدعوة إليه فهو منة منه. وإلا فهو حجة.

وكل مال اقترن به إنفاق فى سبيل الله وطاعته، لا لطلب الجزاء ولا الشكور، فهو منة من الله عليه. وإلا فهو حجة.

وكل فراغ اقترن به اشتغال بما يريد الرب من عبده فهو منة عليه، وإلا فهو حجة.

وكل قبول فى الناس، وتعظيم ومحبة له، اتصل به خضوع للرب، وذل وانكسار، ومعرفة بعيب النفس والعمل، وبذل النصيحة للخلق فهو منة، وإلا فهو حجة.

وكل بصيرة وموعظة، وتذكير وتعريف من تعريفات الحق سبحانه إلى العبد، اتصل به عبرة ومزيد فى العقل، ومعرفة فى الإيمان فهى منة، وإلا فهى حجة.

وكل حال مع الله تعالى، أو مقام اتصل به السير إلى الله، وإيثار مراده على مراد العبد. فهو منة من الله. وإن صحبه الوقوف عنده والرضى به، وإيثار مقتضاه، من لذة النفس به وطمأنينتها إليه، وركونها إليه، فهو حجة من الله عليه.

فليتأمل العبد هذا الموضع العظيم الخطر. ويميز بين مواقع المنن والمحن. والحجج والنعم. فما أكثر مايلتبس. ذلك على خواص الناس وأرباب السلوك ﴿والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم﴾[1].

(الركن الثانى من أركان المحاسبة)

وهى أن تميز ما للحق عليك من وجوب العبودية، والتزام الطاعة، واجتناب المعصية. وبين ما لك وما عليك. فالذى لك: هو المباح الشرعى. فعليك حق ولك حق. فأدِّ ما عليك يؤتك ما لك.

ولابد من التمييز بين ما لك وما عليك. وإعطاء كل ذى حق حقه.

وكثير من الناس يجعل كثيراً مما عليه من الحق من قسم ما له. فيتحير بين فعله وتركه، وإن فعله رأى أنه فضل قام به لا حق أداه.

(١) سورة البقرة الآية ٢١٣.

وبإزاء هؤلاء من يرى كثيراً مما له فعله وتركه من قسم ما عليه فعله أو تركه. فيتعبد بترك ما له فعله، كترك كثير من المباحات ويظن ذلك حقاً عليه. أو يتعبد بفعل ما له تركه ويظن ذلك حقاً عليه

مثال الأول: من يتعبد بترك النكاح، أو ترك أكل اللحم، أو الفاكهة مثلاً، أو الطيبات من المطاعم والملابس. ويرى - لجهله - أن ذلك مما عليه. فيوجب على نفسه تركه. أو يرى تركه من أفضل القرب، وأجَلِّ الطاعات. وقد أنكر النبي ﷺ على من زعم ذلك، ففي الصحيح «أن نفراً من أصحاب النبي ﷺ سألوا عن عبادته في السر؟ فكأنهم تقالُّوها. فقال أحدهم: أما أنا فلا آكل اللحم. وقال الآخر: أما أنا فلا أتزوج النساء. وقال الآخر أما أنا فلا أنام على فراش. فبلغ النبي ﷺ مقالتهم. فخطب، وقال. ما بال أقوام يقول أحدهم: أما أنا فلا آكل اللحم. ويقول الآخر: أما أنا فلا أتزوج ويقول الآخر: أما أنا فلا أنام على فراش؟ لكني أتزوج النساء، وآكل اللحم. وأنام وأقوم. وأصوم وأفطر. فمن رغب عن سنتي فليس مني»[1] فتبرأ ممن رغب عن سنته، وتعبد لله بترك ما أباحه لعباده من الطيبات، رغبة عنه، واعتقاداً أن الرغبة عنه وهجره عبادة. فهذا لم يميز بين ما عليه وما له.

ومثال الثاني: من يتعبد بالعبادات البدعية التي يظنها جالبة للحال، والكشف والتصرف. ولهذه الأمور لوازم لا تحصل بدونها ألبتة. فيتعبد بالتزام تلك اللوازم فعلاً وتركاً. ويراها حقاً عليه. وهي حق له، وله تركها، كفعل الرياضات، والأوضاع التي رسمها كثير من السالكين بأذواقهم ومواجيدهم واصطلاحاتهم من غير تمييز بين ما فيها من حظ العبد والحق الذي عليه. فهذا لون وهذا لون.

(الرضا بالطاعة جهل بحقوق العبودية)

ومن أركان المحاسبة: ما ذكره صاحب المنازل، فقال:

«الثالث أن تعرف أن كل طاعة رضيتها منك فهي عليك. وكل معصية عيرت بها أخاك فهي إليك».

رضاء العبد بطاعته دليل على حسن ظنه بنفسه وجهله بحقوق العبودية وعدم عمله بما يستحقه الرب جل جلاله ويليق أن يعامل به.

وحاصل ذلك: أن جهله بنفسه وصفاتها وآفاتها وعيوب عمله، وجهله بربه وحقوقه وما ينبغي أن يعامل به، يتولد منهما رضاه بطاعته، وإحسان ظنه بها.

---

(١) رواه البخاري (٥٠٦٣) ومسلم (٣٣٤٣) وأحمد (٣/٢٤١) عن أنس بن ملك رضي الله عنه.

ويتولد من ذلك: من العجب والكبر والآفات ما هو أكبر من الكبائر الظاهرة من الزنا، وشرب الخمر، والفرار من الزحف ونحوها.

فالرضا بالطاعة من رعونات النفس وحماقتها.

وأرباب العزائم والبصائر أشد ما يكونون استغفاراً عقيب الطاعات، لشهودهم تقصيرهم فيها، وترك القيام لله بها كما يليق بجلاله وكبريائه. وأنه لولا الأمر لما أقدم أحدهم على مثل هذه العبودية، ولا رضيها لسيده.

وقد أمر الله تعالى وفده وحجاج بيته بأن يستغفروه عقيب إفاضتهم من عرفات. وهو أجَلّ المواقف وأفضلها. فقال: ﴿فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام. واذكروه كما هداكم. وإن كنتم من قبله لمن الضالين. ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس. واستغفروا الله، إن الله غفور رحيم﴾[1] وقال تعالى: ﴿والمستغفرين بالأسحار﴾[2] قال الحسن: مَدُّوا الصلاة إلى السحر. ثم جلسوا يستغفرون الله عز وجل. وفى الصحيح «أن النبى ﷺ كان إذا سلم من الصلاة استغفر ثلاثاً. ثم قال: اللهم أنت السلام. ومنك السلام. تباركت يا ذا الجلال والإكرام»[3] وأمره الله تعالى بالاستغفار بعد أداء الرسالة، والقيام بما عليه من أعبائها، وقضاء فرض الحج، واقتراب أجله. فقال فى آخر سورة أنزلت عليه ﴿إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً * فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً﴾[4].

ومن ههنا فهم عمر وابن عباس - رضى الله عنهم - أن هذا أجل رسول الله ﷺ أعلمه به، فأمره أن يستغفره عقيب أداء ما كان عليه. فكأنه إعلام بأنك قد أديت ما عليك، ولم يبق عليك شىء. فاجعل خاتمته الاستغفار، كما كان خاتمة الصلاة والحج وقيام الليل. وخاتمة الوضوء أيضاً أن يقول بعد فراغه «سبحانك اللهم وبحمدك. أشهد أن لا إله إلا أنت. أستغفرك وأتوب إليك، اللهم اجعلنى من التوابين. واجعلنى من المتطهرين»[5].

---

(1) سورة البقرة الآية (198-199)

(2) سورة آل عمران الآية 17

(3) رواه مسلم (414) والنسائي (3:69) وأحمد (5:275، 279) وابن ماجه (924-928) والبيهقي (2:183و5:73).

(4) سورة النصر.

(5) هذا الحديث ملفق من حديثين: الأول وهو قول النبى ﷺ عقب الوضوء «سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك» رواه النسائى فى «عمل اليوم والليلة» (81) وابن السنى فى «عمل اليوم والليلة» (30) والطبرانى فى «الأوسط» (1455) والحاكم (1/ 564) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه وصححه الحاكم ووافقه الذهبى. وأما الحديث الثانى وهو قول النبى ﷺ عقب الوضوء «اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين» فقد رواه الترمذى (55) عن عمر بن الخطاب. وله شاهد عند ابن السنى فى «عمل اليوم والليلة» (32) عن ثوبان وسنده حسن.

فهذا شأن من عرف ما ينبغى لله، ويليق بجلاله من حقوق العبودية وشرائطها. لا جهل أصحاب الدعاوى وشطحاتهم.

وقال بعض العارفين: متى رضيت نفسك وعملك لله، فاعلم أنه غير راض به. ومن عرف أن نفسه مأوى كل عيب وشر، وعمله عرضة لكل آفة ونقص. كيف يرضى لله نفسه وعمله ؟.

لله در الشيخ أبى مدين حيث يقول: من تحقق بالعبودية نظر أفعاله بعين الرياء، وأحواله بعين الدعوى، وأقواله بعين الافتراء. وكلما عظم المطلوب فى قلبك، صغرت نفسك عندك، وتضاءلت القيمة التى تبذلها فى تحصيله. وكلما شهدت حقيقة الربوبية وحقيقة العبودية، وعرفت الله، وعرفت النفس، وتبين لك أن ما معك من البضاعة لا يصلح للملك الحق، ولو جئت بعمل الثقلين خشيت عاقبته وإنما يقبله بكرمه وجوده وتفضله. ويثيبك عليه أيضاً بكرمه وجوده وتفضله.

(التعيير بالذنب وفائدة الاعتبار)

وقوله: «وكل معصية عيرت بها أخاك فهى إليك».

يحتمل أن يريد به: أنها صائرة إليك ولا بد أن تعملها.

وأيضاً: ففى التعيير ضرب خفى من الشماتة بالمعير. وفى الترمذى مرفوعاً «ولا تظهر الشماتة لأخيك، فيرحمه الله ويبتليك»[1].

ويحتمل أن يريد: أن تعييرك لأخيك بذنبه أعظم إثماً من ذنبه. وأشد من معصيته. لما فيه من صولة الطاعة، وتزكية النفس،وشكرها، والمناداة عليها بالبراءة من الذنب. وأن أخاك باء به. ولعل كسرته بذنبه. وما أحدث له من الذلة والخضوع، والإزراء على نفسه، والتخلص من مرض الدعوى، والكبر والعجب، ووقوفه بين يدى الله ناكس الرأس، خاشع الطرف، منكسر القلب: أنفع له، وخير من صولة طاعتك، وتكثرك بها والاعتداد بها، والمنة على الله وخلقه بها. فما أقرب هذا العاصى من رحمة الله! وما أقرب هذا المدل من مقت الله. فذنب تذل به لديه، أحب إليه من طاعة تدل بها عليه. وإنك أن تبيت نائماً وتصبح نادماً، خير من أن تبيت قائماً وتصبح معجباً، فإن المعجب لا يصعد له عمل. وإنك أن تضحك وأنت معترف، خير من أن تبكى وأنت مدل. وأنين المذنبين، أحب إلى الله من زجل المسبحين المدلين، ولعل الله أسقاه بهذا الذنب دواء استخرج به داء قاتلاً هو فيك ولا تشعر.

---

(١) ضعيف جداً رواه الترمذى (٢٥٠٦) وفى إسناده عمر بن إسماعيل بن مجالد الهمدانى وهو متروك كما فى «التقريب» (٢/ ٥٢).

فلله فى أهل طاعته ومعصيته أسرار لا يعلمها إلا هو. ولا يطالعها إلا أهل البصائر. فيعرفون منها بقدر ما تناله معارف البشر، ووراء ذلك ما لا يطلع عليه الكرام الكاتبون. وقد قال النبى ﷺ «إذا زنت أمة أحدكم، فليقم عليها الحد.ولا يثرب»[1] أى لا يعير، من قول يوسف عليه السلام لإخوته ﴿لا تثريب عليكم اليوم﴾[2] فإن الميزان بيد الله. والحكم لله. فالسوط الذى ضرب به هذا العاصى بيد مقلب القلوب. والقصد إقامة الحد لا التعيير والتثريب. ولا يأمن كرات القدر وسطوته إلا أهل الجهل بالله. وقد قال الله تعالى لأعلم الخلق به، وأقربهم إليه وسيلة ﴿ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً﴾[3] وقال يوسف الصديق ﴿وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين﴾[4] وكانت عامة يمين رسول الله ﷺ «لا ومقلب القلوب»[5] وقال «ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن عز وجل. إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه»[6] ثم قال: «اللهم مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك»[7].

(مقام التوبة)

فإذا صح هذا المقام، ونزل العبد فى هذه المنزلة، أشرف منها على مقام «التوبة»لأنه بالمحاسبة قد تميز عنده ما له مما عليه. فليجمع همته وعزمه على النزول فيه والتشمير إليه إلى الممات.

ومنزل «التوبة»أول المنازل، وأوسطها، وآخرها. فلا يفارقه العبد السالك، ولا يزال فيه إلى الممات. وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به. واستصحبه معه ونزل به. فالتوبة هى بداية العبد ونهايته. وحاجته إليها فى النهاية ضرورية. كما أن حاجته إليها فى البداية كذلك. وقد قال الله تعالى: ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾[8] وهذه الآية فى سورة مدنية، خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه، بعد إيمانهم وصبرهم، وهجرتهم وجهادهم. ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه. وأتى بأداة

---

(١) رواه البخارى (٦٨٣٧) ومسلم (٤٣٦٥) وأحمد (٢/٣٧٦) والنسائى فى الكبرى كما فى «تحفة الأشراف» (١٠/٣٠٤).

(٢) سورة يوسف الآية ٩٢. (٣) سورة الاسراء الآية ٧٤. (٤) سورة يوسف الآية ٣٣.

(٥) رواه البخارى (٦٦٢٨) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما.

(٦) صحيح. رواه أحمد (٤/١٨٢) وابن ماجه (١٩٩) وابن حبان (٢٤١٩) والحاكم (٤/٣٢١) وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبى.

(٧) صحيح. وهو ملفق من حديثين، الأول: رواه الترمذى (٢١٤٠) عن أنس، والثانى: رواه مسلم (٦٦٢٦) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما.

(٨) سورة النور الآية ٣٠

«لعل» المشعرة بالترجي، إيذاناً بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح فلا يرجو الفلاح إلا التائبون. جعلنا الله منهم.

قال تعالى: ﴿ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾[1] قسم العباد إلى تائب وظالم، وما ثم قسم ثالث ألبتة. وأوقع اسم «الظالم» على من لم يتب ولا أظلم منه، لجهله بربه وبحقه، وبعيب نفسه وآفات أعماله. وفى الصحيح عنه ﷺ أنه قال «يا أيها الناس، توبوا إلى الله، فوالله إنى لأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة»[2] وكان أصحابه يعدون له فى المجلس الواحد قبل أن يقوم «رب اغفر لى وتب على إنك أنت التواب الغفور، مائة مرة»[3] وما صلى صلاة قط بعد إذ أنزلت عليه (إذا جاء نصر الله والفتح) إلى آخرها. إلا قال فيها «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك. اللهم اغفر لى»[4] وصح عنه ﷺ أنه قال «لن ينجى أحداً منكم عمله. قالوا: ولا أنت يا رسول الله ؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل» [5].

فصلوات الله وسلامه على أعلم الخلق بالله وحقوقه، وعظمته وما يستحقه جلاله من العبودية، وأعرفهم بالعبودية وحقوقها وأقومهم بها.

(شروط التوبة)

قال «وشرائط التوبة ثلاثة: الندم. والإقلاع. والاعتذار».

فحقيقة التوبة. هى الندم على ما سلف منه فى الماضى. والإقلاع عنه فى الحال. والعزم على أن لا يعاوده فى المستقبل.

والثلاثة تجتمع فى الوقت الذى تقع فيه التوبة. فإنه فى ذلك الوقت يندم، ويقلع، ويعزم.

فحينئذ يرجع إلى العبودية التى خلق لها وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة.

ولما كان متوقفاً على تلك الثلاثة جعلت شرائط له.

فأما الندم: فإنه لا تتحقق التوبة إلا به ، إذ من لم يندم على القبيح فذلك دليل على

---

(1) سورة الحجرات الآية ١١.

(2) هذا الحديث ملفق من حديثين: الأول رواه مسلم (٦٧٣١) عن الأغر المزنى. والثانى رواه البخارى (٦٣٠٧) عن أبى هريرة.

(3) صحيح رواه أحمد (٢/ ٢٢) وأبو داود (١٥١٦) الترمذى (٣٤٣٤) وابن ماجه (٣٨١٤) عن ابن عمر

(4) رواه البخارى (٧٩٤) ومسلم [illegible] وأحمد (٦/ ٤٣و٤٥و١٩٠) وأبو داود (٨٧٧) والنسائى (٢/ ١٩) وابن ماجه (٨٨٩).

(5) رواه مسلم (٦٩٧٣و ٦٩٧٤) كتب التوبه، باب: لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى.

رضاه به، وإصراره عليه. وفى المسند «الندم توبة»[1].

وأما الإقلاع: فتستحيل التوبة مع مباشرة الذنب.

وأما الاعتذار: أراد بالاعتذار إظهار الضعف والمسكنة، وغلبة العدو. وقوة سلطان النفس، وأنه لم يكن منى ما كان عن استهانة بحقك، ولا جهلاً به، ولا إنكاراً لا طلاعك، ولا استهانة بوعيدك. وإنما كان من غلبة الهوى، وضعف القوة عن مقاومة مرض الشهوة، وطمعاً فى مغفرتك واتكالاً على عفوك، وحسن ظن بك، ورجاء لكرمك، وطمعاً فى سعة حلمك ورحمتك. وغرنى بك الغرور، والنفس الأمارة بالسوء، وسترُك المرخى علىّ، وأعاننى جهلى، ولا سبيل إلى الإعتصام لى إلا بك. ولا معونة على طاعتك إلا بتوفيقك. ونحو هذا من الكلام المتضمن للاستعطاف والتذلل والافتقار، والاعتراف بالعجز والإقرار بالعبودية.

فهذا من تمام التوبة. وإنما يسلكه الأكياس المتملقون لربهم عز وجل، والله يحب من عبده أن يتملق له.

وفى الصحيح «لا أحد أحب إليه العذر من الله»[2] وإن كان معنى ذلك الإعذار. كما قال فى آخر الحديث «من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين» وقال تعالى: ﴿فالملقيات ذكراً * عذراً أو نذراً﴾[3] فإنه من تمام عدله وإحسانه: أن أعذر إلى عباده. وأن لا يؤاخذ ظالمهم إلا بعد كمال الإعذار وإقامة الحجة عليه. فهو أيضاً يحب من عبده أن يعتذر إليه. ويتنصل إليه من ذنبه.

***

قال صاحب المنازل «وحقائق التوبة: تعظيم الجناية، واتهام التوبة.

(حقائق التوبة)

يريد بالحقائق: ما يتحقق به الشىء، وتتبين به صحته وثبوته، كما قال النبى ﷺ لحارثه «إن لكل حق حقيقة. فما حقيقة إيمانك؟»[4].

---

(١) صحيح رواه أحمد ٣٥٦٨ و٤٠١٢ وابن ماجه ٤٢٥٢- والحاكم (٤/ ٢٤٣) وأبو نعيم فى الحلية (٨/ ٢٥١)

(٢) رواه البخارى (٩: ١٥١). (٣) سورة المرسلات الآية (٥-٦)

(٤) ضعيف : رواه الطبرانى فى الكبير (٣٣٦٧) و البيهقى فى الزهد (٩٧١) وفى «شعب الإيمان» (١٠٥٩١) من حديث الحارث بن مالك الأنصارى وفى سنده ابن لهيعة وهو ضعيف. ورواه البيهقى فى «الشعب» (١٠٥٩٠) والبزار كما فى «المجمع» (١/ ٥٧) عن أنس بن مالك فى سنده يوسف بن عطية الصفار وهو متروك كما فى «التقريب» (٢/ ٣٨١). وللحديث طرق أخرى كلها لا تخلوا من ضعف كما بين ذلك الحافظ فى «الإصابة» (١/ ٢٨٩) ط دار صادر.

فأما تعظيم الجناية: فإنه إذا استهان بها لم يندم عليها. وعلى قدر تعظيمها يكون ندمه على ارتكابها. فإن من استهان بإضاعة فلس - مثلاً - لم يندم على إضاعته. فإذا علم أنه دينار اشتد ندمه، وعظمت إضاعته عنده.

وتعظيم الجناية يصدر عن ثلاثة أشياء: تعظيم الأمر، وتعظيم الآمر والتصديق بالجزاء.

وأما اتهام التوبة: فلأنها حق عليه. لا يتيقن أنه أدى هذا الحق على الوجه المطلوب منه. الذى ينبغى له أن يؤديه عليه، فيخاف أنه ما وفاها حقها، وأنها لم تقبل منه، وأنه لم يبذل جهده فى صحتها، وأنها توبة علّة وهو لا يشعر بها، كتوبة أرباب الحوائج والإفلاس، والمحافظين على حاجاتهم ومنازلهم بين الناس، أو أنه تاب محافظة على حاله. فتاب للحال، لا خوفاً من ذى الجلال. أو أنه تاب طلباً للراحة من الكد فى تحصيل الذنب، أو اتقاء ما يخافه على عرضه وماله ومنصبه، أو لضعف داعى المعصية فى قلبه، وخمود نار شهوته، أو لمنافاة المعصية لما يطلبه من العلم والرزق، ونحو ذلك من العلل التى تقدح فى كون التوبة خوفاً من الله، وتعظيماً له ولحرماته، وإجلالاً له، وخشية من سقوط المنزلة عنده، وعن البعد والطرد عنه، والحجاب عن رؤية وجهه فى الدار الآخرة. فهذه التوبة لون، وتوبة أصحاب العلل لون.

ومن اتهامه التوبة أيضاً: ضعف العزيمة، والتفات القلب إلى الذنب الفينة بعد الفينة، وتذكر حلاوة مواقعته. فربما تنفس. وربما هاج هائجه.

ومن اتهام التوبة: طمأنينته ووثوقه من نفسه بأنه قد تاب، حتى كأنه قد أعطى منشوراً بالأمان. فهذا من علامات التهمة.

ومن علاماتها: جمود العين، واستمرار الغفلة، وأن لا يستحدث بعد التوبة أعمالا صالحة لم تكن له قبل الخطيئة.

فالتوبة المقبولة الصحيحة لها علامات.

منها: أن يكون بعد التوبة خيراً مما كان قبلها.

ومنها: أنه لا يزال الخوف مصاحباً له لا يأمن مكر الله طرفة عين. فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسل لقبض روحه ﴿أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون﴾ [1] فهناك يزول الخوف.

ومنها: انخلاع قلبه، وتقطعه ندماً وخوفاً. وهذا على قدر عظم الجناية وصغرها.

---

[1] سورة فصلت الآية ٣٠.

من موجبات التوبة الصحيحة أيضاً: كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيء. ولا تكون لغير المذنب. لا تحصل بجوع، ولا رياضة، ولا حب مجرد. وإنما هي أمر وراء هذا كله. تكسر القلب بين يدى الرب كسرة تامة. قد أحاطت به من جميع جهاته، وألقته بين يدى ربه طريحاً ذليلاً خاشعاً. كحال عبد جان آبق من سيده. فأُخذَ فأُحضِرَ بَين يديه. ولم يجد من ينجيه من سطوته، ولم يجد منه بداً ولا عنه غناء. ولا منه مهرباً. وعلم أن حياته وسعادته وفلاحه ونجاحه فى رضاه عنه. وقد علم إحاطة سيده بتفاصيل جناياته. هذا مع حبه لسيده، وشدة حاجته إليه، وعلمه بضعفه وعجزه وقوة سيده، وذله وعز سيده.

فيجتمع من هذه الأحوال كسرة وذلة وخضوع. ما أنفعها للعبد. وما أجدى عائدتها عليه وما أعظم جبره بها. وما أقربه بها من سيده فليس شيء أحب إلى سيده من هذه الكسرة، والخضوع والتذلل والإخبات، والانطراح بين يديه، والاستسلام له.

فهذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة. فمن لم يجد ذلك فى قلبه فليتهم توبته وليرجع إلى تصحيحها، فما أصعب التوبة الصحيحة بالحقيقة. وما أسهلها باللسان والدعوى! وما عالج الصادق بشيء أشق عليه من التوبة الخالصة الصادقة. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(أسرار حقيقة التوبة)

قال صاحب المنازل «وسرائر حقيقة التوبة: تمييز التَّقِيَّة من العزة، ونسيان الجناية.

تمييز التَّقِيَّة من العزة: أن يكون المقصود من التوبة تقوى الله. وهو خوفه وخشيته، والقيام بأمره، واجتناب نهيه. فيعمل بطاعة الله على نور من الله، يرجو ثواب الله. ويترك معصية الله على نور من الله. يخاف عقاب الله. لا يريد بذلك عز الطاعة فإن للطاعة وللتوبة عزاً ظاهراً وباطناً. فلا يكون مقصوده العزة، وإن علم أنها تحصل له بالطاعة والتوبة. فمن تاب لأجل العزة فتوبته مدخولة.

وكثير من الصادقين قد يلتبس عليهم حال نفوسهم فى ذلك. ولا يميزه إلا أولوا البصائر منهم. وهم فى الصادقين كالصادقين فى الناس.

وأما نسيان الجناية: فهذا موضوع تفصيل. فقد اختلف فيه أرباب الطريق.

فمنهم: من رأى الاشتغال عن ذكر الذنب والإعراض عنه صفحاً. فصفاء الوقت مع الله تعالى أولى بالتائب وأنفع له. ولهذا قيل: ذكر الجفا فى وقت الصفا جفا.

ومنهم: من رأى أن الأولى أن لا ينسى ذنبه. بل لا يزال جاعلاً له نصب عينيه يلاحظه كل وقت. فيحدث له ذلك انكساراً وذلاً وخضوعاً، أنفع له من جمعيته وصفاء وقته.

قالوا: ومتى تهت عن الطريق فارجع إلى ذنبك تجد الطريق.

ومعنى ذلك: أنك إذا رجعت إلى ذنبك انكسرت وذللت وأطرقت بين يدى الله عز وجل، خاشعاً ذليلاً خائفاً. وهذه طريق العبودية.

والصواب: التفصيل فى هذه المسألة. وهو أن يقال: إذا أحس العبد من نفسه حال الصفا غيماً من الدعوى، ورقيقة من العجب ونسيان المنة، وخطفته نفسه عن حقيقة فقره ونقصه، فذكر الذنب أنفع له. وإن كان فى حال مشاهدته منّة الله عليه، وكمال افتقاره إليه، وفنائه به، وعدم استغنائه عنه فى ذرة من ذراته وقد خالط قلبه حال المحبة والفرح بالله والأنس به والشوق إلى لقائه، وشهود سعة رحمته وحلمه وعفوه. وقد أشرقت على قلبه أنوار الأسماء والصفات. فنسيان الجناية والإعراض عن الذنب: أولى به وأنفع. فإنه متى رجع إلى ذكر الجناية توارى عنه ذلك. ونزل من علو إلى أسفل، ومن حال إلى حال بينهما من التفاوت أبعد مما بين السماء والأرض. وهذا من حسد الشيطان له. أراد أن يحطه عن مقامه، وسير قلبه فى ميادين المعرفة المحبة، والشوق: إلى وحشة الإساءة، وحصر الجناية.

والأول يكون شهوده لجنايته منة من الله، مَنّ بها عليه، ليؤمنه بها من مقت الدعوى. وحجاب الكبر الخفى الذى لا يشعر به. فهذا لون وهذا لون.

وهذا المحل فيه أمر وراء العبارة، وبالله التوفيق. وهو المستعان.

(لطائف أسرار التوبة)

قال صاحب المنازل:

«ولطائف أسرار التوبة ثلاثة أشياء. أولها: أن ينظر الجناية والقضية. فيعرف مراد الله فيها. إذ خلاك وإتيانها. فإن الله عز وجل إنما خلى العبد والذنب لأجل معنيين.

أحدهما: أن يعرف عزته فى قضائه، وبره فى ستره، وحلمه فى إمهال راكبه، وكرمه فى قبول العذر منه، وفضله فى مغفرته.

الثانى: أن يقيم على عبده حجة عدله. فيعاقبه على ذنبه بحجته»

اعلم أن صاحب البصيرة إذا صدرت منه الخطيئة فله نظر إلى خمسة أمور

أحدها: أن ينظر إلى أمر الله ونهيه. فيحدث له ذلك الاعتراف بكونها خطيئة، والاقرار على نفسه بالذنب.

الثانى: أن ينظر إلى الوعد والوعيد. فيحدث له ذلك خوفاً وخشية، تحمله على

التوبة.

الثالث: أن ينظر إلى تمكين الله له منها، وتخليته بينه وبينها، وتقديرها عليه، وأنه لو شاء لعصمه منها، فيحدث له ذلك أنواعاً من المعرفة بالله وأسمائه وصفاته، وحكمته، ورحمته، ومغفرته وعفوه، وحلمه وكرمه. وتوجب له هذه المعرفة عبودية بهذه الأسماء، لا تحصل بدون لوازمها البتة. ويعلم ارتباط الخلق والأمر، والجزاء والوعد والوعيد بأسمائه وصفاته، وأن ذلك موجب الأسماء والصفات، وأثرها فى الوجود، وأن كل اسم وصفة مقتض لأثره وموجبه، متعلق به لا بد منه.

وهذا المشهد يطلعه على رياض مونقة من المعارف والإيمان، وأسرار القدر والحكمة، يضيق عن التعبير عنها نطاق الكلم.

فمن بعضها: ما ذكره الشيخ «أن يعرف العبد عزته فى قضائه» وهو أنه سبحانه العزيز الذى يقضى بما يشاء، وأنه لكمال عزته حكم على العبد وقضى عليه، بأن قلب قلبه وصرف إرادته على ما يشاء. وحال بين العبد وقلبه.. وجعله مريداً شائياً لما شاء منه العزيز الحكيم. وهذا من كمال العزة. إذا لا يقدر على ذلك إلا الله. رغاية المخلوق: أن يتصرف فى بدنك وظاهرك. وأما جعلك مريداً شائياً لما يشاؤه منك ويريده: فلا يقدر عليه إلا ذو العزة الباهرة. فإذا عرف العبد عز سيده ولاحظه بقلبه، وتمكن شهوده منه، كان الاشتغال به عن ذل المعصية أولى به وأنفع له، لأنه يصير مع الله لا مع نفسه.

ومن معرفة عزته فى قضائه: أن يعرف أنه مُدَبَّر مقهور، ناصيته بيد غيره. لا عصمة له إلا بعصمته. ولا توفيق له إلا بمعونته. فهو ذليل حقير، فى قبضة عزيز حميد.

ومن شهود عزته أيضاً فى قضائه: أن يشهد أن الكمال والحمد، والغناء التام، والعزة. كلها لله، وأن العبد نفسه أولى بالتقصير والذم، والعيب والظلم والحاجة. وكلما ازداد شهوده لذله ونقصه وعيبه وفقره، ازداد شهوده لعزة الله وكماله، وحمده وغناه. وكذلك بالعكس. فنقص الذنب وذلته يطلعه على مشهد العزة.

ومنها: أن العبد لا يريد معصية مولاه من حيث هى معصية. فإذا شهد جريان الحكم، وجعله فاعلاً لما هو غير مختار له، مريد بارادته ومشيئته واختياره. فكأنه مختار غير مختار، مريد غير مريد، شاء غير شاء. فهذا يشهد عزة الله وعظمته، وكمال قدرته.

ومنها: أن يعرف بره سبحانه فى ستره عليه حال ارتكاب المعصية، مع كمال رؤيته له. ولو شاء لفضحه بين خلقه فحذروه. وهذا من كمال بره. ومن أسمائه «البر» وهذا البر من سيده كان عن كمال غناه عنه، وكمال فقر العبد إليه. فيشتغل بمطالعة هذه المنة، ومشاهدة

هذا البر والإحسان والكرم. فيذهل عن ذكر الخطيئة. فيبقى مع الله سبحانه وذلك أنفع له من الاشتغال بجنايته. وشهود ذل معصيته فإن الاشتغال بالله والغفلة عما سواه: هو المطلب الأعلى، والمقصد الأسنى. ولا يوجب هذا نسيان الخطيئة مطلقاً، بل فى هذه الحال. فإذا فقدها فليرجع إلى مطالعة الخطيئة، وذكر الجناية. ولكل وقت ومقام عبودية تليق به.

ومنها: شهود حلم الله سبحانه وتعالى فى إمهال راكب الخطيئة. ولو شاء لعاجله بالعقوبة. ولكنه الحليم الذى لا يعجل. فيحدث له ذلك معرفة ربه سبحانه باسمه «الحليم» ومشاهدة صفة «الحلم» والتعبد بهذا الاسم. والحكمة والمصلحة الحاصلة من ذلك بتوسط الذنب: أحب إلى الله، وأصلح للعبد، وأنفع من فوتها. ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع.

ومنها: معرفة العبد كرم ربه فى قبول العذر منه إذا اعتذر إليه. فيقبل عذره بكرمه وجوده. فيوجب له ذلك اشتغالا بذكره وشكره، محبة أخرى لم تكن حاصلة له قبل ذلك. فإن محبتك لمن شكرك على إحسانك وجازاك به، ثم غفر لك إساءتك ولم يؤاخذك بها: أضعاف محبتك على شكر الإحسان وحده والواقع شاهد بذلك. فعبودية التوبة بعد الذنب لون. وهذا لون آخر.

ومنها: أن يشهد فضله فى مغفرته، فإن المغفرة فضل من الله. وإلا فلو أخذك بمحض حقه، كان عادلاً محموداً. وإنما عفوه بفضله لا باستحقاقك. فيوجب لك ذلك أيضاً شكراً له ومحبة، وإنابة إليه، وفرحاً وابتهاجاً به، ومعرفة له باسمه «الغفار» ومشاهدة لهذه الصفة، وتعبداً بمقتضاها. وذلك أكمل فى العبودية، والمحبة والمعرفة.

ومنها: أن يكمل لعبده مراتب الذل والخضوع والإنكسار بين يديه، والافتقار إليه. فإن النفس فيها مضاهات للربوبية. ولو قدرت لقالت كقول فرعون ولكنه قدر فأظهر. وغيره عجز فأضمر. وإنما يخلصها من هذه المضاهاة ذل العبودية. وهو أربع مراتب.

المرتبة الأولى: مشتركة بين الخلق. وهى ذل الحاجة والفقر إلى الله. فأهل السموات والأرض جميعاً محتاجون إليه، فقراء إليه. وهو وحده الغني عنهم وكل أهل السموات والأرض يسألونه. وهو لا يسأل أحداً.

المرتبة الثانية: ذل الطاعة، والعبودية، وهو ذل الاختيار. وهذا خاص بأهل طاعته. وهو سر العبودية.

المرتبة الثالثة: ذل المحبة. فإن المحب ذليل بالذات، وعلى قدر محبته له يكون ذله، فالمحبة أسست على الذلة للمحبوب، كما قيل:

اخضع وذل لمن تحب. فليس فى   حكـم الهوى أنـف يشال ويعقد

وقال آخر:

مساكين أهل الحب، حتى قبورهم عليها تراب الذل بين المقابر

المرتبة الرابعة: ذل المعصية والجناية.

فإذا اجتمعت هذه المراتب الأربع: كان الذل لله والخضوع له أكمل وأتم. إذ يذل له خوفاً وخشية، ومحبة وإنابة، وطاعة، وفقراً وفاقة.

ومنها: أن أسماءه الحسنى تقتضى آثارها اقتضاء الأسباب التامة لمسبباتها. فاسم «السميع، البصير» يقتضى مسموعاً ومبصراً. واسم «الرزق» يقتضى مرزوقاً. واسم «الرحيم» يقتضى مرحوماً. وكذلك أسماء «الغفور، والعفو، والتواب، والحليم» يقتضى من يغفر له، ويتوب عليه، ويعفو عنه، ويحلم. ويستحيل تعطيل هذه الأسماء والصفات، إذ هى أسماء حسنى وصفات كمال، ونعوت جلال، وأفعال حكمة وإحسان وجود. فلا بد من ظهور آثارها فى العالم. وقد أشار إلى هذا أعلم الخلق بالله. صلوات الله وسلامه عليه. حيث يقول «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، ثم يستغفرون فيغفر لهم»[1].

وأنت إذا فرضت الحيوان بجملته معدوماً. فمن يرزق الرازق سبحانه؟ وإذا فرضت المعصية والخطيئة منتفية من العالم. فلمن يغفر؟ وعمن يعفو؟ وعلى من يتوب ويحلم؟ وإذا فرضت الفاقات كلها قد سدت، والعبيد أغنياء معافون. فأين السؤال والتضرع والابتهال؟ والإجابة وشهود الفضل والمنة. ، والتخصيص، بالإنعام والإكرام؟

فسبحان من تعرف إلى خلقه بجميع أنواع التعرفات. ودلهم عليه بأنواع الدلالات. وفتح لهم إليه جميع الطرقات. ثم نصب إليه الصراط المستقيم. وعرفهم به ودلهم عليه ﴿ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حى عن بينة. وإن الله لسميع عليم﴾ [2].

(فرح الله بتوبة التائب)

ومنها: السر الأعظم، الذى لا تقتحمه العبارة، ولا تجسر عليه الإشارة، ولا ينادى عليه منادى الإيمان على رءوس الأشهاد، بل شهدته قلوب خواص العباد. فازدادت به معرفة لربها ومحبة له. وطمأنينة به وشوقاً إليه، ولهجاً بذكره. وشهوداً لبره، ولطفه وكرمه وإحسانه، ومطالعة لسر العبودية، وإشرافاً على حقيقة الإلهية. وهو ما ثبت فى الصحيحين

(١) رواه مسلم (٦٨٣١) وأحمد (٢/ ٩ ٣)

(٢) سورة الأنفال الآية ٤٢

من حديث أنس بن ملك رضى الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ «لله أفرح بتوبة عبده - حين يتوب إليه - من أحدكم، كان على راحلة بأرض فلاة. فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه. فأيس منها. فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها. قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده. فأخذ بخطامها. ثم قال - من شدة الفرح- اللهم أنت عبدى وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح»[1] هذا لفظ مسلم.

وفى الحديث من قواعد العلم: أن اللفظ الذى يجرى على لسان العبد خطأ من فرح شديد، أو غيظ شديد، ونحوه. لا يؤاخذ به. ولهذا لم يكن هذا كافراً بقوله «أنت عبدى وأنا ربك».

ومعلوم أن تأثير الغضب فى عدم القصد يصل إلى هذه الحال، أو أعظم منها. فلا ينبغى مؤاخذة الغضبان بما صدر منه فى حال شدة غضبه من نحو هذا الكلام. ولا يقع طلاقه بذلك. ولا ردته. وقد نص الإمام أحمد على تفسير الإغلاق فى قوله ﷺ «لاطلاق فى إغلاق» [2] بأنه الغضب. وفسره به غير واحد من الأئمة. وفسروه بالإكراه والجنون.

قال شيخنا: وهو يعم هذا كله. وهو من الغلق. لانغلاق قصد المتكلم عليه. فكأنه لم ينفتح قلبه لمعنى ما قاله.

والقصد: أن هذا الفرح له شأن لا ينبغى للعبد إهماله والإعراض عنه. ولا يطلع عليه إلا من له معرفة خاصة بالله وأسمائه وصفاته، وما يليق بعز جلاله. وقد كان الأولى بنا طى الكلام فيه إلى ما هو اللائق بأفهام بنى الزمان وعلومهم. ونهاية أقدامهم من المعرفة. وضعف عقولهم عن احتماله.

غير أنا نعلم أن الله عز وجل سيسوق هذه البضاعة إلى تجارها. ومن هو عارف بقدرها. وإن وقعت فى الطريق بيد من ليس عارفاً بها، فرُبَّ حامل فقه ليس بفقيه. ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه.

فاعلم أن الله سبحانه وتعالى اختص نوع الإنسان من بين خلقه بأن كرمه وفضله. وشرفه. وخلقه لنفسه، وخلق كل شىء له. وخصه من معرفته ومحبته وقر به وإكرامه بما لم يعطه غيره. وسخر له ما فى سماواته وأرضه وما بينهما، حتى ملائكته - الذين هم أهل قربه - استخدمهم له. وجعلهم حفظة له فى منامه ويقظته، وظعنه وإقامته. وأنزل إليه وعليه كتبه. وأرسله وأرسل إليه. وخاطبه وكلمه منه إليه، واتخذ منهم الخليل والكليم،

---

(١) رواه مسلم (٦٨٢٦) عن أنس، ورواه البخارى (٦٣٠٩) مختصراً.

(٢) حسن رواه أحمد (٦/ ٢٧٦) أبوداود (٢١٩٣) وابن ماجه (٢٠٤٦) والحاكم (٢/ ١٩٨).

والأولياء والخواص والأحبار. وجعلهم معدن أسراره. ومحل حكمته. وموضع حبه. وخلق لهم الجنة والنار. فالخلق والأمر، والثواب والعقاب، مداره على النوع الإنساني. فإنه خلاصة الخلق. وهو المقصود بالأمر والنهي. وعليه الثواب والعقاب.

(عناية الله بالإنسان)

فللإنسان شأن ليس لسائر المخلوقات. وقد خلق أباه بيده، ونفخ فيه من روحه. وأسجد له ملائكته. وعلمه أسماء كل شيء. وأظهر فضله على الملائكة فمن دونهم من جميع المخلوقات. وطرد إبليس عن قربه. وأبعده عن بابه، إذ لم يسجد له مع الساجدين. واتخذه عدواً له.

فالمؤمن من نوع الإنسان: خير البرية على الإطلاق. وخيرة الله من العالمين فإنه خلقه ليتم نعمته عليه. وليتواتر إحسانه إليه. وليخصه من كرامته وفضله بما لم تنله أمنيته. ولم يخطر على باله ولم يشعر به. ليسأله من المواهب والعطايا الباطنة والظاهرة العاجلة والآجلة، التي لا تنال إلا بمحبته. ولا تنال محبته إلا بطاعته وإيثاره على ما سواه. فاتخذه محبوباً له. وأعد له أفضل ما يعده محب غنى قادر جواد لمحبوبه إذا قدم عليه. وعهد إليه عهداً تقدم إليه فيه بأوامره ونواهيه. وأعلمه فى عهده ما يقر به إليه، ويزيده محبة له وكرامة عليه، وما يبعده منه ويسخطه عليه، ويسقطه من عينه.

وللمحبوب عدو، هو أبغض خلقه إليه. قد جاهره بالعداوة. وأمر عباده أن يكون دينهم وطاعتهم وعبادتهم له، دون وليهم ومعبودهم الحق. واستقطع عباده، واتخذ منهم حزباً ظاهروه ووالوه على ربهم. وكانوا أعداء له مع هذا العدو. يدعون إلى سخطه. ويطعنون فى ربوبيته وإلهيته ووحدانيته، ويسبونه ويكذبونه. ويفتنون أولياءه، ويؤذونهم بأنواع الأذى. ويجهدون على إعدامهم من الوجود وإقامة الدولة لهم. ومحو كل ما يحبه الله ويرضاه، وتبديله بكل ما يسخطه ويكرهه. فعرفه بهذا العدو وطرائقهم وأعمالهم ومالهم. وحذره موالاتهم والدخول فى زمرتهم والكون معهم.

وأخبره فى عهده: أنه أجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين. وأنه سبقت رحمته غضبه، وحلمه عقوبته، وعفوه مؤاخذته. وأنه قد أفاض على خلقه النعمة. وكتب على نفسه الرحمة. وأنه يحب الإحسان والجود والعطاء والبر. وأن الفضل كله بيده، والخير كله منه، والجود كله له. وأحب ما إليه: أن يجود على عباده ويوسعهم فضلاً. ويغمرهم إحساناً وجوداً. ويتم عليهم نعمته. ويضاعف لديهم منته. ويتعرف إليهم بأوصافه وأسمائه. ويتحبب إليهم بنعمه وآلائه.

فهو الجواد لذاته. وجود كل جواد خلقه الله، ويخلقه أبداً: أقل من ذرة بالقياس إلى جوده. فليس الجواد على الإطلاق إلا هو. وجود كل جواد فمن جوده. ومحبته للجود والإعطاء والإحسان، والبر والإنعام والإفضال: فوق ما يخطر ببال الخلق، أو يدور في أوهامهم. وفرحه بعطائه وجوده وإفضاله أشد من فرح الآخذ بما يعطاه ويأخذه، أحوج ما هو إليه أعظم ما كان قدراً. فإذا اجتمع شدة الحاجة وعظم قدر العطية والنفع بها، فما الظن بفرح المعطى؟ ففرح المعطى سبحانه بعطائه أشد وأعظم من فرح هذا بما يأخذه. ولله المثل الأعلى. إذ هذا شأن الجواد من الخلق. فإنه يحصل له من الفرح والسرور، والابتهاج واللذة بعطائه وجوده، فوق ما يحصل لمن يعطيه. ولكن الآخذ غائب بلذة أخذه، عن لذة المعطى، وابتهاجه وسروره. هذا مع كمال حاجته إلى ما يعطيه وفقره إليه، وعدم وثوقه باستخلاف مثله، وخوف الحاجة إليه عند ذهابه، والتعرض لذل الاستعانة بنظيره ومن هو دونه. ونفسه قد طبعت على الحرص والشح.

فما الظن بمن تقدس وتنزه عن ذلك كله؟ ولو أن أهل سماواته وأرضه، وأول خلقه وآخرهم، وإنسهم وجنهم، ورطبهم ويابسهم، قاموا في صعيد واحد فسألوه، فأعطى كل واحد ما سأله: ما نقص ذلك مما عنده مثقال ذرة.

وهو الجواد لذاته، كما أنه الحي لذاته، العليم لذاته، السميع البصير لذاته فجوده العالي من لوازم ذاته. والعفو أحب إليه من الانتقام. والرحمة أحب إليه من العقوبة. والفضل أحب إليه من العدل، والعطاء أحب إليه من المنع.

فإذا تعرض عبده ومحبوبه الذي خلقه لنفسه، وأعد له أنواع كرامته، وفضله على غيره، وجعله محل معرفته، وأنزل إليه كتابه، وأرسل إليه رسوله، واعتنى بأمره ولم يهمله. ولم يتركه سدى. فتعرض لغضبه، وارتكب مساخطه وما يكرهه وأبق منه. ووالى عدوه وظاهره عليه، وتحيز إليه. وقطع طريق نعمه وإحسانه إليه التي هي أحب شيء إليه وفتح طريق العقوبة والغضب والانتقام: فقد استدعى من الجواد الكريم خلاف ما هو موصوف به من الجود والإحسان والبر وتعرض لإغضابه وإسخاطه وانتقامه. وأن يصير غضبه وسخطه في موضع رضاه. وانتقامه وعقوبته في موضع كرمه بره وعطائه. فاستدعى بمعصيته من أفعاله ما سواه أحب إليه منه، وخلاف ما هو من لوازم ذاته من الجود والإحسان.

فبينما هو حبيبه المقرب المخصوص بالكرامة، إذ انقلب آبقاً شارداً، راداً لكرامته، مائلاً عنه إلى عدوه، مع شدة حاجته إليه، وعدم استغنائه عنه طرفة عين

فبينما ذلك الحبيب مع العدو في طاعته وخدمته، ناسياً لسيده، منهمكاً في موافقة

عدوه. قد استدعى من سيده خلاف ماهو أهله: إذ عرضت له فكرة فتذكر بر سيده وعطفه وجوده وكرمه. وعلم أنه لابد له منه، وأن مصيره إليه، وعرضه عليه، وأنه إن لم يقدم عليه بنفسه قدم به عليه على أسوأ الأحوال. ففر إلى سيده من بلد عدوه. وجد في الهرب إليه حتى وصل إلى بابه. فوضع خده على عتبة بابه. وتوسد ثرى أعتابه. متذللاً متضرعاً، خاشعاً باكياً آسفاً. يتملق سيده ويسترحمه. ويستعطفه ويعتذر إليه. قد ألقى بيده إليه. واستسلم له وأعطاه قيادة. وألقى إليه زمامه. فعلم سيده ما في قلبه. فعاد مكان الغضب عليه رضا عنه. ومكان الشدة عليه رحمة به. وأبدله بالعقوبة عفواً، وبالمنع عطاء، وبالمؤاخذة حلماً. فاستدعى بالتوبة والرجوع من سيده ما هو أهله، وما هو موجب أسمائه الحسنى، وصفاته العليا. فكيف يكون فرح سيده به؟ وقد عاد إليه حبيبه ووليه طوعاً واختياراً. وراجع ما يحبه سيده منه برضاه. وفتح طريق البر والإحسان والجود، التي هي أحب إلى سيده من طريق الغضب والانتقام والعقوبة؟

وهذا موضع الحكاية المشهورة عن بعض العارفين: أنه حصل له شرود وإباق من سيده. فرأى في بعض السكك باباً قد فتح. وخرج منه صبي يستغيث ويبكي. وأمه خلفه تطرده، حتى خرج. فأغلقت الباب في وجهه ودخلت. فذهب الصبي غير بعيد، ثم وقف مفكراً. فلم يجد له مأوى غير البيت الذي أخرج منه، ولا من يؤويه غير والدته. فرجع مكسور القلب حزيناً. فوجد الباب مرتجاً، فتوسده ووضع خده على عتبة الباب ونام، فخرجت أمه. فلما رأته على تلك الحال لم تملك أن رمت نفسها عليه، والتزمته تقبله وتبكي. وتقول: يا ولدي، أين تذهب عني؟ ومن يؤويك سواي؟ ألم أقل لك: لا تخالفني. ولا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جبلت عليه من الرحمة بك، والشفقة عليك، وإرادتي الخير لك؟ ثم أخذته ودخلت.

فتأمل قول الأم «لا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جبلت عليه من الرحمة والشفقة».

وتأمل قوله ﷺ «الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها»[1] وأين تقع رحمة الوالدة من رحمة الله التي وسعت كل شيء؟

فإذا أغضبه العبد بمعصيته فقد استدعى منه صرف تلك الرحمة عنه. فإذا تاب إليه فقد استدعى منه ما هو أهله وأولى به.

فهذه نبذة يسيرة تطلعك على سر فرح الله بتوبة عبده أعظم من فرح هذا الواجد

(١) رواه البخاري (٥٩٩٩) - ومسلم(٢٧٥٤).

لراحلته فى الأرض المهلكة، بعد اليأس منها.

ووراء هذا ما تجفوا عنه العبارة، وتدق عن إدراكه الأذهان.

(مثل فرح الرب بتوبة العبد)

هذا إذا نظرت إلى تعلق الفرح الإلهي بالإحسان والجود والبر.

وأما إن لاحظت تعلقه بإلهيته وكونه معبوداً: فذاك مشهد أجل من هذا وأعظم منه. وإنما يشهده خواص المحبين. فإن الله سبحانه إنما خلق الخلق لعبادته، الجامعة لمحبته والخضوع له وطاعته. وهذا هو الحق الذى خلقت به السموات والأرض. وهو غاية الخلق والأمر. ونفيه - كما يقول أعداؤه - هو الباطل، والعبث الذى نزه الله نفسه عنه، وهو السدى الذى نزه نفسه عنه: أن يترك الإنسان عليه. وهو سبحانه يحب أن يعبد ويطاع ولا يعبأ بخلقه شيئاً لولا محبتهم له، وطاعتهم له ودعاؤهم له.

وقد أنكر على من زعم أنه خلقهم لغير ذلك، وأنهم لو خلقوا لغير عبادته وتوحيده وطاعته لكان خلقهم عبثاً وباطلاً وسدى. وذلك مما يتعالى عنه أحكم الحاكمين. والإله الحق. فإذا خرج العبد عما خلق له من الطاعة والعبودية فقد خرج عن أحب الأشياء إليه، وعن الغاية التى لأجلها خلقت الخليقة. وصار كأنه خلق عبثاً لغير شىء، إذ لم تخرج أرضه البذر الذى وضع فيها. بل قلبته شوكا ودغلا. فإذا راجع ما خلق له وأوجد لأجله: فقد رجع إلى الغاية التى هى أحب الأشياء إلى خالقه وفاطره. ورجع إلى مقتضى الحكمة التى خلق لأجلها. وخرج عن معنى العبث والسدى والباطل فاشتدت محبة الرب له. فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين. فأوجبت هذه المحبة فرحاً كأعظم ما يُقَدَّر من الفرح. ولو كان فى الفرح المشهود فى هذا العالم نوع أعظم من هذا الذى ذكره النبى ﷺ لذكره، ولكن لا فرحة أعظم من فرحة هذا الواجد الفاقد لمادة حياته وبلاغه فى سفره، بعد إياسه من أسباب الحياة بفقده. وهذا كشدة محبته لتوبة التائب المحب إذا اشتدت محبته للشىء وغاب عنه. ثم وجده وصار طوع يده. فلا فرحة أعظم من فرحته به.

فما الظن بمحبوب لك تحبه حباً شديداً، أسره عدوك، وحال بينك وبينه. وأنت تعلم أن العدو سيسومه سوء العذاب، ويعرضه لأنواع الهلاك. وأنت أولى به منه. وهو غرسك وتربيتك. ثم إنه انفلت من عدوه، ووافاك على غير ميعاد. فلم يفجأك إلا هو على بابك، يتملقك ويترضاك ويستعينك، ويمرغ خديه على تراب أعتابك. فكيف يكون فرحك به، وقد اختصصته لنفسك، ورضيته لقربك، وآثرته على سواه؟

هذا. ولستَ الذى أوجدته وخلقته. وأسبغت عليه نعمك، والله عز وجل هو الذى

أوجد عبده. وخلقه وكونه، وأسبغ عليه نعمه. وهو يحب أن يتمها عليه، فيصير مظهراً لنعمه، قابلاً لها، شاكراً لها، محباً لوليها، مطيعاً له عابداً له، معادياً لعدوه، مبغضاً له عاصياً له. والله تعالى يحب من عبده معاداة عدوه، ومعصيته ومخالفته كما يحب أن يوالى الله موالاه سبحانه ويطيعه ويعبده. . فتنضاف محبته لعبادته وطاعته والإنابة إليه، إلى محبته لعداوة عدوه. ومعصيته ومخالفته. فتشتد المحبة منه سبحانه، مع حصول محبوبه. وهذا هو حقيقة الفرح.

فيضحك سبحانه فرحاً ورضا. كما يضحك من عبده إذا ثار عن وطائه وفراشه ومضاجعة حبيبه إلى خدمته، يتلو آياته ويتملقه.

ويضحك من رجل هرب أصحابه عن العدو. فاقبل إليهم. وباع نفسه لله ولقَّاهم نحره،حتى قتل فى محبته ورضاه.

ويضحك إلى من أخفى الصدقة عن أصحابه لسائل اعترضهم فلم يعطوه فتخلف بأعقابهم وأعطاه سراً، حيث لا يراه إلا الله الذى أعطاه. فهذا الضحك منه حباً له، وفرحاً به. وكذلك الشهيد حين يلقاه يوم القيامة. فيضحك إليه فرحاً به وبقدومه عليه.

وليس فى إثبات هذه الصفات محذور ألبتة. فإنه «فرح» ليس كمثله شىء، «وضحك» ليس كمثله شىء. وحكمه حكم رضاه ومحبته، وإرادته وسائر صفاته. فالباب باب واحد. لا تمثيل ولا تعطيل.

(إقامة الحجة على العبد بتبليغه الرسالة)

قوله «الثانى: أن يقيم على عبده حجة عدله، فيعاقبه على ذنبه بحجته».

اعتراف العبد بقيام حجة الله عليه من لوازم الإيمان. أطاع أم عصى. فإن حجة الله قامت على العبد بإرسال الرسول، وإنزال الكتاب. وبلوغ ذلك إليه، وتمكنه من العلم به. سواء علم أوجهل. فكل من تمكن من معرفة ما أمر الله به ونهى عنه فقصر عنه ولم يعرفه. فقد قامت عليه الحجة. والله سبحانه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه. فإذا عاقبه على ذنبه عاقبه بحجته على ظلمه. قال الله تعالى ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ (١) وقال ﴿كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير؟ قالوا: بلى قد جاءنا نذير. فكذبنا وقلنا: ما نزل الله من شىء﴾ (٢) وقال: ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾ (٣).

---

(١) سورة الإسراء الآية ١٥ (٢) سورة الملك الآية (٨-٩).
(٣) سورة هود الآية ١١٧ .

وفى الآية قولان. أحدهما: ما كان ليهلكها بظلم منهم. الثانى: ما كان ليهلكها بظلم منه.

والمعنى على القول الأول: ما كان ليهلكها بظلمهم المتقدم. وهم مصلحون الآن. أى إنهم بعد أن أصلحوا. وتابوا: لم يكن ليهلكهم بما سلف منهم من الظلم.

وعلى القول الثانى: إنه لم يكن ظالماً لهم فى إهلاكهم، فإنه لم يهلكهم وهم مصلحون وإنما أهلكهم وهم ظالمون. فهم الظالمون لمخالفتهم، وهو العادل فى إهلاكهم. والقولان فى آية الأنعام أيضاً ﴿ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون﴾[1].

قيل: لم يكن مهلكهم بظلمهم، وشركهم وهم غافلون. لم ينذروا ولم يأتهم رسول.

وقيل: لم يهلكهم قبل التذكير بإرسال الرسول. فيكون قد ظلمهم. فإنه سبحانه لا يأخذ أحداً ولا يعاقبه إلا بذنبه. وإنما يكون مذنباً إذا خالف أمره ونهيه. وذلك إنما يعلم بالرسل.

فإذا شاهد العبد القدر السابق بالذنب، علم أن الله سبحانه قدّره سبباً مقتضياً لأثره من العقوبة، كما قدر الطاعة سبباً مقتضياً للثواب. وكذلك تقدير سائر أسباب الخير والشر. كجعل السم سبباً للموت، والنار سبباً للإحراق. والماء سبباً للإغراق.

فإذا أقدم العبد على سبب الهلاك - وقد عرف أنه سبب الهلاك - فهلك فالحجة مركبة عليه، والمؤاخذة لازمة له، كالحريق مثلا. والذنب، كالنار، وإتيانه له، كتقديمه نفسه للنار، وملاحظة الحكم فيما لا يجدى عليه شيئاً. فإنما الذى يشهده عند قيام الحجة عليه: ملاحظة الأمر، لا ملاحظة القدر.

فجعل صاحب المنازل هذه اللطيفة من ملاحظة الجناية والقضية ليس بالبين. بل هو من ملاحظة الجناية والأمر. لكن مراده: أن سر التقدير: أنه قد علم أن هذا العبد لا يصلح إلا للوقود، كالشوك الذى لا يصلح إلا للنار. والشجرة تشتمل على الثمر والشوك. فاقتضى عدله سبحانه أن يسوق هذا العبد إلى مالا يصلح إلا له، وأن يقيم عليه حجة عدله. فإن قدر عليه الذنب فواقعه. فاستحق ما خلق له. قال الله تعالى: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغى له. إن هو إلا ذكر وقرآن مبين. لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين﴾ [2].

فأخبر سبحانه أن الناس قسمان حى قابل للانتفاع يقبل الإنذار وينتفع به، وميت لايقبل الإنذار ولا ينتفع به لأن أرضه غير زاكية ولا قابلة لخير ألبتة فيحق عليه القول

(١) سورة الأنعام الآية ١٣١ . (٢) سورة يس الآية ٦٩ - ٧

بالعذاب. وتكون عقوبته بعد قيام الحجة عليه. لا بمجرد كونه غير قابل للهدى والإيمان. بل لأنه غير قابل ولا فاعل. وإنما يتبين كونه غير قابل بعد قيام الحجة عليه بالرسول. إذا لو عذبه بكونه غير قابل لقال: لو جاءني رسول منك لامتثلت أمرك. فأرسل إليه رسوله. فأمره ونهاه. فعصى الرسول بكونه غير قابل للهدى، فعوقب بكونه غير فاعل. فحق عليه القول: أنه لا يؤمن ولو جاءه الرسول، كما قال تعالى: ﴿وكذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون﴾ (١) وحق عليه العذاب. كقوله تعالى: ﴿وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار﴾ (٢).

فالكلمة التى حقت كلمتان: كلمة الإضلال، وكلمة العذاب. كما قال تعالى: ﴿ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين﴾(٣) وكلمته سبحانه، إنما حقت عليهم بالعذاب بسبب كفرهم. فحقت عليهم كلمة حجته، وكلمة عدله بعقوبته.

وحاصل هذا كله: أن الله سبحانه، أمر العباد أن يكونوا مع مراده الدينى منهم. لا مع مراد أنفسهم. فأهل طاعته آثروا الله ومراده على مرادهم فاستحقوا كرامته. وأهل معصيته آثروا مرادهم على مراده. وعلم سبحانه منهم: أنهم لا يؤثرون مراده ألبتة. وإنما يؤثرون أهواءهم ومرادهم. فأمرهم ونهاهم. فظهر بأمره من القدر الذى قدر عليهم من إيثارهم هوى أنفسهم، ومرادهم على مرضاة ربهم ومراده. فقامت عليهم بالمعصية حجة عدله. فعاقبهم بظلمهم.

(النفس الأمارة بالسوء)

قد ذكرنا أن العبد فى الذنب له نظر إلى أربعة أمور: نظر إلى الأمر والنهى. ونظر إلى الحكم والقضاء. وذكرنا ما يتعلق بهذين النظرين.

النظر الثالث: النظر إلى محل الجناية ومصدرها. وهو النفس الأمارة بالسوء، يفيده نظره إليها أموراً.

منها: أن يعرف أنها جاهلة ظالمة. وأن الجهل والظلم يصدر عنهما كل قول وعمل قبيح. ومن وصفه الجهل والظلم لا مطمع فى استقامته واعتداله ألبتة. فيوجب له ذلك بذل الجهد فى العلم النافع الذى يخرجها به عن وصف الجهل. والعمل الصالح الذى يخرجها به عن وصف الظلم. ومع هذا فجهلها أكثر من علمها وظلمها أعظم من عدلها.

فحقيق بمن هذا شأنه أن يرغب إلى خالقها وفاطرها أن يقيها شرها. وأن يؤتيها تقواها ويزكيها. فهو خير من زكاها. فإنه ربها ومولاها، وأن لا يكله إليها طرفة عين. فإنه إن

---

(١) سورة المؤمن الآية ٦ .   (٢) سورة يونس الآية ٣٣ .   (٣) سورة الزمر الآية ٧١ .

وكله إليها هلك. فما هلك من هلك إلا حيث وكل إلى نفسه. وفى خطبة الحاجة «الحمد لله. نحمده ونستعينه، ونستهديه، ونستغفره. ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا»(١) وقد قال تعالى: ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾(٢) وقال ﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾ (٣)

فمن عرف حقيقة نفسه وما طبعت عليه: علم أنها منبع كل شر، ومأوى كل سوء، وأن كل خير فيها ففضل من الله من به عليها. لم يكن منها. كما قال تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً﴾ (٤) وقال تعالى: ﴿ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم. وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان. أولئك هم الراشدون﴾ (٥) فهذا الحب وهذه الكراهة لم يكونا فى النفس ولا بها. ولكن هو الله الذى منّ بهما، فجعل العبد بسببهما من الراشدين ﴿فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم﴾ (٦) «عليم» بمن يصلح لهذا الفضل ويزكو عليه وبه، ويثمر عنده. «حكيم» فلا يضعه عند غير أهله فيضيعه بوضعه فى غير موضعه.

ومنها ما ذكره صاحب المنازل فقال:

«اللطيفة الثانية: أن يعلم أن نظر البصير الصادق فى سيئته لم يبق له حسنة بحال. لأنه يسير بين مشاهدة المنة. وتطلب عيب النفس والعمل».

يريد: أن من له بصيرة بنفسه، وبصيرة بحقوق الله. وهو صادق فى طلبه: لم يبق له نظره فى سيئاته حسنة ألبتة. فلا يلقى الله إلا بالإفلاس المحض، والفقر الصرف. لأنه إذا فتش عن عيوب نفسه وعيوب عمله علم أنها لا تصلح لله، وأن تلك البضاعة لا تشترى بها النجاة من عذاب الله. فضلاً عن الفوز بعظيم ثواب الله. فإن خلص له عمل وحال مع الله. وصفا له معه وقت شاهد منة الله عليه به، ومجرد فضله، وأنه ليس من نفسه، ولا هى أهل لذلك. فهو دائماً مشاهد لمنة الله عليه، ولعيوب نفسه وعمله. لأنه متى تطلبها رآها.

وهذا من أجل أنواع المعارف وأنفعها للعبد. ولذلك كان سيد الاستغفار «اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت. خلقتنى، وأنا عبدك. وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت. أعوذ بك من شر ما صنعت. أبوء لك بنعمتك على. وأبوء بذنبى. فاغفر لى. إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» (١).

---

(١) رواه مسلم (١٩٧٥) وأحمد (١/ ٢ ٣، ٣٥٠) والنسائى (٦/ ٨٩ - ٩٠) وابن ماجه (١٨٩٣)

(٢) سورة التغابن الآية ١٦ (٣) سورة يوسف الآية ٥٣ . (٤) سورة النور الآية ٢١

(٥) سورة الحجرات الآية ٧ (٦) سورة الحجرات الآية ٨ .

(٧) رواه البخارى (٦٣٠٦)- وأحمد (٤/ ١٢٢، ١٢٥) وابن ماجه (٣٨٧٢).

فتضمن هذا الإستغفار: الاعتراف من العبد بربوبية الله، وإلهيته وتوحيده والاعتراف بأنه خالقه، العالم به. إذ أنشأه نشأة تستلزم عجزه عن أداء حقه وتقصيره فيه، والاعتراف بأنه عبده الذى ناصيته بيده وفى قبضته. لا مهرب له منه. ولا ولى له سواه ثم التزام الدخول تحت عهده - وهو أمره ونهيه - الذى عهده إليه على لسان رسوله، وأن ذلك بحسب استطاعتى، لا بحسب أداء حقك فإنه غير مقدور للبشر وإنما هو جهد المقل، وقدر الطاقة. ومع ذلك فأنا مصدق بوعدك الذى وعدته لأهل طاعتك بالثواب، ولأهل معصيتك بالعقاب فأنا مقيم على عهدك، مصدق بوعدك. ثم أفزع إلى الاستعاذة والإعتصام بك من شر ما فرطت فيه من أمرك ونهيك. فإنك إن لم تعذنى من شره، وإلا أحاطت بى الهلكة فإن إضاعة حقك سبب الهلاك، وأنا أقر لك وألتزم بنعمتك على وأقر وألتزم وأبخع بذنبى. فمنك النعمة والإحسان والفضل. ومنى الذنب والإساءة. فأسألك أن تغفر لى بمحو ذنبى، وأن تعفينى من شره. إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

فلهذا كان هذا الدعاء سيد الاستغفار. وهو متضمن لمحض العبودية. فأى حسنة تبقى للبصير الصادق، مع مشاهدته عيوب نفسه وعمله، ومنة الله عليه؟ فهذا الذى يعطيه نظره إلى نفسه ونقصه

(تدرج الشيطان فى الإغواء)

النظر الرابع نظره إلى الآمر له بالمعصية، المزين له فعلها، الحاض له عليها. وهو شيطانه الموكل به

فيفيده النظر إليه، وملاحظته: اتخاذه عدواً، وكمال الاحتراز منه، والتحفظ واليقظة: والإنتباه لما يريد منه عدوه وهو لا يشعر. فإنه يريد أن يظفر به فى عقبة من سبع عقبات، بعضها أصعب من بعض. لا ينزل منه من العقبة الشاقة إلى ما دونها إلا إذا عجز عن الظفر به فيها.

العقبة الأولى عقبة الكفر بالله وبدينه ولقائه، وبصفات كماله، وبما أخبرت به رسله عنه. فإنه إن ظفر به فى هذه العقبة بردت نار عداوته واستراح. فإن اقتحم هذه العقبة ونجا منها ببصيرة الهداية، وسلم معه نور الإيمان طلبه على.

العقبة الثانية وهى عقبة البدعة. إما باعتقاد خلاف الحق الذى أرسل الله به رسوله، وأنزل به كتابه. وإما بالتعبد بما لم يأذن به الله. من الأوضاع والرسوم المحدثة فى الدين، التى لا يقبل الله منها شيئاً. ،والبدعتان فى الغالب متلازمتان. قل أن تنفك إحداهما عن الأخرى. كما قال بعضهم: تزوجت بدعة الأقوال ببدعة الأعمال فاشتغل الزوجان بالعرس. فلم يفجأهم إلا وأولاد الزنا يعيثون فى بلاد الإسلام. تضج منهم العباد والبلاد

إلى الله تعالى

وقال شيخنا. تزوجت الحقيقة الكافرة، بالبدعة الفاجرة فتولد بينهما خسران الدنيا والآخرة.

فإن قطع هذه العقبة، وخلص منها بنور السنة، واعتصم منها بحقيقة المتابعة، وما مضى عليه السلف الأخيار، من الصحابة والتابعين لهم بإحسان. وهيهات أن تسمح الأعصار المتأخرة بواحد من هذا الضرب! فإن سمحت به نصب له أهل البدع الحبائل، وبغوه الغوائل، وقالوا: مبتدع محدث.

فإذا وفقه الله لقطع هذه العقبة طلبه على.

العقبة الثالثة: وهى عقبة الكبائر فإن ظفر به فيها زينها له، وحسنها فى عينه. وسوف به وفتح له باب الإرجاء. وقال له: الإيمان هو نفس التصديق. فلا تقدح فيه الأعمال[1] ، وربما أجرى على لسانه وأذنه كلمة طالما أهلك بها الخلق، وهى قوله «لا يضر مع التوحيد ذنب، كما لا ينفع مع الشرك حسنة» والظفر به فى عقبة البدعة أحب إليه. لمناقضتها الدين. ودفعها لما بعث الله به رسوله. وصاحبها لا يتوب منها ولا يرجع عنها، بل يدعو الخلق إليها، ولتضمنها القول على الله بلا علم ومعاداة صريح السنة ومعاداة أهلها، والإجتهاد على إطفاء نور السنة وتولية من عزله الله ورسوله، وعزل من ولاه الله ورسوله واعتبار ما رده الله ورسوله، ورد ما اعتبره وموالاة من عاداه، ومعاداة من والاه. وإثبات ما نفاه. ونفى ما أثبته. وتكذيب الصادق وتصديق الكاذب ومعارضة الحق بالباطل. وقلب الحقائق، بجعل الحق باطلاً، والباطل حقاً والإلحاد فى دين الله وتعمية الحق على القلوب. وطلب العوج لصراط الله المستقيم. وفتح باب تبديل الدين جملة

فإن البدع تستدرج بصغيرها إلى كبيرها، حتى ينسلخ صاحبها من الدين كما تنسل الشعرة من العجين، فمفاسد البدع لا يقف عليها إلا أرباب البصائر. والعميان ضالون فى ظلمة العمى ﴿ومن لم يجعل الله نوراً فما له من نور﴾ (١)

فإن قطع هذه العقبة بعصمة من الله، أو توبة نصوح تنجيه منها، طلبه على

العقبة الرابعة: وهى عقبة الصغائر. فكال له منها بالقفزان، وقال ما عليك إذا

(١) وهذا هو مذهب غلاة المرجئة فى الإيمان، حيث يخرجون الأعمال عن مسمى الإيمان. فالإيمان عندهم لا يتفاضل أى لا يزيد ولا ينقص بمقتضى أعمال الجوارح، وعندهم أن إيمان أفسق الناس يتساوى مع إيمان أبى بكر الصديق!! وهذا مذهب فاسد بين البطلان. وانظر «الإيمان» لشيخ الإسلام ابن تيمية.

(٢) سورة النور الآية ٤٠ .

اجتنبت الكبائر ما غشيت من اللمم، أو ما علمت بأنها تكفر باجتناب الكبائر وبالحسنات. ولا يزال يهون عليه أمرها حتى يصر عليها. فيكون مرتكب الكبيرة الخائف الوجل النادم أحسن حالا منه. فالإصرار على الذنب أقبح منه. ولا كبيرة مع التوبة والاستغفار. ولا صغيرة مع الإصرار. وقد قال ﷺ «إياكم ومُحَقَّرات الذنوب - ثم ضرب لذلك مثلا بقوم نزلوا بفلاة من الأرض. فأعوزهم الحطب. فجعل هذا يجيء بعود، وهذا بعود. حتى جمعوا حطباً كثيراً. فأوقدوا ناراً. وأنضجوا خُبْزَتَهم. فكذلك فإن محقرات الذنوب تجتمع على العبد وهو يستهين بشأنها حتى تهلكه»[1].

فإن نجا من هذه العقبة بالتحرز والتحفظ، ودوام التوبة والاستغفار وأتبع السيئة الحسنة. طلبه على:

العقبة الخامسة. وهى عقبة المباحات التى لا حرج على فاعلها فشغله بها عن الاستكثار من الطاعات. وعن الاجتهاد فى التزود لمعاده. ثم طمع فيه أن يستدرجه منها إلى ترك السنن. ثم من ترك السنن إلى ترك الواجبات. وأقل ما ينال منه: تفويته الأرباح، والمكاسب العظيمة. والمنازل العالية. ولو عرف السعر لما فوت على نفسه شيئاً من القربات. ولكنه جاهل بالسعر.

فإن نجا من هذه العقبة ببصيرة تامة ونور هاد، ومعرفة بقدر الطاعات والاستكثار منها، وقلة المقام على الميناء، وخطر التجارة، وكرم المشترى، وقدر ما يعوض به التجار، فبخل بأوقاته. وضن بأنفاسه أن تذهب فى غير ربح. طلبه العدو على:

العقبة السادسة وهى عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات. فأمره بها. وحسنها فى عينه. وزينها له. وأراه ما فيها من الفضل والربح، ليشغله بها عما هو أفضل منها، وأعظم كسباً وربحاً لأنه لما عجز عن تخسيره أصل الثواب، طمع فى تخسيره كماله وفضله، ودرجاته العالية فشغله بالمفضول عن الفاضل، والمرجوح عن الراجح، وبالمحبوب لله عن الأحب إليه، وبالمرضى عن الأرضى له.

ولكن أين أصحاب هذه العقبة؟ فهم الأفراد فى العالم، والأكثرون قد ظفر بهم فى العقبات الأوَل.

فإن نجا منها بفقه فى الأعمال ومراتبها عند الله، ومنازلها فى الفضل، ومعرفة مقاديرها، والتمييز بين عاليها وسافلها، ومفضولها وفاضلها، ورئيسها ومرءوسها، وسيدها

---

(١) حسن رواه أحمد (٥/ ٣٣١) والطبرانى فى «الكبير» (٦/ ١٦٦) برقم (٥٨٧٢)، وفى «الصغير» (٢/ ٤٩) والبغوى فى «شرح السنة» (٤٢٠٣) والبيهقى فى «شعب الإيمان» (٧٢٦٧) وحسنه الحافظ فى «الفتح» (١١/ ٢٨٣).

ومسودها. فإن في الأعمال والأقوال سيداً ومسوداً، ورئيساً ومرءوساً، وذروة وما دونها، كما في الحديث الصحيح «سيد الاستغفار أن يقول العبد. اللهم أنت ربي. لا إله إلا أنت - الحديث»[1] وفي الحديث الآخر «الجهاد ذروة سنام الأمر»[2] ولا يقطع هذه العقبة إلا أهل البصائر و الصدق من أولى العلم، السائرين علي جادة التوفيق، قد أنزلوا الأعمال منازلها، وأعطوا كل ذي حق حقه.

فإذا نجا منها لم يبق هناك عقبة يطلبه العدو عليها سوى واحدة لا بد منها. ولو نجا منها أحد لنجا منها رسل الله وأنبياؤه، وأكرم الخلق عليه. وهي عقبة تسليط جنده عليه بأنواع الأذى، باليد واللسان والقلب، على حسب مرتبته في الخير. فكلما علت مرتبته أجلب عليه العدو بخَيْله ورَجِله. وظاهرَ عليه بجنده. وسلط عليه حزبه وأهله بأنواع التسليط. وهذه العقبة لا حيلة له في التخلص منها. فإنه كلما جد في الاستقامة والدعوة إلى الله، والقيام له بأمره، جَدَّ العدوُّ في إغراء السفهاء به. فهو في هذه العقبة قد لَبِسَ لأمة الحرب. وأخذ في محاربة العدو لله بالله فعبوديته فيها خواص العارفين. وهي تسمى عبودية المراغمة، ولا يتنبه لها إلا أولو البصائر التامة. ولا شيء أحب إلى الله من مراغمة وليه لعدوه، وإغاظته له. وقد أشار سبحانه إلى هذه العبودية في مواضع من كتابه

أحدها: قوله ﴿ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة﴾[3] سمى المهاجر الذي يهاجر إلى عبادة الله مراغماً يراغم به عدو الله وعدوه. والله يحب من وليه مراغمة عدوه، وإغاظته كما قال تعالى: ﴿ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كُتِبَ لهم به عمل صالح. إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾[4] وقال تعالى في مثل رسول الله ﷺ وأتباعه ﴿ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره. فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار﴾[5] فمغايظة الكفار غاية محبوبة للرب مطلوبة له فموافقته فيها من كمال العبودية. وشرع النبي ﷺ للمصلي إذا سها في صلاته سجدتين، وقال «إن كانت صلاته تامة كانتا ترغمان أنف الشيطان»[6] وفي رواية «ترغيما للشيطان» وسماهما «المرغمتين»

فمن تعبد الله بمراغمة عدوه، فقد أخذ من الصديقية بسهم وافر وعلى قدر محبة

---

(١) سبق تخريجه

(٢) حسن رواه أحمد (٥/ ٢٣١) والترمذي (٢٦١٦) وابن ماجه (٣٩٧٣)، ورواه الحاكم (٢/ ٧٦) من طريق آخر وصححه ووافقه الذهبي

(٣) سورة النساء الآية ١٠٠. (٤) سورة التوبة الآية ١٢ (٥) سورة الفتح الآية ٢٩ .

(٦) رواه مسلم (١٢٤٩) وأحمد (٣/ ٨٧) وأبو داود (٢٤ ١) والنسائي (٣/ ٢٧) وابن ماجه (١٢١٠).

العبد لربه، وموالاته ومعاداته لعدوه، يكون نصيبه من هذه المراغمة.

وهذا باب من العبودية لا يعرفه إلا القليل من الناس - ومن ذاق طعمه ولذته بكى على أيامه الأول.

وبالله المستعان. وعليه التكلان. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(تأخير التوبة ذنب يجب التوبة منه)

ونذكر نبذاً تتعلق بأحكام التوبة، وتشتد الحاجة إليها. ولا يليق بالعبد جهلها.

منها: أن المبادرة إلى التوبة من الذنب فرض على الفور. ولا يجوز تأخيرها فمتى أخرها عصى بالتأخير. فإذا تاب من الذنب بقى عليه توبة أخرى. وهى توبته من تأخير التوبة. وقل أن تخطر هذه ببال التائب، بل عنده: أنه إذا تاب من الذنب لم يبق عليه شيء آخر. وقد بقى عليه التوبة من تأخير التوبة. ولا ينجى من هذا إلا توبة عامة، مما يعلم من ذنوبه ومما لا يعلم. فإن ما لا يعلمه العبد من ذنوبه أكثر مما يعلمه. ولا ينفعه فى عدم المؤاخذه بها جهله إذا كان متمكناً من العلم. فإنه عاص بترك العلم والعمل. فالمعصية فى حقه أشد. وفى صحيح ابن حبان: أن النبى ﷺ قال: «الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل. فقال أبو بكر: فكيف الخلاص منه يارسول الله؟ قال: أن تقول: اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم. وأستغفرك لما لا أعلم»(١).

فهذا طلب الاستغفار مما يعلمه الله أنه ذنب، ولا يعلمه العبد. وفى الصحيح عنه «أنه كان يدعو فى صلاته: اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى، وإسرافى فى أمرى، وما أنت أعلم به منى. اللهم اغفر لى جدى وهزلى، وخطأى وعمدى. وكل ذلك عندى[٢]. اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به منى. أنت إلهى لا إله إلا أنت»[٣].

وفى الحديث الآخر «اللهم اغفر لى ذنبى كله، دقه وجله. خطأه وعمده. سره وعلانيته، أوله وآخره»[٤]

---

(١) ضعيف. رواه أبو يعلى فى «مسنده» (٦٠، ٦١)، وفى إسناده ليث بن أبى سليم، قال الحافظ فى «التقريب» صدوق اختلط أخيراً ولم يتميز حديثه فترك اهـ وشيخه أبو محمد مجهول.

(٢) رواه البخارى (٦٣٩٩) وأحمد (٤/٤١٧) عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه.

(٣) رواه مسلم (١٧٨١) وأحمد (١/ ٩٤ - ١٣٠) وأبو داود (٧٤٤ و ٧٦٠) والترمذى (٣٤٢١) و (٣٤٢٢) و ٣٤٢٣) والنسائى (٢/ ١٢٩ - ١٣٠) وابن ماجه (١٠٥٤) من حديث على بن أبى طالب رضى الله عنه وهو جزء من دعاء الاستفتاح الذى كان يدعو به النبى ﷺ فى صلاته.

(٤) رواه مسلم (١٠٦٥) وأبو داود (٨٧٨) عن أبى هريرة رضى الله عنه، دون قوله «خطأه وعمده»

فهذا التعميم وهذا الشمول لتأتي التوبة على ما علمه العبد من ذنوبه وما لم يعلمه.

*****

(التوبة من ذنب دون آخر)

وهل تصح التوبة من ذنب، مع الإصرار على غيره؟

فيه قولان لأهل العلم. وهما روايتان عن الإمام أحمد ولم يطلع على الخلاف من حكى الإجماع على صحتها. كالنووي وغيره.

وأجاب الآخرون عن هذا بأن الإسلام له شأن ليس لغيره. لقوته ونفاذه، وحصوله - تبعاً بإسلام الأبوين أو أحدهما - للطفل. وكذلك بانقطاع نسب الطفل من أبيه، أو بموت أحد أبويه في أحد القولين. وكذلك يكون بكون سابيه ومالكه مسلماً، في أحد القولين أيضاً. وذلك لقوته، وتشوف الشرع إليه حتى حصل بغير القصد بل بالتبعية.

واحتج الآخرون بأن التوبة: هي الرجوع إلى الله من مخالفته إلى طاعته. وأي رجوع لمن تاب من ذنب واحد، وأصر على ألف ذنب؟.

قالوا: والله سبحانه إنما لم يؤاخذ التائب، لأنه قد رجع إلى طاعته وعبوديته، وتاب توبة نصوحاً. والمصر على مثل ما تاب منه - أو أعظم - لم يراجع الطاعة. ولم يتب توبة نصوحاً.

قالوا: ولأن التائب إذا تاب إلى الله، فقد زال عنه أسم «العاصي» كالكافر إذا أسلم زال عنه أسم «الكافر» وأما إذا أصر على غير الذنب الذي تاب منه فاسم «المعصية» لا يفارقه. فلا تصح توبته.

وسر المسألة، أن التوبة: هل تتبعض، كالمعصية. فيكون تائباً من وجه دون وجه، كالإيمان والإسلام؟

والراجح: تبعضها. فإنها كما تتفاضل في كيفيتها كذلك تفاضل في كميتها. ولو أتى العبد بفرض وترك فرضاً آخر، لا ستحق العقوبة على ما تركه دون ما فعله. فهكذا إذا تاب من ذنب وأصر على آخر. لأن التوبة فرض من الذنبين. فقد أدى أحد الفرضين وترك الآخر فلا يكون ما ترك موجباً لبطلان ما فعل كمن ترك الحج وأتى بالصلاة والصيام والزكاة.

والآخرون يجيبون عن هذا بأن التوبة فعل واحد. معناه الإقلاع عما يكرهه الله، والندم عليه، والرجوع إلى طاعته. فإذا لم توجد بكمالها لم تكن صحيحة. إذ هي عبادة واحدة. فالإتيان ببعضها وترك بعض واجباتها كالإتيان ببعض العبادة الواجبة وترك بعضها.

فإن ارتباط أجزاء العبادة الواحدة بعضها ببعض أشد من ارتباط العبادات المتنوعات بعضها ببعض.

وأصحاب القول الآخر يقولون: كل ذنب له توبة تخصه. وهي فرض منه لا تتعلق بالتوبة من الآخر، كما لا يتعلق أحد الذنبين بالآخر.

والذي عندي في هذه المسألة، أن التوبة لا تصح من ذنب، مع الإصرار على آخر من نوعه. وأما التوبة من ذنب، مع مباشرة آخر لا تعلق له به، ولا هو من نوعه: فتصح. كما إذا تاب من الربا، ولم يتب من شرب الخمر مثلاً. فإن توبته من الربا صحيحة. وأما إذا تاب من ربا الفضل، ولم يتب من ربا النسيئة وأصر عليه، أو بالعكس، أو تاب من تناول الحشيشة وأصر على شرب الخمر، أو بالعكس: فهذا لا تصح توبته.. وهو كمن يتوب عن الزنا بإمرأة، وهو مصر على الزنا بغيرها غير تائب منها. أو تاب من شرب عصير العنب المسكر. وهو مصر على شرب غيره من الأشربة المسكرة. فهذا في الحقيقة لم يتب من الذنب. وإنما عدل عن نوع منه إلى نوع آخر. بخلاف من عدل عن معصية إلى معصية أخرى غيرها في الجنس. إما لأن وزرها أخف، وإما لغلبة دواعي الطبع إليها. وقهر سلطان شهوتها له. وإما لأن أسبابها حاضرة لديه عتيدة. لا يحتاج إلى استدعائها، بخلاف معصية يحتاج إلى استدعاء أسبابها. وإما لاستحواذ قرنائه وخلطائه عليه. فلا يدعونه يتوب منها. وله بينهم حظوة بها وجاه. فلا تطاوعه نفسه على إفساد جاهه بالتوبة، كما قال أبو نواس لأبي العتاهية. وقد لامه على تهتكه في المعاصي:

أتـــــراني يا عتاهي تـــــــاركاً تلك الملاهي؟

أتراني مفسداً بالنـــ ـــسك عند القوم جاهي؟

فمثل هذا إذا تاب من قتل النفس، وسرقة أموال المعصومين وأكل أموال اليتامى. ولم يتب من شرب الخمر والفاحشة: صحت توبته مما تاب منه. ولم يؤاخذ به. ويبقى مؤاخذاً بما هو مصر عليه. والله أعلم.

(أحكام التوبة)

ومن أحكام «التوبة» أنه: هل يشترط في صحتها أن لا يعود إلى الذنب أبداً، أم ليس ذلك بشرط؟

فشرط بعض الناس: عدم معاودة الذنب. وقال: متى عاد إليه تبينا أن التوبة كانت باطلة غير صحيحة.

و الأكثرون على أن ذلك ليس بشرط. وإنما صحة التوبة تتوقف على الإقلاع عن

الذنب، والندم عليه، والعزم الجازم على ترك معاودته.

فإذا ثبت هذا، فمعاود الذنب مبغوض لله من جهة معاودة الذنب، محبوب له من جهة توبته وحسناته السابقة. فيرتب الله سبحانه على كل سبب أثره ومسببه بالعدل والحكمة ولا يظلم مثقال ذرة ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ (١).

(توبة العاجز عن الذنب)

وإذا استغرقت سيئاته الحديثات حسناته القديمات وأبطلتها ثم تاب منها توبة نصوحاً خالصة: عادت إليه حسناته ولم يكن حكمه حكم المستأنف لها بل يقال له: تبت على ما أسلفت من خير. فالحسنات التى فعلتها فى الإسلام أعظم من الحسنات التى يفعلها الكافر فى كفره: من عتاقة، وصدقة، وصلة وقد قال حكيم بن حزام «يا رسول الله، أرأيت عتاقة أعتقتها فى الجاهلية، وصدقة تصدقت بها، وصلة وصلت بها رحمى. فهل لى فيها من أجر؟ فقال» أسلمت على ما أسلفت من خير» (٢) وذلك لأن الإساءة المتخللة بين الطاعتين قد ارتفعت بالتوبة وصارت كأنها لم تكن. فتلاقت الطاعتان واجتمعتا. والله أعلم.

(التوبة وخطر الإصرار والتسويف)

ومن أحكامها: أن العاصى إذا حيل بينه وبين أسباب المعصية، وعجز عنها. بحيث يتعذر وقوعها منه. هل تصح توبته؟ وهذا كالكاذب والقاذف، وشاهد الزور إذا قطع لسانه، والزانى إذا جب، والسارق إذا أتى على أطرافه الأربعة، والمزور إذا قطعت يده. ومن وصل إلى حد بطلت معه دواعيه إلى معصية كان يرتكبها.

ففى هذا قولان للناس.

فقالت طائفة: لا تصح توبته لأن التوبة إنما تكون ممن يمكنه الفعل والترك. فالتوبة من الممكن، لا من المستحيل. ولهذا لا تتصور التوبة من نقل الجبال عن أماكنها، وتنشيف البحار، والطيران فى السماء، ونحوه.

قالوا: ولأن التوبة مخالفة داعى النفس، وإجابة داعى الحق ولا داعى للنفس هنا. إذ يعلم استحالة الفعل منها.

قالوا: ولأن هذا كالمكره على الترك، المحمول عليه قهراً ومثل هذا لا تصح توبته.

قالوا: ومن المستقر فى فطر الناس وعقولهم: أن توبة المفاليس وأصحاب الجوائح:

---

(١) سورة فصلت الآية ٤٦.

(٢) رواه البخارى (٢٢٢٠) ومسلم (٣١٦) وأحمد (٣/٤٠٢) عن حكيم بن حزام رضى الله عنه.

توبة غير معتبرة. ولا يحمدون عليها. بل يسمونها توبة إفلاس، وتوبة جائحة. قال الشاعر:

ورحت عن توبة سائلاً وجدتها توبة إفلاس

قالوا: ويدل على هذا أيضاً: أن النصوص المتضافرة المتظاهرة قد دلت على أن التوبة عند المعاينة لا تنفع لأنها توبة ضرورة لا اختيار. قال تعالى: **﴿فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً: وليست التوبة للذين يعملون السيئات. حتى إذا حضر أحدهم الموت قال: إنى تبت الآن.ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾** (1).

و«الجهالة» ههنا: جهالة العمل. وإن كان عالماً بالتحريم. قال قتادة «أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن كل ما عصى الله به فهو جهالة، عمداً كان أو لم يكن. وكل من عصى الله فهو جاهل».

وأما التوبة من قريب: فجمهور المفسرين: على أنها التوبة قبل المعاينة. قال عكرمة: قبل الموت. وقال الضحاك: قبل معاينة ملك الموت. وقال السدى والكلبى: أن يتوب فى صحته قبل مرض موته. وفى المسند وغيره عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» (2).

فهذا شأن التائب من قريب. وأما إذا وقع فى السياق فقال: إنى تبت الآن، لم تقبل توبته. وذلك لأنها توبة اضطرار لا اختيار. فهى كالتوبة بعد طلوع الشمس من مغربها، ويوم القيامة، وعند معاينة بأس الله.

قالوا: ولأن حقيقة التوبة: هى كف النفس عن الفعل الذى هو متعلق النهى. والكف إنما يكون عن أمر مقدور. وأما المحال: فلا يعقل كف النفس عنه. ولأن التوبة هى الإقلاع عن الذنب. وهذا لا يتصور منه الإيقاع حتى يتأتى منه الإقلاع.

قالوا: ولأن الذنب عزم جازم على فعل المحرم، يقترن به فعله المقدور والتوبة منه: عزم جازمٌ على ترك المقدور، يقترن به الترك والعزم على غير المقدور محال. والترك فى حق هذا ضرورى، لا عزم غير مقدور. بل هو بمنزلة ترك الطيران إلى السماء، ونقل الجبال وغير ذلك.

---

(1) سورة النساء: الآية 17 - 18

(2) صحيح، رواه الترمذى (3537) وأحمد (2:132) وابن حبان (2449 - موارد) والحاكم (4:257) وصححه ووافقه الذهبى

والقول الثاني - وهو الصواب - أن توبته صحيحة ممكنة. بل واقعة. فإن أركان التوبة مجتمعة فيه. والمقدور له منها الندم. وفي المسند مرفوعاً «الندم توبة» [1] فإذا تحقق ندمه على الذنب ولومه نفسه عليه. فهذه توبة. وكيف يصح أن تسلب التوبة عنه، مع شدة ندمه على الذنب، ولومه نفسه عليه؟ ولا سيما ما يتبع ذلك من بكائه وحزنه وخوفه، وعزمه الجازم، ونيته أنه لو كان صحيحاً والفعل مقدوراً له لما فعله

وإذا كان الشارع قد نزل العاجز عن الطاعة منزلة الفاعل لها، إذا صحت نيته. كقوله في الحديث الصحيح «إذا مرض العبد أو سافر كتب له ما كان يعمل صحيحاً مقيماً»[2] وفي الصحيح أيضاً عنه «إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم. قالوا وهم بالمدينة؟ قال. وهم بالمدينة. حبسهم العذر» [3] وله نظائر في الحديث فتنزيل العاجز عن المعصية، التارك لها قهراً - مع نيته تركها اختياراً لو أمكنه- منزلة التارك المختار أولى. يوضحه: أن مفسدة الذنب التي يترتب عليها الوعيد تنشأ من العزم عليه تارة ومن فعله تارة. ومنشأ المفسدة معدوم في حق هذا العاجز فعلاً وعزماً. والعقوبة تابعة للمفسدة.

وأيضاً فإن هذا تعذر منه الفعل ما تعذر منه التمني، والوداد. فإذا كان يتمنى ويود لو واقع الذنب، ومن نيته: أنه لو كان سليماً لباشره. فتوبته بالإقلاع عن هذا الوداد والتمني، والحزن على فوته. فإن الإصرار متصور في حقه قطعاً. فيتصور في حقه ضده. وهو التوبة. بل هي أولى بالإمكان والتصور من الإصرار، وهذا واضح.

والفرق بين هذا وبين المعاين، ومن ورد القيامة: أن التكليف قد انقطع بالمعاينة وورود القيامة. والتوبة إنما تكون في زمن التكليف وهذا العاجز لم ينقطع عنه التكليف فالأوامر والنواهي لازمة له. والكف متصور منه على التمني والوداد، والأسف على فوته، وتبديل ذلك بالندم والحزن على فعله والله أعلم.

(التوبة والنية)

ومن أحكامها أن من توغل في ذنب، وعزم على التوبة منه، ولا يمكنه التوبة منه إلا بارتكاب بعضه، كمن أولج في فرج حرام ثم عزم على التوبة قبل النزع الذي هو جزء الوطء. وكمن توسط أرضاً مغصوبة، ثم عزم على التوبة ولا يمكنه إلا بالخروج، الذي هو مشي فيها وتصرف فكيف يتوب من الحرام بحرام مثله؟ وهل تعقل التوبة من الحرام

(١) صحيح رواه أحمد (١/ ٣٧٦ و ٤٢٣ و ٤٣٣) وأبو يعلى (٤٩٦٩) وابن ماجه (٤٢٥٢) والبيهقي (١/ ١٥٤) والحاكم (٤/ ٢٤٣) والحميدي (١٠٥) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي

(٢) رواه البخاري (٢٩٩٦)- وأحمد (٤ / ٤١٠).

(٣) رواه البخاري (٢٨٣٩) من حديث أنس ورواه مسلم (٤٨٤٩) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهم

بحرام؟.

فهذا مما أشكل على بعض الناس. حتى دعاه ذلك إلى أن قال بسقوط التكليف عنه فى هذا الفعل الذى يتخلص به من الحرام.

قال: لأنه لا يمكن أن يكون مأموراً به وهو حرام. وقد تعين فى حقه طريقاً للخلاص من الحرام، لا يمكنه التخلص بدونه. فلا حكم فى هذا الفعل ألبتة. وهو بمنزلة العفو الذى لا يدخل تحت التكليف

وقالت طائفة: بل هو حرام واجب. فهو ذو وجهين. مأمور به من أحدهما. منهى عنه من الآخر. فيؤمر به من حيث تعينه طريقاً للخلاص من الحرام. وهو من هذا الوجه واجب. وينهى عنه من جهة كونه مباشراً للمحرام. وهو من هذا الوجه محرم، فيستحق عليه الثواب والعقاب.

قالوا: ولا يمتنع كون الفعل فى الشرع ذا وجهين مختلفين، كالاشتغال عن الحرام بمباح. فإن المباح إذا نظرنا إلى ذاته - مع قطع النظر عن ترك الحرام - قضينا بإباحته. وإذا اعتبرناه من جهة كونه تاركاً للمحرام كان واجباً.

نعم، غايته: أنه لا يتعين مباح دون مباح. فيكون واجباً مخيراً.

قالوا: وكذلك الصلاة فى الدار المغصوبة، هى حرام. وهى واجبة. وستر العورة بثوب الحرير كذلك: حرام واجب، من وجهين مختلفين.

والصواب: أن هذا النزع والخروج من الأرض: توبة ليس بحرام، إذ هو مأمور به. ومحال أن يؤمر بالحرام. وإنما كان النزع - الذى هو جزء الوطء - حراماً بقصد التلذذ به. وتكميل الوطء. وأما النزع الذى يقصد به مفارقة الحرام، وقطع لذة المعصية. فلا دليل على تحريمه، لا من نص ولا إجماع، ولا قياس صحيح يستوى فيه الأصل والفرع فى علة الحكم.

ومحال خلو هذه الحادثة عن حكم الله فيها. وحكمه فيها: الأمر بالنزع قطعاً. وإلا كانت الاستدامة مباحة. وذلك عين المحال. وكذلك الخروج من الأرض المغصوبة: مأمور به. وإنما تكون الحركة والتصرف فى ملك الغير حراماً إذا كان على وجه الانتفاع بها، المتضمن لإضرار مالكها. أما إذا كان القصد ترك الانتفاع، وإزالة الضرر عن المالك. فلم يحرم الله ولا رسوله ذلك. ولا دل على تحريمه نظر صحيح، ولا قياس صحيح.

وقياسه على مشى مستديم الغصب. وقياس نزع التائب على نزع المستديم: من أفسد

القياس وأبينه بطلاناً. ونحن لا ننكر كون الفعل الواحد يكون له وجهان. ولكن إذا تحقق النهي عنه والأمر به أمكن اعتبار وجهيه. فإن الشارع أمر بستر العورة. ونهى عن لبس الحرير. فهذا الساتر لها بالحرير قد ارتكب الأمرين، فصار فعله ذا وجهين.

وأما محل النزاع فلم يتحقق فيه النهي عن النزع، والخروج عن الأرض المغصوبة من الشارع ألبتة، لا بقوله ولا بمعقول قوله، إلا باعتبار هذا الفرد بفرد آخر بينهما أشد تباين، وأعظم فرق في الحس والعقل والفطرة والشرع.

وأما إلحاق هذا الفرد بالعفو فإن أريد به أنه معفو له عن المؤاخذة به فصحيح. وإن أريد أنه لا حكم لله فيه، بل هو بمنزلة فعل البهيمة والنائم، والناسي والمجنون: فباطل. إذ هؤلاء غير مخاطبين. وهذا مخاطب بالنزع والخروج فظهر الفرق. والله الموفق للصواب.

فإن قيل: هذا يتأتى لكم فيما إذا لم يكن في المفارقة بنزع أو خروج مفسدة. فما تصنعون فيما إذا تضمن مفسدة؟ مثل مفسدة الإقامة، كمن توسط جماعة جرحى لسلبهم. فطرح نفسه على واحد. إن أقام عليه قتله بثقله. وإن انتقل عنه لم يجد بداً من انتقاله إلى مثله يقتله بثقله. وقد عزم على التوبة. فكيف تكون توبته؟

قيل: توبة مثل هذا: بالتزام أخف المفسدتين، من الإقامة على الذنب المعين أو الانتقال عنه. فإن تساوت مفسدة الإقامة على الذنب ومفسدة الانتقال عنه من كل وجه. فهذا يؤمر من التوبة بالمقدور له منها وهو الندم، والعزم الجازم على ترك المعاودة. وأما الإقلاع: فقد تعذر في حقه إلا بالتزام مفسدة أخرى مثل مفسدته.

فقيل: إنه لا حكم لله في هذه الحادثة، لاستحالة ثبوت شيء من الأحكام الخمسة فيها. إذ إقامته على الجريح تتضمن مفسدة قتله. فلا يؤمر بها ولا هو مأذون له فيها. وانتقاله عنه يتضمن مفسدة قتل الآخر. فلا يؤمر بالانتقال، ولا يؤذن له فيه فيتعذر الحكم في هذه الحادثة على هذا. فتتعذر التوبة منها.

والصواب: أن التوبة غير متعذرة فإنه لا واقعة إلا ولله فيها حكم. علمه من علمه وجهله من جهله.

فيقال: حكم الله في هذه الواقعة كحكمه في الملجأ فإنه قد ألجيء قدراً إلى إتلاف أحد النفسين ولابد والملجأ ليس له فعل يضاف إليه، بل هو آلة. فإذا صار هذا كالملجأ، فحكمه: أن لا يكون منه حركة ولا فعل ولا اختيار. فلا يعدل من واحد إلى واحد، بل يتخلى عن الحركة والاختيار، ويستسلم استسلام من هو عليه من الجرحى. إذ لا قدرة له على حركة مأذون له فيها ألبتة. فحكمه الفناء عن الحركة والاختيار، وشهود نفسه كالحجر

الملقى على هذا الجريح. ولا سيما إن كان قد ألقى عليه بغير اختياره. فليس له أن يلقى نفسه على جاره لينجيه بقتله. والقدر ألقاه على الأول. فهو معذور به. . فإذا انتقل إلى الثانى انتقل بالاختيار والإرادة. فهكذا إذا ألقى نفسه عليه باختياره ثم تاب وندم. لا نأمره بإلقاء نفسه على جاره، ليتخلص من الذنب بذنب مثله سواء.

وتوبة مثل هذا إنما تتصور بالندم والعزم فقط، لا بالإقلاع. والإقلاع فى حقه مستحيل. فهو كمن أولج فى فرج حرام، ثم شد وربط فى حال إيلاجه بحيث لا يمكنه النزع ألبتة. فتوبته بالندم والعزم والتجافى بقلبه عن السكون إلى الاستدامة. وكذلك توبة الأول بذلك، وبالتجافى عن الإرادة والاختيار. والله أعلم.

(التوبة وأداء الحقوق)

ومن أحكمها. أنها إذا كانت متضمنة لحق آدمى: أن يخرج التائب إليه منه، إما بأدائه وإما باستحلاله منه بعد إعلامه به. وإن كان حقاً مالياً أو جناية على بدنه أو بدن موروثه . . كما ثبت عن النبى ﷺ أنه قال «من كان لأخيه عنده مظلمة من مال أو عرض، فليتحلله اليوم، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إلا الحسنات والسيئات» (١).

وإن كانت المظلمة بقدح فيه، بغيبة أو قذف: فهل يشترط فى توبته منها إعلامه بذلك بعينه والتحلل منه؟ أو إعلامه بأنه قد نال من عرضه، ولا يشترط تعيينه، أو لا يشترط لا هذا ولا هذا، بل يكفى فى توبته أن يتوب بينه وبين الله من غير إعلام من قذفه واغتابه؟

على ثلاثة أقوال. وعن أحمد روايتان منصوصتان فى حد القذف، هل يشترط فى توبة القاذف: إعلام المقذوف، والتحلل منه أم لا؟ ويخرج عليهما توبة المغتاب والشاتم.

والمعروف فى مذهب الشافعى، وأبى حنيفة، ومالك: اشتراط الإعلام والتحلل. هكذا ذكره أصحابهم فى كتبهم.

والذين اشترطوا ذلك احتجوا بأن الذنب حق آدمى: فلا يسقط إلا بإحلاله منه وإبرائه.

ثم من لم يصحح البراءة من الحق المجهول شرط إعلامه بعينه. لا سيما إذا كان من عليه الحق عارفاً. بقدره. فلا بد من إعلام مستحقه به. لأنه قد لا تسمح نفسه بالإبراء منه إذا عرف قدره.

واحتجوا بالحديث المذكور. وهو قوله ﷺ: «من كان لأخيه عنده مظلمة - من مال أو عرض - فليتحلله اليوم» (٢).

---

(١) رواه البخارى (٢٤٤٩) كتاب المظالم ، باب : من كانت له مظلمة عند الرجل فحللها له هل يبيّن مظلمته.
(٢) سبق تخريجه

قالوا: ولأن فى هذه الجناية حقين: حقاً لله، وحقاً للآدمى. فالتوبة منها بتحلل الآدمى لأجل حقه، والندم فيما بينه وبين الله لأجل حقه.

قالوا: ولهذا كانت توبة القاتل لا تتم إلا بتمكين ولى الدم من نفسه، إن شاء اقتص وإن شاء عفا. وكذلك توبة قاطع الطريق.

والقول الآخر: أنه لا يشترط الإعلام بما نال من عرضه وقذفه واغتيابه، بل يكفى توبته بينه وبين الله. وأن يذكر المغتاب والمقذوف فى مواضع غيبته وقذفه بضد ما ذكره به من الغيبة. فيبدل غيبته بمدحه والثناء عليه، وذكر محاسنه، وقذفه بذكر عفته وإحصانه. ويستغفر له بقدر ما اغتابه.

وهذا اختيار شيخنا أبى العباس ابن تيمية. قدس الله روحه.

واحتج أصحاب هذه المقالة بأن إعلامه مفسدة محضة، لا تضمن مصلحة. فإنه لا يزيده إلا أذى وحنقاً وغماً، وقد كان مستريحاً قبل سماعه. فإذا سمعه ربما لم يصبر على حمله، وأورثته ضرراً فى نفسه أو بدنه، كما قال الشاعر:

فـــــإن الـــــذى يؤذيك منه سماعه   وإن الـــــذى قـــــالوا وراءك لم يقل

وما كان هكذا فإن الشارع لا يبيحه. فضلا عن أن يوجبه ويأمر به.

قالوا: وربما كان إعلامه به سبباً للعداوة والحرب بينه وبين القائل. فلا يصفو له أبداً. ويورثه علمه به عداوة وبغضاء مولدة لشر أكبر من شر الغيبة والقذف. وهذا ضد مقصود الشارع من تأليف القلوب، والتراحم والتعاطف والتحابب.

قالوا: والفرق بين ذلك وبين الحقوق المالية وجنايات الأبدان من وجهين.

أحدهما: أنه قد ينتفع بها إذا رجعت إليه. فلا يجوز إخفاؤها عنه. فإنه محض حقه. فيجب عليه أداؤه إليه. بخلاف الغيبة والقذف. فإنه ليس هناك شىء ينفعه يؤديه إليه إلا إضراره وتهييجه فقط. فقياس أحدهما على الآخر من أفسد القياس.

والثانى: أنه إذا أعلمه بها لم تؤذه، ولم تهج منه غضباً ولا عداوة بل ربما سره ذلك وفرح به. بخلاف إعلامه بما مزق به عرضه طول عمره ليلاً ونهاراً من أنواع القذف والغيبة والهجو. فاعتبار أحدهما بالآخر اعتبار فاسد وهذا هو الصحيح فى القولين كما رأيت. والله أعلم.

(هل يرجع العبد إلى الدرجة التى كان عليها قبل الذنب؟)

ومن أحكامها: أن العبد إذا تاب من الذنب: فهل يرجع إلى ما كان عليه قبل الذنب

من الدرجة التى حطه عنها الذنب، أو لا يرجع إليها؟ اختلف فى ذلك.

فقالت طائفة: يرجع إلى درجته. لأن التوبة تجب الذنب بالكلية، وتصيره كأن لم يكن. والمقتضى لدرجته: ما معه من الإيمان والعمل الصالح. فعاد إليها بالتوبة.

قالوا: لأن التوبة حسنة عظيمة وعمل صالح. فإذا كان ذنبه قد حطه عن درجته، فحسنته بالتوبة رقته إليها. وهذا كمن سقط فى بئر. وله صاحب شفيق، . أدلى إليه حبلاً تمسك به حتى رقى منه إلى موضعه. فهكذا التوبة والعمل الصالح مثل هذا القرين الصالح، والأخ الشفيق.

وقالت طائفة: لا يعود إلى درجته وحاله. لأنه لم يكن فى وقوف. وإنما كان فى صعود. فبالذنب صار فى نزول وهبوط. فإذا تاب نقص عليه ذلك القدر الذى كان مستعداً به للترقى.

قالوا: ومثل هذا مثل رجلين سائرين على طريق سيراً واحداً. ثم عرض لأحدهما ما ردّه على عقبه أو أوقفه، وصاحبه سائر. فإذا استقال هذا رجوعه ووقفته، وسار بإثر صاحبه: لم يلحقه أبداً. لأنه كلما سار مرحلة تقدم ذاك أخرى.

قالوا: والأول يسير بقوة أعماله وإيمانه. وكلما ازداد سيراً ازدادت قوته وذلك الواقف الذى رجع قد ضعفت قوة سيره وإيمانه بالوقوف والرجوع.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يحكى هذا الخلاف. ثم قال: والصحيح أن من التائبين من لا يعود الى درجته. ومنهم من يعود إليها. ومنهم من يعود إلى أعلى منها، فيصير خيراً مما كان قبل الذنب. وكان داود بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة.

قال: وهذا بحسب حال التائب بعد توبته، وجده وعزمه. وحذره وتشميره فإن كان ذلك أعظم مما كان له قبل الذنب عاد خيراً مما كان وأعلى درجة. وإن كان مثله عاد إلى مثل حاله. وإن كان دونه لم يعد إلى درجته. وكان منحطاً عنها. وهذا الذى ذكره هو فصل النزاع فى هذه المسألة. ويتبين هذا بمثلين مضروبين.

أحدهما: رجل مسافر سائر على الطريق بطمأنينة وأمن. فهو يعدو مرة ويمشى أخرى، ويستريح تارة وينام أخرى. فبينا هو كذلك إذ عرض له فى سيره ظل ظليل، وماء بارد ومقيل، وروضة مزهرة. فدعته نفسه إلى النزول على تلك الأماكن، فنزل عليها. فوثب عليه منها عدو، فأخذه وقيّده وكتّفه ومنعه عن السير. فعاين الهلاك. وظن أنه منقطع به، وأنه رزق الوحوش والسباع. وأنه قد حيل بينه وبين مقصده الذى يؤمه. فبينا

هو على ذلك تتقاذفه الظنون، إذ وقف على رأسه والده الشفيق القادر. فحل كتافه وقيوده وقال له: اركب الطريق واحذر هذا العدو. فإنه على منازل الطريق لك بالمرصاد واعلم أنك ما دمت حاذراً منه، متيقظاً له لا يقدر عليك. فإذا غفلت وثب عليك. وأنا متقدمك إلى المنزل، وفرط لك فاتبعنى على الأثر.

فإن كان هذا السائر كيِّساً فطناً لبيباً، حاضر الذهن والعقل، استقبل سيره استقبالاً آخر، أقوى من الأول وأتم. واشتد حذره. وتأهب لهذا العدو. وأعد له عدته. فكان سيره الثانى أقوى من الأول، وخيراً منه. ووصوله إلى المنزل أسرع. وإن غفل عن عدوه وعاد إلى مثل حاله الأول، من غير زيادة ولا نقصان ولا قوة حذر لا استعداد، عاد كما كان. وهو معرّضٌ لما عُرِّض له أولا.

وإن أورثه ذلك توانياً فى سيره وفتوراً، وتذكراً لطيب مقيله، وحسن ذلك الروض وعذوبَة مائه، وتفيؤ ظلاله، وسكوناً بقلبه إليه: لم يعد إلى مثل سيره ونقص عما كان.

المثل الثانى: عبد فى صحة وعافية جسم، عرض له مَرض أوجب له حمية وشرب دواء وتحفظاً من التخليط. ونقص بذلك مادة رَدِيَّة كانت متقصة لكمال قوته وصحته. فعاد بعد المرض أقوى مما كان قبله، كما قيل:

لعل عَتْبَكَ محمود عواقبه ... وربما صحت الأجسام بالعلل

وإن أوجب له ذلك المرض ضعفاً فى القوة، وتداركه بمثل ما نقص من قوته. عاد إلى مثل ما كان.

وإن تداركه بدون ما نقص من قوته، عاد إلى دون ما كان عليه من القوة وفى هذين المثلين كفاية لمن تدبرهما

(تفضيل الطائع على التائب توبة نصوحاً)

ويتبين هذا بمسألة شريفة. وهى أنه. هل المطيع الذى لم يعص خير من العاصى الذى تاب إلى الله توبة نصوحاً، أو هذ التائب أفضل منه؟.

أختلف فى ذلك

فطائفة رجحت من لم يعص على من عصى وتاب توبة نصوحاً. واحتجوا بوجوه

أحدها: أن أكمل الخلق وأفضلهم: أطوعهم لله. وهذا الذى لم يعص أطوع. فيكون أفضل.

الثانى: أن فى زمن اشتغال العاصى بمعصيته يسبقه المطيع عدة مراحل إلى فوق

فتكون درجته أعلى من درجته. وغايته: أنه إذا تاب استقبل سيره ليلحقه. وذاك فى سير آخر. فأنىّ له بلحاقه؟ فهما بمنزلة رجلينْ مشتركين فى الكسب. كلما كسب أحدهما شيئاً كسب الآخر مثله. فعمد أحدهما إلى كسبه فأضاعه، وأمسك عن الكسب المستأنف والآخر مُجدٌّ فى الكسب. فإذا أدركته حمية المنافسة، وعاد إلى الكسب: وجد صاحبه قد كسب فى تلك المدة شيئاً كثيراً. فلا يكسب شيئاً إلا كسب صاحبه نظيره. فأنىّ له بمساواته؟.

الثالث: أن غاية التوبة: أن تمحو عن هذا سيئاته، ويصير بمنزلة من لم يعملها. فيكون سعيه فى مدة المعصية لا له ولا عليه. فأين هذا السعى من سعى من هو كاسب رابح؟.

الرابع: أن الله يمقت على معاصيه ومخالفة أوامره. ففى مدة اشتغال هذا بالذنوب: كان حظه المقت، وحظ المطيع الرضا. فالله لم يزل عنه راضياً. ولا ريب أن هذا كان خير ممن كان الله راضياً عنه ثم مقته، ثم رضىَ عنه، فإن الرضا المستمر خير من الذى تخلله المقت.

الخامس: أن الذنب بمنزلة شرب السم. والتوبة ترياقه ودواؤه، والطاعة هى الصحة والعافية، وصحة وعافية مستمرة، خير من صحة تخللها مرض وشرب سم أفاق منه. وربما أدّيا به إلى التلف أو المرض أبداً.

السادس: أن العاصى على خطر شديد. فإنه دائرٌ بين ثلاثة أشياء.

أحدها: العطب والهلاك بشرب السم. الثانى: النقصانُ من القوة وضعفها، إن سلم من الهلاك. والثالث: عود قوته إليه كما كانت أو خيراً منها وهو بعيد.

والأكثر إنما هو القسمان الأولان. ولعل الثالث نادر جداً. فهو على يقين من ضرر السم، وعلى رجاء من حصول العافية، بخلاف من لم يتناول ذلك.

السابع: أن المطيع قد أحاط على بستان طاعته حائطاً حصيناً. لا يجد الأعداء إليه سبيلاً. فثمرته وزهرته وخضرته وبهجته فى زيادة ونمو أبداً. والعاصى قد فتح فيه ثغراً، وثلم فيه ثلمة. ومكن منه السُرَّاق والأعداء. فدخلوا فعاثوا فيه يميناً وشمالاً: أفسدوا أغصانه، وخربوا حيطانه. وقطعوا ثمراته، وأحرقوا فى نواحيه. وقطعوا ماءه، ونقصوا سقيه. فمتى يرجع هذا إلى حاله الأول؟ فإذا تداركه قيِّمه ولمَّ شعثه، وأصلح ما فسد منه، وفتح طرق مائه، وعمر ما خرب منه، فإنه إما أن يعود كما كان، أو أنقص، أو خيراً. لكن لا يلحق بستان صاحبه الذى لم يزل على نضارته وحسنه. بل فى زيادة ونمو، وتضاعف ثمرة، وكثرة غرس.

والثامن: أنّ طمع العدو فى هذا العاصى إنما كان لضعف علمه وضعف عزيمته. ولذلك يسمى جاهلاً. قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن كل ما عصى الله به فهو جهالة. وكذلك قال الله تعالى فى حق آدم: ﴿ولم نجد له عزماً﴾ [1] وقال فى حق غيره: ﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل﴾ [2] وأما من قويت عزيمته، وكمل علمه، وقوى إيمانه: لم يطمع فيه عدوه. وكان أفضل.

التاسع: أن المعصية لابد أن تؤثر أثراً سيئاً ولابد: إما هلاكاً كلياً. وإما خسراناً وعقاباً، يعقبه: إما عفو ودخول الجنة، وإما نقص درجة، وإما خمود مصباح الإيمان. وعمل التائب فى رفع هذه الآثار والتكفير. وعمل المطيع فى الزيادة ورفع الدرجات.

ولهذا كان قيام الليل نافلة للنبى ﷺ خاصة. فإنه يعمل فى زيادة الدرجات، وغيره يعمل فى تكفير السيئات. وأين هذا من هذا؟.

العاشر: أن المقبل على الله المطيع له يسير بجملة أعماله. وكلما زادت طاعاته وأعماله ازداد كسبه بها وعظم. وهو بمنزلة من سافر فكسب عشرة أضعاف رأس ماله. فسافر ثانياً برأس ماله الأول وكسبه. فكسب عشرة أضعافه أيضاً. فسافر ثالثاً أيضاً بهذا المال كله. وكان ربحه كذلك، وهلّمّ جرا. فإذا فتر عن السفر فى آخر أمره، مرة واحدة، فاته من الربح بقدر جميع ما ربح أو أكثر منه. وفى هذا الوجه كفاية.

(وجوه ترجيح التائب المحسن على من لم يعص)

وطائفة رجحت التائب، وإن لم تنكر كون الأول أكثر حسنات منه. واحتجت بوجوه.

أحدها: أن عبودية التوبة من أحب العبوديات إلى الله، وأكرمها عليه. فإنه سبحانه يحب التوابين. ولو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه، لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه. فلمحبته لتوبة عبده ابتلاه بالذنب الذى يوجب وقوع محبوبه من التوبة، وزيادة محبته لعبده، فإن للتائبين عنده محبة خاصة. يوضح ذلك:

الوجه الثانى: أن للتوبة عنده سبحانه منزلة ليست لغيرها من الطاعات. ولهذا يفرح سبحانه بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يقدر، كما مثله النبى ﷺ بفرح الواجد لراحلته التى عليها طعامه وشرابه فى الأرض الدّوّيّة المهلكة، بعد ما فقدها، وأيس من أسباب الحياة. ولم يجىء هذا الفرح فى شىء من الطاعات سوى التوبة. ومعلوم أن لهذا الفرح تأثيراً عظيماً فى حال التائب وقلبه، ومزيده لا يُعبّر عنه. وهو من أسرار تقدير الذنوب على العباد. فإن العبد ينال بالتوبة درجة المحبوبية. فيصير حبيباً لله. فإن الله يحب

---

(1) سورة طه الآية ١١٥ .

(2) سورة الأحقاف الآية ٣٥

التوابين ويحب العبد المفتن التواب. ويوضحه:

الوجه الثالث: أن عبودية التوبة فيها من الذل والانكسار، والخضوع، والتملق لله، والتذلل له، ما هو أحب إليه من كثير من الأعمال الظاهرة. وإن زادت فى القدر والكمية على عبودية التوبة. فإن الذل والانكسار روح العبودية، ومخها ولبها. يوضحه:

الوجه الرابع: أن حصول مراتب الذل والانكسار للتائب أكمل منها لغيره. فإنه قد شارك من لم يذنب فى ذل الفقر، والعبودية، والمحبة. وامتاز عنه بانكسار قلبه بالمعصية والله سبحانه أقرب ما يكون إلى عبده عند ذله، وانكسار قلبه. ولأجل هذا كان «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»[1] لأنه مقام ذل وانكسار بين يدى ربه.

وتأمل قول النبى ﷺ. فيما يروى عن ربه عز وجل «أنه يقول يوم القيامة: يا ابن آدم، استطعمتُك فلم تطعمنى. قال: يارب، كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: استطعمك عبدى فلان فلم تُطْعِمْه، أمَا لو أطعمتَه لوجدتَ ذلك عندى. ابن آدم، استسقيتُك فلم تُسْقِنى. قال: يارب، كيف أسقيك، وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدى فلان فلم تُسقِهِ. أمَا لو سقيتَه لوجدتَ ذلك عندى. ابن آدم، مرضت فلم تعدنى. قال: يارب. كيف أعودك، وأنت رب العالمين؟ قال: أما إن عبدى فلاناً مرض فلم تعده، أما لو عدته لوجدتنى عنده»[2] فقال فى عيادة المريض لوجدتنى عنده» وقال فى الإطعام، والإسقاء «لوجدت ذلك عندى» ففرق بينهما. فإن المريض مكسورالقلب، ولو كان من كان، فلا بد أن يكسره المرض فإذا كان مؤمناً قد انكسر قلبه بالمرض كان الله عنده.

وهذا - والله أعلم - هو السر فى استجابة دعوة الثلاثة: المظلوم، والمسافر، والصائم، للكسرة التى فى قلب كل واحد منهم. فإن غربة المسافر وكَسْرته مما يجده العبد فى نفسه. وكذلك الصوم، فإنه يكسر سورة النفس السبعية الحيوانية، ويذلها.

والقصد: أن شمعة الجبر والفضل والعطايا، إنما تنزل فى شمعدان الانكسار وللعاصى التائب من ذلك أوفر نصيب: يوضحه:

الوجه الخامس: أن الذنب قد يكون أنفع للعبد إذا اقترنت به التوبة، من كثير من الطاعات. وهذا معنى قول بعض السلف «قد يعمل العبد الذنب فيدخل به الجنة. ويعمل الطاعة فيدخل بها النار» قالوا: وكيف ذلك؟ قال: يعمل الذنب فلا يزال نُصْبَ عينيه، إن قام، وإن قعد، وإن مشى: ذكر ذنبه. فيحدث له انكساراً، وتوبة، واستغفاراً، وندماً، فيكون ذلك سبب نجاته، ويعمل الحسنة. فلا تزال نُصْبَ عينيه إن قام ومشى، كلما ذكرها أورثته عُجْباً وكِبَراً ومِنَّةً. فتكون سبب هلاكه. فيكون الذنب موجباً لترتب طاعات

---

(١) رواه مسلم (١٠٦٤) وأحمد (٢/ ٤٢١) وأبو داود (٨٧٥) والنسائى (٢/ ٢٢٦) عن أبى هريرة رضى الله عنه

(٢) رواه مسلم (٦٤٣٤) كتاب الأدب ، باب : فضل عيادة المريض

وحسنات، ومعاملات قلبيه، من خوف الله والحياء منه، والإطراق بين يديه منكساً رأسه خجلاً، باكياً نادماً، مستقيلاً ربه. وكل واحد من هذه الآثار أنفع للعبد من طاعة توجب له صَوْلة، وكبراً وازدراء بالناس، ورؤيتهم بعين الاحتقار ولا ريب أن هذا المذنب خير عند الله، وأقرب إلى النجاة والفوز من هذا المعجب بطاعته، الصائل بها، المان بها، وبحاله على الله عز وجل وعباده وإن قال بلسانه خلاف ذلك فالله شهيد على ما في قلبه ويكاد يعادى الخلق إذا لم يعظموه ويرفعوه. ويخضعوا له. ويجد في قلبه بغضة لمن لم يفعل به ذلك. ولو فتش نفسه حق التفتيش لرأى فيها ذلك كامناً. ولهذا تراه عاتباً على من لم يعظمه ويعرف له حقه. متطلباً لعيبه في قالب حمِيّة لله، وغضب له، وإذا قام بمن يعظمه ويحترمه، ويخضع له من الذنوب أضعاف ما قام بهذا، فتح له باب المعاذير والرجاء. وأغمض عنه عينه وسمعه. وكف لسانه وقلبه، وقال: باب العصمة عن غير الأنبياء مسدود. وربما ظن أن ذنوب من يعظمه تكفَّر بإجلاله وتعظيمه وإكرامه إياه.

فإذا أراد الله بهذا العبد خيراً ألقاه في ذنب يكْسره به. ويعرفه قدره. ويكفى به عباده شره. وينكس به رأسه، ويستخرج به منه داء العجب والكبر والمنة عليه وعلى عباده. فيكون هذا الذنب أنفع لهذا من طاعات كثيرة ويكون بمنزلة شرب الدواء ليستخرج به الداء العضال.

الوجه السادس: وهو قوله تعالى: ﴿إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيآتهم حسنات. وكان الله غفوراً رحيماً﴾ [1] وهذا من أعظم البشارة للتائبين إذا اقترن بتوبتهم إيمان وعمل صالح. وهو حقيقة التوبة. قال ابن عباس رضى الله عنهما فما رأيت النبي ﷺ فرح بشيء قط فرحه بهذه الآية لما أنزلت. وفرحه بنزول ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾[2].

واختلفوا في صفة هذا التبديل، وهل هو في الدنيا، أو في الآخرة؟ على قولين.

فقال ابن عباس وأصحابه: هو تبديلهم بقبائح أعمالهم محاسنهم. فبدلهم بالشرك إيماناً. وبالزنا عفة وإحصاناً، وبالكذب صدقاً، وبالخيانة أمانة.

فعلى هذا معنى الآية: أن صفاتهم القبيحة، وأعمالهم السيئة، بُدّلوا عوضها صفات جميلة، وأعمالاً صالحة، كما يُبدّل المريض بالمرض صحة، والمبتلى ببلائه عافية.

وقال سعيد بن المسيب، وغيرها من التابعين: هو تبديل الله سيئاتهم التي عملوها بحسنات يوم القيامة. فيعطيهم مكان كل سيئة حسنة

---

(١) سورة الفرقان الآية ٧٠

(٢) سورة الفتح الآية ١

واحتج أصحاب هذا القول بما روى الترمذي في جامعه: عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ «إني لأعلم آخر رجل يخرج من النار: يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه. ويُخبّأ عنه كبارها، فيقال: عملتَ يوم كذا كذا وكذا. وهو مقر لا ينكر، وهو مشفق من كبارها. فيقال: أعطُوه مكان كل سيئةٍ عملها حسنة. فيقول: إن لي ذنوباً ما أراها ههنا.

قال أبو ذر: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه[1]

فهذا حديث صحيح. ولكن في الاستدلال به على صحة هذا القول نظر. فإن هذا قد عُذّب بسيئاته ودخل بها النار. ثم بعد ذلك أُخرِج منها، وأُعْطى مكان كل سيئة حسنة، صدقة تصدق الله بها عليه ابتداء بعدد ذنوبه. وليس في هذا تبديل تلك الذنوب بحسنات إذ لو كان كذلك لما عُوقِب عليها كما لم يعاقب التائب. والكلام إنما هو في تائب أثبت له مكان كل سيئة حسنة، فزادت حسناته. فأين في هذا الحديث ما يدل على ذلك؟.

والناس استقبلوا هذا الحديث مستدلين به في تفسير هذه الآية على هذا القول، وقد علمت ما فيه. لكن للسلف غَوْر ودقة فَهْم لا يدركها كثير من المتأخرين.

فالاستدلال به صحيح، بعد تمهيد قاعدة، إذا عُرِفت عُرِف لطف الاستدلال به ودقته. وهي أن الذنب لابد له من أثر، وأثره يرتفع بالتوبة تارة، وبالحسنات الماحية تارة، وبالمصائب المكفِّرة تارة، وبدخول النار ليتخلص من أثره تارة. وكذلك إذا اشتد أثره، ولم تقو تلك الأمور على محوه. فلابد إذاً من دخول النار لأن الجنة لا يكون فيها ذرة من الخبيث. ولا يدخلها إلا من طاب من كل وجه. فإذا بقي عليه شيء من خَبَث الذنوب أدخل كِيرَ الامتحان، ليخلص ذهب إيمانه من خبثه. فيصلح حينئذ لدار الملك.

إذا عُلم هذا فزوال موجب الذنب وأثره تارة يكون بالتوبة النصوح. وهي أقوى الأسباب. وتارة يكون باستيفاء الحق منه وتطهيره في النار. فإذا تطهر بالنار، وزال أثر الوسخ والخبث عنه، أعطى مكان كل سيئة حسنة. فإذا تطهر بالتوبة والنصوح، وسال عنه بها أثر وسخ الذنوب وخبثها، كان أولى بأن يُعطَى مكان كل سيئة حسنة. لأن إزالة التوبة لهذا الوسخ والخبث أعظم من إزالة النار، وأحب إلى الله. وإزالة النار بدل منها. وهي الأصل. فهي أولى بالتبديل مما بعد الدخول يوضحه:.

الوجه التاسع: وهو أن التائب قد بدل كل سيئة بندمه عليها حسنة. إذ هو توبة تلك السيئة، والندم توبة. والتوبة من كل ذنب حسنة. فصار كل ذنب عمله زائلاً بالتوبة التي

(١) صحيح . رواه الترمذي (٢٥٩٦) وقال : حسن صحيح

حلت محله وهى حسنة. فصار له مكان كل سيئة حسنة بهذا الاعتبار. فتأمله فإنه من ألطف الوجوه.

وعلى هذا فقد تكون هذه الحسنة مساوية فى القدر لتلك السيئة. وقد تكون دونها وقد تكون فوقها. وهذا بحسب نصح هذه التوبة، وصدق التائب فيها، وما يقترن بها من عمل القلب الذى تزيد مصلحته ونفعه على مفسدة تلك السيئة. وهذا من أسرار مسائل التوبة ولطائفها. يوضحه:

الوجه العاشر: أن ذنب العارف بالله وبأمره قد يترتب عليه حسنات أكبر منه وأكثر، وأعظم نفعاً، وأحب إلى الله من عصمته من ذلك الذنب: من ذل وانكسار وخشية، وإنابة وندم وتدارك بمراغمة العدو بحسنة أو حسنات أعظم منه، حتى يقول الشيطان: ياليتنى لم أوقعه فيما أوقعته فيه، ويندم الشيطان على إيقاعه فى الذنب، كندامة فاعله على ارتكابه. لكن شتان ما بين الندمين. والله تعالى يحب من عبده مراغمة عدوه وغيظه. كما تقدم أن هذا من العبودية من أسرار التوبة. فيحصل من العبد مراغمة العدو بالتوبة والتدارك، وحصول محبوب الله من التوبة، وما يتبعها من زيادة الأعمال هنا، ما يوجب جعل مكان السيئة حسنة بل حسنات.

وتأمل قوله: (يبدل الله سيئاتهم حسنات) ولم يقل مكان كل واحدة واحدة فهذا يجوز أن يبدل السيئة الواحدة بعدة حسنات بحسب حال المبدل.

وأما فى الحديث: فإن الذى عُذّب على ذنوبه لم يبدلها فى الدنيا بحسناته، من التوبة النصوح وتوابعها. فلم يكن له ما يجعل مكان السيئة حسنات. فأعطى مكان كل سيئة حسنة واحدة. وسكت النبى ﷺ عن كبار ذنوبه. ولما انتهى إليها ضحك. ولم يبين ما يفعل الله بها. وأخبر أن الله يبدل مكان كل صغيرة حسنة. ولكنْ فى الحديث إشارة لطيفة إلى أن هذا التبديل يعم كبارها وصغارها من وجهين.

أحدهما: قوله: «أخبئوا عنه كبارها» فهذا إشعار بأنه إذا رأى تبديل الصغائر ذكرها، وطمع فى تبديلها. فيكون تبديلها أعظم موقعاً عنده من تبديل الصغائر. وهو به أشد فرحاً واغتباطاً.

والثانى. ضحك النبى ﷺ عند ذكر ذلك وهذا الضحك مشعر بالتعجب مما يُفعل به من الإحسان، وما يقر به على نفسه من الذنوب، من غير أن يُقرَّر عليها ولا يُسأل عنها وإنما عُرضت عليه الصغائر.

فتبارك الله رب العالمين، وأجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، البر اللطيف، المتودد

إلى عباده بأنواع الإحسان وإيصاله إليهم من كل طريق بكل نوع لا إله إلا هو الرحمن الرحيم

(حقيقة التوبة)

وكثير من الناس إنما يفسر التوبة بالعزم على أن لا يعاود الذنب، وبالإقلاع عنه في الحال، وبالندم عليه في الماضي. وإن كان في حق آدمي: فلا بد من أمر رابع. وهو التحلل منه.

وهذا الذي ذكروه بعض مسمى «التوبة» بل شرطها، وإلا فالتوبة في كلام الله ورسوله - كما تتضمن ذلك - تتضمن العزم على فعل المأمور والتزامه فلا يكون بمجرد الإقلاع والعزم والندم تائباً، حتى يوجد منه العزم الجازم على فعل المأمور، والإتيان به. هذا حقيقة التوبة وهي اسم لمجموع الأمرين. لكنها إذا قرنت بفعل المأمور كانت عبارة عما ذكروه، فإذا أفردت تضمنت الأمرين

فإن حقيقة «التوبة» الرجوع إلى الله بالتزام فعل ما يجب، وترك ما يكره. فهي رجوع من مكروه إلى محبوب. فالرجوع إلى المحبوب جزء مسماها. والرجوع عن المكروه الجزء الآخر. ولهذا علق سبحانه الفلاح المطلق على فعل المأمور وترك المحظور بها، فقال ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون. لعلكم تفلحون﴾ (٢) فكل تائب مفلح. ولا يكون مفلحاً إلا من فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه. وقال تعالى: ﴿ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾ (٣) وتارك المأمور ظالم، كما أن فاعل المحظور ظالم. وزوال اسم «الظلم» عنه إنما يكون بالتوبة الجامعة للأمرين. فالناس قسمان: تائب وظالم. ليس إلا. فالتائبون هم ﴿العابدون الحامدون السائحون، الراكعون الساجدون، الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، والحافظون لحدود الله﴾ (٤) فحفظ حدود الله: جزء التوبة. والتوبة هي مجموع هذه الأمور. وإنما سمي تائباً: لرجوعه إلى أمر الله من نهيه، وإلى طاعته من معصيته، كما تقدم

فإذاً «التوبة» هي حقيقة دين الإسلام، والدين كله داخل في مسمى «التوبة» وبهذا استحق التائب أن يكون حبيب الله. فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين وإنما يحب الله من فعل ما أمر به. وترك ما نهى عنه

فإذاً «التوبة» هي الرجوع مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه ظاهراً وباطناً ويدخل في مسماها الإسلام، والإيمان، والإحسان. وتتناول جميع المقامات. ولهذا كانت

(١) سورة النور الآية ٣١ (٢) سورة الحجرات الآية ١١ (٣) سورة التوبة الآية ١١٢

غاية كل مؤمن، وبداية الأمر وخاتمة. كما تقدم. وهى الغاية التى وجد لأجلها الخلق. والأمر والتوحيد جزء منها. بل هو جزؤها الأعظم الذى عليه بناؤها

وأكثر الناس لا يعرفون قدر «التوبة» ولا حقيقتها، فضلاً عن القيام بها علماً وعملاً وحالاً. ولم يجعل الله تعالى محبته للتوابين إلا وهم خواصُّ الخلق لديه.

ولولا أن «التوبة» اسم جامع لشرائع الإسلام، وحقائق الإيمان لم يكن الرب تعالى يفرح بتوبة عبده ذلك الفرح العظيم. فجميع ما يتكلم فيه الناس من المقامات والأحوال هو تفاصيل «التوبة» وآثارها.

(التوبة والاستغفار)

وأما «الاستغفار» فهو نوعان. مفرد ومقرون بالتوبة. فالمفرد: كقول نوح عليه السلام لقومه ﴿استغفروا ربكم إنه كان غفاراً * يرسل السماء عليكم مدراراً﴾ [1] وكقول صالح لقومه: ﴿لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون﴾[2] وكقوله تعالى: ﴿واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾[3] وقوله: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم. وما كن الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ [4] والمقرون كقوله تعالى: ﴿استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله﴾ [5]وقول هود لقومه ﴿استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً﴾ [6]:وقول صالح لقومه ﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها. فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب﴾[7] وقول شعيب: ﴿واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود﴾ [8]فالاستغفار المفرد كالتوبة. بل هو التوبة بعينها. مع تضمنه طلب المغفرة من الله. وهو محو الذنب، وإزالة أثره، ووقاية شره، لا كما ظنه بعض الناس: أنها الستر. فإن الله يستر على من يغفر له ومن لا يغفر له. ولكن الستر لازم مسماها أو جزؤه. فدلالتها عليه إما بالتضمن وإما باللزوم

وحقيقتها وقاية شر الذنب ومنه المغفر، لما يقى الرأس من الأذى والستر لازم لهذا المعنى. وإلا فالعمامة لا تسمى مغفراً، ولا القبع ونحوه مع ستره. فلا بد فى لفظ «المغفر»

---

(١) سورة نوح الآية (١ - ١١)
(٢) سورة النمل الآية ٤٦ .
(٣) سورة البقرة الآية ١٩٩
(٤) سورة الأنفال الآية ٣٣
(٥) سورة هود الآية ٣
(٦) سورة هود الآية ٥٢
(٧) سورة هود الآية ٦١ .
(٨) سورة هود الآية ٩٠

من الوقاية. وهذا الاستغفار هو الذى يمنع العذاب فى قوله: ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ [1] فإن الله لا يعذب مستغفراً. وأما من أصر على الذنب، وطلب من الله مغفرته. فهذا ليس باستغفار مطلق. ولهذا لا يمنع العذاب. فالاستغفار يتضمن التوبة، والتوبة تتضمن الاستغفار. وكل منهما يدخل فى مسمى الآخر عند الإطلاق.

وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى. فالاستغفار. طلب وقاية شر ما مضى. والتوبة: الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه فى المستقبل من سيئات أعماله. فها هنا ذنبان: ذنب قد مضى: فالاستغفار منه: طلب وقاية شره. وذنب يخاف وقوعه، فالتوبة: العزم على أن لا يفعله. والرجوع إلى الله يتناول النوعين: رجوع إليه ليقيه شر ما مضى، ورجوع إليه ليقيه شر ما يستقبل من شر نفسه وسيئات أعماله.

وأيضاً فإن المذنب بمنزلة من ركب طريقاً تؤديه إلى هلاكه. ولا توصله إلى المقصود. فهو مأمور أن يوليها ظهره. ويرجع إلى الطريق التى فيها نجاته. والتى توصله إلى مقصوده. وفيها فلاحه

فههنا أمران لابد منهما. مفارقة شىء. والرجوع إلى غيره. فخصت «التوبة» بالرجوع، و«الاستغفار» بالمفارقة. وعند إفراد أحدهما يتناول الأمرين. ولهذا جاء - والله أعلم - الأمر بهما مرتباً بقوله (استغفروا ربكم ثم توبوا إليه) فإنه الرجوع إلى طريق الحق بعد مفارقة الباطل.

وأيضاً فالاستغفار من باب إزالة الضرر. والتوبة طلب جلب المنفعة. فالمغفرة أن يقيه شر الذنب. والتوبة: أن يحصل له بعد هذه الوقاية ما يحبه. وكل منهما يستلزم الآخر عند إفراده والله أعلم.

(التوبة النصوح)

وهذا يتبين بذكر التوبة النصوح وحقيقتها. قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً. عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار﴾ [2] فجعل وقاية شر السيئات - وهو تكفيرها - بزوال ما يكره العبد. ودخول الجنات - وهو حصول ما يحب العبد - منوطاً بحصول التوبة النصوح. و«النصوح» على وزن فعول المعدول به عن فاعل قصداً للمبالغة كالشكور والصبور. وأصل مادة (ن ص ح) لخلاص الشىء من الغش والشوائب الغريبة. وهو ملاق فى الاشتقاق الأكبر لنصح إذا خلص. فالنصح فى التوبة والعبادة والمشورة: تخليصها من كل غش ونقص وفساد.

(١) سورة الأنفال الآية ٣٣ .
(٢) سورة التحريم الآية ٨

وإيقاعها على أكمل الوجوه. والنصح ضد الغش.

وقد اختلفت عبارات السلف عنها. ومرجعها إلى شيء واحد. فقال عمر ابن الخطاب، وأبي بن كعب رضي الله عنهما «التوبة النصوح: أن يتوب من الذنب ثم لا يعود إليه. كما لا يعود اللبن إلى «الضرع» وقال الحسن البصري «هي أن يكون العبد نادماً على ما مضى، مجمعاً على أن لا يعود فيه» وقال الكلبي «أن يستغفر باللسان، ويندم بالقلب، ويمسك بالبدن» وقال سعيد بن المسيب «توبة نصوحاً. تنصحون بها أنفسكم» جعلها بمعنى ناصحة للتائب، كضروب المعدول عن ضارب.

وأصحاب القول الأول يجعلونها بمعنى المفعول، أي قد نصح فيها التائب ولم يُشبها بغش. فهي إما بمعنى منصوح فيها، كركوبة وحلوبة، بمعنى مركوبة ومحلوبة، أو بمعنى الفاعل. أي ناصحة كخالصة وصادقة.

وقال محمد بن كعب القرظي: يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجنان، ومهاجرة سيء الإخوان.

قلت: النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء.

الأول: تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها بحيث لا تدع ذنباً إلا تناولته.

والثاني: إجماع العزم والصدق بكليته عليها. بحيث لا يبقى عنده تردد، ولا تلوُّم ولا انتظار. بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادراً بها.

الثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها، ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته، والرغبة فيما لديه، والرهبة مما عنده. لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمته، ومنصبه ورياسته، ولحفظ حاله، أو لحفظ قوته وماله، أو استدعاء حمد الناس، أو الهرب من ذمهم، أو لئلا يتسلط عليه السفهاء، أو لقضاء نهمته من الدنيا، أو لإفلاسه وعجزه، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصها لله عز وجل.

فالأول: يتعلق بما يتوب منه، والثالث يتعلق بمن يتوب إليه. والأوسط يتعلق بذات التائب ونفسه. فنصح التوبة الصدق فيها، والإخلاص، وتعميم الذنوب بها. ولا ريب أن هذه التوبة تستلزم الاستغفار وتتضمنه، وتمحو جميع الذنوب. وهي أكمل ما يكون من التوبة والله المستعان. وعليه التكلان. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

*****

وقد جاء فى كتاب الله تعالى ذكرهما مقترنين، وذكر كلا منهما منفرداً عن الآخر. فالمقترنان كقوله تعالى حاكياً عن عباده المؤمنين: ﴿ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفّر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار﴾ (١) والمنفرد كقوله: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد - وهو الحق من ربهم - كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم﴾ (٢) وقوله فى المغفرة: ﴿ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم﴾ (٣) وكقوله: ﴿ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا﴾ (٤) ونظائره. فههنا أربعة أمور: ذنوب، وسيئات، ومغفرة، وتكفير.

فالذنوب: المراد بها الكبائر. والمراد بالسيئات: الصغائر. وهى ما تعمل فيه الكفارة، من الخطأ وما جرى مجراه. ولهذا جعل لها التكفير. ومنه أخذت الكفارة. ولهذا لم يكن لها سلطان ولا عمل فى الكبائر فى أصح القولين. فلا تعمل فى قتل العمد. ولا فى اليمين الغموس فى ظاهر مذهب أحمد وأبى حنيفة.

والدليل على أن السيئات هى الصغائر، والتكفير لها: قوله تعالى: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً﴾ (٥) وفى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان: مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر»(٦).

ولفظ «المغفرة» أكمل من لفظ «التكفير» ولهذا كان مع الكبائر، والتكفير مع الصغائر(٧) فإن لفظ «المغفرة» يتضمن الوقاية والحفظ. ولفظ «التكفير» يتضمن الستر والإزالة، وعند الإفراد: يدخل كل منهما فى الآخر. كما تقدم. فقوله تعالى: ﴿كفر عنهم سيآتهم﴾

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٩٣ . (٢) سورة محمد الآية ٢ .
(٣) سورة محمد الآية ١٥ . (٤) سورة آل عمران الآية ١٤٧ . (٥) سورة النساء الآية ٣١
(٦) رواه مسلم (٥٤١) والترمذى (٢١٤) وأحمد (٢/ ٤٠٠).
(٧) قال السيد رشيد : لم يبسط المصنف هذا البحث حق البسط كعادته . أما « التكفير » فهو مستعمل فى السيئات . وكذلك العفو . والمغفرة فى الذنوب كما قال . وأما تخصيص الذنوب بالكبائر ، والسيئات بالصغائر ، وجعل التكفير للصغائر فقط . والمغفرة للكبائر فهو محل نظر . فالذنب مشتق من ذنب الدابة وهو كل ما له عاقبة وتبعة تلحقه لا تتفق مع مصلحة فاعله ، ومنفعته ومراده ، وربما لا يكون معصية البتة بل اجتهاداً لم يوافق المقصد ، ولذلك أضيف الذنب إلى النبى ﷺ دون السيئة . ومثاله اجتهاده فى الإذن لمن استأذنه فى التخلف عن غزوة تبوك . وقال الله فى قوم لوط ١١ :٧٨ (ومن قبل كانوا يعملون السيئات) وكانت من الكبائر . وكما قال تعالى (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) . وقال أيضاً (الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم . إن ربك واسع المغفرة) فاستعمل « المغفرة » فى اللمم وهى الصغائر قطعاً . كما استعمل التكفير فى السيئات . وفى كون المراد بها الصغائر فى آية آل عمران وآية النساء هذه : نظر والسيئة مشتقة من السوء . وهو ما يسوء فاعله فى دنياه وآخرته أو فيهما جميعاً

يتناول صغائرها وكبائرها، ومحوها ووقاية شرها. بل التكفير المفرد يتناول أسوأ الأعمال كما قال تعالى: ﴿ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا﴾ (١).

وإذا فُهم هذا فُهم السر فى الوعد على المصائب والهموم والغموم والنصب والوصب بالتكفير دون المغفرة. كقوله فى الحديث الصحيح «ما يصيب المؤمن من هم ولا غم ولا أذى - حتى الشوكة يشاكها - إلا كفر الله بها من خطاياه»(٢) فإن المصائب لا تستقل بمغفرة الذنوب. ولا تغفر الذنوب جميعها إلا بالتوبة، أو بحسنات تتضاءل وتتلاشى فيها الذنوب. فهى كالبحر لا يتغير بالجيف. وإذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث.

فلأهل الذنوب ثلاثة أنهار عظام يتطهرون بها فى الدنيا. فإن لم تف بطهرهم طهروا فى نهر الجحيم يوم القيامة: نهر التوبة النصوح، ونهر الحسنات المستغرقة للأوزار المحيطة بها، ونهر المصائب العظيمة المكفرة. فإذا أراد الله بعبده خيراً أدخله أحد هذه الأنهار الثلاثة. فورد القيامة طيباً طاهراً، فلم يحتج إلى التطهير الرابع.

(توبة العبد إلى الله محفوفة بتوبة من الله)

وتوبة العبد إلى الله محفوفة بتوبة من الله عليه قبلها. وتوبة منه بعدها. فتوبته بين توبتين من ربه، سابقة ولاحقة. فإنه تاب عليه أولاً إذناً وتوفيقاً وإلهاماً، فتاب العبد. فتاب الله عليه ثانياً، قبولاً وإثابة. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم. ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم. وعلى الثلاثة الذين خلفوا. حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت. وضاقت عليهم أنفسهم. وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه، ثم تاب عليهم ليتوبوا. إن الله هو التواب الرحيم﴾(٣) فأخبر سبحانه أن توبته عليهم سبقت توبتهم، وأنها هى التى جعلتهم تائبين. فكانت سبباً مقتضياً لتوبتهم. فدل على أنهم ما تابوا حتى تاب الله تعالى عليهم. والحكم ينتفى لانتفاء علته.

ونظير هذا: هدايته لعبده قبل الاهتداء. فيهتدى بهدايته. فتوجب له تلك الهداية هداية أخرى يثيبه الله بها هداية على هدايته. فإن من ثواب الهدى: الهدى بعده، كما أن من عقوبة الضلالة: الضلالة بعدها. قال الله تعالى ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾(٤) فهداهم

---

(١) سورة فاطر ٣٠

(٢) رواه البخارى (٥٦٤١) ومسلم (٦٤٤٦) وأحمد (٢/ ٣ ،٣ و ٣٣٥) وأبو يعلى (١٢٣٧) والبغوى فى شرح السنة (١٤٢١) والبيهقى (٣/ ٣٧٣) من حديث أبى هريرة وأبى سعيد وزواه البخارى (٥٦٤٠) ومسلم (٤٥٦٤٣) من حديث عائشة رضى الله عنه.

(٣) سورة التوبة الآية (١١٧- ١١٨)

(٤) سورة محمد الآية

أولا فاهتدوا، فزادهم هدى ثانياً. وعكسه في أهل الزيغ كقوله تعالى ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾[1] فهذه الإزاغة الثانية عقوبة لهم على زيغهم.

وهذا القدر من سر اسميه «الأول، والآخر» فهو المعدُّ. وهو الممدُّ. ومنه السبب والمسبب وهو الذي يعيذ من نفسه بنفسه، كما قال أعرف الخلق به «وأعوذ بك منك»[2] والعبد تواب. والله تواب. فتوبة العبد. رجوعه إلى سيده بعد الإباق، وتوبة الله نوعان: إذن وتوفيق، وقبول وإمداد

(الذنوب)

و«الذنوب» تنقسم إلى صغائر وكبائر. بنص القرآن والسنة، وإجماع السلف وبالاعتبار. قال الله تعالى ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم﴾ [3] وقال تعالى ﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم﴾ [4] وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان - مكفرات لما بينهن، إذا اجتنبت الكبائر».[5]

قول الجمهور: أن اللمم صغائر الذنوب، كالنظرة، والغمزة، والقبلة، ونحو ذلك. هذا قول جمهور الصحابة ومن بعدهم. وهو قول أبي هريرة وعبد الله بن مسعود. وابن عباس، ومسروق، والشعبي.

وهذه اللفظة فيها معنى المقاربة والإعتاب بالفعل حيناً بعد حين. فإنه يقال: ألمَّ بكذا. إذا قاربه ولم يغشه، ومن هذا سميت القبلة والغمزة لمماً، لأنها تلم بما بعدها. ويقال: فلان لا يزورنا إلا لمماً. أي حيناً بعد حين. فمعنى اللفظة ثابت في الوجهين اللذين فسر الصحابة بهما الآية. وليس معنى الآية «والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم، فإنهم لا يجتنبونه» فإن هذا يكون ثناء عليهم بترك اجتناب اللمم، وهذا محال. وإنما هذا استثناء من يكون ثناء عليهم بترك اجتناب اللمم، وهذا محال. ،إنما هذا استثناء من مضمون الكلام ومعناه: فإن سياق الكلام في تقسيم الناس إلى محسن ومسيء، وأن الله يجزي هذا بإساءته وهذا بإحسانه. ثم ذكر المحسنين ووصفهم بأنهم يجتنبون كبائر الإثم والفواحش

---

(١) سورة فصلت: الآية: ٥.

(٢) حسن. رواه أحمد (١/٩٦و ١١٨ و ١٥٠) وأبو داود (١٤٢٧) والنسائي (١/٢٥٢) والترمذي (٣٥٦٦) وابن أبي شيبة (٢/٥٧/٢) وابن ماجه (١١٧٩) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٣) سورة النساء الآية ٣١ .

(٤) سورة النجم الآية ٣٢ .

(٥) سبق تخريجه

ومضمون هذا: أنه لا يكون محسناً مجزياً بإحسانه، ناجياً من عذاب الله، إلا من اجتنب كبائر الإثم والفواحش فحسن حينئذٍ استثناء اللمم وإن لم يدخل فى الكبائر. فإنه داخل فى جنس الإثم والفواحش

(آراء السلف فى الكبائر)

وأما الكبائر فاختلف السلف فيها اختلافاً لا يرجع إلى تباين وتضاد، وأقوالهم متقاربة.

وفى الصحيحين عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ: «الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس»(١).

وفيهما عن عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبيه عن النبى ﷺ «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ - ثلاثاً - قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين - وجلسَ وكان متكئاً - فقال: ألا وقول الزور، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت»(٢).

وفى الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال: قلت «يا رسول الله، أى الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل الله نداً وهو خلقك. قال قلت: ثم أى؟ قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك. قال قل: ثم أى؟ قال: أن تزانى بحليلة جارك(٣). فأنزل الله تعالى تصديق قول النبى ﷺ ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر. ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون﴾(٤)».

وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا: يارسول الله، وما هن؟ قال: الشرك بالله. والسحر. وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق. وأكل الربا. وأكل مال اليتيم، والتولى يوم الزحف. وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»(٥)

عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال «من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه قالوا وكيف يسب الرجل والديه؟ قال. يسب أبا الرجل، فيسب أباه. ويسب أمه، فيسب أمه»(٦)

---

(١) رواه البخارى (٦٦٧٥) و الترمذى(٢١ ٣) و النسائى (٨ / ٦٣) و الدارمى (٢ / ١٩١)وأحمد (٢/ ٢٠١)
(٢) رواه البخارى (٢٦٥٤) ومسلم (٢٥٣) والترمذى (١٩٠١) وأحمد (٥/ ٣٧ و ٣٨)
(٣) رواه البخارى (٤٤٧٧) ومسلم (٢٥١) وأحمد (١/ ٣٨٠) وأبو داود (٢٣١٠) والنسائى (٧/ ٨٩)
(٤) سورة الفرقان الآية ٦٨ .
(٥) رواه البخارى (٢٧٦٦) . و مسلم (٢٥٦) وأبو داود (٢٨٧٤) والنسائى (٦/ ٢٥٧).
(٦) صحيح. رواه أبو داود (٥١٤١)

وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه «أكبر الكبائر: الشرك بالله. والأمن من مكر الله. والقنوط من رحمة الله. واليأس من روح الله».

قال سعيد بن جبير: سأل رجل ابن عباس عن الكبائر «أسبعٌ هن؟ قال: هن إلى السبعمائة أقرب، إلا أنه لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار» وقال: «كل شىء عُصى الله به فهو كبيرة. من عمل شيئاً منها فليستغفر الله. فإن الله لا يخلد فى النار من الأمة إلا من كان راجعاً عن الإسلام، أو جاحداً فريضة، أو مكذباً بالقدر».

وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه «مانهى الله عنه فى سورة النساء من أولها إلى قوله: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم﴾[1] فهو كبيرة وقال على بن أبى طلحة: هى كل ذنب ختمه الله بنار، أو غضب أو لعنة، أو عذاب.

وقالت فرقة: الصغائر ما دون الحدين، والكبائر: ما تعلق بها أحد الحدين.

ومرادهم بالحدين: عقوبة الدنيا والآخرة. فكل ذنب عليه عقوبة مشروعة محدودة فى الدنيا، كالزنا وشرب الخمر. والسرقة والقذف. أو عليه وعيد فى الآخرة، كأكل مال اليتيم، والشرب فى آنية الفضة والذهب، وقتل الإنسان نفسه، وخيانته أمانته، ونحو ذلك فهو من الكبائر. وصدق ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله «هى إلى السبعمائه أقرب منها إلى السبع»

(آراء فى الكبيرة)

وههنا أمر ينبغى التفطن له، وهو أن «الكبيرة» قد يقترن بها - من الحياء والخوف، والاستعظام لها - ما يلحقها بالصغائر. وقد يقترن بالصغيرة - من قلة الحياء، وعدم المبالاة، وترك الخوف، والاستهانة بها - ما يلحقها بالكبائر. بل يجعلها فى أعلى رتبها.

وهذا أمر مرجعه إلى ما يقوم بالقلب. وهو قدر زائد على مجرد الفعل. والإنسان يعرف ذلك من نفسه ومن غيره.

وأيضاً فإنه يُعفى للمحب، ولصاحب الإحسان العظيم، مالا يعفى لغيره ويسامح بما لا يسامح به غيره.

وسمعت شيخ الاسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: أنظر إلى موسى - صلوات الله وسلامه عليه - رمى الألواح التى فيها كلام الله الذى كتبه بيده فكسرها، وجر بلحية نبى مثله، وهو هارون. ولطم عين ملك الموت ففقأها، وعاتب ربه ليلة الإسراء فى محمد ﷺ ورفعه عليه، وربه تعالى يحتمل له ذلك كله، ويحبه ويكرمه. لأنه قام لله تلك

(1) سورة النساء الآية: ٣١.

المقامات العظيمة في مقابلة أعدى عدو له، وصدع بأمره، وعالج أمتى القبط وبنى إسرائيل أشد المعالجة. فكانت هذه الأمور كالشعرة في البحر

وانظر إلى يونس بن متى حيث لم يكن له هذه المقامات التى لموسى، غاضب ربه مرة فأخذه وسجنه في بطن الحوت. ولم يحتمل له ما احتمل لموسى. وفرق بين من إذا أتى بذنب واحد، ولم يكن له من الإحسان والمحاسن ما يشفع له، وبين من إذا أتى بذنب جاءت محاسنه بكل شفيع كما قيل:

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد ... جاءت محاسنه بألف شفيع

فالأعمال تشفع لصاحبها عند الله. وتذكر به إذا وقع في الشدائد. قال تعالى عن ذى النون: ﴿فلولا أنه كان من المسبحين. للبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾ [1]. وفرعون لما لم تكن له سابقة خير تشفع له وقال: ﴿آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل﴾ قال له جبريل: ﴿آلآن وقد عصيت قبل، وكنت من المفسدين؟﴾[2].

ولهذا من رجحت حسناته على سيئاته أفلح ولم يعذب، ووهبت له سيئاته لأجل حسناته. ولأجل هذا يغفر لصاحب التوحيد ما لا يغفر لصاحب الإشراك. لأنه قد قام به مما يحبه الله ما اقتضى أن يغفر له. ويسامحه مالا يسامح به المشرك. وكما كان توحيد العبد أعظم. كانت مغفرة الله له أتم. فمن لقيه لا يشرك به شيئاً ألبتة غفر له ذنوبه كلها، كائنة ما كانت. ولم يعذب بها.

ولسنا نقول: إنه لا يدخل النار أحد من أهل التوحيد. بل كثير منهم يدخل بذنوبه ويعذب على مقدار جرمه ثم يخرج منها. ولا تنافي بين الأمرين لمن أحاط علماً بما قدمناه.

ونزيد ههنا إيضاحاً لعظم هذا المقام من شدة الحاجة إليه

إعلم أن أشعة «لا إله إلا الله» تبدد من ضباب الذنوب وغيومها بقدر قوة ذلك الشعاع وضعفه. فلها نور. وتفاوت أهلها في ذلك النور - قوة، وضعفاً - لا يحصيه إلا الله تعالى

فمن الناس: من نور هذه الكلمة في قلبه كالشمس

ومنهم من نورها في قلبه كالكوكب الدرى

ومنهم من نورها في قلبه كالمشعل العظيم

---

(1) سورة الصافات الآية (١٤٣-١٤٤).

(2) سورة يونس الآية ٩٠.

وآخر: كالسراج المضيء. وآخر كالسراج الضعيف

ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم وبين أيديهم، على هذا المقدار، بحسب ما في قلوبهم من نور هذه الكلمة، علماً وعملاً، ومعرفة وحالاً.

وكلما عظم نور هذه الكلمة واشتد: أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته وشدته حتى إنه ربما وصل إلى حال لا يصادف معها شبهة ولا شهوة، ولا ذنباً، إلا أحرقه وهذا حال الصادق في توحيده. الذي لم يشرك بالله شيئاً. فأي ذنب أو شهوة أو شبهة دنت من هذا النور أحرقها. فسماء إيمانه قد حرست بالنجوم من كل سارق لحسناته فلا ينال منها السارق إلا على غرة وغفلة لابد منها للبشر فإذا استيقظ وعلم ما سرق منه استنقذه من سارقه. أو حصل أضعافه بكسبه. فهو هكذا أبداً مع لصوص الجن والإنس ليس كمن فتح لهم خزائنه، وولى الباب ظهره.

وليس التوحيد مجرد إقرار العبد بأنه لا خالق إلا الله، وأن الله رب كل شيء ومليكه. كما كان عباد الأصنام مقرين بذلك وهم مشركون. بل التوحيد يتضمن - من محبة الله، والخضوع له، والذل له، وكمال الانقياد لطاعته، وإخلاص العبادة له، وإرادة وجهه الأعلى بجميع الأقوال والأعمال، والمنع، والعطاء، والحب، والبغض -: ما يحول بين صاحبه وبين الأسباب الداعية إلى المعاصي، والإصرار عليها. ومن عرف هذا عرف قول النبي ﷺ: «إن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله»[1] وقوله: «لا يدخل النار من قال: لا إله إلا الله» وما جاء من هذا الضرب من الأحاديث التي «أشكلت على كثير من الناس، حتى ظنها بعضهم منسوخة. وظنها بعضهم قيلت قبل ورود الأوامر والنواهي، واستقرار الشرع. وحملها بعضهم على نار المشركين والكفار وأول بعضهم الدخول بالخلود. وقال: المعنى لا يدخلها خالداً. ونحو ذلك من التأويلات المستكرهة

والشارع - صلوات الله وسلامه عليه - لم يجعل ذلك حاصلاً بمجرد قول اللسان فقط. فإن هذا خلاف المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام. فإن المنافقين يقولونها بألسنتهم. وهم تحت الجاحدين لها في الدرك الأسفل من النار. فلا بد من قول القلب، وقول اللسان وقول القلب يتضمن من معرفتها، والتصديق بها، ومعرفة حقيقة ما تضمنته - من النفي والإثبات، ومعرفة حقيقة الإلهية المنفية عن غير الله، المختصة به، التي يستحيل ثبوتها لغيره، وقيام هذا المعنى بالقلب: علماً ومعرفة ويقيناً، وحالا -: ما يوجب تحريم قائلها

---

(١) رواه البخاري (٤٢٥) ومسلم (١٤٦٨) وابن خزيمة ١٦٥٣ وأحمد (٤/٤٤) والنسائي (٢/ ٨٠) وابن ماجه (٧٥٤).

على النار. وكل قوت رتب الشارع ما رتب عليه من الثواب، فإنما هو القول التام. كقوله ﷺ: «من قال فى يوم سبحان الله وبحمده مائه مرة، حطت عنه خطاياه - أو غفرت ذنوبه - ولو كانت مثل زبد البحر» (١) وليس هذا مرتباً على مجرد قول اللسان.

نعم من قالها بلسانه، غافلاً عن معناها، معرضاً عن تدبرها، ولم يواطىء قلبه لسانه. ولا عرف قدرها وحقيقتها. راجياً مع ذلك ثوابها. حطت من خطاياه بحسب ما فى قلبه. فإن الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها. وإنما تتفاضل بتفاضل ما فى القلوب. فتكون صورة العملين واحدة. وبينهما فى التفاضل كما بين السماء والأرض. والرجلان يكون مقامهما فى الصف واحداً، وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض.

وتأمل حديث البطاقة التى توضع فى كفة، ويقابلها تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل منها مد البصر، فتثقل البطاقة وتطيش السجلات، فلا يعذب.

ومعلوم أن كل موحد له مثل هذه البطاقة. وكثير منهم يدخل النار بذنوبه. ولكن السر الذى ثقل بطاقة ذلك الرجل، وطاشت لأجله السجلات: لما لم يحصل لغيره من أرباب البطاقات، انفردت بطاقته بالثقل والرزانة.

وإذا أردت زيادة الإيضاح لهذا المعنى. فانظر إلى ذكر من قلبه ملآن بمحبتك، وذكر من هو معرض عنك غافلٍ ساهٍ، مشغول بغيرك، قد انجذبت دواعى قلبه إلى محبة غيرك، وإيثاره عليك. هل يكون ذكرهما واحداً؟ أم هل يكون ولداك اللذان هما بهذه المثابة، أو عبداك، أو زوجتاك، عندك سواء؟.

وتأمل ما قام بقلب قاتل المائة من حقائق الإيمان التى لم تشغله عند السياق عن السير إلى القرية. وحملته - وهو فى تلك الحال - على أن جعل ينوء بصدره. ويعالج سكرات الموت. فهذا أمر آخر، وإيمان آخر. ولا جرم أن ألحق بالقرية الصالحة. وجعل من أهلها.

وقريب من هذا ما قام بقلب البغى التى رأت ذلك الكلب - وقد اشتد به العطش يأكل الثرى - فقام بقلبها ذلك الوقت - مع عدم الآلة، وعدم المعين وعدم من ترائيه بعملها - ما حملها على أن غررت بنفسها فى نزول البئر، وملء الماء فى خفها، ولم تعبأ بتعرضها للتلف، وحملها خفها بفيها. وهو ملآن، حتى أمكنها الرقى من البئر، ثم تواضعها لهذا المخلوق الذى جرت عادة الناس بضربه، فأمسكت له الخف بيدها حتى شرب. من غير أن ترجو منه جزاءاً ولا شكوراً. فأحرقت أنوار هذا القدر من التوحيد ما تقدم منها من البغاء، فغفر لها.

---

(١) رواه البخارى (٦٤٠٣) ومسلم (٦٧١٦) وأحمد (٢/٣٠٢، ٣٧٥) والترمذى (٣٤٦٨) وابن ماجه (٣٧٩٨)

فهكذا الأعمال والعمال عند الله. والغافل فى غفلة من هذا الإكسير الكيماوى، الذى إذا وضع منه مثقال ذرة على قناطير من نحاس الأعمال قلبها ذهباً. والله المستعان.

(المحبة والتسامح)

فإن قيل قد ذكرتم. أن المحب يسامح بما لا يسامح به غيره. ويعفى للولى عما لا يعفى لسواه. وكذلك العالم أيضاً، ويغفر له ما لا يغفر للجاهل.

فهذا الذى ذكرتم صحيح. وهو مقتضى الحكمة والجود والإحسان، ولكن ماذا تصنعون بالعقوبة المضاعفة التى ورد التهديد بها فى حق أولئك إن وقع منهم ما يكره؟ كقوله تعالى: ﴿يا نساء النبى،من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً * إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات. ثم لا تجد لك علينا نصيراً﴾[2] أى لولا تثبيتنا لك لقد كدت تركن إليهم بعض الشيء. ولولا فعلت لأذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات. أى ضاعفنا لك العذاب فى الدنيا والآخرة. وقال تعالى: ﴿ولوتقول علينا بعض الأقاويل. لأخذنا منه باليمين. ثم لقطعنا منه الوتين﴾ [3] أى لو أتى بشيء من عند نفسه لأخذنا منه بيمينه. وقطعنا نياط قلبه وأهلكناه. وقد أعاذه الله من الركون إلى أعدائه بذرة من قلبه. ومن التقول عليه سبحانه. وكم من راكن إلى أعدائه ومتقول عليه من قبل نفسه قد أمهله ولم يعبأ به. كأرباب البدع كلهم، المتقولين على أسمائه وصفاته ودينه.

وما ذكرتم فى قصة يونس: هو من هذا الباب. فإنه لم يسامح بغضبة. وسجن لأجلها فى بطن الحوت. ويكفى حال أبى البشر حيث لم يسامح بلقمة. وكانت سبب إخراجه من الجنة.

فالجواب: أن هذا أيضاً حق. ولا تنافى بين الأمرين. فإن من كملت عليه نعمة الله، واختصه منها بما لم يختص به غيره: فى إعطائه منها ما حرمه غيره. فحبى بالإنعام، وخص بالإكرام. وخص بمزيد التقريب . وجعل فى منزلة الولى الحبيب، اقتضت حاله من حفظ مرتبة الولاية والقرب والاختصاص: بأن يراعى مرتبته من أدنى مشوش وقاطع. فلشدة الاعتناء به، ومزيد تقريبه، واتخاذه لنفسه، واصطفائه على غيره. تكون حقوق وليه وسيده عليه أتم. ونعمه عليه أكمل. والمطلوب منه فوق المطلوب من غيره. فهو إذا غفل وأخَلَّ بمقتضى مرتبته نُبِّه بما لم يُنَبَّه عليه البعيد البرانى، مع كونه يسامح بما لم يسامح به ذلك أيضاً. فيجتمع فى حقه الأمران.

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٣٠ . (٢) سورة الإسراء الآية (٧٤-٧٥) (٣) سورة الحاقة الآية (٤٤-٤٦)

وإذا أردت معرفة اجتماعهما، وعدم تناقضهما، فالواقع شاهد به. فإن الملك يسامح خاصته وأولياءه بما لم يسامح به من ليس فى منزلتهم، ويأخذهم. ويؤدبهم بما لم يأخذ به غيرهم. وقد ذكرنا شواهد هذا وهذا. ولا تناقض بين الأمرين

وأنت إذا كان لك عبدان، أو ولدان، أو زوجتان. أحدهما: أحب إليك من الآخر، وأقرب إلى قلبك، وأعز عليك: عاملته بهذين الأمرين. واجتمع فى حقه المعاملتان بحسب قربه منك، وحبك له، وعزته عليك. فإذا نظرت إلى كمال إحسانك إليه، وإتمام نعمتك عليه: اقتضت معاملته بما لا تعامل به من دونه، من التنبيه وعدم الإهمال. وإذا نظرت إلى إحسانه ومحبته لك، وطاعته وخدمته، وكمال عبوديته ونصحه: وهبت له وسامحته وعفوت عنه، بما لا تفعله مع غيره. فالمعاملتان بحسب ما منك وما منه.

وقد ظهر اعتبار هذا المعنى فى الشرع، حيث جعل حَدَّ من أنعم عليه بالتزوج إذا تعداه إلى الزنا: الرجم، وحد من لم يعطه هذه النعمة الجلد. وكذلك ضاعف الحد على الحر الذى قد ملكه نفسه. وأتم عليه نعمته. ولم يجعله مملوكاً لغيره. وجعل حد العبد المنقوص بالرق، الذى لم يحصل له هذه النعمة: نصف ذلك.

فسبحان من بهرت حكمته فى خلقه وأمره وجزائه عقول العالمين، وشهدت بأنه أحكم الحاكمين.

لله سر تحت كل لطيفة فأخو البصائر غائص يتملق

فصل

فى أجناس ما يتاب منه

ولا يستحق العبد أسم «التائب» حتى يتخلص منها

وهى اثنا عشر جنساً مذكورة فى كتاب الله عز وجل. هى أجناس المحرمات: الكفر، والشرك، والنفاق، والفسوق، والعصيان، والإثم، والعدوان، والفحشاء، والمنكر، والبغى، والقول على الله بلا علم، واتباع غير سبيل المؤمنين.

فهذه الإثنا عشر جنساً عليها مدار كل ما حرم الله وإليها انتهاء العالم بأسرهم إلا أتباع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم. وقد يكون فى الرجل أكثرها وأقلها، أو واحدة منها. وقد يعلم ذلك. وقد لا يعلم.

فالتوبة النصوح: هى بالتخلص منها، والتحصن والتحرز من مواقعتها. وإنما يمكن التخلص منها لمن عرفها.

ونحن نذكرها، ونذكر ما اجتمعت فيه وما افترقت. لتتبين حدودها وحقائقها. والله الموفق لما وراء ذلك، كما وفق له. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وهذا الفصل من أنفع فصول الكتاب. والعبد أحوج شيء إليه.

*****

فأما «الكفر» فنوعان: كفر أكبر، وكفر أصغر.

فالكفر الأكبر: هو الموجب للخلود في النار.

والأصغر: موجب لاستحقاق الوعيد دون الخلود. كما في قوله تعالى – كان مما يتلى فنسخ لفظه – «لا ترغبوا عن آبائكم. فإنه كفر بكم»[1] وقوله ﷺ في الحديث «اثنتان في أمتي، هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة» [2]وقوله في السنن «من أتى إمرأة في دبرها فقد كفر بما أنزل على محمد» [3] وفي الحديث الآخر «من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقه بما يقول. فقد كفر بما أنزل الله على محمد»[4] وقوله: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» [5] وهذا تأويل ابن عباس وعامة الصحابة في قوله تعالى: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ [6] قال ابن عباس: «ليس بكفر ينقل عن الملة. بل إذا فعله فهو به كفر. وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر» وكذلك قال طاووس. وقال عطاء «هو كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق».

ومنهم: من تأول الآية على ترك الحكم بما أنزل الله جاحداً له. وهو قول عكرمة. وهو تأويل مرجوح. فإن نفس جحوده كفر، سواء حكم أو لم يحكم.

ومنهم: من تأولها على ترك الحكم بجميع ما أنزل الله. قال: ويدخل في ذلك الحكم بالتوحيد والإسلام. وهذا تأويل عبد العزيز الكناني. وهو أيضاً بعيد. إذ الوعيد على نفي الحكم بالمنزل. وهو يتناول تعطيل الحكم بجميعه وببعضه.

ومنهم: من تأولها على الحكم بمخالفة النص، وتعمداً من غير جهل به ولا خطأ في التأويل. حكاه لبغوي عن العلماء عموماً.

---

(١) رواه البخاري (٦٧٦٨) ومسلم (٢١٤) وأحمد (٢/٥٢٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه

(٢) رواه مسلم كتاب الإيمان (٢٢٣) وأحمد (٢/٤٩٦) والبيهقي(٤/ ٦٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) صحيح . رواه أبو داود (٣٩٠٤) والترمذي (١٣٥) وابن ماجه (٦٣٩) وأحمد (٢/ ٨ ٤و ٤٧٦)

(٤) صحيح رواه أحمد٢: ٤٢٩ وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٤٦) والحاكم (١/ ٨) والبيهقي (٨/ ١٣٥) وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي

(٥) رواه البخاري (١٢١) ومسلم كتاب الإيمان (٢١٩) وأحمد (٤/ ٣٥٨ و ٣٦٣ و ٣٦٦) والنسائي (٧/ ١٢٧) وابن ماجه (٣٩٤٢) عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

(٦) سورة المائدة الآية ٤٤

ومنهم: من تأولها على أهل الكتاب. وهو قول قتادة والضحاك وغيرهما. وهو بعيد، وهو خلاف ظاهر اللفظ فلا يصار إليه.

ومنهم: من جعله كفراً ينقل عن الملة.

والصحيح: أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكفرين، الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم. فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في هذه الواقعة، وعدل عنه عصياناً، مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة. فهذا كفر أصغر. وإن اعتقد أنه غير واجب، وأنه مخير فيه. مع تيقن أنه حكم الله. فهذا كفر أكبر. وإن جهله وأخطأه. فهذا مخطىء، له حكم المخطئين.

والمقصد: أن المعاصي كلها من نوع الكفر الأصغر. فإنها ضد الشكر، الذي هو العمل بالطاعة. فالسعي: إما شكر، وإما كفر، وإما ثالث. لا من هذا ولا من هذا. والله أعلم.

(الكفر الأكبر)

وأما الكفر الأكبر، فخمسة أنواع: كفر تكذيب، وكفر استكبار وإباء مع التصديق. وكفر إعراض. وكفر شك. وكفر نفاق.

فأما كفر التكذيب: فهو اعتقاد كذب الرسل. وهذا القسم قليل في الكفار. فإن الله تعالى أيد رسله، وأعطاهم من البراهين والآيات على صدقهم ما أقام به الحجة. وأزال به المعذرة. قال الله تعالى عن فرعون وقومه: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾(1) وقال لرسوله ﷺ: ﴿فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾(2).

وإن سمي هذا كفر تكذيب أيضاً فصحيح. إذ هو تكذيب باللسان.

وأما كفر الإباء والاستكبار فنحو كفر إبليس. فإنه لم يجحد أمر الله ولا قابله بالإنكار. وإنما تلقاه بالإباء والاستكبار. ومن هذا كفر من عرف صدق الرسول. وأنه جاء بالحق من عند الله، ولم ينقد له إباءاً واستكباراً. وهو الغالب على كفر أعداء الرسل، كما حكى الله تعالى عن فرعون وقومه. ﴿أنؤمن لبشرين مثلنا، وقومهما لنا عابدون؟﴾(3) وقول الأمم لرسلهم: ﴿إن أنتم إلا بشر مثلنا﴾(4) وقوله: ﴿كذبت ثمود بطغواها﴾(5) وهو كفر اليهود كما قال تعالى ﴿فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾(6) وقال: ﴿يعرفونه

---

(1) سورة النمل الآية ١٤ .
(2) سورة الأنعام الآية ٣٣ .
(3) سورة المؤمنون الآية ٤٧ .
(4) سورة إبراهيم الآية ١٠ .
(5) سورة الشمس الآية ١١ .
(6) سورة البقرة الآية ٨٩ .

كما يعرفون أبناءهم﴾[1] وهو كفر أبي طالب أيضاً. فإنه صدقه ولم يشك في صدقه. ولكن أخذته الحمية، وتعظيم آبائه أن يرغب عن ملتهم، ويشهد عليهم بالكفر.

وأما كفر الإعراض: فأن يعرض بسمعه وقلبه عن الرسول، لا يصدقه ولا يكذبه. ولا يواليه ولا يعاديه. ولا يصغى إلى ما جاء به ألبتة، كما قال أحد بنى عبد ياليل للنبى ﷺ: «والله أقول لك كلمة إن كنت صادقاً، فأنت أجل فى عينى من أن أرد عليك. وإن كنت كاذباً، فأنت أحقر من أن أكلمك»[2].

وأما كفر الشك: فإنه لا يجزم بصدقه ولا يكذبه، بل يشك فى أمره. وهذا لا يستمر شكه إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عن النظر فى آيات صدق الرسول ﷺ جملة. فلا يسمعها ولا يلتفت إليها. وأما مع التفاته إليها، ونظره فيها: فإنه لا يبقى معه شك. لأنها مستلزمة للصدق. ولا سيما بمجموعها. فإن دلالتها على الصدق كدلالة الشمس على النهار.

وأما كفر النفاق: فهو أن يظهر بلسانه الإيمان، وينطوى بقلبه على التكذيب. فهذا هو النفاق الأكبر. وسيأتى بيان أقسامه إن شاء الله تعالى.

(كفر الجحود)

وكفر الجحود نوعان: كفر مطلق عام، وكفر مقيد خاص.

فالمطلق: أن يجحد جملة ما أنزله الله، وإرساله الرسول.

والخاص المقيد: أن يجحد فرضاً من فروض الإسلام، أو تحريم محرم من محرماته، أو صفة وصف الله بها نفسه، أوخبراً أخبر الله به. عمداً، أو تقديماً لقول من خالفه عليه لغرض من الأغراض.

وأما جحد ذلك جهلاً، أو تأويلاً يعذر فيه صاحبه: فلا يكفر صاحبه به، كحديث الذى جحد قدرة الله عليه. وأمر أهله أن يحرقوه ويذروه فى الريح[3]. ومع هذا فقد غفر الله له، ورحمه لجهله. إذ كان ذلك الذى فعله مبلغ علمه. ولم يجحد قدرة الله على إعادته عناداً أو تكذيباً.

---

(١) سورة البقرة الآية ١٤٦ .

(٢) مرسل . رواه البيهقى فى «دلائل النبوة» (٢/ ٤١٥)

(٣) عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ «كان رجل يسرف على نفسه ، فلما حضره الموت قال لبنيه: إذا أنا مت فاحرقونى ثم اطحنونى ثم ذرونى فى الريح فو الله لئن قدر الله على ليعذبنى عذاباً ما عذبه أحداً فلما مات فُعل به ذلك، فأمر الله الأرض فقال: اجمعى مافيك منه ففعلت، فإذا هو قائم فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: يارب خشيتك. فغفر له» رواه البخارى (٣٤٨١) كتاب أحاديث الأنبياء.

وأما الشرك، فهو نوعان: أكبر وأصغر. فالأكبر: لا يغفره الله إلا بالتوبة منه. وهو أن يتخذ من دون الله نداً، يحبه كما يحب الله. وهو الشرك الذى تضمن تسوية آلهة المشركين برب العالمين. ولهذا قالوا لآلهتهم فى النار: ﴿تالله إن كنا لفى ضلال مبين * إذ نسويكم برب العالمين﴾[1] مع إقرارهم بأن الله وحده خالق كل شىء، وربه ومليكه، وأن آلهتهم لا تخلق ولا ترزق، ولا تحيى ولا تميت. وإنما كانت هذه التسوية فى المحبة والتعظيم والعبادة كما هو حال أكثر مشركى العالم، بل كلهم. يحبون معبوداتهم ويعظمونها ويوالونها من دون الله. وكثير منهم - بل أكثرهم - يحبون آلهتهم أعظم من محبة الله. ويستبشرون بذكرهم أعظم من استبشارهم إذا ذكر الله وحده. و يغضبون لمنتقص معبوديهم و آلهتهم - من المشايخ - أعظم مما يغضبون إذا إنتقص أحد رب العالمين. و إذا انتهكت حرمة من حرمات آلهتهم و معبوداتهم غضبوا غضب الليث. إذا حرد. و إذا انتهكت حرمات الله لم يغضبوا لها، بل إذا قام المنتهك لها بإطعامهم شيئاً رضوا عنه. و لم تتنكر له قلوبهم. و قد شاهدنا هذا نحن و غيرنا منهم جهرة: وترى أحدهم قد اتخذ ذكر إلهه و معبوده من دون الله على لسانه ديدناً له إن قام و إن قعد. و إن عثر و إن مرض و إن استوحش. فذكر إلهه و معبوده من دون الله هو الغالب على قلبه و لسانه. و هو لا ينكر ذلك. و يزعم أنه باب حاجته إلى الله، و شفيعه عنده. ووسيلته إليه.

و هكذا كان عباد الأصنام سواء. و هذا القدر هو الذى قام بقلوبهم، و توارثه المشركون بحسب اختلاف آلهتهم. فأولئك كانت آلهتهم من الحجر [2] و غيرهم اتخذوها من البشر. قال الله تعالى، حاكياً عن أسلاف هؤلاء المشركين: ﴿و الذين اتخذوا من دونه أولياء: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى. إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون﴾[2] ثم شهد عليهم بالكفر و الكذب. و أخبر أنه لا يهديهم فقال: ﴿إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار﴾ [3].

فهذه حال من اتخذ من دون الله ولياً يزعم أنه يقربه إلى الله. وما أعز من يخلص من هذا؟ بل ما أعز من لا يعادى من أنكره!

والذى فى قلوب هؤلاء المشركين و سلفهم. أن آلهتهم تشفع لهم عند الله. وهذا عين الشرك. و قد أنكر الله عليهم ذلك فى كتابه و أبطله. و أخبر أن الشفاعة كلها له، و أنه لا يشفع عنده أحد إلا لمن أذن الله أن يشفع فيه. ورضى قوله و عمله. و هم أهل

---

(١) سورة الشعراء الآية (٩٧-٩٨)

(٢،٣) سورة الزمر الآية ٣ .

التوحيد، الذين لم يتخذوا من دون الله شفعاء. فإنه سبحانه يأذن لمن شاء في الشفاعة لهم، حيث لم يتخذهم شفعاء من دونه. فيكون أسعد الناس بشفاعة من يأذن الله له: صاحب التوحيد الذى لم يتخذ شفيعاً من دون الله ربه و مولاه.

و «الشفاعة» التى أثبتها الله و رسوله: هى الشفاعة الصادرة عن إذنه لمن وحده. والتى نفاها الله. هى الشفاعة الشركية، التى فى قلوب المشركين، المتخذين من دون الله شفعاء. فيعاملون بنقيض قصدهم من شفعائهم. و يفوز بها الموحدون.

و تأمل قول النبىﷺ لأبى هريرة - و قد سأله: «من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله؟» - قال: «أسعد الناس بشفاعتى: من قال لا إله إلا الله، خالصاً من قلبه»[1] كيف جعل أعظم الأسباب التى تنال بها شفاعته: تجريد التوحيد، عكس ما عند المشركين: أن الشفاعة تنال باتخاذهم أولياءه شفعاء، وعبادتهم وموالاتهم من دون الله. فقلب النبى ﷺ ما فى زعمهم الكاذب، وأخبر أن سبب الشفاعة: هو تجريد التوحيد. فحينئذ يأذن الله للشافع أن يشفع.

(جهل المشرك بربه)

ومن جهل المشرك: اعتقاده أن من اتخذه ولياً أو شفيعاً: أنه يشفع له، وينفعه عند الله. كما يكون خواص الملوك والولاة تنفع شفاعته من والاهم ولم يعلموا أن الله لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، ولا يأذن فى الشفاعة إلا لمن رضى قوله وعمله. كما قال تعالى فى الفصل الأول: ﴿من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه؟﴾ [2] وفى الفصل الثانى: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ [3] وبقى فصل ثالث، وهو أنه لا يرضى من القول والعمل إلا التوحيد، واتباع الرسول. وعن هاتين الكلمتين يسأل الأولين والآخرين. كما قال أبو العالية: «كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟».

فهذه ثلاثة أصول. تقطع شجرة الشرك من قلب من وعاها وعقلها: لا شفاعة إلا بإذنه. ولا يأذن إلا لمن رضى قوله وعمله ولا يرضى من القول والعمل إلا توحيده، واتباع رسوله. فالله تعالى: لا يغفر شرك العادلين به غيره، كما قال تعالى: ﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ [4] وأصح القولين: أنهم يعدلون به غيره فى العبادة والموالاة والمحبة، كما فى الآية الأخرى: ﴿تالله إن كنا لفى ضلال مبين * إذ نسويكم برب العالمين﴾[5] وكما فى

---

(١) رواه البخارى (٩٠) كتاب العلم، باب الحرص على الحديث واحمد (٢/ ٣٧٣) عن أبى هريرة رضى الله عنه

(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٥ (٣) سورة الأنبياء الآية ٢٨

(٤) سورة الأنعام الآية ١ (٥) سورة الشعراء الآية (٩٧-٩٨)

آية البقرة: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله﴾[1]. وترى المشرك يكذب حاله وعمله قوله، فإنه يقول: لا نحبهم كحب الله، ولا نسويهم بالله. ثم يغضب لهم ولحرماتهم - إذا انتهكت - أعظم مما يغضب لله، ويستبشر بذكرهم، ويتبشبش به سيما إذا ذكر عنهم ما ليس فيهم: من إغاثة اللهفات، وكشف الكربات، وقضاء الحاجات، وأنهم الباب بين الله وبين عباده. فإنك ترى المشرك يفرح ويسر ويحن قلبه، وتهيج منه لواعج التعظيم والخضوع لهم والموالاة، وإذا ذكرت له الله وحده، وجردت توحيده لحقته وحشه، وضيق، وحرج [2] ورماك بنقص الإلاهية التى له. وربما عاداك.

رأينا والله منهم هذا عياناً، ورمونا بعداوتهم. وبغوا لنا الغوائل. والله مخزيهم فى الدنيا والآخرة. ولم تكن حجتهم إلا أن قالوا، كما قال إخوانهم: عاب آلهتنا، فقال هؤلاء: تنقصتم مشايخنا، وأبواب حوائجنا إلى الله وهكذا قال النصارى للنبى ﷺ، لما قال لهم: «إن المسيح عبد الله» قالوا: تنقصت المسيح وعبته. وهكذا قال أشباه المشركين لمن منع اتخاذ القبور أوثاناً تعبد، ومساجد تقصد، وأمر بزيارتها على الوجه الذى أذن الله فيه ورسوله، قالوا: تنقصت أصحابها.

فانظر إلى هذا التشابه بين قلوبهم، حتى كأنهم قد تواصوا به و﴿من يهدى الله فهو المهتد. ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً﴾ [3].

وقد قطع الله تعالى كل الأسباب التى تعلق بها المشركون جميعاً، قطعاً يعلم من تأمله وعرفه: أن من اتخذ من دون الله ولياً، أو شفيعاً. فهو ﴿كمثل العنكبوت إتخذت بيتاً. وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت﴾[4] فقال تعالى: ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله. لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض، وما لهم فيهما من شرك، وماله منهم من ظهير. ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾[5]

فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يعتقد أنه يحصل له به من النفع. والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع. إما مالك لما يريده عابده منه. فإن لم يكن مالكاً كان شريكاً للمالك. فإن لم يكن شريكاً له كان معيناً له وظهيراً، فإن لم يكن معيناً ولا ظهيراً كان شفيعاً عنده.

---

(١) سورة البقرة الآية ١٦٥

(٢) قال الله تعالى ٣٩ ٤٥ (وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون) .

(٣) سورة الكهف الآية ١٧ . (٤) سورة العنكبوت الآية ٤١ . (٥) سورة سبأ الآية (٢٢-٢٣) .

فنفى سبحانه المراتب الأربع نفياً مترتباً، متنقلاً من الأعلى إلى ما دونه، فنفى الملك، والشركة، والمظاهرة، والشفاعة، التى يظنها المشرك. وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك، وهى الشفاعة بإذنه.

فكفى بهذه الآية نوراً، وبرهاناً ونجاة.، وتجريداً للتوحيد، وقطعاً لأصول الشرك ومواده لمن عقلها. والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها. ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته، وتضمنه له. ويظنونه فى نوع وفى قوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثاً. وهذا هو الذى يحول بين القلب وبين فهم القرآن.

ولعمر الله إن كان أولئك قد خلوا، فقد ورثهم من هو مثلهم، أو شر منهم، أو دونهم. وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك. ولكن الأمر كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه «إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة، إذا نشأ فى الإسلام من لا يعرف الجاهلية».

وهذا لأنه إذا لم يعرف الجاهلية والشرك، وما عابه القرآن وذمه: وقع فيه وأقره، ودعا إليه وصوبه وحسنه. وهو لا يعرف: أنه هو الذى كان عليه أهل الجاهلية، أو نظيره. أو شر منه، أو دونه. فينقض بذلك عرى الإسلام عن قلبه. ويعود المعروف منكراً والمنكر معروفاً والبدعة سنة، والسنة بدعة. ويكفر الرجل بمحض الإيمان وتجريد التوحيد. ويبدع بتجريد متابعة الرسول ﷺ ومفارقة الأهواء والبدع. ومن له بصيرة وقلب حى يرى ذلك عياناً، والله المستعان.

(الشرك الأصغر)

وأما الشرك الأصغر: فكيسير الرياء، والتصنع للخلق، والحلف بغير الله، كما ثبت عن النبى ﷺ أنه قال: «من حلف بغير الله فقد أشرك»[1] وقول الرجل للرجل «ما شاء الله وشئت» و«هذا من الله ومنك» و«أنا بالله وبك» ومالى «إلا الله وأنت» و«أنا متوكل على الله وعليك» و«لولا أنت لم يكن كذا وكذا» وقد يكون هذا شركاً أكبر، بحسب قائله ومقصده. وصح عن النبى ﷺ أنه قال لرجل قال له: «ما شاء الله وشئت أجعلتنى لله نداً؟ قل. ما شاء الله وحده» [2] وهذا اللفظ أخف من غيره من الألفاظ.

---

(١) صحيح . رواه أحمد(١/ ٤٧) الترمذى (١٥٣٥) وأبو داود (٣٢٥١) وابن حبان (١١٧٧- موارد) والحاكم (١/ ١٨، ٤/ ٢٩٧) وصححه ووافقه الذهبى

(٢) حسن . رواه أحمد (١/ ٢١٤، ٢٢٤، ٢٨٣، ٣٤٧) والبخارى فى «الأدب المفرد» (٧٨٣) والنسائى فى «عمل اليوم والليلة » (٩٩٥) وابن ماجه (٢١١٧) والبيهقى (٣/ ٢١٧) والطحاوى فى «مشكل الآثار» (١/ ٩٠).

ومن أنواع الشرك: سجود المريد للشيخ. فإنه شرك من الساجد والمسجود له. والعجب: أنهم يقولون: ليس هذا سجود، وإنما هو وضع الرأس قدام الشيخ احتراماً وتواضعاً. فيقال لهؤلاء: ولو سميتموه ما سميتموه. فحقيقة السجود: وضع الرأس لمن يسجد له. وكذلك السجود للصنم، وللشمس، والنجم، وللحجر، كله وضع الرأس قدامه.

ومن أنواعه: ركوع المتعممين بعضهم لبعض عند الملاقاة. وهذا سجود فى اللغة. وبه فسر قوله تعالى ﴿ادخلوا الباب سجداً﴾[1] أى منحنين، وإلا فلا يمكن الدخول بالجبهة على الأرض. ومنه قول العرب: سجدت الأشجار، إذا أمالتها الريح.

ومن أنواعه: حلق الرأس للشيخ. فإنه تعبد لغير الله، ولا يتعبد بحلق الرأس إلا فى النسك لله خاصة.

ومن أنواعه: التوبة للشيخ. فإنها شرك عظيم. فإن التوبة لا تكون إلا لله كالصلاة، والصيام، والحج، والنسك. فهى خالص حق الله.

وفى المسند: أن رسول الله ﷺ: «أتى بأسير. فقال: اللهم إنى أتوب إليك. ولا أتوب إلى محمد. فقال رسول الله ﷺ: عرف الحق لأهله»[2].

فالتوبة عبادة لا تنبغى إلا لله. كالسجود والصيام.

ومن أنواعه: النذر لغير الله. فإنه شرك. وهو أعظم من الحلف بغير الله فإذا كان «من حلف بغير الله فقد أشرك» فكيف بمن نذر لغير الله؟ مع أن فى السنن من حديث عقبة بن عامر عنه ﷺ «النذر حلفة»[3]

ومن أنواعه. الخوف من غير الله، والتوكل على غير الله، والعمل لغير الله، والإنابة والخضوع، والذل لغير الله. وابتغاء الرزق من عند غيره، وحمد غيره على ما أعطى. والغنية بذلك عن حمده سبحانه، والذم والسخط على ما لم يقسمه، ولم يجر به القدر، وإضافة نعمه إلى غيره، واعتقاد أن يكون فى الكون ما لا يشاؤه.

---

(١) سورة البقرة الآية ٥٨ .

(٢) ضعيف، رواه أحمد (٣/ ٤١٥) والطبرانى فى الكبير (٨٣٩و ٨٤٠) والحاكم (٤/ ٢٥٥) وصححه وتعقبه الذهبى بقوله (ابن مصعب ضعيف). وضعفه الهيثمى فى «المجمع» (١٠/ ١٩٩).

(٣) لم أقف عليه بهذا اللفظ. وقد روى مسلم (١٦٤٥) وأبو داود (٣٣٢٣) والترمذى (١٥٢٨) والنسائى (٧/ ٢٦) وابن ماجه (٢١٢٧) عن عقبة بن عامر أن النبى ﷺ قال: «كفارة النذر كفارة اليمين»

ومن أنواعه: طلب الحوائج من الموتى، والاستغاثة بهم، والتوجه إليهم.

وهذا أصل شرك العالم. فإن الميت قد انقطع عمله. وهو لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، فضلاً عمن استغاث به، وسأله قضاء حاجته، أو سأله أن يشفع له إلى الله فيها وهذا من جهله بالشافع والمشفوع له عنده، كما تقدم. فإنه لا يقدر أن يشفع له عند الله إلا بإذنه. والله لم يجعل استغاثته وسؤاله سبباً لإذنه. وإنما السبب لإذنه: كمال التوحيد فجاء هذا المشرك بسبب يمنع الإذن. وهو بمنزلة من استعان فى حاجة بما يمنع حصولها. وهذه حالة كل مشرك. والميت محتاج إلى من يدعو له، ويترحم عليه، ويستغفر له، كما أوصانا النبى ﷺ، إذا زرنا قبور المسلمين «أن نترحم عليهم. ونسأل لهم العافية والمغفرة»[1] فعكس المشركون هذا. وزاروهم زيارة العبادة. واستقضاء الحوائج، والاستغاثة بهم. وجعلوا قبورهم أوثاناً تعبد. وسموا قصدها حجاً. واتخذوا عندها الوقفة وحلق الرأس. فجمعوا بين الشرك بالمعبود الحق، وتغيير دينه، ومعاداة أهل التوحيد، ونسبة أهله إلى التنقص للأموات. وهم قد تنقصوا الخالق بالشرك، وأولياءه - الموحدين له، الذين لم يشركوا به شيئاً - بذمهم وعيبهم ومعاداتهم. وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص. إذ ظنوا أنهم راضون منهم بهذا. وأنهم أمروهم به. وأنهم يوالونهم عليه. وهؤلاء هم أعداء الرسل والتوحيد فى كل زمان ومكان. وما أكثر المستجيبين لهم! ولله درّ خليله إبراهيم عليه السلام حيث يقول: ﴿واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام * رب إنهن أضللن كثيراً من الناس﴾ [2].

وما نجا من شرك هذا الشرك الاكبر إلا من جرد توحيده لله. وعادى المشركين فى الله. وتقرب بمقتهم إلى الله. واتخذ الله وحده وليه وإلهه ومعبوده. فجرد حبه لله، وخوفه لله، ورجاءه لله، وذله لله، وتوكله على الله، واستعانته بالله، والتجاءه إلى الله، واستغاثته بالله. وأخلص قصده لله، متبعاً لأمره، متطلباً لمرضاته. إذا سأل سأل الله. وإذا استعان استعان بالله، وإذا عمل عمل لله. فهو لله وبالله. ومع الله.

والشرك أنواع كثيرة لا يحصيها إلا الله ولو ذهبنا نذكر أنواعه لا تسع الكلام أعظم اتساع، ولعل الله أن يساعد بوضع كتاب فيه، وفى أقسامه، وأسبابه ومباديه، ومضرته، وما يندفع به.

فإن العبد إذا نجا منه ومن التعطيل - وهما الداءان اللذان هلكت بهما الأمم - فما بعدهما أيسر منهما. وإن هلك بهما فبسبيل من هلك. ولا آسى على الهالكين.

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها أنها سألت النبى ﷺ كيف تقول عند زياتها القبور، فقال لها النبى ﷺ: «قولى السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون» رواه مسلم (٩٧٤) وأحمد (٦/ ٢٢١) والنسائى (٢/ ٩٣).

(٢) سورة إبراهيم الآية (٣٥-٣٦) .

وأما النفاق: فالداء العضال الباطن، الذى يكون الرجل ممتلئاً منه، وهو لا يشعر. فانه أمر خفى على الناس. وكثيراً ما يخفى على من تلبس به. فيزعم أنه مصلح وهو مفسد.

وهو نوعان: أكبر، وأصغر

فالأكبر: يوجب الخلود فى النار فى دركها الأسفل. وهو أن يظهر للمسلمين إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وهو فى الباطن منسلخ من ذلك كله مكذب به لا يؤمن بأن الله تكلم بكلام أنزله على بشر جعله رسولاً للناس يهديهم بإذنه. وينذرهم بأسه، ويخوفهم عقابه.

وقد هتك الله سبحانه أستار المنافقين. وكشف أسرارهم فى القرآن. وجلى لعباده أمورهم. ليكونوا منها ومن أهلها على حذر. وذكر طوائف العالم الثلاثة فى أول سورة البقرة: المؤمنين، والكفار، والمنافقين. فذكر فى المؤمنين أربع آيات. وفى الكفار آيتين. وفى المنافقين ثلاث عشرة آية. لكثرتهم وعموم الابتلاء بهم. وشدة فتنتهم على الإسلام وأهله. فإن بلية الإسلام بهم شديدة جداً. لأنهم منسوبون إليه، وإلى نصرته وموالاته، وهم أعداؤه فى الحقيقة. يخرجون عداوته فى كل قالب يظن الجاهل أنه علم وإصلاح. وهو غاية الجهل والإفساد.

فلله كم من معقل للإسلام قد هدموه! وكم من حصن له قد قلعوا أساسه وخربوه! وكم من علم له قد طمسوه! وكم من لواء له مرفوع قد وضعوه! وكم ضربوا بمعاول الشُّبه فى أصول غراسه ليقلعوها! وكم عموا عيون موارده بآرائهم ليدفنوها ويقطعوها!..

فلا يزال الإسلام وأهله منهم فى محنة وبلية. ولا يزال يطرقه من شبههم سرية بعد سرية ويزعمون أنهم بذلك مصلحون ﴿ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾[1] ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾[2].

اتفقوا على مفارقة الوحى. فهم على ترك الاهتداء به مجتمعون ﴿وتقطعوا أمرهم بينهم زبراً. كل حزب بما لديهم فرحون﴾[3]* ﴿يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾[4] ولأجل ذلك ﴿اتخذوا هذا القرآن مهجوراً﴾[5]. درست معالم الإيمان فى قلوبهم فليسوا يعرفونها. ودثرت معاهده عندهم فليسوا يعمرونها، وأفلت كواكبه النيرة من

---

(١) سورة البقرة الآية ١٢ .
(٢) سورة الصف الآية ٨ .
(٣) سورة المؤمنون الآية ٥٣ .
(٤) سورة الأنعام الآية ١١٢ .
(٥) سورة الفرقان الآية ٣٠ .

قلوبهم فليسوا يحيونها. وكسفت شمسه عند اجتماع ظلم آرائهم وأفكارهم فليسوا يبصرونها. ثم يقبلوا هدى الله الذى أرسل به رسوله. ولم يرفعوا به رأساً. ولم يروا بالإعراض عنه إلى آرائهم وأفكارهم بأساً. خلعوا نصوص الوحى عن سلطنة الحقيقة وعزلوها عن ولاية اليقين. وشنوا عليها غارات التأويلات الباطلة. فلا يزال يخرج عليها منهم كمين بعد كمين. نزلت عليهم نزول الضيف على أقوام لئام. فقابلوها بغير ما ينبغى لها من القبول والإكرام. وتلقوها من بعيد، ولكن بالدفع فى الصدور منها والأعجاز. وقالوا: مالك عندنا من عبور - وإن كان لابد - فعلى سبيل الاجتياز. أعدوا لدفعها أصناف العدد وضروب القوانين، وقالوا - لما حلت بساحتهم -: مالنا ولظواهر لفظية لا تفيدنا شيئاً من اليقين. وعوامهم قالوا: حسبنا ما وجدنا عليه خلفنا من المتأخرين. فإنهم أعلم بها من السلف الماضين، وأقوم بطرائق الحجج والبراهين. وأولئك غلبت عليهم السذاجة وسلامة الصدور. ولم يتفرغوا لتمهيد قواعد النظر، ولكن صرفوا هممهم إلى فعل المأمور وترك المحظور. فطريقة المتأخرين: أعلم وأحكم. وطريقة السلف الماضين: أجهل، لكنها أسلم.

أنزلوا نصوص السنة والقرآن، منزلة الخليفة فى هذا الزمان، أسمه على السكة وفى الخطبة فوق المنابر مرفوع. والحكم النافذ لغيره. فحكمه غير مقبول ولا مسموع.

لبسوا ثياب أهل الإيمان، على قلوب أهل الزيغ والخسران، والغل والكفران. فالظواهر ظواهل الأنصار. والبواطن قد تحيزت إلى الكفار. فألسنتهم ألسنة المسالمين. وقلوبهم قلوب المحاربين. ويقولون ﴿آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾[1].

رأس مالهم الخديعة والمكر. وبضاعتهم الكذب والختر. وعندهم العقل المعيشى أن الفريقين عنهم راضون. وهم بينهم آمنون ﴿يخادعون الله والذين آمنوا. وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾ [2].

قد نهكت أمراض الشبهات والشهوات قلوبهم فأهلكتها. وغلبت القصود السيئة على إراداتهم ونياتهم فأفسدتها. ففسادهم قد ترامى إلى الهلاك، فعجز عنه الأطباء العارفون ﴿فى قلوبهم مرض. فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾[3].

من علقت مخالب شكوكهم بأديم إيمانه مزقته كل تمزيق. ومن تعلق شرر فتنتهم بقلبه ألقاه فى عذاب الحريق. ومن دخلت شبهات تلبيسهم فى مسامعه حال بين قلبه وبين التصديق. ففسادهم فى الأرض كثير. وأكثر الناس عنه غافلون ﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا

---

(١) سورة البقرة الآية ٨ .
(٢) سورة البقرة الآية ٩ .
(٣) سورة البقرة الآية ١٠ .

فى الأرض قالوا: إنما نحن مصلحون * ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾[1].

المتمسك عندهم بالكتاب والسنة صاحب ظواهر، مبخوس حظه من المعقول. والدائر مع النصوص عندهم كحمار يحمل أسفاراً فهمه فى حمل المنقول. وبضاعة تاجر الوحى لديهم كاسدة، وما هو عندهم بمقبول. وأهل الاتباع عندهم سفهاء فهم فى خلواتهم ومجالسهم بهم يتطيرون ﴿وإذا قيل لهم: آمنوا كما آمن الناس. قالوا: أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون﴾[2]

لكل منهم وجهان. وجه يلقى به المؤمنين، ووجه ينقلب به إلى إخوانه من الملحدين. وله لسانان: أحدهما يقبله بظاهره المسلمون.، والآخر يترجم به عن سره المكنون ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا. وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم، إنما نحن مستهزئون﴾[3]

قد أعرضوا عن الكتاب والسنة استهزاء بأهلهما واستحقاراً. وأبوا أن ينقادوا لحكم الوحيين فرحاً بما عندهم من العلم الذى لا ينفع الاستكثار منه إلا أشراً واستكباراً. فتراهم أبداً بالمتمسكين بصريح الوحى يستهزئون ﴿الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون﴾[4].

خرجوا فى طلب التجارة البائرة فى بحار الظلمات. فركبوا مراكب الشبه والشكوك تجرى بهم فى موج الخيالات. فلعبت بسفنهم الريح العاصف. فألقتها بين سفن الهالكين ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى. فما ربحت تجارتهم، وما كانوا مهتدين﴾[5].

أضاءت لهم نار الإيمان فأبصروا فى ضوئها مواقع الهدى والضلال. ثم طفىء ذلك النور، وبقيت ناراً تأجج ذات لهب واشتعال. فهم بتلك النار معذبون. وفى تلك الظلمات يعمهون ﴿مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً. فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم، وتركهم فى ظلمات لا يبصرون﴾[6].

أسماع قلوبهم قد أثقلها الوقر. فهى لا تسمع منادى الإيمان. وعيون بصائرهم عليها غشاوة العمى. فهى لا تبصر حقائق القرآن. وألسنتهم بها خرس عن الحق فهم به لا ينطقون ﴿صم بكم عمى فهم لا يرجعون﴾[7].

صاب عليهم صيّب الوحى، وفيه حياة القلوب والأرواح. فلم يسمعوا منه إلا رعد التهديد والوعيد والتكاليف التى وُظفت عليهم فى المساء والصباح. فجعلوا أصابعهم فى

(١) سورة البقرة الآية (١١-١٢) .
(٢) سورة البقرة الآية ١٣ .
(٣) سورة البقرة الآية ١٤
(٤) سورة البقرة الآية ١٥
(٥) سورة البقرة الآية ١٧ .
(٦) سورة البقرة الآية ١٨ .
(٧) سورة البقرة الآية ١٦ .

آذانهم، واستغشوا ثيابهم. وجدوا فى الهرب. والطلب فى آثارهم والصياح. فنودى عليهم على رؤوس الأشهاد. وكشفت حالهم للمستبصرين، وضرب لهم مثلان بحسب حال الطائفتين منهم: المناظرين، والمقلدين. فقيل ﴿أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق. يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت. والله محيط بالكافرين﴾[1]

ضعفت أبصار بصائرهم عن احتمال ما فى الصيب من بروق أنواره وضياء معانيه وعجزت أسماعهم عن تلقى رعود وعوده وأوامره ونواهيه. فقاموا عند ذلك حيارى فى أودية التيه. لا ينتفع بسمعه السامع. ولا يهتدى ببصره البصير. ﴿كلما أضاء لهم مشوا فيه. وإذا أظلم عليهم قاموا. ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم. إن الله على كل شىء قدير﴾[2].

لهم علامات يُعرفون بها مُبيِّنَة فى السنة والقرآن. بادية لمن تدبَّرها من أهل بصائر الإيمان. قام بهم - والله - الرياء. وهو أقبح مقام قامه الإنسان. وقعد بهم الكسل عما أمروا به من أوامر الرحمن. فأصبح الإخلاص عليهم لذلك ثقيلا ﴿وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى. يراءون الناس. ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾[3].

أحدهم كالشاة العائرة بين الغَنَمين، تَيْعر إلى هذه مرة وإلى هذه مرة. ولا تستقر مع إحدى الفئتين. فهم واقفون بين الجمعين. ينظرون أيهم أقوى وأعز قبيلاً ﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء، ولا إلى هؤلاء. ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً﴾[4].

يتربصون الدوائر بأهل السنة والقرآن. فإن كان لهم فتح من الله، قالوا: ألم نكن معكم؟ وأقسموا على ذلك بالله جهد أيمانهم. وإن كان لأعداء الكتاب والسنة من النصرة نصيب، قالوا: ألم تعلموا أن عقد الإخاء بيننا مُحكَم. وأن النسب بيننا قريب؟ فيا من يريد معرفتهم، خذ صفاتهم من كلام رب العالمين. فلا تحتاج بعده دليلاً ﴿الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله، قالوا: ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب، قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾[5]

يُعْجِبُ السامع قول أحدهم لحلاوته ولينه ويشهد الله على ما فى قلبه من كذبه ومينه[6]. فتراه عند الحق نائماً. وفى الباطل على الأقدام. فخذ وصفهم من قول القدوس

(1) سورة البقرة الآية ١٩ .
(2) سورة البقرة الآية ٢٠ .
(3) سورة النساء الآية ١٤٢ .
(4) سورة النساء الآية ١٤٣ .
(5) سورة النساء الآية ١٤١ .
(6) مينه. أى كذبه الواضح.

السلام ﴿ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه. وهو الخصام﴾(١).

أوامرهم التى يأمرون بها أتباعهم متضمنة لفساد البلاد والعباد. ونواهيهم عما فيه صلاحهم فى المعاش والمعاد. وأحدهم تلقاه بين جماعة أهل الإيمان فى الصلاة والذكر والزهد والاجتهاد ﴿وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيهاويهلك الحرث والنسل. والله لا يحب الفساد﴾(٢).

فهم جنس بعضه يشبه بعضاً. يأمرون بالمنكر بعد أن يفعلوه. وينهون عن المعروف بعد أن يتركوه. ويبخلون بالمال فى سبيل الله ومرضاته أن ينفقوه. كم ذكرهم الله بنعمه فأعرضوا عن ذكره ونسوه؟ وكم كشف حالهم لعباده المؤمنين ليجتنبوه؟ فاسمعوا أيها المؤمنون ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر . وينهون عن المعروف. ويقبضون أيديهم، نسوا الله فنسيهم. إن المنافقين هم الفاسقون﴾(٣).

إن حاكمتهم إلى صريح الوحى وجدتهم عنه نافرين. وإن دعوتهم إلى حكم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ رأيتهم عنه معرضين. فلو شاهدت حقائقهم لرأيت بينها وبين الهدى أمداً بعيداً. ورأيتها معرضة عن الوحى إعراضاً شديداً ﴿وإذا قيل لهم: تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول، رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً﴾ .(٤)

فكيف لهم بالفلاح والهدى! بعد ما أصيبوا فى عقولهم وأديانهم؟ وأنى لهم التخلص من الضلال والردى! وقد اشتروا الكفر بإيمانهم؟ فما أخسر تجارتهم البائرة! وقد استبدلوا بالرحيق المختوم حريقاً ﴿فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم. ثم جاءوك يحلفون بالله: إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً﴾(٥)

نشب زقوم الشبه والشكوك فى قلوبهم، فلا يجدون له مسيغاً ﴿أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم. فأعرض عنهم وعظهم، وقل لهم فى أنفسهم قولاً بليغاً﴾(٦).

تباً لهم، ما أبعدهم عن حقيقة الإيمان! وما أكذب دعواهم للتحقيق والعرفان. فالقوم فى شأن وأتباع الرسول فى شأن. لقد أقسم الله جل جلاله فى كتابه بنفسه المقدسة قسماً عظيماً، يعرف مضمونه أولو البصائر فقلوبهم منه على حذر إجلالاً له وتعظيماً. فقال تعالى تحذيراً لأوليائه وتنبيهاً على حال هؤلاء وتفهيماً ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم. ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت. ويسلموا

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٠٤ .
(٢) سورة البقرة الآية ٢٠٥ .
(٣) سورة التوبة الآية ٦٧ .
(٤) سورة النساء الآية ٦١ .
(٥) سورة النساء الآية ٦٢
(٦) سورة النساء الآية ٦٣

تسليما﴾(١).

تسبق يمين أحدهم كلامه من غير أن يعترض عليه. لعلمه أن قلوب أهل الإيمان لا تطمئن إليه. فيتبرأ بيمينه من سوء الظن به وكشف ما لديه. وكذلك أهل الريبة يكذبون ويحلفون ليحسب السامع أنهم صادقون، قد ﴿اتخذوا أيمانهم جنة. فصدوا عن سبيل الله. إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾(٢).

تباً لهم! برزوا إلى البيداء مع ركب الإيمان. فلما رأوا طول الطريق وبعد الشُّقة نكصوا على أعقابهم ورجعوا، وظنوا أنهم يتمتعون بطيب العيش ولذة المنام فى ديارهم. فما مُتّعوا به ولا بتلك الهجعة انتفعوا. فما هو إلا أن صاح بهم الصائح فقاموا عن موائد أطعمتهم والقوم جياع ما شبعوا. فكيف حالهم عند اللقاء؟ وقد عرفوا ثم أنكروا. وعَمُوا بعد ما عاينوا الحق وأبصروا ﴿ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا. فطبع على قلوبهم. فهم لا يفقهون﴾(٣)

أحسن الناس أجساماً، وأخلبهم لساناً. وألطفهم بياناً. وأخبثهم قلوباً. وأضعفهم جناناً. فهم كالخشب المسندة التى لا ثمر لها. قد قلعت من مغارسها فتساندت إلى حائط يقيمها، لئلا يطأها السالكون ﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم. وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة. يحسبون كل صيحة عليهم. هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله. أنى يؤفكون﴾(٤).

يؤخرون الصلاة عن وقتها الأول إلى شرق الموتى (٥) فالصبح عند طلوع الشمس والعصر عند الغروب. وينقرونها نقر الغراب. إذ هى صلاة الأبدان، لا صلاة القلوب ويلتفتون فيها التفات الثعلب، إذ يتيقن أنه مطرود مطلوب ولا يشهدون الجماعة، بل إن صلى أحدهم ففى البيت أو الدكان. وإذا خاصم فجر. وإذا عاهد غدر. وإذا حدث كذب وإذا وعد أخلف. وإذا ائتمن خان. هذه معاملتهم للخلق. وتلك معاملتهم للخالق. فخذ وصفهم من أول المطففين، وآخر ﴿والسماء والطارق﴾ فلا ينبئك عن أوصافهم مثل خبير: ﴿ يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم. ومأواهم جهنم وبئس

---

(١) سورة النساء الآية ٦٥ .

(٢) سورة المنافقون الآية ٢ .

(٣) سورة المنافقون الآية ٣

(٤) سورة المنافقون الآية ٤ .

(٥) قال فى القاموس شرقت الشمس : ضعف ضوءها ، أو دنت للغروب . وأضافه ﷺ إلى الموتى فقال « يؤخرون الصلاة إلى شرق الموتى » لأن ضوءها عند ذلك الوقت ساقط على المقابر، أو أراد : أنهم يصلونها ولم يبق من النهار إلا بقدر ما يبقى من نفس المحتضر إذا شرق بريقه. اهـ

المصير﴾(١) فما أكثرهم! وهم الأقلون. وما أجبرهم! وهم الأذلون. وما أجهلهم! وهم المتعالمون. وما أغرهم بالله! إذ هم بعظمته جاهلون **﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم. وما هم منكم. ولكنهم قوم يفرقون﴾**(٢).

إن أصاب أهل الكتاب والسنة عافية ونصر وظهور ساءهم ذلك وغمهم. وإن أصابهم ابتلاء من الله وامتحان يمحص به ذنوبهم، ويكفر به عنهم سيئاتهم أفرحهم ذلك وسرهم. وهذا يحقق إرثهم وإرث من عداهم، ولا يستوى من موروثه الرسول ومن موروثهم المنافقون **﴿إن تصبك حسنة تسؤهم. وإن تصبك مصيبة يقولوا: قد أخذنا أمرنا من قبل. ويتولوا وهم فرحون * قل: لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا. هو مولانا. وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾** (٣) وقال تعالى فى شأن السَّلَفين المختلفين، والحق لا يندفع بمكابرة أهل الزيغ والتخليط: **﴿إن تمسسكم حسنة تسؤهم. وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها. وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً، إن الله بما يعملون محيط﴾**(٤)

كره الله طاعتهم، لخبث قلوبهم وفساد نياتهم، فثبطهم عنها وأقعدهم. وأبغض قربهم منه وجواره، لميلهم إلى أعدائه. فطردهم عنه وأبعدهم. وأعرضوا عن وحيه فأعرض عنهم. وأشقاهم وما أسعدهم. وحكم عليهم بحكم عدل لا مطمع لهم فى الفلاح بعده، إلا أن يكونوا من التائبين فقال تعالى: **﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم. فثبطهم. وقيل اقعدوا مع القاعدين﴾**(٥) ثم ذكر حكمته فى تثبيطهم وإقعادهم، وطردهم عن بابه وإبعادهم، وإن ذلك من لطفه بأوليائه وإسعادهم. فقال وهو أحكم الحاكمين **﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً. ولأوضعوا خلالكم. يبغونكم الفتنة. وفيكم سمَّاعون لهم. والله عليم بالظالمين﴾**(٦). ثقلت عليهم النصوص فكرهوها. وأعياهم حملها فألقوها عن أكتافهم ووضعوها. وتفلَّتت منهم السنن أن يحفظوها فأهملوها. وصالت عليهم نصوص الكتاب والسنة فوضعوا لها قوانين ردوها بها ودفعوها. ولقد هتك الله أستارهم وكشف أسرارهم، وضرب لعباده أمثالهم. واعلم أنه لما انقرض منهم طوائف خلفهم أمثالهم. فذكر أوصافهم. لأوليائه ليكونوا منها على حذر. وبينها لهم. فقال: **﴿ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم﴾**(٧)

هذا شأن من ثقلت عليه النصوص، فرآها حائلة بينه وبين بدعته وهواه. فهى فى وجهه كالبنيان المرصوص. فباعها بمحصل من الكـــلام الباطـــل. واستبدل منها

(١) سورة التوبة الآية ٧٣ .
(٢) سورة التوبة الآية ٥٦
(٣) سورة التوبة الآية (٥٠-٥١) .
(٤) سورة آل عمران الآية ١٢٠
(٥) سورة التوبة الآية ٤٦ .
(٦) سورة التوبة الآية ٤٧ .
(٧) سورة محمد الآية ٩ .

بالفصوص (١) فأعقبهم ذلك أن أفسد عليهم إعلانهم وإسرارهم **﴿ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم فى بعض الأمر. والله يعلم إسرارهم. فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله، وكرهوا رضوانه. فأحبط أعمالهم﴾**(٢)

أسروا سرائر النفاق. فأظهرها الله على صفحات الوجوه منهم. وفلتات اللسان ووسمهم لأجلها بسيماء لا يخفون بها على أهل البصائر والإيمان. وظنوا أنهم إذ كتموا كفرهم وأظهروا إيمانهم راجوا على الصيارف والنقاد. كيف؟ والناقد البصير قد كشفها لكم **﴿أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ولو نشاء لأريناكهم.فلعرفتهم بسيماهم * ولتعرفنهم فى لحن القول. والله يعلم أعمالكم﴾**(٣).

فكيف إذا جمعوا ليوم التلاق، وتجلى الله - جل جلاله - للعباد وقد كشف عن ساق؟ ودعوا إلى السجود فلا يستطيعون **﴿خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة. وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون﴾**(٤).

أم كيف بهم إذا حشروا إلى جسر جهنم؟ وهو أدق من الشعرة، وأحد من الحسام. وهو دحض مزلة، مظلم لا يقطعه أحد إلا بنور يبصر به مواطىء الأقدام. فقسمت بين الناس الأنوار. وهم على قدر تفاوتها فى المرور والذهاب. وأعطوا نوراً ظاهراً مع أهل الإسلام. كما كانوا بينهم فى هذه الدار يأتون بالصلاة والزكاة والحج والصيام. فلما توسطوا الجسر عصفت على أنوارهم أهوية النفاق. فأطفأت ما بأيدهم من المصابيح. فوقفوا حيارى لا يستطيعون المرور. فضرب بينهم وبين أهل الإيمان بسور له باب. ولكن قد حيل بين القوم وبين المفاتيح، باطنه - الذى يلى المؤمنين - فيه الرحمة، وما يليهم من قبلهم العذاب والنقمة. ينادون من تقدمهم من وفد الإيمان، ومشاعل الركب تلوح على بعد كالنجوم. تبدو لناظر الإنسان **﴿انظرونا نقتبس من نوركم﴾**(٥) لنتمكن فى هذا المضيق من العبور. فقد طفئت أنوارنا. ولا جواز اليوم إلا بمصباح من النور **﴿قيل: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً﴾**(٦) حيث قسمت الأنوار. فهيهات الوقوف لأحد فى مثل هذا المضمار كيف نلتمس الوقوف فى هذا المضيق؟ فهل يلوى اليوم أحد على أحد فى هذا الطريق؟

---

(١) هو كتاب « الفصوص » لابن عربى الاتحادى الذى قرر فيه أن الأنبياء كلهم ضلال جاهلون ، وأن فرعون كان أعرف بالحق وأهدى إليه من موسى ، وعلل حب الرسول ﷺ للنساء بما تقشعر منه الأبدان ، ولا يستطيع المسلم أن يحكيه لتناهيه فى الشناعة والوقاحة فى الكفر . فهو مع حبيبه فرعون . قد برىء من الأنبياء والمرسلين . والعجب ممن يعتذر له عن مقالاته الشنيعة (قاله الفقى).

(٢) سورة محمد الآية (٢٦ و٢٨) . (٣) سورة محمد الآية (٢٩- ٣)

(٤) سورة القلم الآية ٤٣ (٥) سورة الحديد الآية ١٣ (٦) سورة الحديد الآية ١٣

وهل يلتفت اليوم رفيق إلى رفيق؟ فذكروهم باجتماعهم معهم وصحبتهم لهم فى هذه الدار. كما يذكر الغريب صاحب الوطن بصحبته له فى الأسفار (ألم نكن معكم) نصوم كما تصومون، ونصلى كما تصلون. ونقرأ كما تقرءون. ونتصدق كما تصدقون. ونحج كما تحجون؟ فما الذى فرق بيننا اليوم، حتى انفردتم دوننا بالمرور؟ (قالوا: بلى) ولكنكم كانت ظواهركم معنا وبواطنكم مع كل ملحد وكل ظلوم كفور ﴿ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم، وغرتكم الأمانى. حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور * فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا. مأواكم النار هى مولاكم. وبئس المصير﴾(١).

لا تستطل أوصاف القوم. فالمتروك - والله - أكثر من المذكور. كاد القرآن أن يكون كله فى شأنهم، لكثرتهم على ظهر الأرض وفى أجواف القبور فلا خلت بقاع الأرض منهم لئلا يستوحش المؤمنون فى الطرقات. وتتعطل بهم أسباب المعايش، وتخطفهم الوحوش والسباع فى الفلوات سمع حذيفة رضى الله عنه رجلاً يقول: اللهم، أهلك المنافقين. فقال «يا ابن أخى، لو هلك المنافقون لاستوحشتم فى طرقاتكم من قلة السالك».

(خوف المؤمنين الصادقين)

تالله لقد قطّع خوف النفاق قلوب السابقين الأولين. لعلمهم بدقه وجلّه وتفاصيله وجمله. ساءت ظنونهم بنفوسهم حتى خشوا أن يكونوا من جملة المنافقين. قال عمر بن الخطاب لحذيفة رضى الله عنهما «يا حذيفة، نشدتك بالله، هل سمّانى لك رسول الله ﷺ منهم؟ قال: لا. ولا أزكى بعدك أحداً» وقال ابن أبى مُليكة «أدركت ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول: إن إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل» ذكره البخارى. وذكر عن الحسن البصرى «ما أمنه إلا منافق. وما خافه إلا مؤمن» ولقد ذكر عن بعض الصحابة: أنه كان يقول فى دعائه «اللهم إنى أعوذ بك من خشوع النفاق. قيل: وما خشوع النفاق؟ قال: أن يرى البدن خاشعاً والقلب ليس بخاشع»

تالله لقد مُلئت قلوب القوم إيماناً ويقيناً، وخوفهم من النفاق شديد. وهمهم لذلك ثقيل، وسواهم كثير منهم لا يجاوز إيمانهم حناجرهم. وهم يدّعون أن إيمانهم كإيمان جبريل وميكائيل.

زرع النفاق ينبت على ساقيتين: ساقية الكذب، وساقية الرياء. ومخرجهما من عينين. عين ضعف البصيرة، وعين ضعف العزيمة. فإذا تمت هذه الأركان الأربع. استحكم نبات النفاق وبنيانه. ولكنه بمدارج السيول على شفا جرف هار. فإذا شاهدوا سيل الحقائق يوم

(١) سورة الحديد الآية (١٤-١٥) .

تبلى السرائر، وكشف المستور، وبعثر ما فى القبور، وحصل ما فى الصدور. تبين حينئذ لمن كانت بضاعته النفاق: أن حواصله التى حصلها كانت كالسراب ﴿يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً. ووجد الله عنده فوفاه حسابه، والله سريع الحساب﴾(١).

قلوبهم عن الخيرات لاهية. وأجسادهم إليها ساعية. والفاحشة فى فجاجهم فاشية. وإذا سمعوا الحق كانت قلوبهم عن سماعه قاسية. وإذا حضروا الباطل وشهدوا الزور انفتحت أبصار قلوبهم، وكانت آذانهم واعية.

فهذه - والله - أمارات النفاق. فاحذرها أيها الرجل قبل أن تنزل بك القاضية. إذا عاهدوا لم يفوا. وإن وعدوا أخلفوا. وإن قالوا لم ينصفوا. وإن دعوا إلى الطاعة وقفوا. وإذا قيل لهم: تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول صدفوا. وإذا دعتهم أهواؤهم إلى أغراضهم أسرعوا إليها وانصرفوا. فذرهم وما اختاروا لأنفسهم من الهوان، والخزى والخسران. فلا تثق بعهودهم. ولا تطمئن إلى وعودهم. فإنهم فيها كاذبون. وهم لما سواها مخالفون ﴿ومنهم من عاهد الله: لئن آتانا من فضله، لنصدقن ولنكونن من الصالحين. فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون. فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون﴾(٢).

(الفسوق)

وأما الفسوق: فهو فى كتاب الله نوعان: مفرد مطلق. ومقرون بالعصيان.

والمفرد نوعان أيضاً: فسوق كفر، يخرج عن الإسلام. وفسوق لا يخرج عن الإسلام. فالمقرون كقوله تعالى: ﴿ولكن الله حبب إليكم الإيمان، وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان، أولئك هم الراشدون﴾(٣).

والمفرد - الذى هو فسوق كفر - كقوله تعالى: ﴿يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً. وما يضل به إلا الفاسقين. الذين ينقضون عهد الله - الآية﴾ (٤) وقوله عز وجل: ﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾(٥) وقوله ﴿وأما الذين فسقوا فمأواهم النار. كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها - الآية﴾ (٦) فهذا كله فسوق كفر.

وأما الفسوق، الذى لا يُخرج عن الإسلام فكقوله تعالى ﴿وإن تفعلوا فإنه فسوق

---

(١) سورة النور الآية ٣٩
(٢) سورة التوبة الآية (٧٥-٧٧).
(٣) سورة الحجرات الآية ٧
(٤) سورة البقرة الآية (٢٦-٢٧).
(٥) سورة البقرة الآية ٩٩.
(٦) سورة السجدة الآية ٢٠.

بكم - الآية﴾[1] وقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ﴾ الآية [2] فإن هذه الآية نزلت فى الوليد بن عقبة بن أبى معيط لما بعثه رسول الله ﷺ إلى بنى المصطلق بعد الوقعة مصدقاً. وكان بينه وبينهم عداوة فى الجاهلية. فلما سمع القوم بمقدمة تلقوه، تعظيماً لأمر رسول الله ﷺ. فحدثه الشيطان: أنهم يريدون قتله فهابهم فرجع من الطريق إلى رسول الله ﷺ فقال: إن بنى المصطلق منعوا صدقاتهم وأرادوا قتلى فغضب رسول الله ﷺ. وهم أن يغزوهم. فبلغ القوم رجوعه فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، سمعنا برسولك، فخرجنا نتلقاه ونكرمه. ونؤدى إليه ما قبلنا من حق الله، فبدا له فى الرجوع. فخشينا أنه إنما رده من الطريق كتاب جاء منك لغضب غضبته علينا. وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله. فاتهمهم رسول الله ﷺ وبعث خالد بن الوليد خفية فى عسكر. وأمره أن يخفى عليهم قدومه. وقال له: أنظر فإن رأيت منهم ما يدل على إيمانهم فخذ منهم زكاة أموالهم، وإن لم تر ذلك فاستعمل فيهم ما تستعمل فى الكفار. ففعلُ ذلك خالد. ووافاهم. فسمع منهم أذان صلاتى المغرب والعشاء، فأخذ منهم صدقاتهم. ولم ير منهم إلا الطاعة والخير. فرجع إلى رسول الله ﷺ وأخبره الخبر. فنزل ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا الآية﴾[3]

و«النبأ» هو الخبر الغائب عن المخبر إذا كان له شأن. و«التبين» طلب بيان حقيقته والإحاطة بها علماً.

وههنا فائدة لطيفة. وهى أنه سبحانه لم يأمر برد خبر الفاسق وتكذيبه ورد شهادته جملة. وإنما أمر بالتبين. فإن قامت قرائن وأدلة من خارج تدل على صدقه عمل بدليل الصدق. ولو أخبر به من أخبر. فهكذا ينبغى الاعتماد فى رواية الفاسق وشهادته. وكثير من الفاسقين يصدقون فى أخبارهم ورواياتهم وشهادتهم، بل كثير منهم يتحرى الصدق غاية التحرى، وفسقه من جهات أخر. فمثل هذا لا يرد خبره ولا شهادته. ولو ردت شهادة مثل هذا وروايته لتعطلت أكثر الحقوق. وبطل كثير من الأخبار الصحيحة ولا سيما من فسقه من جهة الاعتقادوالرأى وهو متحرٍ للصدق. فهذا لا يرد خبره ولا شهادته

وأما من فسقه من جهة الكذب فإن كثر منه وتكرر، بحيث يغلب كذبه على صدقه، فهذا لا يقبل خبره ولا شهادته وإن ندر منه مرة ومرتين ففى رد شهادته وخبره بذلك

---

(1) سورة البقرة الآية ٨٢ (2) سوره الحجرات الاية ٦

(3) مرسل رواه الطبرى فى «تفسيره» (٢٦/ ١٢٤) وقد رواه أحمد (٤/ ٢٧٩) مرفوعاً بسند صحيح بقريب من اللفظ الذى ذكره المصنف. وقال الهيثمى فى «المجمع» (٧/ ١٠٩) رواه أحمد والطبرانى .. ورجال أحمد ثقات

قولان للعلماء. وهما روايتان عن الإمام أحمد رحمه الله.

والمقصود: ذكر الفسوق الذى لا يخرج إلى الكفر.

والفسوق الذى تجب التوبة منه أعم من الفسوق الذى ترد به الرواية والشهادة.

وكلامنا الآن فيما تجب التوبة منه. وهو قسمان: فسق من جهة العمل. وفسق من جهة الاعتقاد.

ففسق العمل نوعان: مقرون بالعصيان ومفرد.

فالمقرون بالعصيان: هو ارتكاب ما نهى الله عنه. والعصيان: هو عصيان أمره. كما قال الله تعالى: ﴿لا يعصون الله ما أمرهم﴾ (١) وقال موسى لأخيه هارون عليهما السلام: ﴿ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن أفعصيت أمرى؟﴾ (٢) وقال الشاعر:

أمرتك أمراً جازماً. فعصيتنى فأصبحت مسلوب الإمارة نادماً

فالفسق أخص بارتكاب النهى، ولهذا يطلق عليه كثيراً. كقوله تعالى: ﴿وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم﴾ (٣) والمعصية أخص بمخالفة الأمر كما تقدم. ويطلق كل منهما على صاحبه. كقوله تعالى: ﴿إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾ (٤) فسمى مخالفته للأمر فسقاً. وقال: ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾(٥) فسمى ارتكابه للنهى معصية. فهذا عند الإفراد. فإذا اقترنا كان أحدهما لمخالفة الأمر، والآخر لمخالفة النهى.

و«التقوى» اتقاء مجموع الأمرين. وبتحقيقها تصح التوبة من الفسوق والعصيان، بأن يعمل العبد بطاعة الله على نور من الله، يرجو ثواب الله. ويترك معصية الله، على نور من الله. يخاف عقاب الله.

وفسق الاعتقاد: كفسق أهل البدع الذين يؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر ويحرمون ما حرم الله. ويوجبون ما أوجب الله. ولكن ينفون كثيراً مما أثبت الله ورسوله، جهلاً وتأويلاً، وتقليداً للشيوخ. ويثبتون ما لم يثبته الله ورسوله كذلك.

وهؤلاء كالخوارج المارقة، وكثير من الروافض، والقدرية، والمعتزلة، وكثير من الجهمية الذين ليسوا غلاة فى التجهم.

وأما غالية الجهمية. فكغلاة الرافضة. ليس للطائفتين فى الإسلام نصيب. ولذلك أخرجهم جماعة من السلف من الثنتين والسبعين فرقة، وقالوا: هم مباينون للملة.

---

(١) سورة التحريم الآية ٦ . (٢) سورة طه الآية ٩٢ - ٩٣ .
(٣) سورة البقرة الآية ٢٨٢ . (٤) سورة الكهف الآية ٥٠
(٥) سورة طه الآية ١٢١

وليس مقصودنا الكلام فى أحكام هؤلاء . وإنما المقصود . تحقيق «التوبة» . من هذه الأجناس العشرة

فالتوبة من هذا الفسوق : بإثبات ما أثبته الله لنفسه ورسوله ، من غير تشبيه ولا تمثيل ، وتنزيهه عما نزه نفسه عنه ونزهه عنه رسوله ، من غير تحريف ولا تعطيل . وتلقى النفى والإثبات من مشكاة الواحى . لا من آراء الرجال ونتائج أفكارهم التى هى منشأ البدعة والضلالة

(شروط توبة الفاسق)

فتوبة هؤلاء الفساق من جهة الاعتقادات الفاسدة : بمحض اتباع السنة ولا يكتفى منهم بذلك أيضاً حتى يبينوا فساد ما كانوا عليه من البدعة . إذ التوبة من ذنب هى بفعل ضده . ولهذا شرط الله تعالى فى توبة الكاتمين ما أنزل الله من البينات والهدى : البيان . لأن ذنبهم لما كان بالكتمان ، كانت توبتهم منه بالبيان . قال الله تعالى . ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب ، أولئك يلعنهم الله . ويلعنهم اللاعنون ، إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا . فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم﴾ (١) وذنب المبتدع فوق ذنب الكاتم . لأن ذاك كتم الحق . وهذا كتمه ودعا إلى خلافه . فكل مبتدع كاتم ولا ينعكس.

و شرط فى توبة المنافق : الإخلاص . لأن ذنبه بالرياء . فقال تعالى :﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار -ثم قال - إلا الذين تابوا و أصلحوا و اعتصموا بالله و أخلصوا دينهم لله . فأولئك مع المؤمنين ، و سوف يؤتى الله المؤمنين أجراً عظيماً﴾ (٢) ، و لذلك كان الصحيح من القولين : أن توبة القاذف : إكذابه نفسه . لأنه ضد الذنب الذى ارتكبه، و هتك به عرض المسلم المحصن . فلا تحصل التوبة منه إلا بإكذابه نفسه ، لينتفى عن المقذوف العار الذى لحقه به بالقذف . و هو مقصود التوبة

(الإثم والعدوان)

وأما «الإثم والعدوان» فهما قرينان قال الله تعالى. ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾(٣) وكل منهما إذا أفرد تضمن الآخر. فكل إثم عدوان. إذ هو فعل ما نهى الله عنه، أو ترك ما أمر الله به فهو عدوان على أمره ونهيه، وكل عدوان إثم. فإنه يأثم به صاحبه ولكن عند اقترانهما فهما شيئان بحسب متعلقهما ووصفهما.

---

(١) سورة البقرة الآية (١٥٩، ١٦٠)

(٢) سورة النساء الآية (١٤٥، ١٤٦).

(٣) سورة المائدة الآية ٢ .

فـ «الإثم» ما كان محرم الجنس كالكذب، والزنا، وشرب الخمر، ونحو ذلك.
و«العدوان» ما كان محرم القدر والزيادة.

فالعدوان: تعدى ما أبيح منه إلى القدر المحرم والزيادة، كالاعتداء فى أخذ الحق ممن هو عليه، إما بأن يتعدى على ماله، أو بدنه أو عرضه. فإذا غصبه خشبة لم يرض عوضها إلا داره. وإذا أتلف عليه شيئاً أتلف عليه أضعافه. وإذا قال فيه كلمة قال فيه أضعافها فهذا كله عدوان وتعد للعدل.

وهذا العدوان نوعان: عدوان فى حق الله، وعدوان فى حق العبد فالعدوان فى حق الله: كما إذا تعدى ما أباح الله له من الوطء الحلال فى الأزواج والمملوكات إلى ما حرم عليه من سواهما. كما قال تعالى: ﴿والذين هم لفروجهم حافظون. إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم. فإنهم غير ملومين. فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾ (١) وكذلك تعدى ما أبيح له من زوجته وأمته إلى ما حرم عليه منها، كوطئها فى حيضها أو نفاسها، أو فى غير موضع الحرث، أو فى إحرام أحدهما، أو صيامه الواجب. ونحو ذلك.

وكذلك كل من أبيح له منه قدر معين، فتعداه إلى أكثر منه. فهو من العدوان. كمن أبيح له إساغة الغصة بجرعة من خمر. فتناول الكأس كلها. أو أبيح له نظرة الخطبة، والسوم، والشهادة، والمعاملة، والمداواة، فأطلق عنان طرفه فى ميادين محاسن المنظور. وأسام طرف ناظره فى تلك الرياض والزهور: فتعدى المباح إلى القدر المحظور. وحام حول الحمى المحوط المحجور. فصار ذا بصر حائر، وقلب عن مكانه طائر. أرسل طرفه رائداً يأتيه بالخبر فخامر عليه. وأقام فى تلك الخيام. فبعث القلب فى آثاره. فلم يشعر إلا وهو أسير يحجل فى قيوده بين تلك الخيام. فما أقلعت لحظات ناظرة حتى تشحط بينهن قتيلاً. وما برحت تنوشه سيوف تلك الجفون حتى جندلته تجديلاً. هذا خطر العدوان. وما أمامه أعظم وأخطر. وهذا فوت الحرمان. وما حرمه من فوات ثواب من غض طرفه لله عز وجل أجل وأكبر. سافر الطرف فى مفاوز محاسن المنظور إليه. فلم يربح إلا أذى السفر. وغرر بنفسه فى ركوب تلك البيداء. وما عرف أن راكبها على أعظم الخطر؟! يالها من سفرة لم يبلغ المسافر منها ما نواه. ولم يضع فيها عن عاتقه عصاه، حتى قطع عليه فيها الطريق. وقعد له فيها الرصد على كل نقب ومضيق. لا يستطيع الرجوع إلى وطنه والإياب، ولا له سبيل إلى المرور والذهاب، يرى هجير الهاجرة من بعيد، فيظنه برد الشراب ﴿حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه. والله سريع الحساب﴾(٢) وتيقن أنه كان

---

(١) سورة المؤمنون الآية (٥-٧).
(٢) سورة النور الآية ٣٩

مغروراً بلامع السراب. تالله ما استوت هذه اللذة وتلك اللذة فى القيمة فيشتريها بها العارف الخبير. ولا تقاربا فى المنفعة، فيتحير بينهما البصير. ولكن على العيون غشاوة فلا تفرق بين مواطن السلامة ومواضع العثور. والقلوب تحت أغطية الغفلات، راقدة فوق فرش الغرور ﴿فإنها لا تعمى الأبصار. ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور﴾(١).

و«الإثم» و«العدوان» هما الإثم والبغى المذكوران فى سورة الأعراف (٢) مع أن «البغى غالب استعماله فى حقوق العباد والاستطالة عليهم.

وعلى هذا فإذا قرن البغى بالعدوان كان «البغى» ظلمهم بمحرم الجنس، كالسرقة والكذب، والبَهْت والابتداء بالأذى. و«العدوان» تعدى الحق فى استيفائه إلى أكبر منه. فيكون البغى والعدوان فى حقهم كالإثم والعدوان فى حدود الله.

فههنا أربعة أمور: حق الله وله حد، وحق لعباده وله حد. فالبغى والعدوان والظلم تجاوز الحدين إلى ما وراءهما، أو التقصير. فلا يصل إليهما.

(الفحشاء والمنكر)

وأما «الفحشاء والمنكر» فالفحشاء صفة لموصوف قد حذف تجريداً لقصد الصفة. وهى الفعلة الفحشاء. والخصلة الفحشاء وهى ما ظهر قبحها لكل أحد. واستفحشه كل ذى عقل سليم. ولهذا فسرت بالزنا واللواط، وسماها الله «فاحشة» لتناهى قبحهما. وكذلك القبيح من القول يسمى فحشاً. وهو ما ظهر قبحه جداً من السب القبيح والقذف ونحوه.

وأما «المنكر» فصفة لموصوف محذوف أيضاً. أى الفعل المنكر. وهو الذى تستنكره العقول والفطر ونسبته إليها كنسبة الرائحة القبيحة إلى حاسة الشم. والمنظر القبيح إلى العين. والطعم المستكره إلى الذوق. والصوت المستنكر إلى الأذن. فما اشتد إنكار العقول والفطر له فهو فاحشة. كما فحش إنكار الحواس له من هذه المدركات.

فالمنكر لها: ما لم تعرفه ولم تألفه. والقبيح المستكره لها: الذى تشتد نفرتها عنه هو الفاحشة. ولذلك قال ابن عباس «الفاحشة الزنا، والمنكر ما لم يعرف فى شريعة ولا سنة».

فتأمل تفريقه بين ما لم يُعرفُ حُسْنُهُ ولَمْ يؤلفُ وبين ما استقر قبحه فى الفطر والعقول

(القول على الله بلا علم)

وأما «القول على الله بلا علم» فهو أشد هذه المحرمات تحريماً وأعظمها إثماً. ولهذا ذكر فى المرتبة الرابعة من المحرمات التى اتفقت عليها الشرائع والأديان. ولا تباح بحال. بل لا تكون إلا محرمة. وليست كالميتة والدم ولحم الخنزير، الذى يباح فى حال دون حال.

---

(١) سورة الحج الآية ٤٦ (٢) انظر سورة الأعراف الآية ٣٣

فإن المحرمات نوعان: محرم لذاته لا يباح بحال، ومحرم تحريماً عارضاً فى وقت دون وقت قال الله تعالى فى المحرم لذاته: ﴿قل: إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾(١) ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه فقال: (والإثم والبغى بغير الحق) ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه. فقال. (وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً) ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه. فقال: (وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) فهذا أعظم المحرمات عند الله وأشدها إثماً. فإنه يتضمن الكذب على الله، ونسبته إلى ما لا يليق به، وتغيير دينه وتبديله، ونفى ما أثبته وإثبات ما نفاه، وتحقيق ما أبطله وإبطال ما حققه، وعداوة من والاه وموالاة من عاداه، وحب ما أبغضه وبغض ما أحبه، ووصفه بما لا يليق به فى ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله.

فليس فى أجناس المحرمات أعظم عند الله منه، ولا أشد إثماً. وهو أصل الشرك والكفر. وعليه أسست البدع والضلالات. فكل بدعة مضلة فى الدين أساسها القول على الله بلا علم.

ولهذا اشتد نكير السلف والأئمة لها. وصاحوا بأهلها من أقطار الأرض. وحذروا فتنتهم أشد التحذير. وبالغوا فى ذلك ما لم يبالغوا مثله فى إنكار الفواحش، والظلم والعدوان. إذ مضرة البدع وهدمها للدين ومنافاتها له أشد. وقد أنكر تعالى على من نسب إلى دينه تحليل شىء أو تحريمه من عنده. بلا برهان من الله. فقال: ﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب: هذا حلال وهذا حرام. لتفتروا على الله الكذب﴾(٢).

فكيف بمن نسب إلى أوصافه سبحانه وتعالى ما لم يصف به نفسه؟ أو نفى عنه منها ما وصف نفسه؟

قال بعض السلف ليحذر أحدكم أن يقول: أحل الله كذا. وحرم الله كذا فيقول الله: كذبت. لم أحل هذا، ولم أحرم هذا

يعنى التحليل والتحريم بالرأى المجرد، بلا برهان من الله ورسوله.

وأصل الشرك والكفر هو القول على الله بلا علم. فإن المشرك يزعم أن من اتخذه معبوداً من دون الله، يقربه إلى الله. ويشفع له عنده. ويقضى حاجته بواسطته، كما تكون الوسائط عند الملوك. فكل مشرك قائل على الله بلا علم. دون العكس. إذ القول على الله

---

(١) سورة الأعراف الآية ٣٣ .

(٢) سورة النحل الآية ١١٦

بلا علم قد يتضمن التعطيل والابتداع فى دين الله. فهو أعم من الشرك. والشرك فرد من أفراده.

ولهذا كان الكذب على رسول الله ﷺ موجباً لدخول النار، واتخاذ منزلة منها مبوءاً، وهو المنزل اللازم الذى لا يفارقه صاحبه. لأنه متضمن للقول على الله بلا علم كصريح الكذب عليه. لأن ما انضاف إلى الرسول فهو مضاف إلى المرسل. والقول على الله بلا علم صريح افتراء الكذب عليه (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً)

فذنوب أهل البدع كلها داخلة تحت هذا الجنس فلا تتحقق التوبة منه إلا بالتوبة من البدع

وأنى بالتوبة منها لمن لم يعلم أنها بدعة، أو يظنها سنة، فهو يدعو إليها، ويحض عليها؟ فلا تنكشف لهذا ذنوبه التى تجب عليه التوبة منها إلا بتضلعه من السنة. وكثرة إطلاعه عليها، ودوام البحث عنها والتفتيش عليها. ولا ترى صاحب بدعة كذلك أبداً.

فإن السنة - بالذات - تمحق البدعة. ولا تقوم لها. وإذا طلعت شمسها فى قلب العبد قطعت من قلبه ضباب كل بدعة، وأزالت ظلمة كل ضلالة. إذ لا سلطان للظلمة مع سلطان الشمس. ولا يرى العبد الفرق بين السنة والبدعة، ويعينه على الخروج من ظلمتها إلى نور السنة، إلا المتابعة، والهجرة بقلبه كل وقت إلى الله، بالاستعانة والإخلاص، وصدق اللجأ إلى الله. والهجرة إلى رسوله، بالحرص على الوصول إلى أقواله وأعماله وهديه وسنته «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله»(١) ومن هاجر إلى غير ذلك فهو حظه ونصيبه فى الدنيا والآخرة. والله المستعان.

(مشاهد الخلق فى المعصية)

وهى ثلاثة عشر مشهداً

مشهد الحيوانية، وقضاء الشهوة. ومشهد اقتضاء رسوم الطبيعة ولوازم الخلقة. ومشهد الجبر. ومشهد الحكمة ومشهد التوفيق والخذلان ومشهد التوحيد ومشهد الأسماء والصفات. ومشهد الإيمان وتعدد شواهده ومشهد الرحمة ومشهد العجز والضعف ومشهد الذل والافتقار ومشهد المحبة والعبودية.

---

(١) رواه البخارى (١) عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

فالأربعة الأول للمنحرفين. والثمانية البواقى لأهل الإستقامة. وأعلاها: المشهد العاشر.

وهذا الفصل من أجلّ فصول الكتاب. وأنفعها لكل أحد. وهو حقيق بأن تثنى عليه الخناصر، ولعلك لا تظفر به فى كتاب سواه. إلا ما ذكرناه فى كتابنا المسمى «سفر الهجرتين فى طريق السعادتين».

(فصـــل)

فأما مشهد الحيوانية، وقضاء الشهوة: فمشهد الجهال، والذين لا فرق بينهم وبين سائر الحيوان، إلا فى اعتدال القامة ونطق اللسان. ليس همهم إلا مجرد نيل الشهوة بأى طريق أفضت إليها. فهؤلاء نفوسهم حيوانية. لم تترق عنها إلى درجة الإنسانية، فضلاً عن درجة الملائكة. فهؤلاء حالهم أخس من أن تذكر. وهم فى أحوالهم متفاوتون بحسب تفاوت الحيوانات التى هم على أخلاقها وطباعها.

فمنهم: من نفسه كلبية. لو صادف جيفة تشبه ألف كلب لوقع عليها وحماها من سائر الكلاب. ونبح كل كلب يدنو منها. فلا تقربها الكلاب إلا على كره منه وغلبة. ولا يسمح لكلب بشىء منها. وهمه شبع بطنه من أى طعام اتفق: ميتة أو مذكى، خبيث أو طيب. ولا يستحى من قبيح. إن تحمل عليه يلهث. إن أطعمته بصبص بذنبه ودار حولك. وإن منعته هرك ونبحك.

ومنهم: من نفسه حمارية. لم تخلق إلا للكد والعلف. كلما زيد فى علفه زيد فى كده، أبكم الحيوان، وأقله بصيرة. ولهذا مثّل الله سبحانه وتعالى به من حَمّله كتابه. فلم يحمله معرفة ولا فقهاً ولا عملاً، ومثل بالكلب عالم السوء الذى آتاه الله آياته فانسلخ منها، وأخلد إلى الأرض واتبع هواه. وفى هذين المثلين أسرار عظيمة. ليس هذا موضع ذكرها.

ومنهم: من نفسه سبعية غضبية. همته العدوان على الناس، وقهرهم بما وصلت إليه قدرته، طبيعته تتقاضى ذلك كتقاضى طبيعة السبع لما يصدر منه.

ومنهم: من نفسه فأرية، فاسق بطبعه، مفسد لما جاوره، تسبيحه بلسان الحال: سبحان من خلقه للفساد.

ومنهم: من نفسه على نفوس ذوات السموم والحُمَات، كالحية والعقرب وغيرهما. وهذا الضرب هو الذى يؤذى بعينه. فيدخل الرجل القبر والجمل القدر. والعين وحدها لم

تفعل شيئاً. وإنما النفس الخبيثة السمّية تكيفت بكيفية غضبية، مع شدة حسد وإعجاب، وقابلت المعين على غرة منه وغفلة وهو أعزل من سلاحه فلدغته كالحية التى تنظر إلى موضع مكشوف من بدن الإنسان فتنهشه. فإما عطب وإما أذى ولهذا لا يتوقف أذى العائن على الرؤية والمشاهدة. بل إذا وصف له الشىء الغائب عنه وصل إليه أذاه. والذنب لجهل المعين وغفلته وغرته عن حمل سلاحه كل وقت. فالعائن لا يؤثر فى شاكى السلاح، كالحية إذا قابلت درعاً سابغاً على جميع البدن ليس فيه موضع مكشوف. فحق على من أراد حفظ نفسه وحمايتها: أن لا يزال متدرعاً متحصناً لابساً أداة الحرب، مواظباً على أوراد التعوذات، والتحصينات النبوية، التى فى القرآن، والتى فى السنة.

ومن الناس من طبعه طبع خنزير، يمر بالطيبات فلا يلوى عليها. فإذا قام الإنسان عن رجيعه قَمَّه. وهكذا كثير من الناس. يسمع منك ويرى من المحاسن أضعاف أضعاف المساوىء، فلا يحفظها ولا ينقلها ولا تناسبه. فإذا رأى سقطة أو كلمة عوراء وجد بغيته وما يناسبها. فجعلها فاكهته ونقله.

ومنهم: من هو على طبيعة الطاووس ليس له إلا التطوس والتزين بالريش. وليس وراء ذلك من شىء.

ومنهم من هو على طبيعة الجمل أحقد الحيوان، وأغلظه كبداً.

ومنهم من هو على طبيعة الدب أبكم خبيث، وعلى طبيعة القرد.

وأحمد طبائع الحيوانات. طبائع الخيل التى هى أشرف الحيوانات نفوساً، وأكرمها طبعا. وكذلك الغنم وكل من ألف ضرباً من ضروب هذه الحيوانات اكتسب من طبعه وخلقه فإن تغذى بلحمه كان الشبه أقوى. فإن الغاذى شبيه بالمغتذى.

لهذا حرم الله أكل لحوم السباع وجوارح الطير، لما تورث آكلها من شبه نفوسها بها والله أعلم.

والمقصود أن أصحاب هذا المشهد ليس لهم شهود سوى ميل نفوسهم وشهواتهم لا يعرفون ما وراء ذلك ألبتة

(المشهد الثانى)

مشهد رسوم الطبيعة ولوازم الخلقة كمشهد زنادقة الفلاسفة والأطباء. الذين يشهدون أن ذلك من لوازم الخلقة الإنسانية، وأن تركيب الإنسان من الطبائع الأربع وامتزاجها، واختلاطها، كما يقتضى بغى بعضها على بعض، وخروجه عن الاعتدال - بحسب اختلاف هذه الأخلاط - فكذلك تركيبه من البدن والنفس والطبيعة والأخلاط الحيوانية، تتقاضاه آثار

هذه الخلقة ورسوم تلك الطبيعة. ولا تقهر إلا بقاهر. إما من نفسه، وإما من خارج عنه. وأكثر النوع الإنسانى ليس له قاهر من نفسه، فاحتياجه إلى قاهر فوقه يدخله تحت سياسة وإيالة ينتظم بها أمره ضرورة، كحاجته إلى مصالحه من الطعام والشراب واللباس.

وعند هؤلاء: أن العاقل متى كان له وازع من نفسه قاهر، لم يحتج إلى أمر غيره ونهيه وضبطه.

فمشهد هؤلاء: من حركات النفس الاختيارية، الموجبة للجنايات، كمشهدهم من حركات الطبيعة الاضطرارية، الموجبة للتغيرات. وليس لهم مشهد وراء ذلك.

(المشهد الثالث)

مشهد أصحاب الجبر، وهم الذين يشهدون أنهم مجبورون على أفعالهم، وأنها واقعة بغير قدرتهم، بل لا يشهدون أنها أفعالهم ألبتة.

يقولون: إن أحدهم غير فاعل فى الحقيقة ولا قادر، وأن الفاعل فيه غيره والمحرك له سواه. وأنه آلة محضة، وحركاته بمنزلة هبوب الرياح، وحركات الأشجار.

وهؤلاء إذا أنكرت عليهم أفعالهم احتجوا بالقدر. وحملوا ذنوبهم عليه. وقد يغلون فى ذلك، حتى يروا أفعالهم كلها طاعات. خيرها وشرها، لموافقتها للمشيئة والقدر.

ويقولون: كما أن موافقة الأمر طاعة، فموافقة المشيئة طاعة. كما حكى الله تعالى عن المشركين إخوانهم: أنهم جعلوا مشيئة الله تعالى لأفعالهم دليلاً على أمره بها ورضاه. وهؤلاء شر من القدرية النفاة، وأشد منهم عداوة لله، ومناقضة لكتبه ورسله ودينه. حتى إن من هؤلاء من يعتذر عن إبليس، ويتوجع له، ويقيم عذره بجهده. وينسب ربه تعالى إلى ظلمه بلسان الحال والمقال، ويقول: ماذنبه، وقد صان وجهه عن السجود لغير خالقه؟ وقد وافق حكمه ومشيئته فيه وإرادته منه؟ ثم كيف يمكنه السجود، وهو الذى منعه منه وحال بينه وبينه؟ وهل كان فى ترك السجود لغير الله إلا محسناً؟ ولكن.

إذا كـان المحب قليـل حـظ فمـا حسـناته إلا ذنـوب

وهؤلاء أعداء الله حقاً، وأولياء إبليس، وأحباؤه وإخوانه. وإذا ناح منهم نائح على إبليس، رأيت من البكاء والحنين أمراً عجباً. ورأيت من ظلمهم الأقدار، واتهامهم الجبار ما يبدو على فلتات ألسنتهم، وصفحات وجوههم، وتسمع من أحدهم من التظلم والتوجع ما تسمعه من الخصم المغلوب العاجز عن خصمه، فهؤلاء هم الذين قال فيهم شيخ الإسلام ابن تيمية فى تائيته:

(المشهد الرابع)

مشهد القدرية النفاة. يشهدون أن هذه الجنايات والذنوب، هم الذين أحدثوها، وأنها واقعة بمشيئتهم، دون مشيئة الله تعالى، وأن الله لم يُقدِّر ذلك عليهم ولم يكتبه، ولا شاء، ولا خلق أفعالهم، وأنه لا يقدر أن يهدى أحداً ولا يضله إلا بمجرد البيان. لا أنه يلهمه الهدى والضلال، والفجور والتقوى، فيجعل ذلك فى قلبه

ويشهدون أنه يكون فى ملك الله ما لا يشاؤه، وأنه يشاء ما لا يكون. وأن العباد خالقون لأفعالهم بدون مشيئة الله

فالمعاصى والذنوب خَلْقُهمْ، وموجب مشيئتهم، لا أنها خلق الله. ولا تتعلق بمشيئته. وهم لذلك مبخوسو الحظ جداً من الاستعانة بالله والتوكل عليه، والاعتصام به، وسؤاله أن يهديهم، وأن يثبت قلوبهم، وأن لا يزيغها، وأن يوفقهم لمرضاته، ويجنبهم معصيته. إذ هذا كله واقع بهم، وعين أفعالهم. لا يدخل تحت مشيئة الرب شىء منها

والشيطان قد رضى منهم بهذا القَدْر فلا يؤزهم إلى المعاصى ذلك الأز، ولا يزعجهم إليها ذلك الإزعاج. وله فى ذلك غرضان مهمان.

أحدهما: أن يُقرّ فى قلوبهم صحة هذا المشهد وهذه العقيدة. وأنكم تاركون الذنوب والكبائر التى يقع فيها أهل السنة. فدل على أن الأمر مفوض إليكم، واقع بكم، وأنكم العاصمون لأنفسكم، المانعون لها من المعصية

الغرض الثانى أنه يصطاد على أيديهم الجهال فإذا رأوهم أهل عبادة،وزهادة، وتورع عن المعاصى، وتعظيم لها. قالوا هؤلاء أهل الحق - والبدعة آثر عنده وأحب إليه من المعصية - فإذا ظفر بها منهم، واصطاد الجهال على أيديهم، كيف يأمرهم بالمعصية؟ بل ينهاهم عنها ويقبحها فى أعينهم وقلوبهم ولايكشف هذه الحقائق إلا أرباب البصائر

(المشهد الخامس)

وهو أحد مشاهد أهل الاستقامة مشهد «الحكمة» وهو مشهد حكمة الله فى تقديره على عبده ما يبغضه سبحانه ويكرهه، ويلوم ويعاقب عليه. وأنه لو شاء لعصمه منه، ولحال بينه وبينه وأنه سبحانه لا يعصى قسراً وأنه لا يكون فى العالم شىء إلا بمشيئته ﴿ألا له الخلق والأمر. تبارك الله رب العالمين﴾[1]

(١) سورة الأعراف ٥٤.

وهؤلاء يشهدون أن الله سبحانه لم يخلق شيئاً عبثاً ولا سدى، وأن له الحكمة البالغة في كل ما قدّره وقضاه من خير وشر، وطاعة ومعصية، وحكمة باهرة تعجز العقول عن الإحاطة بكنهها. وتكِلُّ الألسن عن التعبير عنها.

فمصدر قضائه وقدره، لما يبغضه ويسخطه: اسمه «الحكيم» الذى بهرت حكمته الألباب، وقد قال تعالى للملائكة - لما قالوا: ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾[1] فأجابهم سبحانه بقوله (إنى أعلم مالا تعلمون) فلله سبحانه فى ظهور المعاصى والذنوب والجرائم، وترتب آثارها من الآيات والحكم. وأنواع التعرفات إلى خلقه، وتنويع آياته، ودلائل ربوبيته ووحدانيته، وإلهيته، وحكمته، وعزته، وتمام ملكه، وكمال قدرته. وإحاطة علمه -: ما يشهده أولو البصائر عياناً ببصائر قلوبهم، فيقولون ﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً. سبحانك﴾ [2] إن هى إلا حكمتك الباهرة، وآياتك الظاهرة.

وللـــه فى كـل تحـــريكـــة وتســـكينة أبـــــداً شـــاهد
وفى كل شىء لـــه آيـــــــة تـــــدل على أنـــــه واحد

فكم من آية فى الأرض بينة، دالة على الله، وعلى صدق رسله، وعلى أن لقاءه حق. كان سببها معاصى بنى آدم وذنوبهم، كآيته فى إغراق قوم نوح، وعلو الماء على رءوس الجبال، حتى أغرق جميع أهل الأرض، ونجى أولياءه، وأهل معرفته وتوحيده. فكم فى ذلك من آية وعبرة، ودلالة باقية على ممر الدهور؟! وكذلك إهلاك قوم عاد وثمود.

وكم له من آية فى فرعون وقومه من حين بعث موسى عليه السلام إليهم - بل قبل مبعثه - إلى حين إغراقهم، لولا معاصيهم وكفرهم لم تظهر تلك الآيات والعجائب. وكذلك إظهار سبحانه ما أظهر من جعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم، بسبب ذنوب قومه ومعاصيهم. وإلقائهم له فى النار، حتى صارت تلك آية، وحتى نال إبراهيم بها ما نال من كمال الخلة.

وكذلك ما حصل للرسل من الكرامة والمنزلة والزلفى عند الله، والوجاهة عنده، بسبب صبرهم على أذى قومهم. وعلى محاربتهم لهم ومعاداتهم.

وكذلك اتخاذ الله تعالى الشهداء والأولياء والأصفياء من بنى آدم، بسبب صبرهم على أذى بنى آدم من أهل المعاصى والظلم، ومجاهدتهم فى الله، وتحملهم لأجله من أعدائه ما هو بعينه وعلمه، واستحقاقهم بذلك رفعة الدرجات.

---

(١) سورة البقرة الآية ٣٠ . (٢) سورة آل عمران الآية ١٩١ .

إلى غير ذلك من المصالح والحكم التى وجدت بسبب ظهور المعاصى والجرائم. وكان من سببها: تقدير ما يبغضه الله ويسخطه. وكان ذلك محض الحكمة، لما يترتب عليه مما هو أحب إليه وآثر عنده من فوته بتقدير عدم المعصية.

فحصول هذا المحبوب العظيم: أحب إليه من فوات ذلك المبغوض المسخوط فإن فواته وعدمه سواء وإن كان محبوباً له -لكن حصول هذا المحبوب الذى لم يكن يحصل بدون وجود ذلك المبغوض أحب إليه وفوات هذا المحبوب أكره إليه من فوات ذلك المكروه المسخوط. وكمال حكمته تقتضى حصول أحب الأمرين إليه بفوات أدنى المحبوبين، وأن لا يعطل هذا الأحب بتعطيل ذلك المكروه. وفرض الذهن وجود هذا بدون هذا كفرضه وجود المسببات بدون أسبابها، والملزومات بدون لوازمها، مما تمنعه حكمة الله وكمال قدرته وربوبيته.

ويكفى من هذا مثال واحد. وهو أنه لولا المعصية من أبى البشر - بأكله من الشجرة - لما ترتب على ذلك ما ترتب من وجود هذه المحبوبات العظام للرب تعالى، من امتحان خلقه وتكليفهم، وإرسال رسله، وإنزال كتبه، وإظهار آياته وعجائبه وتنويعها وتصريفها، وإكرام أوليائه، وإهانة أعدائه، وظهور عدله وفضله، وعزته وانتقامه، وعفوه ومغفرته، وصفحه وحلمه، وظهور من يعبده ويحبه، ويقوم بمراضيه بين أعدائه فى دار الابتلاء والامتحان.

فلو قدر أن آدم لم يأكل من الشجرة، ولم يخرج من الجنة هو وأولاده لم يكن شيء من تلك، ولا ظهر من القوة إلى الفعل ما كان كامناً فى قلب إبليس يعلمه الله ولا تعلمه الملائكة. ولم يتميز خبيث الخلق من طيبهم، ولم تتم المملكة، حيث لم يكن هناك إكرام وثواب، وعقوبة وإهانة، ودار سعادة وفضل، ودار شقاوة وعدل.

وكم فى تسليط أوليائه على أعدائه، وتسليط أعدائه على أوليائه، والجمع بينهما فى دار واحدة، وابتلاء بعضهم ببعض من حكمة بالغة، ونعمة سابغة.

وكم فيها من حصول محبوب للرب، وحمد له من أهل سمواته وأرضه، وخضوع له وتذلل، وتعبد وخشية وافتقار إليه، وانكسار بين يديه أن لا يجعلهم من أعدائه. إذ هم يشاهدونهم ويشاهدون خذلان الله لهم، وإعراضه عنهم، ومقته لهم، وما أعد لهم من العذاب. وكل ذلك بمشيئته وإرادته وتصرفه فى مملكته فأولياؤه من خشية خذلانه خاضعون مشفقون، على أشد وجل، وأعظم مخافة، وأتم انكسار

فإذا رأت الملائكة إبليس وما جرى له، وهاروت وماروت وضعت رؤوسها بين يدى الرب خضوعاً لعظمته، واستكانة لعزته، وخشية من إبعاده وطرده، وتذللاً لهيبته، وافتقاراً

إلى عصمته ورحمته، وعلمت بذلك منه عليهم، وإحسانه إليهم، وتخصيصه لهم بفضله وكرامته.

وكذلك أولياؤه المتقون، إذا شاهدوا أحوال أعدائه ومقته لهم، وغضبه عليهم، وخذلانه لهم: ازدادوا خضوعاً وذلاً، وافتقاراً وانكساراً، وبه استعانة وإليه إنابة، وعليه توكلاً، وفيه رغبة، ومنه رهبة وعلموا أنهم لا ملجأ لهم منه إلا إليه، وأنهم لا يعيذهم من بأسه إلا هو، ولا ينجيهم من سخطه إلا مرضاته، فالفضل بيده أولاً وآخراً.

وهذه قطرة من بحر حكمته المحيطة بخلقه. والبصير يطالع ببصيرته ما وراءه. فيطلعه على عجائب من حكمته، لا تبلغها العبارة، ولا تنالها الصفة.

وأما حظ العبد فى نفسه، وما يخصه من شهود هذه الحكمة فبحسب استعداده وقوة بصيرته، وكمال علمه ومعرفته بالله وأسمائه وصفاته، ومعرفته بحقوق العبودية والربوبية، وكل مؤمن له من ذلك شرب معلوم، ومقام لا يتعداه ولا يتخطاه. والله الموفق والمعين.

(المشهد السادس: مشهد التوحيد)

وهو أن يشهد انفراد الرب تبارك وتعالى بالخلق والحكم، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا تتحرك ذرة إلا بإذنه. وأن الخلق مقهورون تحت قبضته، وأنه ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابعه. إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه. فالقلوب بيده. وهو مقلبها ومصرفها كيف شاء وكيف أراد، وأنه هو الذى آتى نفوس المؤمنين تقواها، وهو الذى هداها وزكاها، وألهم نفوس الفجار فجورها وأشقاها: ﴿من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون﴾[1] يهدى من يشاء بفضله ورحمته، ويضل من يشاء بعدله وحكمته. هذا فضله وعطاؤه. وما فضل الكريم بممنون. وهذا عدله وقضاؤه ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾ [2].

قال ابن عباس رضى الله عنهما «الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن كذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده، ومن آمن بالقدر صدّق إيمانه توحيده».

وفى هذا المشهد. يتحقق للعبد مقام (إياك نعبد وإياك نستعين) علماً وحالاً، فيثبت قدم العبد فى توحيد الربوبية، ثم يرقى منه صاعداً إلى توحيد الإلهية. فإنه إذا تيقن أن الضر والنفع، والعطاء والمنع، والهدى والضلال، والسعادة والشقاء كل ذلك بيد الله لا بيد غيره، وأنه الذى يقلب القلوب، ويصرفها كيف يشاء. وأنه لا موفق إلا من وفقه وأعانه، ولا مخذول إلا من خذله وأهانه وتخلى عنه وأن أصح القلوب وأسلمها

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٧٨ .

(٢) سورة الأنبياء الآية ٢٣

وأقومها، وأرقها وأصفاها، وأشدها وألينها: من اتخذه وحده إلهاً ومعبوداً. فكان أحب إليه من كل ما سواه، وأخوف عنده من كل ما سواه، وأرجى له من كل ما سواه. فتتقدم محبته في قلبه جميع المحاب، فتنساق المحاب تبعاً لها كما ينساق الجيش تبعاً للسلطان. ويتقدم خوفه في قلبه جميع المخلوقات، فتنساق المخاوف كلها تبعاً لخوفه، ويتقدم رجاؤه في قلبه جميع الرجاء، فينساق كل رجاء تبعاً لرجائه

فهذا علامة توحيد الإلهية في هذا القلب، والباب الذي دخل إليه منه توحيد الربوبية، أي باب توحيد الإلهية: هو توحيد الربوبية

فإن أول ما يتعلق القلب يتعلق بتوحيد الربوبية. ثم يرتقي إلى توحيد الإلهية، كما يدعو الله سبحانه عباده في كتابه بهذا النوع من التوحيد إلى النوع الآخر. ويحتج عليهم به، ويقررهم به. ثم يخبر أنهم ينقضونه بشركهم به في الإلهية.

وفي هذا المشهد يتحقق له مقام (إياك نعبد) قال الله تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن: الله. فأنى يؤفكون﴾[1] أي فأين يصرفون عن شهادة أن لا إله إلا الله، وعن عبادته وحده، وهم يشهدون أنه لا رب غيره، ولا خالق سواه. وكذلك قوله تعالى: ﴿قل لمن الأرض ومن فيها.إن كنتم تعلمون سيقولون لله، قل أفلا تذكرون﴾[2] فتعلمون أنه إذا كان هو وحده مالك الأرض ومن فيها، وخالقهم، وربهم ومليكهم، فهو وحده إلههم ومعبودهم. فكما لا رب لهم غيره، فهكذا لا إله لهم سواه ﴿قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون: الله. قل: أفلا تتقون؟ قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه﴾[3] الآيات وهكذا قوله في سورة النمل ﴿قل الحمد لله. وسلام على عباده الذين اصطفى، آلله خير، أما يشركون أمن خلق السموات والأرض، وأنزل لكم من السماء ماءً. فأنبتنا به حدائق ذات بهجة، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها، أإله مع الله بل هم قوم يعدلون﴾[4] إلى آخر الآية

يحتج عليهم بأن من فعل لهم هذا وحده، فهو الإله لهم وحده فإن كان معه رب فعل هذا فينبغي أن تعبدوه. وإن لم يكن معه رب فعل هذا فكيف تجعلون معه إلهاً آخر؟.

ولهذا كان الصحيح في تقدير الآية «أإله مع الله فعل هذا؟» حتى يتم الدليل. فلا بد من الجواب بلا. فإذا لم يكن معه إله فعل كفعله فكيف تعبدون آلهة أخرى سواه؟ فعلم أن إلهية ما سواه باطلة. كما أن ربوبية ما سواه باطلة بإقراركم وشهادتكم

---

(١) سورة الدخان الآية ٨٧.

(٢) سورة المؤمنون الآية (٨٤ - ٨٥).

(٣) سورة المؤمنون الآية ٨٦ - ٨٨.

(٤) سورة النمل الآية (٥٩ - ٦٠).

(المشهد السابع: مشهد التوفيق والخذلان)

وهو من تمام هذا المشهد وفروعه. ولكن أفرد بالذكر لحاجة العبد إلى شهوده وانتفاعه به وقد أجمع العارفون بالله: أن «التوفيق» هو أن لا يكلك الله إلى نفسك، وأن «الخذلان» هو أن يخلى بينك وبين نفسك. فالعبيد متقلبون بين توفيقه وخذلانه. بل العبد فى الساعة الواحدة ينال نصيبه من هذا وهذا فيطيعه ويرضيه، ويذكره ويشكره بتوفيقه له ثم يعصيه ويخالفه ويسخطه ويغفل عنه بخذلانه له. فهو دائر بين توفيقه وخذلانه. فإن وفقه فبفضله ورحمته. وإن خذله فبعدله وحكمته. وهو المحمود على هذا وهذا. له أتم حمد وأكمله. ولم يمنع العبد شيئاً هو له. وإنما منعه ما هو مجرد فضله وعطائه. وهو أعلم حيث يضعه وأين يجعله.

فمتى شهد العبد المشهد وأعطاه حقه، علم شدة ضرورته وحاجته إلى التوفيق فى كل نفس وكل لحظة وطرفة عين. وأن إيمانه وتوحيده بيده تعالى. لو تخلى عنه طرفه عين لثل عرش توحيده، ولخرت سماء إيمانه على الأرض. وأن الممسك له: هو من يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه. فهجِّيرى قلبه (١) ودأب لسانه «يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك، يا مصرف القلوب صرف قلبى إلى طاعتك» ودعواه «يا حى يا قيوم، يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام. لا إله إلا أنت. برحمتك أستغيث. أصلح لى شأنى كله. ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين. ولا إلى أحد من خلقك».

ففى هذا المشهد يشهد توفيق الله وخذلانه، كما يشهد ربوبيته وخلقه. فيسأله توفيقه مسألة المضطر. ويعوذ به من خذلانه عياذ الملهوف. ويلقى نفسه بين يديه، طريحاً ببابه مستسلماً له، ناكس الرأس بين يديه، خاضعاً ذليلاً مستكيناً، لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

و«التوفيق» إرادة الله من نفسه أن يفعل بعبده ما يصلح به العبد، بأن يجعله قادراً على فعل ما يرضيه، مريداً له، محباً له، مؤثراً له على غيره ويبغض إليه. وهذا مجرد فعله. والعبد محل له قال تعالى: ﴿ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم. وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان. أولئك هم الراشدون * فضلاً من الله ونعمة، والله عليم حكيم﴾(١) فهو سبحانه عليم بمن يصلح لهذا الفضل ومن لا يصلح له. حكيم يضعه فى مواضعه وعند أهله لا يمنعه أهله، ولا يضعه عند غير أهله وذكر هذا عقيب قوله ﴿واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم﴾ ثم جاء به بحرف

---

(١) هجيرى الإنسان - بكسر الهاء وتشديد الجيم المكسورة بالقصر - دأبه الذى يلازمه ولا يتركه.

(٢) سورة الحجرات الآية (٧ - ٨).

الاستدراك فقال: ﴿ولكن الله حبب إليكم الإيمان﴾[1]

يقول سبحانه: لم تكن محبتكم للإيمان وإرادتكم له، وتزيينه فى قلوبكم منكم، ولكن الله هو الذى جعله كذلك. فآثرتموه ورضيتموه، فلذلك لا تقدموا بين يدى رسولى، ولا تقولوا حتى يقول. ولا تفعلوا حتى يأمر. فالذى حبب إليكم الإيمان أعلم بمصالح عباده منكم، وأنتم فلولا توفيقه لكم لما أذعنت نفوسكم للإيمان. فلم يكن الإيمان بمشورتكم وتوفيق أنفسكم. ولا تقدمتم به إليها. فنفوسكم تقصر وتعجز عن ذلك ولا تبلغه. فلو أطاعكم رسولى فى كثير مما تريدون لشق عليكم ذلك ولا تبلغه. ولهلكتم وفسدت مصالحكم وأنتم لا تشعرون. ولا تظنوا أن نفوسكم تريد لكم الرشد والصلاح، كما أردتم الإيمان. فلولا أنى حببته إليكم وزينته فى قلوبكم، وكرهت إليكم ضده لما وقع منكم. ولا سمحت به أنفسكم.

وقد ضرب للتوفيق والخذلان مثل: ملك أرسل إلى أهل بلد من بلاده رسولاً. وكتب معه إليهم كتاباً يعلمهم أن العدو مصبحهم عن قريب ومجتاحهم، ومخرب البلد، ومهلك من فيها. وأرسل إليهم أموالا ومراكب وزاداً وعدة وأدلة، وقال: ارتحلوا مع هؤلاء الأدلة. وقد أرسلت إليكم جميع ما تحتاجون إليه ثم قال لجماعة من مماليكه: اذهبوا إلى فلان، فخذوا بيده واحملوه ولا تذروه يقعد. واذهبوا إلى فلان كذلك وإلى فلان وذروا من عداهم. فإنهم لا يصلحون أن يساكنونى فى بلدى. فذهب خواص مماليكه إلى من أمروا بحملهم. فلم يتركوهم يقرون. بل حملوهم حملاً. وساقوهم سوقاً إلى الملك. فاجتاح العدو من بقى فى المدينة وقتلهم، وأسر من أسر.

فهل يعد الملك ظالماً لهؤلاء، أم عادلاً فيهم؟ نعم خص أولئك بإحسانه وعنايته وحرمها من عداهم، إذ لا يجب عليه التسوية بينهم فى فضله وإكرامه بل ذلك فضله يؤتيه من يشاء

وقد فسرت القدرية الجبرية[2] «التوفيق بأنه خلق الطاعة، و«الخذلان» بأنه خلق المعصية.

ولكن بنوا ذلك على أصولهم الفاسدة من إنكار الأسباب والحكم، وردوا الأمر إلى محض المشيئة من غير سبب ولا حكمة.

---

(١) سورة الحجرات الآية ٧

(٢) القدرية الجبرية هم. الذين قالوا إن الله قدّر الطاعات والمعاصى على النسان فهو مجبر على فعل المعاصى كما هو مجبر على فعل الطاعات وقد أسسوا على قولهم هذا نسبة الظلم إلى الله، حيث قالوا: لو أن الله عذب عبده على المعاصى لكان ظالمًا له لأنه هو الذى أجبره على فعلها. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً

وقابلهم القدرية النفاة[1]، فسروا «التوفيق» بالبيان العام، والهدى العام، والتمكن من الطاعة والإقبال عليها. وتهيئة أسبابها. وهذا حاصل لكل كافر ومشرك بلغته الحجة. وتمكن من الإيمان.

فالتوفيق عندهم: أمر مشترك بين الكفار والمؤمنين، إذ الإقدار والتمكين والدلالة والبيان قد عم به الفريقين. ولم يفرد المؤمنين عندهم بتوفيق وقع به الإيمان منهم. والكفار بخذلان امتنع به الإيمان منهم. ولو فعل ذلك لكان عندهم محاباة وظلماً.

والتزموا لهذا الأصل لوازم. قامت بها عليهم سوق الشناعة بين العقلاء. ولم يجدوا بدأ من التزامها. فظهر فساد مذهبهم، وتناقض قولهم، لمن أحاط به علماً. وتصوره حق تصوره. وعلم أنه أبطل مذهب فى العالم وأرداه.

وهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم. فلم يرضوا بطريق هؤلاء، ولا بطريق هؤلاء. وشهدوا انحراف الطريقين عن الصراط المستقيم. فأثبتوا القضاء والقدر، وعموم مشيئة الله للكائنات. وأثبتوا الأسباب والحكم. والغايات والمصالح. ونزهوا الله عز وجل أن يكون فى ملكه ما لا يشاء، أو أن يقدر خلقه على ما لا يدخل تحت قدرته ولا مشيئته، أو أن يكون شىء من أفعالهم واقعاً بغير اختياره وبدون مشيئته. ومن قال ذلك فلم يعرف ربه، ولم يثبت له كمال الربوبية.

ونزهوه - مع ذلك - عن العبث وفعل القبيح، وأن يخلق شيئاً سدى، وأن تخلو أفعاله عن حكم بالغة، لأجلها أوجدها، وأسباب بها سببها، وغايات جعلت طرقاً ووسائل إليها. وأن له فى كل ما خلقه وقضاه حكمة بالغة. وتلك الحكمة صفة له قائمة به. ليست مخلوقة كما تقول القدرية النفاة للقدر والحكمة فى الحقيقة.

فأهل الصراط المستقيم: بريئون من الطائفتين، إلا من حق تضمنته مقالاتهم. فإنهم يوافقونهم عليه. ويجمعون حق كل منهما إلى حق الأخرى. ولا يبطلون ما معهم من الحق لما قالوه من الباطل فهم شهداء الله على الطوائف، وأمناؤه عليهم، حكام بينهم، حاكمون عليهم. ولا يحكم عليهم أحد منهم. يكشفون أحوال الطوائف، ولا يكشفهم إلا من كشف له عن معرفة ما جاء به الرسول ﷺ وعرف الفرق بينه وبين غيره. ولم يلتبس عليه. وهؤلاء أفراد العالم ونخبته وخلاصته، ليسوا من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً، ولا من الذين تقطعوا أمرهم بينهم زبراً، بل ممن هم على بينة من ربهم وبصيرة فى إيمانهم، ومعرفة بما عند الناس. والله الموفق

---

(1) القدرية النفاة هم الذين قالوا إن الله لم يقدر الأشياء فى الأزل وأنه لا يعلمها إلا حين حدوثها . وأهل السنة وسط بين القدرية الجبرية والقدرية النفاة، فهم يعتقدون أن الله قدّر جميع المقادير فى الأزل، وقالوا: لا يكون فى ملك الله إلا ما يريد. ونزهوا الله عن الظلم.

(فصل)

(المشهد الثامن: مشهد الأسماء والصفات)

وهو من أجل المشاهد وهو أعلى مما قبله وأوسع

والمطلع على هذا المشهد: معرفة تعلق الوجود خلقاً وأمراً بالأسماء الحسنى والصفات العلى، وارتباطه بها. وإن كان العالم - بما فيه - من بعض آثارها ومقتضياتها

وهذا من أجل المعارف وأشرفها، وكل اسم من أسمائه سبحانه له صفة خاصة فإن أسماءه أوصاف مدح وكمال. وكل صفة لها مقتضى وفعل: إما لازم. وإما متعد وللذلك الفعل تعلق بمفعول هو من لوازمه. وهذا في خلقه وأمره، وثوابه وعقابه. كل ذلك آثار الأسماء الحسنى وموجباتها

ومن المحال تعطيل أسمائه عن أوصافها ومعانيها، وتعطيل الأوصاف عما تقتضيه وتستدعيه من الأفعال عن المفعولات، كما أنه يستحيل تعطيل مفعوله عن أفعاله وأفعاله عن صفاته، وصفاته عن أسمائه. وتعطيل أسمائه وأوصافه عن ذاته.

وإذا كانت أوصافه صفات كمال، وأفعاله حكماً ومصالح، وأسماؤه حسنى ففرض تعطيلها عن موجباتها مستحيل في حقه. ولهذا ينكر سبحانه على من عطله عن أمره ونهيه، وثوابه وعقابه، وأنه بذلك نسبه إلى ما لا يليق به وإلى ما يتنزه عنه وأن ذلك حكم سيء ممن حكم به عليه، وأن من نسبه إلى ذلك فما قدره حق قدره، ولا عظمه حق تعظيمه، كما قال في حق منكري النبوة وإرسال الرسل، وإنزال الكتب ﴿وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء﴾[1] وقال تعالى في حق منكري المعاد والثواب والعقاب ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة، والسموات مطويات بيمينه﴾[2] وقال في حق من جوز عليه التسوية بين المختلفين، كالأبرار والفجار، والمؤمنين والكفار ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون﴾[3] فأخبر أن هذا حكم سيء لا يليق به، تأباه أسماؤه وصفاته. وقال سبحانه ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون * فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم﴾[4] عن هذا الظن والحسبان، الذي تأباه أسماؤه وصفاته.

ونظائر هذا في القرآن كثيرة ينفي عن نفسه خلاف موجب أسمائه وصفاته إذ ذلك

---

(١) سورة الأنعام الآية ٩١.

(٢) سورة الزمر الآية ٦٧.

(٣) سورة الجاثية الآية: ٢١.

(٤) سورة المؤمنون الآية: ١١٥ - ١١٦.

مستلزم تعطيلها عن كمالها ومقتضياتها.

فاسمه «الحميد، المجيد» يمنع ترك الإنسان سدى مهملاً معطلاً، لا يؤمر ولا ينهى ولا يثاب ولا يعاقب. وكذلك اسمه «الحكيم» يأبى ذلك. وكذلك اسمه «الملك» واسمه «الحي» يمنع أن يكون معطلاً من الفعل. بل حقيقة «الحياة» الفعل. فكل حي فعال. وكونه سبحانه «خالقاً قيوماً» من موجبات حياته ومقتضياتها. واسمه «السميع البصير» يوجب مسموعاً ومرئياً. واسمه «الخالق» يقتضى مخلوقاً. وكذلك «الرزاق» واسمه «الملك» يقتضى مملكة وتصرفاً وتدبيراً، وإعطاء ومنعاً، وإحساناً وعدلاً، وثواباً وعقاباً. واسم «البر المحسن، المعطى، المنان» ونحوها تقتضى آثارها وموجباتها.

إذا عرف هذا. فمن أسمائه سبحانه «الغفار، التواب، العفو» فلا بد لهذه الأسماء من متعلقات. ولابد من جناية تغفر، وتوبة تقبل، وجرائم يعفى عنها. ولا بد لاسمه «الحكيم» من متعلق يظهر فيه حكمه. إذ اقتضاء هذه الأسماء لآثارها كاقتضاء اسم «الخالق، الرازق، المعطى، المانع» للمخلوق والمرزوق والمعطى والممنوع. وهذه الأسماء كلها حسنى.

والرب تعالى يحب ذاته وأوصافه وأسماءه. فهو عفو يحب العفو، ويحب المغفرة. ويحب التوبة. ويفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يخطر بالبال. وكان تقدير ما يغفره ويعفو عن فاعله، ويحلم عنه، ويتوب عليه ويسامحه من موجب أسمائه وصفاته. وحصول مايحبه ويرضاه من ذلك. وما يحمد به نفسه ويحمده به أهل سمواته وأهل أرضه ما هو من موجبات كماله ومقتضى حمده.

وهو سبحانه الحميد المجيد، وحمده ومجده يقتضيان آثارهما.

ومن آثارهما: مغفرة الزلات، وإقالة العثرات، والعفو عن السيئات، والمسامحة على الجنايات مع كمال القدرة على استيفاء الحق. والعلم منه سبحانه بالجناية ومقدار عقوبتها. فحلمه بعد علمه وعفوه بعد قدرته، ومغفرته عن كمال عزته وحكمته، كما قال المسيح ﷺ ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾[1] أى فمغفرتك عن كمال قدرتك وحكمتك. لست كمن يغفر عجزاً ويسامح جهلاً بقدر الحق، بل أنت عليم بحقك. قادر على استيفائه، حكيم فى الأخذ به.

فمن تأمل سريان آثار الأسماء والصفات فى العالم، وفى الأمر، تبين له أن مصدر قضاء هذه الجنايات من العبيد، وتقديرها هو من كمال الأسماء والصفات والأفعال وغاياتها أيضاً: مقتضى حمده ومجده، كما هو مقتضى ربوبيته وإلهيته

(١) سورة المائدة: الآية ١١٨.

فله في كل ما قضاه وقدره الحكمة البالغة، والآيات الباهرة، والتعرفات إلى عباده بأسمائه وصفاته، واستدعاء محبتهم له، وذكرهم له، وشكرهم له، وتعبدهم له بأسمائه الحسنى. إذ كل اسم فله تعبد مختص به، علماً ومعرفة وحالاً. وأكمل الناس عبودية المتعبد بجميع الأسماء والصفات التي يطلع عليها البشر. فلا تحجبه عبودية اسم عن عبودية اسم آخر، كمن يحجبه التعبد باسمه «القدير» عن التعبد باسمه «الحليم الرحيم» أو يحجبه عبودية اسمه «المعطي» عن عبودية اسمه «المانع» أو عبودية اسمه «الرحيم والعفو والغفور» عن اسمه «المنتقم» أو التعبد بأسماء «التودد، والبر، واللطف، والإحسان» عن أسماء «العدل، والجبروت، والعظمة، والكبرياء» ونحو ذلك.

وهذه طريقة الكمل من السائرين إلى الله. وهي طريقة مشتقة من قلب القرآن. قال الله تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾ [1] والدعاء بها يتناول دعاء المسألة، ودعاء الثناء، ودعاء التعبد. وهو سبحانه يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته، ويثنوا عليه بها، ويأخذوا بحظهم من عبوديتها.

وهو سبحانه يحب موجب أسمائه وصفاته.

فهو «عليم» يحب كل عليم «جواد» يحب كل جواد «وتر» يحب الوتر «جميل» يحب الجمال «عفو» يحب العفو وأهله «حيي» يحب الحياء وأهله «بر» يحب الأبرار «شكور» يحب الشاكرين «صبور» يحب الصابرين «حليم» يحب أهل الحلم فلمحبته سبحانه للتوبة والمغفرة، والعفو والصفح: خلق من يغفر له، ويتوب عليه ويعفو عنه. وقدر عليه ما يقتضي وقوع المكروه والمبغوض له ليترتب عليه المحبوب له المرضي له فتوسطه كتوسط الأسباب المكروهة المفضية إلى المحبوب.

فربما كان مكروه العباد إلى محبوبها سبب ما مثله سبب

والأسباب - مع تشتياتها - أربعة أنواع: محبوب يفضي إلى محبوب. ومكروه يفضي إلى محبوب. وهذان النوعان عليهما مدار أقضيته وأقداره سبحانه بالنسبة إلى ما يحبه وما يكرهه.

والثالث مكروه يفضي إلى مكروه والرابع محبوب يفضي إلى مكروه وهذان النوعان ممتنعان في حقه سبحانه، إذ الغايات المطلوبة من قضائه وقدره - الذي ما خلق ما خلق، ولا قضى ما قضى إلا لأجل حصولها - لا تكون إلا محبوبة للرب مرضية له والأسباب الموصلة إليها منقسمة إلى محبوب له ومكروه له.

---

(1) سورة الأعراف الآية ١٨٠.

فالطاعات والتوحيد: أسباب محبوبة له. موصلة إلى الإحسان، والثواب المحبوب له أيضاً. والشرك والمعاصي: أسباب مسخوطة له، موصلة إلى العدل المحبوب له. وإن كان الفضل أحب إليه من العدل. فاجتماع العدل والفضل أحب إليه من انفراد أحدهما عن الآخر، لما فيهما من كمال الملك والحمد، وتنوع الثناء، وكمال القدرة.

فإن قيل: كان يمكن حصول هذا المحبوب من غير توسط المكروه.

قيل: هذا سؤال باطل، لأن وجود الملزوم بدون لازمه ممتنع. والذي يقدر في الذهن وجوده شيء آخر غير هذا المطلوب المحبوب للرب. وحكم الذهن عليه بأنه محبوب للرب حكم بلا علم. بل قد يكون مبغوضاً للرب تعالى لمنافاته حكمته. فإذا حكم الذهن عليه بأنه محبوب له. كان نسبة له إلى ما لا يليق به. ويتعالى عنه.

فليعط اللبيب هذا الموضع حقه من التأمل. فإنه مزلة أقدام، ومضلة أفهام. ولو أمسك عن الكلام من لا يعلم لقل الخلاف.

وهذا المشهد أجل من أن يحيط به كتاب، أو يستوعبه خطاب، وإنما أشرنا إليه أدنى إشارة تطلع على ما وراءها. والله الموفق والمعين.

(المشهد التاسع: مشهد زيادة الإيمان وتعدد شواهده)

وهذا من ألطف المشاهد، وأخصها بأهل المعرفة. ولعل سامعه يبادر إلى إنكاره. ويقول: كيف يشهد زيادة الإيمان من الذنوب والمعاصي؟ ولا سيما ذنوب العبد ومعاصيه. وهل ذلك إلا منقص للإيمان، فإنه بإجماع السلف: يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية.

فاعلم أن هذا حاصل من التفات العارف إلى الذنوب والمعاصي منه ومن غيره وإلى ترتب آثارها عليها. وترتب هذه الآثار عليها علم من أعلام النبوة، وبرهان من براهين صدق الرسل، وصحة ما جاءوا به. فإن الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - أمروا العباد بما فيه صلاح ظواهرهم وبواطنهم، في معاشهم ومعادهم. ونهوهم عما فيه فساد ظواهرهم وبواطنهم في المعاش والمعاد. وأخبروهم عن الله عز وجل: أنه يحب كذا وكذا، ويثيب عليه بكذا وكذا، وأنه يبغض كيت وكيت، ويعاقب عليه بكيت وكيت. وأنه إذا أطيع بما أمر به: شكر عليه بالإمداد والزيادة، والنعم، في القلوب والأبدان والأموال. ووجد العبد زيادته وقوته في حاله كلها، وأنه إذا خولف أمره ونهيه، ترتب عليه من النقص، والفساد، والضعف، والذل والمهانة، والحقارة، وضيق العيش وتنكد الحياة ما ترتب، كما قال تعالى ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ (١) وقال: ﴿قل يا عبادي الذين آمنوا اتقوا ربكم. للذين أحسنوا

(١) سورة النحل الآية ٩٧

فى هذه الدنيا حسنة، وللدار الآخرة خير﴾ [1] وقال تعالى: ﴿واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى.ويؤت كل ذى فضل فضله﴾ [2] وقال تعالى: ﴿ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى﴾ [3] وفسرت المعيشة الضنك: بعذاب القبر. والصحيح أنها فى الدنيا، وفى البرزخ. فإن من أعرض عن ذكره الذى أنزله ، فله من ضيق الصدر، ونكد العيش، وكثرة الخوف، وشدة الحرص والتعب على الدنيا، والتحسر على فواتها قبل حصولها وبعد حصولها، والآلام التى فى خلال ذلك - ما لا يشعر به القلب، لسكرته، وانغماسه فى السكر. فهو لا يصحو ساعة إلا أحس وشعر بهذا الألم. فبادر إلى إزالته بسكر ثان. فهو هكذا مدة حياته. وأى عيشة أضيق من هذه لو كان للقلب شعور؟.

فقلوب أهل البدع، والمعرضين عن القرآن، وأهل الغفلة عن الله، وأهل المعاصى: فى جحيم قبل الجحيم الأكبر. وقلوب الأبرار فى نعيم قبل النعيم الأكبر ﴿إن الأبرار لفى نعيم. وإن الفجار لفى جحيم﴾[4] هذا فى دورهم الثلاث. ليس مختصاً بالدار الآخرة. وإن كان تمامه وكماله وظهوره: إنما هو فى الدار الآخرة، وفى البرزخ دون ذلك. كما قال تعالى: ﴿وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك﴾[5] وقال تعالى: ﴿ويقولون متى هذا الوعد، إن كنتم صادقين قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذين تستعجلون﴾[6].

وفى هذه الدار دون ما فى البرزخ، ولكن يمنع من الإحساس به: الاستغراق فى سكرة الشهوات، وطرح ذلك عن القلب، وعدم التفكير فيه.

والعبد قد يصيبه ألم حسى فيطرحه عن قلبه، ويقطع التفاته عنه. ويجعل إقباله على غيره. لئلا يشعر به جملة. فلو زال عنه ذلك الالتفات، لصاح من شدة الألم. فما الظن بعذاب القلوب وآلامها؟!

وقد جعل الله سبحانه للحسنات والطاعات آثاراً محبوبة لذيذة طيبة. لذتها فوق لذة المعصية بأضعاف مضاعفة. لا نسبة لها إليها. وجعل للسيئات والمعاصى آلاماً وآثاراً مكروهة، وحزازات تربى على لذة تناولها بأضعاف مضاعفة. قال ابن عباس «إن للحسنة نوراً فى القلب، وضياء فى الوجه، وقوة فى البدن. وزيادة فى الرزق، ومحبة فى قلوب الخلق. وإن للسيئة سواداً فى الوجه. وظلمة فى القلب ووهناً فى البدن ونقصاً فى الرزق وبغضة فى قلوب الخلق» وهذا يعرفه صاحب البصيرة. ويشهده من نفسه ومن غيره.

---

(1) سورة الزمر الآية ١٠.
(2) سورة هود الآية ٣
(3) سورة طه الآية ١٢٤.
(4) سورة الانفطار الآية (١٣-١٤).
(5) سورة الطور الآية ٤٧
(6) سورة النمل الآية (٧١-٧٢).
(٤) سورة الشورى الآية ٣.

فما حصل للعبد حال مكروهة قط إلا بذنب. وما يعفو الله عنه أكثر. قال الله تعالى: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم. ويعفو عن كثير﴾[1] وقال لخيار خلقه وأصحاب نبيه ﴿أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم: أنى هذا قل هو من عند أنفسكم﴾[2] وقال: ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾[3].

والمراد بالحسنة والسيئة هنا: النعم والمصائب التى تصيب العبدمن الله. ولهذا قال: «ما أصابك» ولم يقل: ما أصبت.

فكل نقص وبلاء وشر فى الدنيا والآخرة. فسببه الذنوب، ومخالفة أوامر الرب، فليس فى العالم شر قط إلا الذنوب وموجباتها.

وآثار الحسنات والسيئات فى القلوب والأبدان والأموال: أمر مشهود فى العالم. لا ينكره ذو عقل سليم. بل يعرفه المؤمن والكافر، والبر والفاجر.

وشهود العبد هذا فى نفسه وفى غيره، وتأمله ومطالعته: مما يقوى إيمانه بما جاءت به الرسل. وبالثواب والعقاب. فإن هذا عدل مشهود محسوس فى هذا العالم. ومثوبات وعقوبات عاجلة دالة على ما هو أعظم منها لمن كانت له بصيرة كما قال بعض الناس: إذا صدر منى ذنب ولم أبادره. ولم أتداركه بالتوبة: انتظرت أثره السيء. فإذا أصابنى - أو فوقه أو دونه - كما حسبت. يكون هجيراى: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. ويكون ذلك من شواهد الإيمان وأدلته. فإن الصادق متى أخبرك أنك إذا فعلت كذا وكذا. فجعلت كلما فعلت شيئاً من ذلك حصل لك ما قال من المكروه، ولم تزدد إلا علماً بصدقه وبصيرة فيه. وليس هذا لكل أحد. بل أكثر الناس ترين الذنوب على قلبه. فلا يشهد شيئاً من ذلك ولا يشعر به ألبتة.

وإنما يكون هذا لقلب فيه نور الإيمان، وأهوية الذنوب والمعاصى تعصف فيه. فهو يشاهد هذا وهذا. ويرى حال مصباح إيمانه مع قوة تلك الأهوية والرياح. فيرى نفسه كراكب البحر عند هيجان الرياح، وتقلب السفينة وتكفئها ولا سيما إذا انكسرت به وبقى على لوح تلعب به الرياح، فهكذا المؤمن يشاهد نفسه عند ارتكاب الذنوب، إذا أريد به الخير، وإن أريد به غير ذلك فقلبه فى واد آخر.

ومتى انفتح هذا الباب للعبد: انتفع بمطالعة تاريخ العالم، وأحوال الأمم. ومجريات الخلق. بل انتفع بمجريات أهل زمانه وما يشاهده من أحوال الناس وفهم حينئذ معنى قوله تعالى: ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾[4] وقوله: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو

---

(1) سورة الشورى الآية ٣٠ .
(2) سورة آل عمران الآية ١٦٥
(3) سورة النساء الآية ٧٩.
(4) سورة الرعد الآية ٣٣

والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط. لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾[1] فكل ما تراه فى الوجود - من شر وألم وعقوبة وجدب، ونقص فى نفسك وفى غيرك - فهو من قيام الرب تعالى بالقسط. وهو عدل الله وقسطه، وإن أجراه على يد ظالم. فالمسلط له أعدل العادلين، كما قال تعالى لمن أفسد فى الأرض: ﴿بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار﴾ الآية[2].

فالذنوب مثل السموم مضرة بالذات فإن تداركها من سقى بالأدوية المقاومة لها، وإلا قهرت القوة الإيمانية، وكان الهلاك. كما قال بعض السلف «المعاصى بريد الكفر، كما أن الحمى بريد الموت».

فشهود العبد نقص حاله إذا عصى ربه، وتغير القلوب عليه، وجفولها منه وانسداد الأبواب فى وجهه، وتوعر المسالك عليه، وهوانه على أهل بيته وأولاده وزوجته وإخوانه، وتطلبه ذلك حتى يعلم من أين أتى؛ ووقوعه على السبب الموجب لذلك مما يقوى إيمانه. فإن أقلع وباشر الأسباب التى تفضى به إلى ضد هذه الحال، رأى العز بعد الذل، والغنى بعد الفقر، والسرور بعد الحزن، والأمن بعد الخوف، والقوة فى قلبه بعد ضعفه ووهنه - ازداد إيماناً مع إيمانه. فتقوى شواهد الإيمان فى قلبه وبراهينه وأدلته فى حال معصيته وطاعته. فهذا من الذين قال الله فيهم ﴿ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون﴾[3].

وصاحب هذا المشهد متى تبصر فيه، وأعطاه حقه صار من أطباء القلوب العالمين بدائها ودوائها. فنفعه الله فى نفسه. ونفع به من شاء من خلقه. والله أعلم.

(المشهد العاشر: مشهد الرحمة)

فإن العبد إذا وقع فى الذنب خرج من قلبه تلك الغلظة والقسوة، والكيفية الغضبية التى كانت عنده لمن صدر منه ذنب، حتى لو قدر عليه لأهلكه، وربما دعا الله عليه أن يهلكه ويأخذه، غضباً منه لله، وحرصاً على أن لا يعصى فلا يجد فى قلبه رحمة للمذنبين الخاطئين. ولا يراهم إلا بعين الاحتقار والازدراء. ولا يذكرهم إلا بلسان الطعن فيهم، والعيب لهم والذم. فإذا جرت عليه المقادير وخلى ونفسه استغاث الله والتجأ إليه. وتململ بين يديه تململ السليم. ودعاه دعاء المضطر. فتبدلت تلك الغلظة على المذنبين رقة. وتلك القساوة على الخاطئين رحمة وليناً مع قيامه بحدود الله. وتبدل دعاؤه عليهم دعاء لهم وجعل لهم وظيفة من عمره. يسأل الله أن يغفر لهم.

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٨.
(٢) سورة الاسراء الآية ٥.
(٣) سورة الزمر الآية ٣٥.

فما أنفعه له من مشهد وما أعظم جدواه عليه. والله أعلم.

(فيورثه ذلك: المشهد الحادى عشر)

وهو مشهد العجز والضعف، وأنه أعجز شيء عن حفظ نفسه وأضعفه، وأنه لاقوة له ولا قدرة ولا حول إلا بربه. فيشهد قلبه كريشة ملقاة بأرض فلاة تقلبها الرياح يميناً وشمالاً. ويشهد نفسه كراكب سفينة فى البحر تهيج بها الرياح وتتلاعب بها الأمواج، ترفعها تارة. وتخفضها تارة أخرى. تجرى عليها أحكام القدر. وهو كالآلة طريحاً بين يدى وليه، ملقى ببابه، واضعاً خده على ثرى أعتابه. لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً. ليس له من نفسه إلا الجهل والظلم وآثارهما ومقتضياتهما. فالهلاك أدنى إليه من شراك نعله. كشاة ملقاة بين الذئاب والسباع. لا يردها عنها إلا الراعى. فلو تخلى عنها طرفة عين لتقاسموها أعضاءاً.

وهكذا حال العبد ملقى بين الله وبين أعدائه، من شياطين الإنس والجن فإن حماه منهم وكفهم عنه لم يجدوا إليه سبيلاً. وإن تخلى عنه ووكله إلى نفسه طرفة عين لم ينقسم عليهم، بل هو نصيب من ظفر به منهم.

وفى هذا المشهد يعرف نفسه حقاً، ويعرف ربه. وهذا أحد التأويلات للكلام المشهور «من عرف نفسه عرف ربه» وليس هذا حديثاً عن رسول الله ﷺ. إنما هو أثر إسرائيلى[1] بغير هذا اللفظ أيضاً «يا إنسان اعرف نفسك تعرف ربك» وفيه ثلاث تأويلات

أحدها: أن من عرف نفسه بالضعف عرف ربه بالقوة. ومن عرفها بالعجز عرف ربه بالقدرة. ومن عرفها بالذل. عرف ربه بالعز. ومن عرفها بالجهل. عرف ربه بالعلم. فإن الله سبحانه استأثر بالكمال المطلق، والحمد والثناء، والمجد والغنى. والعبد فقير ناقص محتاج. وكلما ازدادت معرفة العبد بنقصه وعيبه وفقره وذله وضعفه ازدادت معرفته لربه بأوصاف كماله.

التأويل الثانى: أن من نظر إلى نفسه وما فيها من الصفات الممدوحة من القوة والإرادة والكلام والمشيئة والحياة، عرف أن من أعطاه ذلك وخلقه فيه أولى به. فمعطى الكمال أحق بالكمال. فكيف يكون العبد حياً متكلماً سميعاً بصيراً مريداً عالماً، ، يفعل باختياره، ومن خلقه وأوجده لا يكون أولى بذلك منه؟ فهذا من أعظم المحال. بل من جعل العبد متكلماً أولى أن يكون هو متكلماً ومن جعله حياً عليماً سميعاً بصيراً فاعلاً قادراً، أولى أن يكون كذلك. فالتأويل الأول من باب الضد. وهذا من باب الأولوية.

---

(٤) أى ورد فى كتب بنى إسرائيل

والتأويل الثالث: أن هذا من باب النفي. أي كما أنك لا تعرف نفسك التي هي أقرب الأشياء إليك. فلا تعرف حقيقتها، ولا ماهيتها ولا كيفيتها فكيف تعرف ربك وكيفية صفاته؟.

والمقصود: أن هذا المشهد يُعرِّفُ العبد أنه عاجز ضعيف. فتزول عنه رعونات الدعاوى، والإضافات إلى نفسه، ويعلم أنه ليس له من الأمر شيء، إن هو إلا محض القهر والعجز والضعف.

(فحينئذ يطلع منه على: المشهد الثانى عشر)

وهو مشهد الذل، والانكسار، والخضوع، والافتقار للرب جل جلاله. فيشهد فى كل ذرة من ذراته الباطنة والظاهرة ضرورة تامة، وافتقاراً تاماً إلى ربه ووليه، ومن بيده صلاحه وفلاحه، وهداه وسعادته. وهذه الحال التى تحصل لقلبه لا تنال العبارة حقيقتها. وإنما تدرك بالحصول. فيحصل لقلبه كسرة خاصة لا يشبهها شيء. بحيث يرى نفسه كالإناء المرضوض تحت الأرجل، الذى لا شيء فيه، ولا فيه منفعة، ولا يرغب فى مثله. وأنه لا يصلح للانتفاع إلا بجبر جديد من صانعه وقيّمه. فحينئذ يستكثر فى هذا المشهد ما من ربه إليه من الخير. ويرى أنه لا يستحق قليلاً منه ولا كثيراً.. فأى خير له من الله استكثره على نفسه. وعلم أن قدره دونه، وأن رحمة ربه هى التى اقتضت ذكره به وسياقته إليه. واستقل ما من نفسه من الطاعات لربه، ورآها - ولو ساوت طاعات الثقلين - من أقل ما ينبغى لربه عليه. واستكثر قليل معاصيه وذنوبه. فإن الكسرة التى حصلت لقلبه أوجبت هذا كله.

فما أقرب الجبر من هذا القلب المكسور! وما أدنى النصر والرحمة والرزق منه! وما أنفع هذا المشهد له وأجداه عليه! وذرة من هذا ونفس منه أحب إلى الله من طاعات أمثال الجبال من المدلين المعجبين بأعمالهم وعلومهم وأحوالهم وأحب القلوب إلى الله سبحانه قلب قد تمكنت منه هذه الكسرة. وملكته هذه الذلة. فهو ناكس الرأس بين يدى ربه. لا يرفع رأسه إليه حياء وخجلاً من الله. قيل لبعض العارفين: أيسجد القلب؟ قال نعم يسجد سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم اللقاء. فهذا سجود القلب

فقلب لا تباشره هذه الكسرة فهو غير ساجد السجود المراد منه وإذا سجد القلب لله - هذه السجدة العظمى -سجدت معه جميع الجوارح وعنا الوجه حينئذ للحى القيوم وخشع الصوت والجوارح كلها وذل العبد وخضع واستكان، ووضع خده على عتبة العبودية، ناظراً بقلبه إلى ربه ووليه نظر الذليل إلى العزيز الرحيم فلا يُرى إلا متملقاً لربه خاضعاً له، ذليلاً مستعطفاً له. يسأله عطفه ورحمته. فهو يترضى ربه كما يترضى المحب الكامل المحبة محبوبه المالك له. الذى لا غنى له عنه. ولا بد له منه. فليس له هم غير استرضائه

واستعطافه. لأنه لا حياة له ولا فلاح إلا فى قربه ورضاه عنه، ومحبته له، يقول: كيف أغضب من حياتى فى رضاه؟ وكيف أعدل عمن سعادتى وفلاحى وفوزى فى قربه وحبه وذكره؟.

وصاحب هذا المشهد يشهد نفسه كرجل كان فى كنف أبيه يغذوه بأطيب الطعام والشراب واللباس، ويربيه أحسن التربية، ويرقيه على درجات الكمال أتم ترقية. وهو القيم بمصالحه كلها. فبعثه أبوه فى حاجة له. فخرج عليه فى طريقه عدو. فأسره وكتّفه وشدّه وثاقاً. ثم ذهب به إلى بلاد الأعداء فسامه سوء العذاب. وعامله بضد ما كان أبوه يعامله به. فهو يتذكر تربية والده وإحسانه إليه الفينة بعد الفينة. فتهيج من قلبه لواعج الحسرات كلما رأى حاله. ويتذكر ما كان عليه وكل ما كان فيه. فبينا هو فى أسر عدوه يسومه سوء العذاب، ويريد نحره فى آخر الأمر. إذ حانت منه التفاتة إلى نحو ديار أبيه. فرأى أباه منه قريباً. فسعى إليه. وألقى نفسه عليه، وانطرح بين يديه. يستغيث: يا أبتاه، يا أبتاه انظر إلى ولدك وما هو فيه. ودموعه تستبق على خديه، قد اعتنقه والتزمه، وعدوه فى طلبه، حتى وقف على رأسه. وهو ملتزم لوالده ممسك به. فهل تقول: إن والده يسلمه مع هذه الحال إلى عدوه، ويخلى بينه وبينه؟ فما الظن بمن هو أرحم بعبده من الوالد بولده، ومن الوالدة بولدها؟ إذا فرَّ عبد إليه، وهرب من عدوه إليه، وألقى بنفسه طريحاً ببابه. يمرغ خده فى ثرى أعتابه باكياً بين يديه، يقول: يارب، يارب، ارحم من لا راحم له سواك، ولا ناصر له سواك، ولا مؤوى له سواك. ولا مغيث له سواك. مسكينك وفقيرك، وسائلك ومؤملك ومرجيك. لا ملجأ له ولا منجا له منك إلا إليك. أنت معاذه وبك ملاذه.

يـــــامن ألوذ به فيـما أؤمـله ... ومـن أعـوذ به ممـا أحـاذره

لا يجبر النـاس عظماً أنت كاسره ... ولا يهيضون عظماً أنت جابره

فإذا استبصر فى هذا المشهد، وتمكن من قلبه وباشره وذاق طعمه وحلاوته ترقى منه إلى:

(المشهد الثالث عشر)

وهو الغاية التى شمَّر إليها السالكون. وأمّها القاصدون. ولحظ إليها العاملون.

وهومشهد العبودية والمحبة، والشوق إلى لقائه، والابتهاج به، والفرح والسرور به فتقر عينه، ويسكن إليه قلبه وتطمئن إليه جوارحه ويستولى ذكره على لسان محبه وقلبه فتصير خطرات المحبة مكان خطرات المعصية. وإرادات التقرب إليه وإلى مرضاته، مكان إرادة معاصيه ومساخطه، وحركات اللسان والجوارح بالطاعات، مكان حركاتها بالمعاصى قد امتلأ

قلبه من محبته. ولهج لسانه بذكره. وانقادت الجوارح لطاعته. فإن هذه الكسرة الخاصة لها تأثير عجيب فى المحبة لا يُعبّر عنه

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رضى الله عنه يقول من أراد السعادة الأبدية، فليلزم عتبة العبودية.

والقصد: أن هذه الذلة والكسرة الخاصة تدخله على الله، وترميه على طريق المحبة فيفتح له منها باب لا يفتح له من غير هذه الطريق وإن كانت طرق سائر الأعمال والطاعات تفتح للعبد أبواباً من المحبة لكن الذى يُفتَح منها من طريق الذل والانكسار والافتقار وازدراء النفس، ورؤيتها بعين الضعف والعجز والعيب والنقص والذم، بحيث يشاهدها ضيعة وعجزاً، وتفريطاً وذنباً وخطيئة: نوع آخر وفتح آخر. والسالك بهذه الطريق غريب فى الناس. وهم فى وادٍ وهو فى وادٍ. وهى تسمى طريق الطير، يسبق النائم فيها على فراشه السعادة. فيصبح وقد قطع الطريق. و سبق الركب بينا هو يحدثك. إذا به قد سبق الطرف وفات السعاة. فالله المستعان. و هوخير الغافرين.

و هذا الذى حصل له من آثار محبة الله له، و فرحه بتوبة عبده. فإنه سبحانه يحب التوابين، و يفرح بتوبتهم أعظم فرح و أكمله.

فكلما طالع العبد منن ربه سبحانه عليه قبلَ الذنب، و فى حال مواقعته، و بعده وبِرَّه به و حلمه عنه، و إحسانه إليه هاجت من قلبه لواعج محبته و الشوق إلى لقائه فإن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها. و أى إحسان أعظم من إحسان من يبارزه العبد بالمعاصى، و هو يمده بنعمه، و يعامله بألطافه، و يُسْبِل عليه ستره. و يحفظه من خطفات أعدائه المترقبين له أدنى عثرة ينالون منه بها بغيتهم، و يردهم عنه. و يحول بينهم و بينه؟

و لنقتصر على هذا القدر من ذكر «التوبة» و أحكامها و ثمراتها. فإنه ما أطيل الكلام فيها إلا لفرط الحاجة والضرورة إلى معرفتها، و معرفة أحكامها،و تفاصيلها ومسائلها. و الله الموفق لمراعاة ذلك. و القيام به عملاً و حالاً. كما وفق له علماً و معرفة فما خاب من توكل عليه. ولاذَ به و لجأ إليه. ولا حول ولا قوة إلا بالله

(منزلة التوبة)

قد علمت أن من نزل فى منزل «التوبة» و قام فى مقامها نزل فى جميع منازل الإسلام. فإن «التوبة» الكاملة متضمنة لها و هى مندرجة فيها. و لكن لا بد من إفرادها بالذكر و التفصيل تقييناً لحقائقها و خواصها و شروطها.

فإذا استقرت قدمه فى منزل «التوبة» نزل بعده منزل «الإنابة» و قد أمر الله تعالى بها

في كتابه. و أثنى على خليله بها، فقال ﴿ و أنيبوا إلى ربكم﴾[1] و قال: ﴿إنّ إبراهيمَ لحليمٌ أوّاهٌ منيب﴾[2] و اخبر ان آياته إنما يتبصر بها و يتذكر أهل الإنابة. فقال ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها و زيناها - إلى أن قال - تبصرةً و ذكرى لكلّ عبد منيب﴾[3] . و قال تعالى: ﴿هو الذى يُريكم اياته و يُنزّل لكم من السماء رزقاً، و ما يتذكرُ إلا مَنْ ينيب﴾[4] و قال تعالى: ﴿منيبين إليه و اتقوه. و أقيموا الصلاة﴾ الآية[5].

و قال عن نبيه داود: ﴿فاستغفر ربه و خرّ راكعاً و أنابِ﴾[6] واخبر أن ثوابه وجنته لأهل الخشية و الإنابة. فقال: ﴿ و أُزلفت الجنةُ للمتقين غيرَ بعيد. هذا ما توعدون لكل أوّاب حفيظ. من خشي الرحمن بالغيب و جاء بقلب منيب ادخلوها بسلام﴾[7] و اخبر سبحانه أن البشرى منه إنما هى لأهل الإنابة. فقال: ﴿و الذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها و أنابوا إلى الله لهم البشرى﴾[8]

(أنـــواع الإنابة)

و« الإنابة» إنابتان: إنابة لربوبيته. و هى إنابة المخلوقات كلها. يشترك فيها المؤمن و الكافر، و البر و الفاجر. قال الله تعالى: ﴿و إذا مسّ الناسَ ضرٌ دعوا ربهم منيبين إليه﴾[9] فهذا عامّ فى حق كل داع أصابه ضر. كما هو الواقع. و هذه « الإنابة» لا تستلزم الإسلام، بل تجامع الشرك و الكفر. كما قال تعالى فى حق هؤلاء: ﴿ثم إذا أذاقهم منه رحمةً إذا فريقٌ منهم بربهم يُشركونَ. ليكفروا بما آتيناهم﴾[10] فهذا حالهم بعد إنابتهم.

و « الإنابة» الثانية إنابة أوليائه. و هى إنابة لإلاهيته، إنابة عبودية و محبة.

و هى تتضمن أربعة أمور: محبته، و الخضوع له، و الإقبال عليه، و الإعراض عما سواه. فلا يستحق اسم «المنيب» إلا من اجتمعت فيه هذه الأربع. و تفسير السلف لهذه اللفظة يدور على ذلك.

و فى اللفظة معنى الإسراع و الرجوع و التقدم. و «المنيب» إلى الله. المسرع إلى مرضاته، الراجع إليه كل وقت، المتقدم إلى محابه.

(علامات الإنابة)

و من علامات الإنابة: ترك الاستهانة بأهل الغفلة والخوف عليهم، مع فتحك باب الرجاء لنفسك. فترجو لنفسك الرحمة، و تخشى على أهل الغفلة النقمة، و لكن أرجُ لهم

---

(١) سورة الزمر الآية ٥٤. (٢) سورة هود الآية ٧٥. (٣) سورة ق الآية (٦-٨)
(٤) سورة غافر ١٤. (٥) سورة الروم الآية ٣١. (٦) سورة ص الآية ٢٤
(٧) سورة ق الآية (٣١-٣٤). (٨) سورة الزمر الآية ١٧. (٩) سورة الروم الآية ٣٣.
(١٠) سورة الروم الآية (٣٣ ـ ٣٤).

الرحمة. و اخشَ على نفسك النقمة. فإن كنت لا بد مستهيناً بهم ماقتاً لهم لانكشاف أحوالهم لك، و رؤية ما هم عليه. فكن لنفسك أشد مقتاً منك لهم و كن أرجى لهم لرحمة الله منك لنفسك

قال بعض السلف لن تفقه كل الفقه حتى تمقت الناس في ذات الله. ثم ترجع إلى نفسك فتكون لها أشد مقتاً

و هذا الكلام لا يفقه معناه إلا الفقيه في دين الله فإن من شهد حقيقة الخلق، وعجزهم و ضعفهم و تقصيرهم، بل تفريطهم، و إضاعتهم لحق الله، و إقبالهم على غيره، و بيعهم حظهم من الله بأبخس الثمن من هذا العاجل الفاني - لم يجد بداً من مقتهم. ولا يمكنه غير ذلك ألبتة. و لكن إذا رجع إلى نفسه وحاله و تقصيره، و كان على بصيرة من ذلك كان لنفسه أشد مقتاً و استهانة فهذا هو الفقيه

و أما الاستقصاء في رؤية علل الخدمة: فهو التفتيش عما يشوبها من حظوظ النفس، و تمييز حق الرب منها من حظ النفس. و لعل أكثرها - أو كلها - أن تكون حظاً لنفسك و أنت لا تشعر.

فلا إله إلا الله كم في النفوس من علل و أغراض و حظوظ تمنع الأعمال أن تكون لله خالصة، و أن تصل إليه و إن العبد ليعمل العمل حيث لا يراه بشر ألبتة، وهو غير خالص لله. و يعمل العمل و العيون قد استدارت عليه نطاقاً، وهو خالص لوجه الله. ولا يميز هذا إلا أهل البصائر و أطباء القلوب العالمون بأدوائها و عللها

فبين العمل و بين القلب مسافة و في تلك المسافة قُطّاع تمنع وصول العمل إلى القلب. فيكون الرجل كثير العمل وما وصل منه إلى قلبه محبة و لا خوف و لا رجاء، و لا زهد في الدنيا و لا رغبة في الآخرة. و لا نور يفرق به بين أولياء الله و أعدائه، و بين الحق و الباطل ولا قوة في أمره: فلو وصل أثر الأعمال إلى قلبه لاستنار وأشرق ورأى الحق والباطل. و ميز بين أولياء الله و أعدائه. و أوجب له ذلك المزيد من الأحوال

ثم بين القلب و بين الرب مسافة و عليها قطاع تمنع وصول العمل إليه. من كبر وإعجاب و إدلال، و رؤية العمل، و نسيان المنة و علل خفية لو استقصى في طلبها لرأى العجب و من رحمة الله تعالى سترها على أكثر العمال، إذ لو رأوها و عاينوها لوقعوا فيما هو أشد منها، من اليأس والقنوط و الاستحسار، و ترك العمل، و خمود العزم، وفتور الهمة. والطبيب الحاذق يعلم كيف يطب النفوس. فلا يعمر قصراً و يهدم مصراً

(منزلة التذكر)

ثم ينزل القلب منزلة « التذكر » وهو قرين الإنابة. قال الله تعالى: ﴿وما يتذكر إلا مَنْ ينيب﴾[1] و قال: ﴿تبصرة و ذكرى لكل عبد منيب﴾[2] و هو من خواص أولى الألباب. كما قال تعالى: ﴿إنما يتذكر أولو الألباب﴾[3] و قال تعالى: ﴿و ما يذَّكر إلا أولُوا الألباب﴾[4]

و «التذكر» و «التفكر» منزلان يثمران أنواع المعارف، و حقائق الإيمان والإحسان. والعارف لا يزال يعود بتفكره على تذكره، و بتذكره على تفكره، حتى يفتح قفل قلبه بإذن الفتاح العليم. قال الحسن البصرى: ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر، و بالتفكر على التذكر، و يناطقون القلوب حتى نطقت.

(التذكر و التفكر)

منزلة « التذكر » من « التفكر » منزلة حصول الشيء المطلوب بعد التفتيش عليه. ولهذا كانت آيات الله المتلوة و المشهودة ذكرَى. كما قال فى المتلوة ﴿و لقد آتينا موسى الهدى و أورثنا بنى إسرائيل الكتاب. هدىً و ذكرى لأولى الألباب﴾[5] و قال عن القرآن: ﴿ و إنّه لتذكرة للمتقين﴾[6] و قال فى آياته المشهودة ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها و زيناها و ما لها من فروج. والأرض مددناها و ألقينا فيها رواسى. وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج. تبصرة و ذكرى لكل عبد منيب﴾ [7]

فـ«التبصرة» آلة البصر، و «التذكرة» آلة الذكر. و قرن بينهما و جعلهما لأهل الإنابة. لأن العبد إذا أناب إلى الله أبصر مواقع الآيات و العبر. فاستدل بها على ما هى آيات له. فزال عنه الإعراض بالإنابة، و العمى بالتبصرة، و الغفلة بالتذكرة. لأن التبصرة توجب له حصول صورة المدلول فى القلب بعد غفلته عنها. فترتيب المنازل الثلاثة أحسن ترتيب، ثمّ إن كلاً منها يمد صاحبه و يقويه و يثمره.

و قال تعالى فى آياته المشهودة ﴿و كم أهلكنا قبلهم من قَرْن هُمْ أَشَدُّ منهم بطشاً. فنقبوا فى البلاد، هل من محيص إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمع و هو شهيد﴾[8] .

و الناس ثلاثة رجل قلبه ميت. فذلك الذى لا قلب له فهذا ليست هذه الآية ذكرى

---

(١) سورة المؤمنون الآية: ١٣. (٢) سورة ق الآية: ٨. (٣) سورة الرعد الآية: ١٩.
(٤) سورة البقرة الآية ٢٦٩. (٥) سورة غافر الآية: ٥٤ (٦) سورة الحاقة الآية: ٤٨
(٧) سورة ق الآية (٥-٨). (٨) سورة ق الآية (٣٦-٣٧).

فى حقه.

الثانى: رجل له قلب حيّ مستعد، لكنه غير مستمع للآيات المتلوة، التى يخبر بها الله عن الآيات المشهودة: إما لعدم ورودها، أو لوصولها إليه، و لكن قلبه مشغول عنها بغيرها. فهو غائب القلب، ليس حاضراً. فهذا أيضاً لا تحصل له الذكرى، مع استعداده ووجود قلبه

و الثالث: رجل حى القلب مستعد. تليت عليه الآيات. فأصغى بسمعه، و ألقى السمع و أحضر قلبه. و لم يشغله بغير فهم ما يسمعه. فهو شاهد القلب. ملقِ السمع. فهذا القسم هو الذى ينتفع بالآيات المتلوة و المشهودة.

فالأول: بمنزلة الأعمى الذى لا يبصر.

و الثانى: بمنزلة البصير الطامح ببصره إلى غير جهة المنظور إليه، فكلاهما لا يراه.

و الثالث: بمنزلة البصير الذى قد حدّق إلى جهة المنظور، و أتبعه بصره و قابله على توسط من البعد و القرب. فهذا هو الذى يراه

فسبحان من جعل كلامه شفاء لما فى الصدور

(أبنية التذكر)

قال صاحب المنازل:

«أبنية التذكر ثلاثة: الانتفاع بالعظة. و الاستبصار بالعبرة. و الظفر بثمرة الفكرة»

الانتفاع بالعظة: هو أن يقدح فى القلب قادح الخوف و الرجاء، فيتحرك للعمل طلباً للخلاص من الخوف، ورغبة فى حصول المرجوّ.

و «العظة» هى الأمر و النهى، المعروف بالترغيب و الترهيب

و «العظة» نوعان: عظة بالمسموع، و عظة بالمشهود. فالعظة بالمسموع: الانتفاع بما يسمعه من الهدى و الرشد، و النصائح التى جاءت على لسان الرسل و ما أوحى إليهم. و كذلك الانتفاع بالعظة من كل ناصح و مرشد فى مصالح الدين و الدنيا.

و «العظة» بالمشهود: الانتفاع بما يراه و يشهده فى العالم من مواقع العبر، وأحكام القدر، و مجاريه و ما يشاهده من آيات الله الدالة على صدق رسله.

و أما استبصار العبرة: فهو زيادة البصيرة عما كانت عليه فى منزل التفكر بقوة الاستحضار. لأن التذكر يعتقل المعانى التى حصلت بالتفكر فى مواقع الآيات و العبر فهو يظفر بها بالتفكر و تنصقل له و تنجلى بالتذكر. فيقوى العزم على السير بحسب قوة

الاستبصار. لأنه يوجب تحديد النظر فيما يحرك المطلب إذ الطلب فرع الشعور. فكلما قوى الشعور بالمحبوب اشتد سفَرّ القلب إليه. و كلما اشتغل الفكر به ازداد الشعور به والبصيرة فيه. والتذكر له.

و أما الظفر بثمرة الفكرة: فهذا موضع لطيف.

و للفكر ثمرتان: حصول المطلوب تاماً بحسب الإمكان، و العمل بموجبه رعاية لحقه. فإن القلب حال التفكر كان قد كَلّ بأعماله فى تحصيل المطلوب. فلما حصلت له المعانى و تخمرت فى القلب، و استراح العقل عاد فتذكر ما كان حصّله و طالعه. فابتهج به و فرح به. و صحح فى هذا المنزلة ما كان فاته فى منزل التفكر. لأنه قد أشرف عليه فى مقام التذكر، الذى هو أعلى منه. فأخذ حينئذ فى الثمرة المقصودة. و هى العمل بموجبه مراعاة لحقه. فإن العمل الصالح: هو ثمرة العلم النافع، الذى هو ثمرة التفكر.

و إذا أردت فهم هذا بمثال حسى. فطالبُ المال ما دام جاداً فى طلبه. فهو فى كلال وتعب. حتى إذا ظفر به استراح من كَدّ الطلب. و قَدِمَ من سفر التجارة. فطالع ما حصله وأبصره. و صحح فى هذا الحال ما عساه غلط فيه فيحال اشتغاله بالطلب. فإذا صح له ويردت غنيمته له، أخذ فى صرف المال فى وجوه الانتفاع المطلوبة منه. و الله أعلم

(مفسدات القلب)

وأما مفسدات القلب: فهى كثرة الخلطة والتمنى. والتعلق بغير الله، والشبع، والمنام. فهذه الخمسة من أكبر مفسدات القلب.

فنذكر آثارها التى اشتركت فيها، وما تميز به كل واحد منها.

إعلم أن القلب يسير إلى الله عز وجل، والدار الآخرة، ويكشف عن طريق الحق ونهجه، وآفات النفس والعمل، وقطاع الطريق بنوره وحياته وقوته، وصحته وعزمه، وسلامة سمعه وبصره، وغيبة الشواغل والقواطع عنه. وهذه الخمسة تطفىء نوره، وتعور عين بصيرته، وتثقل سمعه، إن لم تَصُمُّه وتُبكِمَه - وتضعف قواه كلها، وتوهن صحته وتفتر عزيمته، وتوقف همته، وتنكسه إلى ورائه. ومن لا شعور له بهذا فميت القلب. وما لجرح بميت إيلام. فهى عائقة له عن نيل كماله. قاطعة له عن الوصول إلى ما خلق له وجعل نعيمه وسعادته وابتهاجه ولذته فى الوصول إليه.

فإنه لا نعيم له ولا لذة، ولا ابتهاج، ولا كمال، إلا بمعرفة الله ومحبته، والطمأنينة بذكره، والفرح والابتهاج بقربه، والشوق إلى لقائه. فهذه جنته العاجلة. كما أنه لا نعيم له فى الآخرة، ولا فوز إلا بجواره فى دار النعيم فى الجنة الآجلة. فله جنتان، . لا يدخل

الثانية منهما إن لم يدخل الأولى.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة

وقال بعض العارفين: إنه ليمر بالقلب أوقات. أقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا. إنهم لفي عيش طيب.

وقال بعض المحبين: مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها، قالوا: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله، والأنس به، والشوق إلى لقائه، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه - أو نحو هذا من الكلام.

وكل من له قلب حي يشهد هذا ويعرفه ذوقاً

وهذه الأشياء الخمسة: قاطعة عن هذا، حائلة بين القلب وبينه، عائقة له عن سيره، ومحدثة له أمراضاً وعللاً إن لم يتداركها المريض خيف عليه منها

فأما ما تؤثره كثرة الخلطة: فامتلاء القلب من دخان أنفاس بني آدم حتى يسود، ويوجب له تشتتاً وتفرقاً، وهماً وغماً، وضعفاً، وحملاً لما يعجز عن حمله من مؤنة قرناء السوء، وإضاعة مصالحه، والاشتغال عنها بهم وبأمورهم، وتقسم فكره في أودية مطالبهم وإرادتهم. فماذا يبقى منه لله والدار الآخرة؟.

هذا، وكم جلبت خلطة الناس من نقمة، ودفعت من نعمة؟ وأنزلت من محنة، وعطلت من منحة، وأحلت من رزية، وأوقعت في بلية؟ وهل آفة الناس إلا الناس؟ وهل كان على أبي طالب - عند الوفاة - أضر من قرناء السوء؟ لم يزالوا به حتى حالوا بينه وبين كلمة واحدة توجب له سعادة الأبد

وهذه الخلطة التي تكون على نوع مودة في الدنيا، وقضاء وطر بعضهم من بعض - تنقلب إذا حقت الحقائق عداوة، ويعض المخلط عليها يديه ندماً، كما قال تعالى: ﴿ويوم يعض الظالم على يديه يقول: ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً. يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً. لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني﴾ (١) وقال تعالى: ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو، إلا المتقين﴾ (٢) وقال خليله إبراهيم لقومه: ﴿إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض، ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين﴾ (٣) وهذا شأن كل مشتركين في غرض يتوادون ما داموا متساعدين على حصوله، فإذا انقطع ذلك الغرض، أعقب ندامة وحزناً

---

(١) سورة الفرقان الآية (٢٧-٢٩) (٢) سورة الزخرف الآية ٦٧ (٣) سورة العنكبوت الآية ٢٥.

وألماً. وانقلبت تلك المودة بغضاً ولعنة، وذماً من بعضهم لبعض، لما انقلب ذلك الغرض حزناً وعذاباً، كما يشاهد فى هذه الدار من أحوال المشتركين فى خزية، إذا أخذوا وعوقبوا فكل متساعدين على باطل، متوادين عليه لابد أن تنقلب مودتهما بغضاً وعداوة.

والضابط النافع فى أمر الخلطة أن يخالط الناس فى الخير - كالجمعة والجماعة، والأعياد والحج، وتعلم العلم، والجهاد، والنصيحة - ويعتزلهم فى الشر، وفضول المباحات. فإن دعت الحاجة إلى خلطتهم فى الشر، ولم يمكنه اعتزالهم: فالحذر الحذر أن يوافقهم. وليصبر على أذاهم، فإنهم لابد أن يؤذوه إن لم يكن له قوة ولا ناصر. ولكن أذى يعقبه عز ومحبة له وتعظيم، وثناء عليه منهم ومن المؤمنين ومن رب العالمين. وموافقتهم يعقبها ذل وبغض له، ومقت، وذم منهم ومن المؤمنين، ومن رب العالمين.

فالصبر على أذاهم خير وأحسن عاقبة، وأحمد مآلا، وإن دعت الحاجة إلى خلطتهم فى فضول المباحات. فليجتهد أن يقلب ذلك المجلس طاعة لله، إن أمكنه، ويشجع نفسه ويقوى قلبه، ولا يلتفت إلى الوارد الشيطانى القاطع له عن ذلك، بأن هذا رياء ومحبة لإظهار علمك وحالك، ونحو ذلك فليحاربه وليستعن بالله ويؤثر فيهم من الخير ما أمكنه

فإن أعجزته المقادير عن ذلك، فليسل قلبه من بينهم كسل الشعرة من العجين، وليكن فيهم حاضراً غائباً، قريباً بعيداً، نائماً يقظاناً. ينظر إليهم ولا يبصرهم، ويسمع كلامهم ولا يعيه، لأنه قد أخذ قلبه من بينهم، ورقى به إلى الملأ الأعلى، يسبح حول العرش مع الأرواح العلوية الزكية. وما أصعب هذا وأشقه على النفوس، وإنه ليسير على من يسره الله عليه. فبين العبد وبينه أن يصدق الله تبارك وتعالى، ويديم اللجأ إليه، ويلقى نفسه على بابه طريحاً ذليلاً، ولا يعين على هذا إلا محبة صادقة، والذكر الدائم بالقلب واللسان، وتجنب المفسدات الأربع الباقية الآتى ذكرها. ولا ينال هذا إلا بعدة صالحة ومادة قوة من الله عز وجل، وعزيمة صادقة، وفراغ من التعلق بغير الله تعالى. والله تعالى أعلم.

(المفسد الثانى: من مفسدات القلب)

وكوبه بحر التمنى، وهو بحر لا ساحل له. وهو البحر الذى يركبه مفاليس العالم كما قيل: إن المنى رأس أموال المفاليس. وبضاعة ركابه مواعيد الشيطان، وخيالات المحال والبهتان. فلا تزال أمواج الأمانى الكاذبة، والخيالات الباطلة، تتلاعب براكبه كما تتلاعب الكلاب بالجيفة، وهى بضاعة كل نفس مهينة خسيسة سفلية. ليست لها همة تنال بها الحقائق الخارجية. بل اعتاضت عنها بالأمانى الذهنية. وكل بحسب حاله من متمن للقدرة والسلطان، وللضرب فى الأرض والتطواف فى البلدان، أو للأموال والأثمان، أو للنسوان

والمردان فيمثل المتمنى صورة مطلوبه فى نفسه وقد فاز بوصولها، والتذ بالظفر بها. فبينا هو على هذه الحال، إذ استيقظ فإذا يده والحصير

وصاحب الهمة العلية أمانيه حائمة حول العلم والإيمان والعمل الذى يقربه إلى الله ويدنيه من جواره

فأمانى هذا إيمان ونور وحكمة. وأمانى أولئك خدع وغرور

وقد مدح النبى ﷺ متمنى الخير. وربما جعل أجره فى بعض الأشياء كأجر فاعله، كالقائل: لو أن لى مالاً لعملت بعمل فلان الذى يتقى فى ماله ربه. ويصل فيه رحمه، ويخرج منه حقه. وقال «هما فى الأجر سواء» [1] وتمنى ﷺ فى حجة الوداع: أنه لو كان تمتع وحل ولم يسق الهدى وكان قد قرن. فأعطاه الله ثواب القران بفعله، وثواب التمتع الذى تمناه بأمنيته، فجمع له بين الأجرين

(المفسد الثالث من مفسدات القلب)

التعلق بغير الله تبارك وتعالى وهذا أعظم مفسداته على الإطلاق

فليس عليه أضر من ذلك. ولا أقطع له عن مصالحه وسعادته منه، فإنه إذا تعلق بغير الله وكله الله إلى ما تعلق به. وخذله من جهة ما تعلق به وفاته تحصيل مقصوده من الله عز وجل، بتعلقه بغيره، والتفاته إلى سواه. فلا على نصيبه من الله حصل. ولا إلى ما أمله ممن تعلق به وصل. قال الله تعالى: ﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً. كلاً سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً﴾ [2] وقال تعالى: ﴿واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون﴾ [3]

فأعظم الناس خذلاناً من تعلق بغير الله فإن ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه، أعظم مما حصل له ممن تعلق به وهو معرض للزوال والفوات. ومثل المتعلق بغير الله كمثل المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت، أوهن البيوت

وبالجملة فأساس الشرك وقاعدته التى بنى عليها التعلق بغير الله. ولصاحبه الذم و الخذلان، كما قال تعالى: ﴿ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً﴾ [4] مذموماً لا حامد لك مخذولاً لا ناصر لك إذ قد يكون بعض الناس مقهوراً محموداً كالذى قهر بباطل وقد يكون مذموماً منصوراً كالذى قهر وتسلط غيره بباطل وقد يكون محموداً

---

(١) صحيح رواه أحمد (٤/ ٢٣) والترمذى (٢٣٣٥) وابن ماجه (٤٢٢٨) عن أبى كبشة الأنمارى رضى الله عنه

(٢) سورة مريم الآية (٨١-٨٢) (٣) سورة يس: ٧٤، ٧٥ (٤) سورة الإسراء الآية ٢٢

منصوراً كالذى تمكن وملك بحق. والمشرك المتعلق بغير الله قسمه أرادأ الأقسام الأربعة، لا محمود ولا منصور

(المفسد الرابع من مفسدات القلب: الطعام)

والمفسد له من ذلك نوعان: أحدهما ما يفسده لعينه وذاته كالمحرمات. وهي نوعان محرمات لحق الله، كالميتة والدم، ولحم الخنزير، وذى الناب من السباع والمخلب من الطير. ومحرمات لحق العباد. كالمسروق والمغصوب والمنهوب. وما أخذ بغير رضى صاحبه، إما قهراً وإما حياءً وتذمماً.

والثاني: ما يفسده بقدره وتعدى حده، كالإسراف فى الحلال، والشبع المفرط، فإنه يثقله عن الطاعات. ويشغله بمزاولة مؤنة البطنة ومحاولتها، حتى يظفر بها. فإذا ظفر بها شغله بمزاولة تصرفها ووقاية ضررها، والتأذى بثقلها، وقوى عليه مواد الشهوة، وطرق مجارى الشيطان ووسعها، فإنه يجرى من ابن آدم مجرى الدم. فالصوم يضيق مجاريه ويسد عليه طرقه، والشبع يطرقها ويوسعها. ومن أكل كثيراً شرب كثيراً. فنام كثيراً. فخسر كثيراً. وفى الحديث المشهور «ما ملأ آدمى وعاءاً شراً من بطنه. بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه. فإن كان لا بد فاعلاً فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»[1] ويحكى أن إبليس - لعنه الله - عرض ليحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام، فقال له يحيى: هل نلت منى شيئاً قط؟ قال: لا. إلا أنه قدم إليك الطعام ليلة فشهيته إليك حتى شبعت منه. فنمت عن وردك. فقال يحيى: لله على أن لا أشبع من طعام أبداً. فقال إبليس وأنا، لله على أن لا أنصح آدمياً أبداً.

(المفسد الخامس كثرة النوم)

فإنه يميت القلب، ويثقل البدن، ويضيع الوقت، ويورث كثرة الغفلة والكسل. ومنه المكروه جداً. ومنه الضار غير النافع للبدن. وأنفع النوم: ما كان عند شدة الحاجة إليه. ونوم أول الليل أحمد وأنفع من آخره. ونوم وسط النهار أنفع من طرفيه. وكلما قرب النوم من الطرفين قل نفعه. وكثر ضرره. ولا سيما نوم العصر. والنوم أول النهار إلا لسهران.

ومن المكروه عندهم: النوم بين صلاة الصبح وطلوع الشمس. فإنه وقت غنيمة. وللسير ذلك الوقت عند السالكين مزية عظيمة. حتى لو ساروا طول ليلهم لم يسمحوا بالقعود عن السير ذلك الوقت حتى تطلع الشمس. فإنه أول النهار ومفتاحه. ووقت نزول

---

(١) حسن. رواه أحمد (٤/١٣٢) وابن ماجه (٣٣٤٩) والحاكم (٤/١٢١) والبغوى (٤٠٤٨) عن المقدام بن معدى كرب

الأرزاق، وحصول القسم، وحلول البركة. ومنه ينشأ النهار. وينسحب حكم جميعه على حكم تلك الحصة. فينبغى أن يكون نومها كنوم المضطر

وبالجملة فأعدل النوم وأنفعه: نوم نصف الليل الأول، وسدسه الأخير. وهو مقدار ثمان ساعات. وهذا أعدل النوم عند الأطباء. وما زاد عليه أو نقص منه أثر عندهم فى الطبيعة انحرافاً بحسبه.

ومن النوم الذى لا ينفع أيضاً: النوم أول الليل، عقيب غروب الشمس، حتى تذهب فحمة العشاء. وكان رسول الله ﷺ يكرهه.[1] فهو مكروه شرعاً وطبعاً.

وكما أن كثرة النوم مورثة لهذه الآفات، فمدافعته وهجره، مورث لآفات أخرى عظام: من سوء المزاج ويبسه، وانحراف النفس، وجفاف الرطوبات المعينة على الفهم والعمل. ويورث أمراضاً متلفة لا ينتفع صاحبها بقلبه ولا بدنه معها. وما قام الوجود إلا بالعدل. فمن اعتصم به فقد أخذ بحظه من مجامع الخير. وبالله المستعان.

(منزلة الاعتصام بالله)

ثم ينزل القلب منزلة الاعتصام.

وهو نوعان: اعتصام بالله، واعتصام بحبل الله. قال الله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً. ولا تفرقوا﴾ [2] وقال: ﴿واعتصموا بالله هو مولاكم. فنعم المولى ونعم النصير﴾[3].

و«الاعتصام» افتعال من العصمة. وهو التمسك بما يعصمك، ويمنعك من المحذور والمخوف. فالعصمة: الحمية. والاعتصام: الاحتماء. ومنه سميت القلاع: العواصم، لمنعها وحمايتها.

ومدار السعادة الدنيوية والأخروية: على الاعتصام بالله، والاعتصام بحبله. ولا نجاة إلا لمن تمسك بهاتين العصمتين.

فأما الاعتصام بحبله: فإنه يعصم من الضلالة. والاعتصام به: يعصم من الهلكة. فإن السائر إلى الله كالسائر على طريق نحو مقصده. فهو محتاج إلى هداية الطريق. والسلامة فيها فلا يصل إلى مقصده إلا بعد حصول هذين الأمرين له. فالدليل كفيل بعصمته من الضلالة، وأن يهديه إلى الطريق، والعدة والقوة والسلاح التى بها تحصل له

---

(١) عن أبى برزة الأسلمى أن رسول الله ﷺ كان يكره النوم قبل العشاء والحديث بعده» رواه البخارى (٥٦٨) وأبو داود (٤٨٤٩) والترمذى (١٦٨) وابن ماجه (٧٠١) ولفظ أبى داود «كان ينهى».

(٢) سورة آل عمران الآية ١٠٣.

(٣) سورة الحج الآية ٧٨.

السلامة من قطاع الطريق وآفاتها.

فالاعتصام بحبل الله: يوجب له الهداية واتباع الدليل. والاعتصام بالله، يوجب له القوة والعدة والسلاح، والمادة التى يستلئم بها فى طريقه. ولهذا اختلفت عبارات السلف فى الاعتصام بحبل الله، بعد إشارتهم كلهم إلى هذا المعنى.

فقال ابن عباس: تمسكوا بدين الله.

وقال ابن مسعود: هو الجماعة. وقال «عليكم بالجماعة. فإنها حبل الله الذى أمر به، وإن ما تكرهون فى الجماعة والطاعة خير مما تحبون فى الفرقة»

وقال مجاهد وعطاء «بعهد الله» وقال قتادة والسدى وكثير من أهل التفسير «هو القرآن».

وقال مقاتل: بأمر الله وطاعته، ولا تفرقوا كما تفرقت اليهود والنصارى.

وفى الموطإ عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «إن الله يرضى لكم ثلاثاً. ويسخط لكم ثلاثاً. يرضى لكم: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً. وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم. ويسخط لكم: قيل وقال. وإضاعة المال. وكثرة السؤال»[1] رواه مسلم فى الصحيح.

* * *

قال صاحب المنازل

«الاعتصام بحبل الله هو المحافظة على طاعته، مراقباً لأمره».

ويريد بمراقبة الأمر: القيام بالطاعة لأجل أن الله أمر بها وأحبها. لا لمجرد العادة، أو لعلة باعثة سوى امتثال الأمر. كما قال طلق بن حبيب فى التقوى «هى العمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وترك معصية الله على نور من الله، تخاف عقاب الله»

وهذا هو الإيمان والاحتساب، المشار إليه فى كلام النبى ﷺ كقوله «من صام رمضان إيماناً واحتساباً. ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً - غفر له»[2] فالصيام والقيام: هو الطاعة و«الإيمان» مراقبة الأمر. وإخلاص الباعث: هو أن يكون الإيمان الأمر، لا شىء سواه. و «الاحتساب» رجاء ثواب الله

---

(١) رواه مسلم (١ ٤٤) كتاب الأقضية باب: النهى عن كثرة المسائل من غير حاجة. وأحمد (٢/ ٣٦٧) ومالك فى «الموطأ» (٢/ ٩٩٠ / ٢٠).

(٢) رواه البخارى (١٩٠١) ومسلم (٧٥٠١) وأحمد (٢/ ٢٤١، ٤٧٣) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

فالإعتصام بحبل الله يحمى من البدعة وآفات العمل. والله أعلم.

وأما الاعتصام به: فهو التوكل عليه. والامتناع به، والاحتماء به، وسؤاله أن يحمى العبد ويمنعه، ويعصمه ويدفع عنه، فإن ثمرة الاعتصام به: هو الدفع عن العبد. والله يدافع عن الذين آمنوا. فيدفع عن عبده المؤمن إذا اعتصم به كل سبب يفضى به إلى العطب، ويحميه منه. فيدفع عنه الشبهات والشهوات، وكيد عدوه الظاهر والباطن، وشر نفسه. ويدفع عنه موجب أسباب الشر بعد انعقادها، بحسب قوة الاعتصام به وتمكنه. فتفقد فى حقه أسباب العطب. فيدفع عنه موجباتها ومسبباتها. ويدفع عنه قدره بقدره، وإرادته بإرادته، ويعيذه به منه.

(فصل)

(ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» «منزلة الفرار»)

قال الله تعالى: ﴿ففروا إلى الله﴾[1] وحقيقة الفرار: الهرب من شئ إلى شئ وهو نوعان: فرار السعداء وفرار الأشقياء ففرار السعداء: الفرار إلى الله عز وجل. وفرار الأشقياء! الفرار منه لا إليه. وأما الفرار منه إليه: ففرار أوليائه. قال ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿ففروا إلى الله﴾ فروا منه إليه، واعملوا بطاعته. وقال سهل بن عبد الله: فروا مما سوى الله إلى الله. وقال آخرون: اهربوا من عذاب الله إلى ثوابه بالإيمان والطاعة.

(منزلة السماع)

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «السماع».

وهو اسم مصدر كالنبات. وقد أمر الله به فى كتابه. وأثنى على أهله. وأخبر أن البشرى لهم. فقال تعالى: ﴿واتقوا الله واسمعوا﴾[2] وقال: ﴿واسمعوا وأطيعوا﴾[3] وقال: ﴿ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم﴾[4] وقال. ﴿فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله. وأولئك هم أولو الألباب﴾[5] وقال: ﴿وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا﴾[6] وقال: ﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق﴾[7].

وجعل الإسماع منه والسماع منهم دليلاً على علم الخير فيهم، وعدم ذلك دليلاً على

---

(١) سورة الذاريات الآية ٥٠ .
(٢) سورة المائدة الآية ١٠٨.
(٣) سورة التغابن الآية ١٦ .
(٤) سورة النساء الآية ٤٦ .
(٥) سورة الزمر الآية (١٧-١٨).
(٦) سورة الأعراف الآية ٢٠٤ .
(٧) سورة المائدة الآية ٨٣.

عدم الخير فيهم فقال: ﴿ولوعلم الله فيهم خيراً لأسمعهم، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون﴾[1]

وأخبر عن أعدائه. أنهم هجروا السماع ونهوا عنه. فقال. ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه﴾[2].

فالسماع رسول الإيمان إلى القلب وداعيه ومعلمه. وكم فى القرآن من قوله (أفلا يسمعون) وقال: ﴿أفلم يسيروا فى الأرض، فتكون لهم. قلوب يعقلون بها، أو آذان يسمعون بها - الآية﴾[3]

فالسماع أصل العقل، وأساس الإيمان الذى انبنى عليه. وهو رائده وجليسه ووزيره. ولكن الشأن كل الشأن فى المسموع. وفيه وقع خبط الناس واختلافهم. وغلط منهم من غلط.

وحقيقة «السماع» تنبيه القلب على معانى المسموع. وتحريكه عنها: طلباً وهرباً وحباً وبغضاً. فهو حادٍ يحدو بكل أحد إلى وطنه ومألفه.

فأما «المسموع» فعلى ثلاثة أضرب.

أحدها: مسموع يحبه الله ويرضاه وأمر به عباده. وأثنى على أهله. ورضى عنهم به

الثانى: مسموع يبغضه ويكرهه. ونهى عنه. ومدح المعرضين عنه.

الثالث: مسموع مباح مأذون فيه. لا يحبه ولا يبغضه. ولا مدح صاحبه ولاذمه. فحكمه حكم سائر المباحات من المناظر، والمشام، والمطعومات، والملبوسات المباحة. فمن حرم هذا النوع الثالث فقد قال على الله مالا يعلم. وحرم ما أحل الله. ومن جعله ديناً وقربة يتقرب به إلى الله، فقد كذب على الله، وشرع ديناً لم يأذن به الله. وضاهأ بذلك المشركين

(السماع الذى مدحه الله فى كتابه)

فأما النوع الأول: فهو السماع الذى مدحه الله فى كتابه. وأمر به وأثنى على أصحابه، وذم المعرضين عنه ولعنهم. وجعلهم أضل من الأنعام سبيلاً. وهم القائلون فى النار﴿لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير﴾[4] وهو سماع آياته المتلوة التى أنزلها على رسوله. فهذا السماع أساس الإيمان الذى يقوم عليه بناؤه. وهو على ثلاثه

---

(1) سورة الأنفال الآية ٢٣.
(2) سورة فصلت الآية ٢٦.
(3) سورة الحج الآية ٤٦.
(4) سورة الملك الآية ١٠.

أنواع. سماع إدراك: بحاسة الأذن وسماع فهم وعقل. وسماع فهم وإجابة وقبول. والثلاثة في القرآن

فأما سماع الإدراك: ففى قوله تعالى حكاية عن مؤمنى الجن قولهم ﴿إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدى إلى الرشد فآمنا به﴾[1] وقوله ﴿يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى- الآية﴾[2] فهذا سماع إدراك اتصل به الإيمان والإجابة.

وأما سماع الفهم: فهو المنفى عن أهل الاعراض والغفلة بقوله تعالي: ﴿فإنك لا تسمع الموتى. ولا تسمع الصم الدعاء﴾[3] وقوله ﴿إن الله يسمع من يشاء. وما أنت بمسمع من فى القبور﴾[4].

فالتخصيص ههنا لإسماع الفهم والعقل. وإلا فالسمع العام الذى قامت به الحجة: لا تخصيص فيه ومنه قوله تعالي﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم. ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون﴾[5] أى لو علم الله فى هؤلاء الكفار قبولاً وانقياداً لأفهمهم، وإلا فهم قد سمعوا سمع الإدراك ﴿ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون﴾ أي ولو أفهمهم لما انقادوا ولا انتفعوا بما فهموا لأن فى قلوبهم من داعى التولى والإعراض ما يمنعهم عن الانتفاع بما سمعوه.

وأما سماع القبول والإجابة: ففى قوله تعالى حكاية عن عباده المؤمنين أنهم قالوا﴿سمعنا وأطعنا﴾[6] فإن هذا سمع قبول وإجابة مثمر للطاعة.

والتحقيق: أنه متضمن للأنواع الثلاثة وأنهم أخبروا بأنهم أدركوا المسموع وفهموه واستجابوا له

ومن سمع القبول. قوله تعالي:﴿وفيكم سماعون لهم﴾[7] أى قابلون منهم مستجيبون لهم

وأيضا فإن هذا نظير قوله تعالى فى إخوانهم اليهود:﴿سماعون للكذب أكالون للسحت﴾[8] أى قابلون له

والمقصود أن سماع خاصة الخاصة المقربين هو سماع القرآن بالاعتبارات الثلاثة إدراكاً وفهماً، تدبراً، وإجابة. وكل سماع فى القرآن مدح الله أصحابه وأثنى عليهم، وأمر

---

(1) سورة الجن الآية ١.
(2) سورة الأحقاف الآية ٣
(3) سورة الروم الآية ٥٢.
(4) سورة فاطر الآية ٢٢
(5) سورة الأنفال الآية ٢٣.
(6) سورة النور الآية ٥١
(7) سورة التوبة الآية ٤٧.
(8) سورة المائدة الآية ٤٢.

به أولياء فهو هذاالسماع.

وهو سماع الآيات، لا سماع الأبيات. وسماع القرآن. لا سماع مزامير الشيطان. وسماع كلام رب الأرض والسماء لا سماع قصائد الشعراء. وسماع المراشد، لا سماع القصائد. وسماع الأنبياء والمرسلين، لا سماع المغنين والمطربين

فهذا السماع حادٍ يحدو القلوب، إلى جوار علام الغيوب، وسائق يسوق الأرواح إلى ديار الأفراح. ومحركٌ يثير ساكن العزمات، إلى أعلى المقامات وأرفع الدرجات. ومناد ينادى للإيمان. ودليل يسير بالركب فى طريق الجنان. وداع يدعو القلوب بالمساء والصباح. من قبل فالق الإصباح «حيّ على الفلاح، حيّ على الفلاح».

فلم يعدم من اختار هذا السماع إرشاداً لحجة، وتبصرة لعبرة - وتذكرة لمعرفة وفكرة فى آية، ودلالة على رشد، ورداً على ضلالة، وإرشاداً من غيّ، وبصيرة من عمي، وأمراً بمصلحة، ونهياً عن مضرة ومفسدة. وهداية إلى نور، وإخراجاً من ظلمة وزجراً عن هوى. وحثاً على تقى. وجلاء لبصيرة - وحياة لقلب، وغذاء ودواء وشفاء. وعصمة ونجاة، وكشف شبهة، وإيضاح برهان، وتحقيق حق، وإبطال باطل.

ونحن نرضى بحكم أهل الذوق فى سماع الأبيات والقصائد. ونناشدهم بالذى أنزل القرآن هدى وشفاء ونوراً وحياة هل وجدوا ذلك - أوشيئاً منه- فى الدف والمزمار؟ ونغمة الشادن ومطربات الألحان؟ والغناء المشتمل على تهييج الحب المطلق الذى يشترك فيه محب الرحمن، ومحب الأوطان، ومحب الإخوان، ومحب العلم والعرفان، ومحب الأموال والأثمان، ومحب النسوان والمردان، ومحب الصلبان - فهو يثير من قلب كل مشتاق ومحب لشىء ساكنه. ويزعج قاطنه. فيثور وجده، ويبدو شوقه. فيتحرك على حسب ما فى قلبه من الحب والشوق والوجد بذلك المحبوب كائناً ما كان. ولهذا تجد لهؤلاء كلهم ذوقاً فى السماع، وحالاً ووجدا وبكاء.

ويالله العجب! أى إيمان ونور وبصيرة وهدى ومعرفة تحصل باستماع أبيات بألحان وتوقيعات. لعل أكثرها قيلت فيما هو محرم يبغضه الله ورسوله، ويعاقب عليه من غزل وتشبيب بمن لا يحل له من ذكر أو أنثى؟ فإن غالب التغزل والتشبيب إنما هو فى الصور المحرمة. ومن أندر النادر تغزل الشاعر وتشبيبه فى امرأته، وأمته وأم ولده، مع أن هذا واقع لكنه كالشعرة البيضاء فى جلد الثور الأسود. فكيف يقع لمن له أدنى بصيرة وحياة قلب أن يتقرب إلى الله، ويزداد إيماناً وقرباً منه وكرامة عليه، بالتذاذه بما هو بغيض إليه، مقيت عنده، يمقت قائله والراضى به؟ وتترقى به الحال حتى يزعم أن ذلك أنفع لقلبه من سماع القرآن والعلم النافع. وسنة نبيه ﷺ

يالله! إن هذا القلب مخسوف به، ممكور به منكوس لم يصلح لحقائق القرآن وأذواق معانيه، ومطالعة أسراره فبلاء بقرآن الشيطان، والله سبحانه وتعالى أعلم

(القسم الثانى من السماع)

ما يبغضه الله ويكرهه. ويمدح المعرض عنه وهو سماع كل ما يضر العبد فى قلبه ودينه كسماع الباطل كله، إلا إذا تضمن رده وإبطاله والاعتبار به وقصد أن يعلم به حسن ضده. فإن الضد يظهر حسنه الضد. كما قيل:

وإذا سمعت إلى حديثك زادنى حباً له سمعى حديث سواكا

وكسماع اللغو الذى مدح التاركين لسماعه، والمعرضين عنه بقوله: ﴿وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه﴾[1] وقوله: ﴿وإذا مروا باللغوا مروا كراماً﴾[2] قال محمد بن الحنفية هو الغناء. وقال الحسن أو غيره: أكرموا نفوسهم عن سماعه.

قال ابن مسعود «الغناء» ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل» وهذا كلام عارف بأثر الغناء وثمرته فإنه ما اعتاده أحد إلا نافق قلبه وهو لا يشعر. ولو عرف حقيقة النفاق وغايته لأبصره فى قلبه فإنه ما اجتمع فى قلب عبد قط محبة الغناء ومحبة القرآن إلا طردت إحداهما الأخري. وقد شاهدنا نحن وغيرنا ثقل القرآن على أهل الغناء وسماعه وتبرمهم به، وصياحهم بالقارىء إذا طول عليهم. وعدم انتفاع قلوبهم بما يقرأه. فلا تتحرك ولا تطرب، ولا تهيج منها بواعث الطلب. فإذا جاء قرآن الشيطان فلا إله إلا الله. كيف تخشع منهم الأصوات، وتهدأ الحركات، وتسكن القلوب وتطمئن، ويقع البكاء والوجد، والحركة الظاهرة والباطنة، والسماحة بالأثمان والثياب، وطيب السهر، وتمنى طول الليل. فإن لم يكن هذا نفاقاً فهو آخية النفاق وأساسه.

تُلِى الكتابُ فأطرقوا، لا خيفة لكنــــه إطـراق ســاهٍ لا هى
وأتى الغناء فكالذباب تــــراقصوا والله مــا رقصوا من أجل الله
دف، ومزمـــار، ونغمــة شاهد فمتى شهدت عبادة بملاهي؟
ثقـل الكتاب عليهـم لمـا رأوا تقييــــده بـأوامـر ونـــواهي
وعـــليهم خف الغنـــا لما رأوا إطـــلاقه فى اللهو دون مناهي
يــا فرقة مــا ضر دين محمـد وجنى عليــه وملــــه إلا هى
سمعـوا له رعداً وبرقاً إذ حوى زجـــراً وتخـويفاً بفعل مناهي

---

(١) سورة القصص الآية ٥٥.

(٢) سورة الفرقان الآية ٧٢.

ورأوه أعظم قاطع للنفس عن ... شهواتها يا ويحها المتناهي
وأتى السماع موافقاً أغراضها ... فلأجل ذاك غدا عظيم الجاه
أين المساعد للهوى من قاطع ... أسبابه عند الجهول الساهي
إن لم يكن خمر الجسوم. فإنه ... خمر العقول مماثل ومضاهي
فانظر إلى النشوان عند شرابه ... وانظر إلى السوان عند تلاهي
وانظر إلى تمزيق ذا أثوابه ... من بعد تمزيق الفؤاد اللاهي
فاحكم بأى الخمرتين أحق بالـ ... ـتحريم والتأثيم عند الله

وكيف يكون السماع الذى يسمعه العبد بطبعه وهواه، أنفع له من الذى يسمعه بالله ولله وعن الله؟ فإن زعموا أنهم يسمعون هذا السماع الغنائى الشعرى كذلك. فهذا غاية اللبس على القوم. فإنه إنما يسمعون بالله ولله وعن الله مايحبه الله ويرضاه. ولهذا قلنا: إنه لا يتحرر الكلام فى هذه المسألة إلا بعد معرفة صورة المسموع وحقيقته ومرتبته. فقد جعل الله لكل شىء قدراً. ولن يجعل الله من شربه ونصيبه وذوقه ووجده من سماع الآيات البينات، كمن نصيبه وشربه وذوقه ووجده من سماع الغناء والأبيات.

ومن أعجب العجائب: استدلال من استدل على أن هذا السماع من طريق القوم، وأنه مباح بكونه مستلذاً طبعاً، تلذه النفوس، وتستروح إليه، وأن الطفل يسكن إلى الصوت الطيب، والجمل يقاسى تعب السير ومشقة الحمولة. فيهون عليه بالحداء، وبأن الصوت الطيب نعمة من الله على صاحبه، وزيادة فى خلقه، وبأن الله ذم الصوت الفظيع، فقال: ﴿إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾[1] وبأن الله وصف نعيم أهل الجنة فقال فيه ﴿فهم فى روضة يحبرون﴾[2] وأن ذلك هو السماع الطيب. فكيف يكون حراماً وهو فى الجنة؟ وبأن الله تعالى ما أذن لشىء كأذنه -أى كاستماعه- لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن[3]. وبأن أبا موسى الأشعرى استمع النبى ﷺ إلى صوته، وأثنى عليه بحسن الصوت، وقال «لقد أوتى هذا مزماراً من مزامير آل داود»[4] فقال له موسى «لو علمت أنك استمعت لحبرته لك تحبيراً»[5] أى زينته لك وحسنته. وبقوله ﷺ «زينوا القرآن بأصواتكم»[6]

---

(1) سورة لقمان الآية ١٩. (2) سورة الروم الآية ١٥. (3) رواه البخارى (٧٤٨٢) عن أبى هريرة.

(4) رواه البخارى (٤٨- ٥) ومسلم (٧٩٣) والنسائى (٢/ ١٨٠) وابن ماجه (١٣٤١).

(5) ضعيف. رواه أبو يعلى فى «مسنده» (٧٢٧٩) عن أبى بردة رضى الله عنه وفي سنده خالد بن نافع الأشعرى وهو ضعيف كما قال الهيثمى فى «المجمع» (٧/ ١٧١).

(6) صحيح رواه أحمد ٤/ ٢٨٥ و ٢٩٦ و٣٠٤) وأبو داود (١٤٦٨) والنسائى (٢/ ١٧٩) وابن ماجه (١٣٤٢) والدرامى (٢/ ٤٧٤) عن البراء بن عازب ضى الله عنه.

وبقوله ﷺ «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»[1] والصحيح: أنه من التغني بمعنى تحسين الصوت. وبذلك فسره الإمام أحمد رحمه الله، فقال: يحسنه بصوته ما استطاع.

وبأن النبي ﷺ أقر عائشة على غناء القينتين يوم العيد. وقال لأبي بكر «دعهما. فإن لكل قوم عيداً. وهذا عيدنا أهل الإسلام»[2]

وبأنه ﷺ أذن في العرس في الغناء وسماه لهواً،[3] وقد سمع رسول الله ﷺ الحداء[4]. وأذن فيه. وكان يسمع أنساً والصحابة، وهم يرتجزون بين يديه في حفر الخندق:[5]

نحن الذين بايعوا محمداً ... على الجهاد ما بقينا أبداً

ودخل مكة والمرتجز يرتجز بين يديه بشعر عبد الله بن رواحة[6]. وحدا به الحادي في منصرفه من خيبر. فجعل يقول:

والله لولا الله ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فانزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الذين قد بغوا علينا ... إذا أرادوا فتنة أبينا

ونحن إن صيح بنا أتينا ... وبالصياح عولوا علينا

ونحن عن فضلك ما استغنينا

فدعا لقائله.[7]

وسمع قصيدة كعب بن زهير. وأجازه ببردة.

واستنشد الأسود بن سريع قصائد حَمِدَ بها ربه.

واستنشد من شعر أمية بن أبي الصلت مائة قافية.

---

(١) رواه البخاري (٧٥٢٧) عن أبي سلمة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٩٥٢) ومسلم (٨٩٢) عن عائشة رضي الله عنها

(٣) رواه البخاري (٥١٦٢) والحاكم (٢/ ١٨٤) والبيهقي (٧/ ٢٨٨) عن عائشة رضي الله عنها.

(٤) عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان في سفر وكان غلام يحدو بهن (يعني النساء) يقال له أنجشة، فقال النبي ﷺ: رويدك يا أنجشة سوقك بالقوارير» رواه البخاري (٦٢١٠) ومسلم (٢٣٢٣).

(٥) رواه مسلم عن أنس.

(٦) رواه البخاري (٣٠٣٤) عن البراء رضي الله عنه.

(٧) رواه البخاري (٤١٢٣) ومسلم (٢٤٨٦) وأحمد (٤/ ٢٨٦) عن عائشة رضي الله عنها.

وأنشده الأعشى شيئاً من شعره فسمعه.

وصدّق لبيداً فى قوله «ألا كل شىء ما خلا الله باطل»[1].

ودعا لحسان «أن يؤيده الله بروح القدس ما دام ينافح عنه»[2] وكان يعجبه شعره. وقال له «اهجهم. وروح القدس معك»[3].

وبأن ابن عمر رضى الله عنهما رخص فيه. وعبد الله بن جعفر، وأهل المدينة. وبأن كذا وكذا ولياً لله حضروه وسمعوه. فمن حرمه فقد قدح فى هؤلاء السادة القدوة الأعلام.

وبأن الإجماع منعقد على إباحة أصوات الطيور المطربة الشجية، فلذة سماع صوت الآدمى أولى بالإباحة، أو مساوية.

وبأن السماع يحدو روح السامع وقلبه إلى نحو محبوبه. فإن كان محبوبه حراماً كان السماع معيناً له على الحرام. وإن كان مباحاً كان السماع فى حقه مباحاً. وإن كانت محبته رحمانية كان السماع فى حقه قربة وطاعة. لأنه يحرك المحبة الرحمانية ويقويها ويهيجها.

وبأن التذاذ الأذن بالصوت الطيب كالتذاذ العين بالمنظر الحسن. والشم بالروائح الطيبة، والفم بالطعوم الطيبة. فإن كان هذا حراماً كانت جميع هذه اللذات والإدراكات محرمة.

*****

فالجواب: أن هذه حيدة عن المقصود. وروغان عن محل النزاع وتعلق بما لا متعلق به. فإن جهة كون الشىء مستلذاً للحاسة ملائماً لها، لا يدل على إباحته ولا تحريمه، ولا كراهته ولا استحبابه. فإن هذه اللذة تكون فيما فيه الأحكام الخمسة تكون فى الحرام، والواجب. والمكروه. والمستحب. والمباح. فكيف يستدل بها على الإباحة من يعرف شروط الدليل، ومواقع الاستدلال؟

وهل هذا إلا بمنزلة من استدل عى إباحة الزنا بما يجده فاعله من اللذة، وأن لذته لا ينكرها من له طبع سليم. وهل يستدل بوجود اللذة والملاءمة على حل اللذيذ الملائم أحد؟ وهل خلت غالب المحرمات من اللذات؟ وهل أصوات. المعازف التى صح عن النبى ﷺ تحريمها، وأن فى أمته من سيستحلها بأصح إسناد، وأجمع أهل العلم على تحريم بعضها. وقال جمهورهم: بتحريم جملتها - إلا لذيذة تلذ السمع؟ وهل فى التذاذ الجمل والطفل بالصوت الطيب دليل على حكمه من إباحة، أو تحريم؟

وأعجب من هذا: الاستدلال على الإباحة بأن الله خلق الصوت الطيب. وهو زيادة

---

(١) رواه البخارى (٦١٤٨) عن سلمة بن الاكوع رضى الله عنه.

(٢) رواه البخارى (٣٨٤١) ومسلم (٢٢٥٦) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٣) حسن رواه الترمذى (٢٨٤٩) وأبو داود (٥٠١٥) عن عائشة.

فيقال والصورة الحسنة الجميلة، أليست زياده فى النعمة. والله خالقها. ومعطى حسنها؟ أفيدل ذلك على إباحة التمتع بها، والالتذاذ على الإطلاق بها؟

وهل هذا إلامذهب أهل الإباحة الجارين مع رسوم الطبيعة؟

وهل فى ذم الله لصوت الحمار مايدل على إباحة الأصوات المطربات بالنغمات الموزونات، والألحان اللذيذات، من الصور المستحسنات، بأنواع القصائد المنغمات، بالدفوف والشبابات؟!

وأعجب من هذا: الاستدلال على الإباحة بسماع أهل الجنة. وما أجدر صاحبه أن يستدل على إباحة الخمر بأن فى الجنة خمراً. وعلى حل لباس الحرير بأن لباس أهلها حرير. وعلى حل أوانى الذهب والفضة والتحلى بهما للرجال بكون ذلك ثابتاً وجود النعيم به فى الجنة.

فإن قال: قد قام الدليل على تحريم هذا. ولم يقم على تحريم السماع.

قيل: هذا استدلال آخر غير الاستدلال بإباحته لأهل الجنة. فعلم أن استدلالكم بإباحته لأهل الجنة استدلال باطل، لا يرضى به محصل.

وأما قولكم «لم يقم دليل على تحريم السماع»

فيقال لك: أى السماعات تعني؟ وأى المسموعات تريد؟ فالسماعات والمسموعات منها المحرم، والمكروه، والمباح، والواجب، والمستحب، فعين نوعاً يقع الكلام فيه نفياً وإثباتاً.

فإن قلت: سماع القصائد. قيل لك: أى القصائد تعني؟ ما مدح به الله ورسوله ودينه وكتابه. وهجى به أعداؤه؟.

فهذه لم يزل المسلمون يروونها ويسمعونها ويتدارسونها. وهى التى سمعها رسول الله ﷺ وأصحابه وأثاب عليها. وحرض حساناً عليها. وهى التى غرت أصحاب السماع الشيطانى. فقالوا: تلك قصائد. وسماعنا قصائد. فنعم إذن. والسنة كلام. والبدعة كلام. والتسبيح كلام والغيبة كلام. والدعاء كلام. والقذف كلام. ولكن هل سمع رسول الله ﷺ وأصحابه سماعكم هذا الشيطانى المشتمل على أكثر من مفسدة مذكورة فى غير هذا الموضع [1] وقد أشرنا فيما تقدم إلى بعضها؟

ونظير هذا: ما غرهم من استحسانه ﷺ الصوت الحسن بالقرآن، وإذنه له وإذنه فيه، ومحبة الله له

---

(١) أفاض ابن القيم ـ رحمه الله ـ فى مسألة السماع فى كتابه الماتع «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان» وقد وفقنى الله عز وجل لتحقيق هذا الكتاب وقامت بطبعه مكتبة الإيمان بالمنصورة.

فنقلوا هذا الاستحسان إلى صوت النسوان والمردان وغيرهم، بالغناء المقرون بالمعازف والشاهد. وذكر القد والنهد والخصر، ووصف العيون وفعلها، والشعر الأسود، ومحاسن الشباب، وتوريد الخدود، وذكر الوصل والصد، والتجنى والهجران، والعتاب والاستعطاف، والاشتياق، والقلق والفراق، وما جرى هذا المجري. مما هو أفسد للقلب من شرب الخمر، بما لا نسبة بينهما، وأى نسبة لمفسدة سكر يوم ونحوه إلى سكرة العشق التى لا يستفيق الدهر صاحبها إلا فى عسكر الهالكين، سليباً حريباً، أسيراً قتيلاً؟

وهل تقاس سكرة الشراب بسكرة الأرواح بالسماع؟ وهل يظن بحكيم أن يحرم سكراً لمفسدة فيه معلومة .ويبيح سكراً مفسدته أضعاف أضعاف مفسدة الشراب؟ حاشا أحكم الحاكمين.

فإن نازعوا فى سكر السماع، وتأثيره فى العقول والأرواح خرجوا عن الذوق والحس. وظهرت مكابرة القوم . فكيف يحمى الطبيب المريض عما يشوش عليه صحته . ويبيح له ما فيه أعظم السقم؟ والمنصف يعلم أنه لانسبة بين سقم الأرواح بسكر الشراب وسقمها بسكر السماع. وكلامنا مع واجد لا فاقد . فهو المقصود بالخطاب.

وأعجب من هذا استدلالكم على إباحة السماع- المركب مما ذكرنا من الهيئة الاجتماعية - بغناء بنيتين صغيرتين دون البلوغ، عند امرأة صبية فى يوم عيد وفرح، بأبيات من أبيات العرب، فى وصف الشجاعة والحروب، ومكارم الأخلاق والشيم . فأين هذا من هذا؟

والعجب أن هذا الحديث من أكبر الحجج عليهم. فإن الصديق الأكبر رضى الله عنه سمى ذلك «مزموراً من مزامير الشيطان»[1] وأقره رسول الله ﷺ على هذه التسمية. ورخص فيه لجويريتين غير مكلفتين، ولا مفسدة فى إنشادهما ولا استماعهما. أفيدل هذا على إباحة ما تعملونه وتعلمونه من السماع المشتمل على ما لا يخفي؟ فياسبحان الله! كيف ضلت العقول والأفهام؟.

وأعجب من هذا كله: الاستدلال على إباحته بماسمعه رسول الله ﷺ من الحداء المشتمل على الحق والتوحيد؟! وهل حرم أحد مطلق الشعر، وقوله واستماعه؟ فكم فى هذا التعلق ببيوت العنكبوت؟

وأعجب من هذا: الاستدلال على إباحته بإباحة أصوات الطيور اللذيذة. وهل هذا إلا من جنس قياس الذين قالوا﴿إنما البيع مثل الربا﴾[2] وأين أصوات الطيور إلى نغمات الغيد

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت: دخل علىّ النبى ﷺ وعندى جاريتان تغنيان بغناء بعاث فاضطجع على الفراش وحول وجهه، ودخل أبو بكر رضى الله عنه فانتهرنى وقال: مزمار الشيطان عند النبى ﷺ فاقبل عليه الرسول ﷺ وقال: دعهما فلما غمزتهما فخرجتا» رواه البخارى (٢/ ٤٤٠) ومسلم (٢٠٣١) وأحمد (٦/ ١٨٦).

(٢) سورة البقرة الآية ٢٧٥.

الحسان، والأوتار والعيدان وأصوات أشباه النساء من المردان، والغناء بما يحدو الأرواح والقلوب إلى مواصلة كل محبوبة ومحبوب؟ وأين الفتنة بهذا إلى الفتنة بصوت القمرى والبلبل والهزاز ونحوها؟

بل نقول: لو كانا سواء لكان اتخاذ هذا السماع قربة وطاعة تستنزل به المعارف والأذواق والمواجيد، وتحرك به الأحوال بمنزلة التقرب إلى الله بأصوات الطيور، ومعاذ الله أن يكونا سواء.

*****

والذى يفصل النزاع فى حكم هذه المسألة:

أنه إذا وقع النزاع فى حكم فعل من الأفعال، أو حال من الأحوال، أوذوق من الأذواق. هل هو صحيح أو فاسد؟ وحق أو باطل؟ وجب الرجوع فيه إلى الحجة المقبولة عند الله وعند عباده المؤمنين. وهى وحيه الذى تتلقى أحكام النوازل والأحوال والواردات منه. وتعرض عليه وتوزن به، فما زكاه منها وقبله ورجحه وصححه فهو المقبول. وما أبطله ورده فهو الباطل المردود. ومن لم يبن على هذا الأصل علمه وسلوكه وعمله: فليس على شىء من الدين. وإن وإن. وإنما معه خدع وغرور﴿كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء. حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً. ووجد الله عنده فوفاه حسابه. والله سريع الحساب﴾[1]

إذا أشكل على الناظر أو السالك حكم شىء: هل هو الإباحة أو التحريم؟ فلينظر إلى مفسدته وثمرته وغايته. فإن كان مشتملاً على مفسدة راجحة ظاهرة. فإنه يستحيل على الشارع الأمر به أو إباحته. بل العلم بتحريمه من شرعه قطعى. ولا سيما إذا كان طريقاً مفضياً إلى ما يغضب الله ورسوله موصلاً إليه عن قرب. وهو رُقْيَة له ورائد وبريد. فهذا لا يشك فى تحريمه أولو البصائر. فكيف يظن بالحكيم الخبير أن يحرم مثل رأس الإبرة من المسكر. لأنه يسوق النفس إلى السكر الذى يسوقها إلى المحرمات ثم يبيح ما هوأعظم منه سوقاً للنفوس إلى الحرام بكثير؟ فإن الغناء - كما قال ابن مسعود رضى الله عنه - هو «رقية الزنا» وقد شاهد الناس: أنه ما عاناه صبى إلا وفسد، ولا امرأة إلا وبغت، ولاشاب إلا وإلا، ولا شيخ إلا وإلا، والعيان من ذلك يغنى عن البرهان. ولا سيما إذا جمع هيئة تحدو النفوس أعظم حَدْو إلى المعصية والفجور، بأن يكون على الوجه الذى ينبغى لأهله، من المكان والإمكان. والعشراء والإخوان. وآلات المعازف من اليراع، والدف، والأوتار والعيدان. وكان القوّال شادناً شجيّ الصوت، لطيف الشمائل من المردان أو النسوان. وكان القول فى العشق والوصال. والصد والهجران.

---

(١) سورة النور الآية ٣٩

وإذا لم يكن بُدٌّ من المحاكمة إلى الذوق. فهلم نحاكمك إلى ذوق لا تنكره نحن ولا أنت، غير هذه الأذواق التي ذكرناها.

فالقلب يعرض له حالتان: حالة حزن وأسف على مفقود، وحالة فرح ورضى بموجود. وله بمقتضى هاتين الحالتين عبوديتان.

وله بمقتضى الحالة الأولى: عبودية الرضاء. وهي للسابقين. والصبر وهي لأصحاب اليمين.

وله بمقتضى الحالة الثانية: عبودية الشكر. والشاكرون فيها أيضاً نوعان: سابقون، وأصحاب يمين. فاقتطعته النفس والشيطان عن هاتين العبوديتين، بصوتين أحمقين فاجرين. هما للشيطان لا للرحمن: صوت الندب والنياحة عند الحزن وفوات المحبوب. وصوت اللهو والمزمار والغناء عند الفرح وحصول المطلوب فعوضه الشيطان بهذين الصوتين عن تينك العبودتين.

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى بعينه في حديث أنس رضي الله عنه «إنما نهيت عن صوتين أحمقين، فاجرين: صوت ويل عند مصيبة، وصوت مزمار عند نعمة»[1]

فدواء صاحب مثل هذا الحال: أن ينقل بالتدريج إلى سماع القرآن بالأصوات الطيبة. مع الإمعان في تفهم معانيه، وتدبر خطابه قليلا قليلاً. إلى أن ينخلع من قلبه سماع الأبيات. ويلبس محبة سماع الآيات. ويصير ذوقه وشربه وحاله ووجده فيه. فحينئذ يعلم هو من نفسه أنه لم يكن على شيء، ويتمثل حينئذ بقول القائل:

وكنت أرى أن قد تناهى بي الهوى إلى غاية ما فوقها لي مطلب

فلما تلاقينا. وعاينت حسنها تيقنت أني إنما كنت ألعب

ومنافاة النوح للصبر والغناء للشكر: أمر معلوم بالضرورة من الدين. لا يمترى فيه إلا أبعد الناس من العلم والإيمان. فإن الشكر هو الاشتغال بطاعة الله لا بالصوت الأحمق الفاجر، الذي هو للشيطان. وكذلك النوح ضد الصبر، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في النائحة- وقد ضربها حتى بدا شعرها - وقال «لا حرمة لها. إنها تأمر بالجزع وقد نهى الله عنه وتنهى عن الصبروقد أمر الله به، وتفتن الحي وتؤذي الميت. وتبيع عبرتها. وتبكي شجو غيرها.»

ومعلوم عند الخاصة والعامة: أن فتنة سماع الغناء والمعازف أعظم من فتنة النوح بكثير. والذي شاهدناه- نحن وغيرنا- وعرفناه بالتجارب: أنه ما ظهرت المعازف وآلات

(١) حسن بشواهده. رواه البغوي في شرح السنة (١٥٣٠) والترمذي (١٠٠٥) وقال: حديث حسن.

اللهو فى قوم. وفشت فيهم. واشتغلوا بها، إلا سلط الله عليهم العدو، وبلوا بالقحط والجدب وولاة السوء. والعاقل يتأمل أحوال العالم وينظر والله المستعان

(منزلة الخوف)

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الخوف»

وهى من أجل منازل الطريق وأنفعها للقلب. وهى فرض على كل أحد. قال الله تعالى: ﴿فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾(١) وقال تعالي: ﴿فإياى فارهبون﴾(٢) وقال: ﴿فلا تخشوا الناس واخشون﴾(٣) ومدح أهله فى كتابه وأثنى عليهم. فقال: ﴿إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون -إلى قوله - أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون﴾(٤) وفى المسند والترمذى عن عائشة رضى الله عنها قالت: قلت «يا رسول الله، قول الله ﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة﴾ أهو الذى يزنى، ويشرب الخمر، ويسرق؟ قال: لا، يا ابنة الصديق. ولكنه الرجل يصوم ويصلى ويتصدق. ويخاف أن لا يقبل منه» (٥) قال الحسن: عملوا والله بالطاعات. واجتهدوا فيها. وخافوا أن ترد عليهم. إن المؤمن جمع إحساناً وخشية، والمنافق جمع إساءة وأمنا.

و«الوجل» و«الخوف» و«الخشية» و«الرهبة» ألفاظ متقاربة غير مترادفة. قال أبو القاسم الجنيد: الخوف توقع العقوبة على مجارى الأنفاس.

وقيل: الخوف اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف.

وقيل: الخوف قوة العلم بمجارى الأحكام. وهذا سبب الخوف. لا أنه نفسه.

وقيل: الخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره.

و«الخشية» أخص من الخوف. فإن الخشية للعلماء بالله، قال الله تعالي ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾(٦) فهى خوف مقرون بمعرفة. وقال النبى ﷺ «إنى أتقاكم لله، وأشدكم له خشية»(٧).

فالخوف حركة. والخشية انجماع، وانقباض وسكون. فإن الذى يرى العدو والسيل ونحو ذلك: له حالتان

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٧٥

(٢) سورة البقرة الآية ٤٠.

(٣) سورة المائدة الآية ٤٤

(٤) سورة المؤمنون الآية (٥٧-٦١).

(٥) صحيح رواه أحمد (٦/١٥٩) والترمذى (٣١٧٥) وابن ماجه (٤١٩٨) والحاكم (٢/٣٩٣) وصححه ووافقه الذهبى.

(٦) سورة فاطر الآية ٢٨.

(٧) رواه البخارى (٦٤-٥) عن أنس ومسلم (١١٠٨) عن أم سلمة.

إحداهما: حركة للهرب منه، وهى حالة الخوف.

والثانية: سكونه وقراره فى مكان لا يصل إليه فيه. وهى الخشية. ومنه: انخش الشيء، والمضاعف والمعتل أخوان. كتقضى البازى وتقضض.

وأما «الرهبة» فهى الإمعان فى الهرب من المكروه. وهى ضد «الرغبة» التى هى سفر القلب فى طلب المرغوب فيه.

وأما «الوجل فرجفان القلب وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه وعقوبته، أو لرؤيته.

وأما «الهيبة»: فخوف مقارن للتعظيم والإجلال، وأكثر ما يكون مع المحبة والمعرفة. والإجلال: تعظيم مقرون بالحب.

فالخوف لعامة المؤمنين. والخشية للعلماء العارفين. والهيبة للمحبين. والإجلال للمقربين وعلى قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية. كما قال النبى ﷺ «إنى لأعلمكم بالله. وأشدكم له خشية»[1] وفى رواية «خوفاً» وقال «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، ولما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى»[2].

فصاحب الخوف: يلتجيء إلى الهرب. والإمساك، وصاحب الخشية: يلتجيء إلى الاعتصام بالعلم. ومثلها مثل من لا علم له بالطب. ومثل الطبيب الحاذق، فالأول يلتجيء إلى الحمية والهرب. والطبيب يلتجيء إلى معرفته بالأدوية والأدواء

قال أبو حفص: الخوف سوط الله، يقوم به الشاردين عن بابه. وقال: الخوف سراج فى القلب. به يبصر ما فيه من الخير والشر. وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله عز وجل. فإنك إذ خفته هربت إليه.

فالخائف هارب من ربه إلى ربه.

قال أبو سليمان: ما فارق الخوف قلباً إلا خرب. وقال إبراهيم بن سفيان: إذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشهوات منها. وطرد الدنيا عنها.

والخوف ليس مقصوداً لذاته. بل هو مقصود لغيره قصد الوسائل. ولهذا يزول بزوال الخوف، فإن أهل الجنة لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

*****

---

(١) رواه البخارى (٦١٠١) ومسلم (٢٣٥٦) عن عائشة رضى الله عنها.

(٢) حسن رواه أحمد (٥/ ١٧٣) والترمذى (٢٣١٢) وابن ماجه (٤١٩٠) والحاكم (٢/ ٥١٠)

(درجات الخوف)

والخوف يتعلق بالأفعال: والمحبة تتعلق بالذات والصفات. ولهذا تتضاعف محبة المؤمنين لربهم إذا دخلوا دار النعيم. ولا يلحقهم فيها خوف. ولهذا كانت منزلة المحبة ومقامها أعلى وأرفع من منزلة الخوف ومقامه.

والخوف المحمود الصادق: ما حال بين صاحبه وبين محارم الله عز وجل. فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط.

قال أبو عثمان: صدق الخوف هو الورع عن الآثام ظاهراً وباطناً.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- يقول: الخوف المحمود: ما حجزك عن محارم الله.

القلب بين الخوف والرجاء

القلب فى سيره إلى الله عز وجل بمنزلة الطائر. فالمحبة رأسه. والخوف والرجاء جناحاه. فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران. ومتى قطع الرأس مات الطائر. ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر. ولكن السلف استحبوا أن يقوى فى الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء وعند الخروج من الدنيا يقوى جناح الخوف.

(منزلة الاشفاق)

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الاشفاق»:

قال الله تعالي: ﴿الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون﴾[1] وقال تعالي ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قالوا إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين * فمن الله علينا. ووقانا عذاب السموم﴾[2]

«الإشفاق» رقة الخوف. وهو خوف برحمة من الخائف لمن يخاف عليه. فنسبته إلى الخوف نسبة الرأفة إلى الرحمة. فإنها ألطف الرحمة وأرقها.

(منزلة الخشوع)

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الخشوع».

قال الله تعالى. ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله، وما نزل من الحق﴾[1] قال ابن مسعود رضى الله عنه «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية

(١) سورة الأنبياء الآية ٤٩ (٢) سورة الطور الآية (٢٥-٢٧)

(٣) سورة الحديد الآية ١٦

إلا أربع سنين» وقال ابن عباس «إن الله استبطأ قلوب المؤمنين. فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن» وقال تعالى﴿قد أفلح المؤمنون. الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾[1].

و«الخشوع» في أصل اللغة: الانخفاض، والذل، والسكون، قال تعالى: ﴿وخشعت الأصوات للرحمن﴾[2] أى سكنت، وذلت، وخضعت، ومنه وصف الأرض بالخشوع. وهو يبسها، وانخفاضها، وعدم ارتفاعها بالرى والنبات قال تعالي: ﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت﴾[3].

و«الخشوع» قيام القلب بين يدى الرب بالخضوع والذل، والجمعية عليه.

وقال الجنيد: الخشوع تذلل القلوب لعلام الغيوب.

وأجمع العارفون على أن «الخشوع» محله القلب. وثمرته على الجوارح. وهى تظهره. وقال النبيﷺ: «التقوى ههنا -وأشار إلى صدره-ثلاث مرات»[4] وقال بعض العارفين: حسن أدب الظاهر عنوان أدب الباطن. ورأى بعضهم رجلا خاشع المنكبين والبدن. فقال: يا فلان. الخشوع ههنا. وأشار إلى صدره. لا ههنا. وأشار إلى منكبيه.

وكان بعض الصحابة - رضى الله عنهم- وهو حذيفة، يقول «إياكم وخشوع النفاق. فقيل له: وما خشوع النفاق؟ قال: أن ترى الجسد خاشعاً والقلب ليس بخاشع» ورأى عمر ابن الخطاب - رضى الله عنه - رجلا طأطأ رقبته. فى الصلاة. فقال: «يا صاحب الرقبة. ارفع رقبتك. ليس الخشوع فى الرقاب. إنما الخشوع فى القلوب» ورأت عائشة -رضى الله عنها- «شبابا يمشون ويتماوتون فى مشيتهم، فقالت لأصحابها: من هؤلاء؟ فقالوا: نُسَّاك. فقالت: كان عمر بن الخطاب إذا مشى أسرع. وإذا قال: أسمع. وإذا ضرب: أوجع. وإذا أطعم: أشبع. وكان هو الناسك حقا» وقال الفضيل بن عياض. كان يُكْره أن يرى الرجل من الخشوع أكثر مما فى قلبه. وقال حذيفة رضى الله عنه«أول ما تفقدون من دينكم الخشوع. وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة. ورب مصلٍ لا خير فيه. ويوشك أن تدخل مسجد الجماعة فلا ترى فيهم خاشعاً» وقال سهل: من خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان.

---

(١) سورة المؤمنون الآية ١.

(٢) سورة طه الآية ١٠٨.

(٣) سورة فصلت الآية ٣٩.

(٤) رواه مسلم (٦٤٢١) وأحمد (٢/ ١١، ١٩٥، ٢٠٩، ٢٧٧) والترمذى (١٩٣٥) وابن ماجه (٤٢١٣) والبيهقى (٧/ ٣٠٣، ٨/ ٢٥٠)

فصل

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة (الإخبات)

قال الله تعالى ﴿وبشر المخبتين﴾[1] ثم كشف عن معناهم فقال: ﴿الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم. والصابرين على ما أصابهم، والمقيمى الصلاة. ومما رزقناهم ينفقون﴾ وقال ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾[2]

و«الخبت» فى أصل اللغة المكان المنخفض من الأرض وبه فسر ابن عباس وقتادة رضى الله عنهما لفظ (المخبتين) وقالا: هم المتواضعون وقال مجاهد: المخبت المطمئن إلى الله عز وجل قال والخبت المكان المطمئن من الأرض. وقال الأخفش: الخاشعون. وقال إبراهيم النخعى: المصلون المخلصون. وقال الكلبى: هم الرقيقة قلوبهم وقال عمر بن أوس: هم الذين لا يظلمون وإذا ظلموا لم ينتصروا.

وهذه الأقوال تدور على معنيين التواضع، والسكون إلى الله عز وجل، ولذلك عدى بإلى، تضميناً لمعنى الطمأنينة والإنابة والسكون إلى الله.

فصل

ومن منازل (إياك نعبد وإياك نستعين) منزله «الزهد»

قال الله تعالى ﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق﴾[3] وقال تعالى ﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد. كمثل غيث أعجب الكفار نباته. ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفى الآخرة عذاب شديد، ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾[4] وقال تعالى ﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض - الآية﴾[5] وقال تعالى ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح - إلى قوله - وخير أملا﴾[6] وقال تعالى ﴿قل متاع الدنيا قليل. والآخرة خير لمن اتقى﴾[7] وقال تعالى ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى﴾[8] وقال تعالى ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى﴾[9] وقال تعالى ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا وإنا

---

(١) الحج . الآية ٣٤ — (٢) هود الآية ٢٣ — (٣) النحل الآية ٩٦

(٤) الحديد الآية ٢ — (٥) يونس ٢٤ — (٦) الكهف الآية ٤٥

(٧) النساء الآية ٧٧ — (٨) الأعلى الآيتان ١٦ و١٧ — (٩) طه الآية ٣

لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً﴾[1] وقال ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحده لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة - إلى قوله - والآخرة عند ربك للمتقين﴾[2]

والقرآن مملوء من التزهيد فى الدنيا والإخبار بخستها وقلتها وانقطاعها، وسرعة فنائها والترغيب فى الآخرة والإخبار بشرفها ودوامها فإذا أراد الله بعبد خيراً أقام فى قلبه شاهداً يعاين به حقيقة الدنيا والآخرة ويؤثر منهما ما هو أولى بالإيثار.

وقد أكثر الناس من الكلام فى «الزهد» وكل أشار إلى ذوقه ونطق عن حاله وشاهده فإن غالب عبارات القوم عن أذواقهم وأحوالهم والكلام بلسان العلم: أوسع من الكلام بلسان الذوق وأقرب إلى الحجة والبرهان.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: الزهد ترك مالا ينفع من الآخره والورع: ترك ما تخاف ضرره فى الآخرة.

وهذه العبارة من أحسن ما قيل فى «الزهد، والورع» وأجمعها.

وقال سفيان الثورى: الزهد فى الدنيا قصر الأمل ليس بأكل الغليظ. ولا لبس العبا.

وقال الجنيد: سمعت سرياً يقول: إن الله عز وجل سلب الدنيا عن أوليائه وحماها عن أصفيائه وأخرجها من قلوب أهل وداده لأنه لم يرضها لهم.

وقال: الزهد فى قوله تعالى ﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور﴾[3] فالزاهد لا يفرح من الدنيا بموجود ولا يأسف منها على مفقود.

وقال يحيى بن معاذ: الزهد يورث السخاء بالملك والحب يورث السخاء بالروح

وقال ابن الجلاء: الزهد هو النظر إلى الدنيا بعين الزوال فتصغر فى عينك فيسهل عليك الإعراض عنها.

وقال ابن خفيف: الزهد وجود الراحة فى الخروج من الملك

وقال أيضاً: الزهد سلو القلب عن الإسباب ونفض الأيدى من الأملاك

وقيل: هو عزوف القلب عن الدنيا بلا تكلف.

وقال الجنيد: الزهد خلو القلب عما خلت منه اليد.

وقال الإمام أحمد: الزهد فى الدنيا قصر الأمل.

---

(١) الكهف الآية ٧ ٨ (٢) الزخرف الآية ٣٣ - ٣٥ . (٣) الحديد الآية ٢٣

وعنه رواية أخرى: أنه عدم فرحه بإقبالها. ولا حزنه على إدبارها. فإنه سئل عن الرجل يكون معه ألف دينار هل يكون زاهداً؟ فقال: نعم، على شريطة أن لا يفرح إذا زادت ولا يحزن إذا نقصت

وقال عبد الله بن المبارك. هو الثقة بالله مع حب الفقر. وهذا قول شقيق ويوسف بن أسباط.

وقال عبد الواحد بن زيد، الزهد: الزهد فى الدينار والدرهم

وقال أبو سليمان الدارانى: ترك ما يشغل عن الله. وهو قول الشبلى.

وسأل رويم الجنيد عن الزهد؟ فقال: استصغار الدنيا ومحو آثارها من القلب. وقال مرة: هو خلو اليد عن الملك والقلب عن التتبع،

وقال يحيى بن معاذ: لا يبلغ أحد حقيقة الزهد حتى يكون فيه ثلاث خصال: عمل بلا علاقة وقول بلا طمع وعز بلا رياسة.

وقد قال الإمام أحمد بن حنبل: الزهد على ثلاثة أوجه الأول: ترك الحرام. وهو زهد العوام والثانى: ترك الفضول من الحلال. وهو زهد الخواص. والثالث: ترك ما يشغل عن الله وهو زهد العارفين.

وهذا الكلام من الإمام أحمد يأتى على جميع ما تقدم من كلام المشايخ مع زيادة تفصيله وتبيين درجاته وهو من أجمع الكلام وهو يدل على أنه رضى الله عنه من هذا العلم بالمحل الأعلى وقد شهد الشافعى رحمه الله بإمامته فى ثمانية أشياء «أحدها الزهد»

والذى أجمع عليه العارفون: أن الزهد سفر القلب من وطن الدنيا وأخذه فى منازل الآخرة وعلى هذا صنف المتقدمون كتب الزهد. كالزهد لعبد الله ابن المبارك وللإمام أحمد ولوكيع ولهناد بن السرى ولغيرهم.

ومتعلقه ستة أشياء لا يستحق العبد اسم «الزهد» حتى يزهد فيها وهى المال والصور والرياسة والناس والنفس وكل ما دون الله.

وليس المراد رفضها من الملك فقد كان سليمان وداود عليهما السلام من أزهد أهل زمانهما ولهما من المال والملك والنساء مالهما وكان نبينا صلى الله عليه وسلم من أزهد البشر على الإطلاق وله تسع نسوة وكان على بن أبى طالب وعبد الرحمن بن عوف والزبير وعثمان - رضى الله عنهم - من الزهاد مع ما كان لهم من الأموال وكان الحسن بن على

---

(١) الحشر: الآية ٩.

رضى الله عنه من الزهاد مع أنه كان من أكثر الأمة محبة للنساء ونكاحاً لهن وأغناهم وكان عبد الله بن المبارك من الأئمة الزهاد مع مال كثير. وكذلك الليث بن سعد من أئمة الزهاد. وكان له رأس مال يقول: لولا هو لتمندل بنا هؤلاء

ومن أحسن ما قيل فى الزهد كلام الحسن أو غيره: ليس الزهد فى الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعه المال ولكن أن تكون بما فى يد الله أوثق منك بما فى يدك وأن تكون فى ثواب المصيبة - إذا أصبت بها - أرغب منك فيها لو لم تصبك فهذا من أجمع كلام فى الزهد وأحسنه.

قال صاحب المنازل:

«الزهد: هو إسقاط الرغبة عن الشىء بالكلية».

يريد بالشىء المزهود فيه: ما سوى الله. والإسقاط عنه: إزالته عن القلب وإسقاط تعلق الرغبة به

وقوله «بالكلية» أى بحيث لا يلتفت إليه ولا يتشوق إليه.

قال «وهو للعامة: قربة، وللمريد: ضرورة، وللخاصة: خشية»

يعنى أن العامة تتقرب به إلى الله و«القربة»ما يتقرب به المتقرب إلى محبوبه.

وهو ضرورة للمريد لأنه لايحصل له التخلى بما هو بصدده إلا بإسقاط الرغبة فيما سوى مطلوبه فهو مضطر إلى الزهد كضرورته إلى الطعام والشراب. إذ التعلق بسوى مطلوبه لا يعدم منه حجابا أو وقفة أو نكسة على حسب بُعْد ذَلك الشىء من مطلوبه وقوة تعلقه به وضعفه.

وإنما كان خشية للخاصة: لأنهم يخافون على ما حصل لهم من القرب والأنس بالله وقرة عيونهم به: أن يتكدر عليهم صفوه بالتفاتهم إلى ما سوى الله. فزهدهم خشية وخوف.

***

قال «وهو على ثلاث درجات. الدرجة الأولى: الزهد فى الشبهة. بعد ترك الحرام بالحذر من المعتَبَة والأنفة من المنقصة وكراهه مشاركة الفساق»

أما الزهد فى الشبهة: فهو ترك ما يشتبه على العبد: هل هو حلال أو حرام؟ كما فى حديث النعمان بن بشير رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم «الحلال بين والحرام بين وبين ذلك أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات اتقى

الحرام، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهى القلب»[1]

فالشبهات برزخ بين الحلال والحرام وقد جعل الله عز وجل بين كل متباينين برزخاً كما جعل الموت وما بعده برزخاً بين الدنيا والآخرة وجعل المعاصى برزخا بين الإيمان والكفر وجعل الأعراف برزخاً بين الجنة والنار.

وكذلك جعل بين كل مشعرين من مشاعر المناسك برزخاً حاجزاً بينهما ليس من هذا ولا من هذا فمحسر برزخ بين منى ومزدلفة ليس فى واحد منهما فلا يبيت به الحاج ليلة جمع ولا ليالى منى وبطن عرنة برزخ بين عرفة وبين الحرم فليس من الحرم ولا من عرفة وكذلك ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس برزخ بين الليل والنهار ليس من الليل لتصرمه بطلوع الفجر. ولا من النهار لأنه من طلوع الشمس وإن دخل فى اسم اليوم شرعاً.

وكذلك منازل السير: بين كل منزلتين برزخ يعرفه السائر فى تلك المنازل. وكثير من الأحوال والواردات تكون برازخ فيظنها صاحبها غاية وهذا لم يتخلص منه إلا فقهاء الطريق والعلماء هم الأدلة فيها

وقوله «بعد ترك الحرام» أى ترك الشبهة لا يكون إلا بعد ترك الحرام

وقوله «بالحذر من المعتبة» يعنى أن يكون سبب تركه للشبهة: الحذر من توجه عتب الله عليه.

وقوله «والأنفة من المنقصة» أى يأنف لنفسه من نقصه عند ربه وسقوطه من عينه لا أنفته من نقصه عند الناس وسقوطه من أعينهم وإن كان ذلك ليس مذموماً بل هو محموداً أيضاً ولكن المذموم. أن تكون أنفته كلها من الناس ولا يأنف من الله.

وقوله «وكراهة مشاركة الفساق» يعنى أن الفساق يزدحمون على مواضع الرغبة فى الدنيا ولتلك المواقف بهم كظيظ من الزحام فالزاهد يأنف من مشاركتهم فى تلك المواقف ويرفع نفسه عنها لخسة شركائه فيها كما قيل لبعضهم: ما الذى زهدك فى الدنيا؟ قال: قلة وفائها وكثرة جفائها وخسة شركائها

إذا لـم أتـرك المـاء اتقـاء	تركـت لكثـرة الشـركاء فيـه
إذا وقع الذبـاب علـى طعـام	رفـعـت يـدى ونفسـى تشتهيه
وتجتنـب الأسـود ورود مـاء	إذا كـان الكـلاب يلغـن فيـه

---

(١) رواه البخارى (٥٢ و ٢٠٥١) ومسلم (١٥٩٩) وأحمد (٤/٢٦٧، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١) وأبو داود (٣٣٢٩) والترمذى (١٢٠٥) والنسائى (٧/٢٤١، ٨/٣٢٧) وابن ماجه (٣٩٨٤) عن النعمان بن بشير رضى الله عنه

قال «الدرجة الثانية: الزهد فى الفضول وهو مازاد على المُسكة والبلاغ من القوت باغتنام التفرغ إلى عمارة الوقت وحسم الجأش والتحلى بحلية الأنبياء والصديقين».

«الفضول» ما يفضل عن قدر الحاجة و «المسكة» ما يمسك النفس من القوت

والشراب واللباس والمسكن والمنكح إذا احتاج إليه و«البلاغ» هو البلغة من ذلك الذى يتبلغ به المسافر فى منازل السفر فيزهد فيما وراء ذلك اغتناماً لتفرغه لعمارة وقته.

ولما كان الزهد لأهل الدجة الأولى: خوفاً من المعتبة وحذراً من المنقصة: كان الزهد لأهل هذه الدرجة أعلى وأرفع. وهو اغتنام الفراغ لعمارة أوقاتهم مع الله لأنه إذا اشتغل بفضول الدنيا فاته نصيبه من انتهاز فرصة الوقت فالوقت سيف إن لم تقطعه وإلا قطعك.

وعمارة الوقت: الاشتغال فى جميع آنائه بما يقرب إلى الله أو يعين على ذلك من مأكل أو مشرب أو منكح أو منام أو راحة فإنه متى أخذها بنية القوة على ما يحبه الله وتجنب ما يسخطه كانت من عمارة الوقت وإن كان له فيها أتم لذة. فلا تحسب عمارة الوقت بهجر اللذات والطيبات.

فالمحب الصادق ربما كان سيره القلبى فى حال أكله وشربه وجماع أهله وراحته، أقوى من سيره البدنى فى بعض الأحيان.

ولهذا سبب صحيح وهو اجتماع قوى النفس. وعدم التفاتها حينئذ إلى شىء، مع ما يحصل لها من السرور والفرح والسرور يذكر بالسرور واللذة تذكر باللذة فتنهض الروح من تلك الفرحة واللذة إلى ما لا نسبة بينها وبينها بتلك الجمعية والقوة والنشاط وقطع أسباب الالتفات فيورثه ذلك حالا عجيبة.

ولا تعجل بالإنكار، وانظر إلى قلبك عند هجوم أعظم محبوب له عليه فى هذه الحال كيف تراه؟ فهكذا حال غيرك.

ولا ريب أن النفس إذا نالت حظاً صالحاً من الدنيا قويت به وسرت واستجمعت قواها وجُمعتّها وزال تشتتها.

اللهم اغفر، فقد طغى القلم، وزاد الكلم، فعياذا بك اللهم من مقتك.

وأما «حسم الجأش» فهو قطع اضطراب القلب المتعلق بأسباب الدنيا رغبة ورهبة وحباً وبغضاً وسعياً فلا يصح الزهد للعبد حتى يقطع هذا الاضطراب من قلبه بأن لا يلتفت إليها، ولا يتعلق بها فى حالتى مباشرته لها وتركه. فإن الزهد زهد القلب لا زهد الترك من اليد وسائر الأعضاء فهو تخلى القلب عنها لا خلو اليد منها.

وأما «التحلى بحلية الأنبياء والصديقين» فإنهم أهل الزهد فى الدنيا حقاً. إذ هم مشمرون إلى علم قد رفع لهم غيرها. فهم زاهدون وإن كانوا لها مباشرين.

الزهد فى الزهد

قال «الدرجة الثالثة: الزهد فى الزهد. وهو بثلاثة أشياء: استحكار ما زهدت فيه. واستواء الحالات فيه عندك. والذهاب عن شهود الاكتساب ناظراً إلى وادى الحقائق»

وقد فسر الشيخ مراده بالزهد فى الزهد بثلاثة أشياء.

أحدها: احتقاره ما زهد فيه فإن من امتلأ قلبه بمحبة الله وتعظيمه لا يرى أن ما تركه لأجله من الدنيا يستحق أن يجعل قرباناً. لأن الدنيا بحذافيرها لا تساوى عند الله جناح بعوضة فالعارف لا يرى زهده فيها كبير أمر يعتد به ويحتفل له فيستحى من صح له الزهد أن يجعل لما تركه لله قدراً يلاحظ زهده فيه بل يفنى عن زهده فيه كما فنى عنه. ويستحى من ذكره بلسانه وشهوده بقلبه.

وأما استواء الحالات فيه عنده: فهو أن يرى ترك ما زهد فيه وأخذه: متساويين عنده إذ ليس له عنده قدر وهذا من دقائق فقه الزهد فيكون زاهداً فى حال أخذه كما هو زاهد فى حال تركه إذ همته أعلى عن ملاحظته أخذاً وتركاً، لصغره فى عينه.

وأما «الذهاب عن شهود الاكتساب» فمعناه: أن من استصغر الدنيا بقلبه واستوت الحالات فى أخذها وتركها عنده: لم ير أنه اكتسب بتركها عند الله درجة ألبتة. لأنها أصغر فى عينه من أن يرى أنه اكتسب بتركها الدرجات

وفيه معنى آخر: هو أن يشاهد تفرد الله عز وجل بالعطاء والمنع فلا يرى أنه ترك شيئاً ولا أخذ شيئاً بل الله وحده هو المعطى المانع. فما أخذه فهو مجرى لعطاء الله إياه كمجرى الماء فى النهر وما تركه لله فالله سبحانه وتعالى هو الذى منعه منه فيذهب بمشاهدة الفعال وحده عن شهود كسبه وتركه فإذا نظر إلى الأشياء بعين الجمع وسلك فى وادى الحقيقة غاب عن شهود اكتسابه وهو معنى قوله «ناظراً إلى وادى الحقائق» وهذا أليق المعنين بكلامه فهذا زهد الخاصه قال الشاعر:

إذا زهدتنى فى الهوى خشية الردى   جلت لى عن وجه يزهد فى الزهد

*****

منزلة الورع

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الورع»

قال الله تعالى ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً. إني بما تعملون عليم﴾[1] قال تعالى ﴿وثيابك فطهر﴾[2] قال قتادة ومجاهد: نفسك فطهر من الذنب فكنى عن النفس بالثوب وهذا قول إبراهيم النخعي والضحاك والشعبي والزهري والمحققين من أهل التفسير قال ابن عباس: لا تلبسها على معصية ولا غدر ثم قال. أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفي:

وإني - بحمد الله - لا ثوب غادر لبست، ولا من غدرة أتقنع

والعرب تقول في وصف الرجل بالصدق والوفاء: طاهر الثياب. وتقول للغادر والفاجر: دنس الثياب وقال أبي بن كعب: لا تلبسها على الغدر، والظلم والإثم ولكن البسها وأنت بر طاهر.

وقال الضحاك: عملك فأصلح قال السدي: يقال للرجل إذا كان صالحاً: إنه لطاهر الثياب وإذا كان فاجراً: إنه لخبيث الثياب وقال سعيد بن جبير: وقلبك وبيتك فطهر وقال الحسن والقرظي: وخلقك فحسن

وقال ابن سيرين وابن زيد: أمر بتطهير الثياب من النجاسات التي لا تجوز الصلاة معها لأن المشركين كانوا لا يتطهرون ولا يطهرون ثيابهم.

وقال طاوس: وثيابك فقصر. لأن تقصير الثياب طهرة له.

والقول الأول: أصح الأقوال

ولا ريب أن تطهيرها من النجاسات، وتقصيرها من جملة التطهير المأمور به إذ به تمام إصلاح الأعمال والأخلاق لأن نجاسة الظاهر تورث نجاسة الباطن. ولذلك أمر القائم بين يدي الله عز و جل بإزالتها والبعد عنها.

والمقصود: أن «الورع» يطهر دنس القلب ونجاسته كما يطهر الماء دنس الثوب ونجاسته. وبين الثياب والقلوب مناسبة ظاهرة وباطنة. ولذلك تدل ثياب المرء في المنام على قلبه وحاله ويؤثر كل منهما في الآخر ولهذا نهى عن لباس الحرير والذهب وجلود السباع لما تؤثر في القلب من الهيئة المنافية للعبوديه والخشوع، وتأثير القلب والنفس في الثياب أمر خفي يعرفه أهل البصائر من نظافتها ودنسها ورائحتها وبهجتها وكسفتها حتى أن ثوب البر ليعرف من ثوب الفاجر وليسا عليهما.

(١) سورة المؤمنون الآية ٥١ (٢) سورة المدثر : الآية ٤

وقد جمع النبي ﷺ الورع كله فى كلمة واحده فقال «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[1] فهذا يعم الترك لما لا يعنى: من الكلام، والنظر والاستماع والبطش والمشى والفكر وسائر الحركات الظاهرة والباطنة فهذه الكلمة كافية شافية فى الورع.

قال إبراهيم بن أدهم: الورع ترك كل شبهة وترك مالا يعنيك هو ترك الفضلات وفى الترمذى مرفوعاً إلى النبى صلى الله عليه وسلم «يا أبا هريرة كن ورعاً تكن أعبد الناس»[2].

وقال يحيى بن معاذ: الورع الوقوف على حد العلم من غير تأويل. وقال: الورع على وجهين ورع فى الظاهر وورع فى الباطن فورع الظاهر: أن لا يتحرك إلا لله وورع الباطن: هو أن لا تدخل قلبك سواه وقال: من لم ينظر فى الدقيق من الورع لم يصل إلى الجليل من العطاء.

وقال يونس بن عبيد: الورع الخروج من كل شـبهة ومحـاسبة النفس فى كـل طـرفه عين.

وقال سفيان الثورى: ما رأيت أسهل من الورع ما حاك فى نفسك فاتركه.

وقال بعض السلف: لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع مالا بأس به حذراً ممـا بـه بأس.

وقال بعض الصحابه: كنا ندع سبعين بـاباً من الحلال مخـافة أن نقـع فى بـاب مـن الحرام.

وقال لى يومًا شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - فى شئ من المباح: هذا ينافى المراتب العالية وإن لم يكن تركه شرطًا فى النجاة أو نحو هذا الكلام فالعارف يترك كثيراً من المباح ابقاء على صيانته ولا سيما إذا كان ذلك المباح برزخًا بين الحلال والحرام.

(فصل)

مايثمر الفضائل

الخوف يثمر الورع والاستعانة وقصر الأمل وقوة الإيمان باللقاء تثمر الزهد. والمعرفة تثمر المحبة والخوف والرجاء والقناعة تثمر الرضاء، والذكر يثمر حياة القلب، والإيمان بالقدر يثمر التوكل ودوام تأمل الأسماء والصفات يثمر المعرفة. والورع يثمر الزهد أيضا. والتوبة تثمرالمحبة أيضا ودوام الذكر يثمرها والرضا يثمر الشكر والعزيمة والصبر يثمران جميع الأحوال والمقامات والإخلاص والصدق كل منهما يثمر الآخر ويقتضيه والمعرفة تثمر الخلق والفكر يثمر العزيمة والمراقبة تثمر عمارة الوقت وحفظ الأيام والحياء والخشية

(١) حسن رواه الترمذى (٢٣١٨) وابن ماجه (٣٩٧٦) والبغوى (٤١٣٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه.
(٢) حسن رواه الخرائطى في «مكارم الأخلاق» (ص ٣٩)

والإنابة. وإماته النفس وإذلالها وكسرها يوجب حياة القلب وعزه وجبره، ومعرفة النفس ومقتها يوجب الحياء من الله عز وجل واستكثار ما منه واستقلال ما منك من الطاعات ومحو أثر الدعوى من القلب واللسان وصحة البصيرة تثمر اليقين وحسن التأمل لما ترى وتسمع من الآيات المشهودة والمتلوة يثمر صحة البصيرة.

وملاك ذلك كله: أمران، أحدهما: أن تنقل قلبك من وطن الدنيا فتسكنه فى وطن الآخرة ثم تقبل به كله على معانى القرآن واستجلائها وتدبرها وفهم ما يراد منه وما نزل لأجله وأخذ نصيبك وحظك من كل آية من آياته وتنزلها على داء قلبك.

فهذه طريقة مختصرة قريبة سهلة. موصلة إلى الرفيق الأعلى آمنة لا يلحق سالكها خوف ولا عطب ولا جوع ولا عطش ولا فيها آفة من آفات سائر الطريق ألبتة وعليها من الله حارس وحافظ يكلأ السالكين فيها ويحميهم، ويدفع عنهم ولا يعرف قدر هذه الطريق إلا من عرف طرق الناس وغوائلها وآفاتها وقطاعها والله المستعان.

منزلة التبتل

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة«التبتل»

قال الله تعالى ﴿واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا﴾[1].

و«التبتل» الانقطاع. وهو تفعل من التبتل وهو القطع وسميت مريم «البتول» لانقطاعها عن الأزواج وعن أن يكون لها نظراء من نساء زمانها ففاقت نساء الزمان شرفاً وفضلاً وقطعت منهن ومصدر «بتل» «تبتيلاً» كالتعلم والتفهم ولكن جاء على التفعيل - مصدر تفعل - لسر لطيف فإن فى هذا الفعل إيذاناً بالتدريج والتكلف والتعمل والتكثر والمبالغة فأتى بالفعل الدال على أحدهما وبالمصدر الدال على الآخر فكأنه قيل: بتل نفسك إلى الله تبتيلاً وتبتل إليه تبتلاً ففهم المعنيان من الفعل ومصدره وهذا كثير فى القرآن وهو من أحسن الاختصار والإيجاز.

قال صاحب المنازل:

«التبتل:الانقطاع إلى الله بالكلية وقوله عز وجل﴿له دعوة الحق﴾[2] أى التجريد المحض».

ومراده بالتجريد المحض: التبتل عن ملاحظة الأعواض بحيث لا يكون المتبتل كالأجير الذى لا يخدم إلا لأجل الأجرة. فإذا أخذها انصرف عن باب المستأجر بخلاف العبد فإنه يخدم بمقتضى عبوديته لا للأجرة فهو لا ينصرف عن باب سيده إلا إذا كان آبقا والآبق قد خرج من شرف العبودية ولم يحصل له إطلاق الحرية فصار بذلك مركوسا عند سيده وعند عبيده وغاية شرف النفس: دخولها تحت رق العبودية طوعاً واختياراً ومحبة لا كرهاً وقهراً

---

(١) سورة المزمل : الآية ٨ .

(٢) سورة الرعد : الآية ١٤ .

كما قيل:

شرف النفوس دخولها فى رقهم ... والعبد يحوى الفخر بالتمليك

والذى حسن استشهاده بقول ﴿له دعوة الحق﴾ فى هذا الموضع: إرادة هذا المعنى وأنه تعالى صاحب دعوة الحق للذاته وصفاته وإن لم يوجب لداعيه بها ثوابا فإنه يستحقها لذاته فهو أهل أن يُعبد وحده ويُدعى وحده ويُقصد ويُشكر ويُحمد ويُحَب ويُرجى ويُخاف ويُتوكل عليه ويُستعان به ويُستجار به ويُلجأ اليه ويُصمد إليه فتكون الدعوة الإلاهية الحق له وحده

ومن قام بقلبه هذا- معرفة وذوقا وحالا - صح له مقام التبتل، والتجريد المحض. وقد فسر السلف «دعوة الحق» بالتوحيد والإخلاص فيه والصدق. ومرادهم: هذا المعنى.

فقال على رضى الله عنه دعوة الحق: التوحيد. وقال ابن عباس رضى الله عنهما«شهادة أن لا إله إلا الله» وقيل: الدعاء بالإخلاص والدعاء الخالص لا يكون إلا لله ودعوة الحق دعوة الإلاهية وحقوقها وتجريدها وإخلاصها.

منزلة الرجاء

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الرجاء»

قال الله تعالى ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه﴾[1] فابتغاء الوسيلة اليه: طلب القرب منه بالعبودية والمحبة فذكر مقامات الإيمان الثلاثة التى عليها بناؤه: الحب، والخوف، والرجاء. قال تعالى ﴿من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت﴾[2] وقال ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولايشرك بعبادة ربه أحدا﴾[3] وقال تعالى ﴿أولئك يرجون رحمة الله، والله غفور رحيم﴾[4].

وفى صحيح مسلم عن جابر رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول - قبل موته بثلاث- «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه»[5] وفى الصحيح عنه ﷺ «يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ما شاء»[6]

---

(١) الإسراء: الآية ٥٧. (٢) العنكبوت : الآية ٥ .

(٣) الكهف : الآية ١١١ . (٤) البقرة : الآية ٢١٨ .

(٥) رواه مسلم (٧٠٨٩) وأحمد (٣/ ٢٩٣و ٣٢٥و ٣٣٠) وأبو داود (٣١١٣) وابن ماجه (٤١٦٧)عن جابر رضى الله عنه .

(٦) صحيح. رواه أحمد (٣/ ٤٩١ و ٤/ ١٠٦) وابن المبارك فى «الزهد» (٩٠٩) والدارمى (٢/ ٣٠٥) والطبرانى فى «الكبير» ٢٢/ (٢١٠) وابن حبان (٦٣٣و ٦٣٤/ احسان) عن واثلة بن الأسقع رضى الله عنه.

«الرجاء» حاد يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب وهو الله والدارالآخرة، ويطيب لها السير.

وقيل هو الاستبشار بجود وفضل الرب تبارك وتعالى. والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه.

وقيل: هو الثقة بجود الرب تعالى.

والفرق بينه وبين «التمنى» أن «التمنى» يكون مع الكسل. ولايسلك بصاحبه طريق الجد والاجتهاد. و«الرجاء» يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل.

فالاول: كحال من يتمنى أن يكون له أرض يبذرها ويأخذ زرعها.

والثانى: كحال من يشق أرضه ويفلحها ويبذرها. ويرجو طلوع الزرع.

ولهذا أجمع العارفون على أن «الرجاء» لايصح إلا مع العمل.

قال شاه الكرمانى: علامة صحة الرجاء: حسن الطاعة.

والرجاء ثلاثة أنواع نوعان محمودان ونوع غرور مذموم.

فالأولان: رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله. فهو راج لثوابه. ورجل أذنب ذنوباً ثم تاب منها. فهو راج لمغفرة الله تعالى وعفوه وإحسانه وجوده وحلمه وكرمه.

والثالث: رجل متماد فى التفريط والخطايا. يرجو رحمة الله بلا عمل. فهذا هوالغرور والتمنى والرجاء الكاذب.

وللسالك نظران: نظر إلى نفسه وعيوبه وآفات عمله، يفتح عليه باب الخوف إلى سعة فضل ربه وكرمه وبره. ونظر يفتح عليه باب الرجاء.

ولهذا قيل فى حد «الرجاء» هو النظر إلى سعة رحمة الله.

وقال أبو على الروذبارى: الخوف والرجاء كجناحى الطائر إذا استويا استوى الطير وتم طيرانه. وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص. وإذا ذهبا صار الطائر فى حد الموت.

وسئل أحمد بن عاصم: ما علامة الرجاء فى العبد؟ فقال: أن يكون إذا أحاط به الإحسان ألهم الشكر، راجياً لتمام النعمة من الله عليه فى الدنيا والآخرة، وتمام عفوه عنه فى الآخرة.

واختلفوا أى الرجائين أكمل: رجاء المحسن ثواب إحسانه. أو رجاء المسىء التائب

فطائفة رجحت رجاء المحسن. لقوة أسباب الرجاء معه. وطائفة رجحت رجاء المذنب. لأن رجاءه مجرد عن علة رؤية العمل، مقرون بذلة رؤية الذنب.

قال يحيى بن معاذ: يكاد رجائى لك مع الذنوب يغلب رجائى لك مع الأعمال لأنى أجدنى أعتمد فى الأعمال على الإخلاص، وكيف أصفيها وأحرزها؟ وأنا بالآفات معروف. وأجدنى فى الذنوب أعتمد على عفوك، وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف؟

وقال أيضا: إلهى، أحلى العطايا فى قلبى رجاؤك. وأعذب الكلام على لسانى ثناؤك. وأحب الساعات إلىَّ ساعة يكون فيها لقاؤك.

و الرجاء من أجلّ منازلهم، وأعلاها وأشرفها. وعليه وعلى الحب والخوف مدار السير إلى الله وقد مدح الله تعالى أهله وأثنى عليهم فقال ﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾[1].

وفى الحديث الصحيح الإلهى عن النبى ﷺ- فيما يروى عن ربه عز وجل - «يا ابن آدم، إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ماكان منك ولا أبالى»[2] وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «يقول الله عز وجل: «أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه حين يذكرنى إن ذكرنى فى نفسه، ذكرته فى نفسى وإن ذكرنى فى ملأ، ذكرته فى ملأ خير منهم وإن اقترب إلىَّ شبراً، اقتربت اليه ذراعاً. وإن اقترب إلى ذراعاً. اقتربت اليه باعاً. وإن أتانى يمشى أتيته هرولة» رواه مسلم[3].

وقد أخبر تعالى عن خواص عباده الذين كان المشركون يزعمون أنهم يتقربون بهم إلى الله تعالى: أنهم كانوا راجين له خائفين منه.. فقال تعالى ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دونه. فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا. أولئك الذى يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب. ويرجون رحمته ويخافون عذابه. إن عذاب ربك كان محذورا﴾[4].

يقول تعالى: هؤلاء الذين تدعونهم من دونى: هم عبادى، يتقربون إلىَّ بطاعتى، ويرجون رحمتى، ويخافون عذابى، فلماذا تدعونهم من دونى؟ فأثنى عليهم بأفضل

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٢١

(٢) حسن لشواهده. رواه الترمذى (٣٥٤٠) عن أنس رضى الله عنه وفى إسناده كثير بن فائد وهو مقبول كما فى «التقريب» (٢/ ١٣٣) ولكن له شاهد من حديث أبى ذر عند أحمد (٥/ ١٧٢) والدارمى (٢/ ٣٢٢)

(٣) رواه البخارى (٧٤٠٥) ومسلم (٦٦٧٩) وأحمد (٢/ ٢٥١) والترمذى (٣٦٠٣) وابن ماجه (٣٨٢٢).

(٤) سورة الإسراء : الآية ٥٦، ٥٧.

أحوالهم ومقاماتهم من الحب، والخوف والرجاء.

وهو عبودية، وتعلق بالله من حيث اسمه «المحسن البر» فذلك التعلق والتعبد بهذا الاسم والمعرفة بالله: هو الذى أوجب للعبد الرجاء، من حيث يدرى ومن حيث لا يدرى. فقوة الرجاء على حسب قوة المعرفة بالله وأسمائه وصفاته، وغلبة رحمته غضبه ولولا روح الرجاء لعطلت عبودية القلب والجوارح. وهدمت صوامع، وبيع، وصلوات، ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً. بل لولا روح الرجاء لما تحركت الجوارح بالطاعة. ولولا ريحه الطيبة لما جرت سفن الأعمال فى بحر الإرادات. ولى من أبيات:

لولا التعلق بالرجاء تقطعت	نفس المحب تحسراً وتمزقاً
وكذاك لولا برده بحرارة الـ	أكباد ذابت بالحجاب تحرقا
أيكون قط حليف حب لا يرى	برجائه لحبيبه متعلقا؟!
أم كلما قويت محبته له	قوى الرجاء فزاد فيه تشوقا
لولا الرجا يحدو المطىّ لما سرت	بحمولها لديارهم ترجو اللقا

وعلى حسب المحبة وقوتها يكون الرجاء، فكل محب راج خائف بالضرورة فهو أرجى ما يكون لحبيه أحب ما يكون إليه. وكذلك خوفه. فإنه يخاف سقوطه من عينه، وطرد محبوبه له وإبعاده، واحتجابه عنه، فخوفه أشد خوف. ورجاؤه ذاتى للمحبة. فإنه يرجوه قبل لقائه والوصول إليه. فإذا لقيه ووصل إليه اشتد الرجاء له، لما يحصل له به من حياة روحه، ونعيم قلبه من ألطاف محبوبه، وبره وإقباله عليه، ونظره إليه بعين الرضى وتأهيله فى محبته، وغير ذلك مما لا حياة للمحب، ولا نعيم ولا فوز إلا بوصوله اليه من محبوبه. فرجاؤه أعظم رجاء، وأجله وأتمه.

فتأمل هذا الموضع حق التأمل يطلعك على أسرار عظيمة من أسرار العبودية والمحبة فكل محبة فهى مصحوبة بالخوف والرجاء. وعلى قدر تمكنها من قلب المحب يشتد خوفه ورجاؤه، لكن خوف المحب لا يصحبه وحشة. بخلاف خوف المسئ، ورجاء المحب لا يصحبه علة، بخلاف رجاء الأجير وأين رجاء المحب من رجاء الأجير؟ وبينهما كما بين حاليهما.

وبالجملة: فالرجاء ضرورى للمريد السالك، والعارف لوفارقه لحظة لتلف أوكاد. فإنه دائر بين ذنب يرجو غفرانه، وعيب يرجو إصلاحه وعمل صالح يرجو قبوله، واستقامة يرجو حصولها ودوامها، وقرب من الله ومنزلة عنده يرجو وصوله إليها. ولا ينفك أحد من السالكين عن هذه الأمور أو بعضها. والله سبحانه وتعالى يحب من عبده أن يرجوه.

ولذلك كان عند رجاء العبد له وظنه به.

و«الرجاء» من الأسباب التى ينال بها العبد ما يرجوه من ربه، بل هو من أقوى الأسباب.

من فوائد الرجاء التخلص به من غضب الله.

ومنها: أن الرجاء حاد يحدو به فى سيره إلى الله ويطيب له المسير ويحثه عليه ويبعثه على ملازمته فلولا الرجاء لما سار أحد. فإن الخوف وحده لا يحرك العبد. وإنما يحركه الحب. ويزعجه الخوف. ويحدوه الرجاء.

ومنها: أن الرجاء يطرحه على عتبة المحبة ويلقيه فى دهليزها فإنه كلما اشتدرجاؤه وحصل له ما يرجوه ازداد حباً لله تعالى وشكراً له ورضى به وعنه

ومنها: أنه يبعثه على أعلى المقامات وهو مقام الشكر الذى هو خلاصة العبودية. فإنه إذا حصل له مرجوه كان أدعى لشكره.

ومنها: أنه يوجب له المزيد من معرفة الله وأسمائه ومعانيها والتعلق بها. فإن الراجى متعلق بأسمائه الحسنى متعبد بها داع بها قال تعالى ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾[1]

ومنها: أن المحبة لاتنفك عن الرجاء - كما تقدم - فكل واحد منها يمد الآخر ويقويه.

ومنها: أن الخوف مستلزم للرجاء والرجاء مستلزم للخوف فكل راج خائف. وكل خائف راج ولأجل هذا حسن وقوع الرجاء فى موضع يحسن فيه وقوع الخوف قال الله تعالى ﴿مالكم لا ترجون لله وقارا﴾[2] قال كثير من المفسرين: المعنيما لكم لا تخافون لله عظمة؟ قالوا: والرجاء بمعنى الخوف.

والتحقيق: أنه ملازم له. فكل راج خائف من فوات مرجوه والخوف بلا رجاء يأس وقنوط وقال تعالى ﴿قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله﴾[3] قالوا فى تفسيرها: لا يخافون وقائع الله بهم، كوقائعه بمن قبلهم من الأمم.

ومنها: أن العبد إذا تعلق قلبه برجاء ربه، فأعطاه مازجاه كان ذلك ألطف موقعاً وأحلى عند العبد وأبلغ من حصول مالم يرجه. وهذا أحد الأسباب والحكم فى جعل المؤمنين بين الرجاء والخوف فى هذه الدار فعلى قدر رجائهم وخوفهم يكون فرحهم فى القيامة بحصول مرجوهم واندفاع مخوفهم.

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٨٠ . (٢) سورة نوح : الآية ١٣ . (٣) سورة الجاثية : الآية ١٤ .

ومنها: أن الله سبحانه تعالى يريد من عبده تكميل مراتب عبوديته، من الذل والانكسار والتوكل والاستعانة والخوف والرجاء، والصبر والشكر، والرضى والإنابة وغيرها ولهذا قدر عليه الذنب وابتلاه به لتكمل مراتب عبوديته بالتوبة التى هى من أحب عبوديات عبده إليه فكذلك تكميلها بالرجاء والخوف

ومنها: أن فى الرجاء - من الانتظار والترقب والتوقع لفضل الله - ما يوجب تعلق القلب بذكره ودوام الالتفات إليه بملاحظة أسمائه وصفاته وتنقل القلب فى رياضها الأنيقة وأخذه بنصيبه من كل اسم وصفة - كما تقدم بيانه - فإذا فنى عن ذلك وغاب عنه فاته حظه ونصيبه من معانى هذه الأسماء والصفات.

إلى فوائد أخرى كثيرة يطالعهامن أحسن تأمله وتفكره فى استخراجها. وبالله التوفيق.

درجات الرجاء

قال صاحب المنازل

«الرجاء على ثلاث درجات. الدرجة الأولى: رجاء يبعث العامل على الاجتهاد ويولد التلذذ بالخدمة ويوقظ الطباع للسماحة بترك المناهى»

أى ينشطه لبذل جهده لما يرجوه من ثواب ربه فإن من عرف قدر مطلوبه هان عليه ما يبذل فيه.

وأماتوليده للتلذذ بالخدمة: فإنه كلما طالع قلبه ثمرتها وحسن عاقبتها التذ بها. وهذا كحال من يرجو الأرباح العظيمة فى سفره ويقاسي مشاق السفر لأجلها. فكلما صورها لقلبه هانت عليه تلك المشاق والتذ بها. وكذلك المحب الصادق الساعى فى مراضى محبوبه الشاقة عليه كلما تأمل ثمرة رضاه عنه وقبوله سعيه. وقربه منه: تلذذ بتلك المساعى وكلماقوى علم العبد بإفضاء ذلك السبب إلى المسبب المطلوب وقوى علمه بقدر السبب وقرب المسبب منه ازداد التلذذ بتعاطيه

وأما إيقاظ الطباع للسماحة بترك المناهى: فإن الطباع لها معلوم ورسوم تتقاضاها من العبد ولا تسمح له بتركها إلا بعوض هوأحب إليها من معلومها ورسومها وأجل وعندها منه وأنفع لها فإذا قوى تعلق الرجاء بهذا العوض الأفضل الأشرف. سمحت الطباع بترك تلك الرسوم وذلك المعلوم فإن النفس لا تترك محبوبا إلا لمحبوب هوأحب إليها منه أو حذراً من مخوف هوأعظم مفسدة لها من حصول مصلحتها بذلك المحبوب وفى الحقيقة ففرارها من ذلك المخوف إيثار لضده المحبوب لها فما تركت محبوباً إلا لما هوأحب إليه

منه فإن من قدم إليه طعام لذيذ يضره ويوجب له السقم فإنما يتركه محبة للعافية التى هى أحب إلية من ذلك الطعام

قال «الدرجة الثانية رجاء أرباب الرياضات أن يبلغوا موقفاً تصفو فيه هممهم برفض الملذوذات ولزوم شروط العلم، واستقصاء حدود الحمية»

أرباب الرياضات. هم المجاهدون لأنفسهم بترك مألوفاتها والاستبدال بها مألوفات هى خيرمنها وأكمل فرجاؤهم أن يبلغوامقصودهم بصفاء الوقت والهمة من تعلقها بالملذوذات وتجريد الهم عن الالتفات إليها. وبلزوم شروط العلم وهو الوقوف عند حدود الأحكام الدينية فإن رجاءهم متعلق بحصول ذلك لهم واستقصاء حدود الحمية.

و«الحمية» العصمة والامتناع من تناول ما يخشى ضرره آجلا أو عاجلا. وله حدود متى خرج العبد عنها انتقض عليه مطلوبه والوقوف على حدودها بلزوم شروط العلم.

والاستقصاء فى تلك الحدود بأمرين: بذل الجهد فى معرفتها علماً وأخذ النفس بالوقوف عندها طلباً وقصداً.

قال «الدرجة الثالثة: رجاء أرباب القلوب وهو رجاء لقاء الخالق الباعث على الاشتياق، المبغض المنغص للعيش، المزهد فى الخلق»

هذا الرجاء أفضل أنواع الرجاء وأعلاها قال الله تعالى ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا﴾[1] وقال تعالى: ﴿من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت﴾[2].

وهذا الرجاء هو محض الإيمان وزبدته وإليه شخصت أبصار المشتاقين. ولذلك سلاهم الله تعالى بإتيان أجل لقائه وضرب لهم أجلا يسكن نفوسهم ويطمئنها.

و«الاشتياق» هو سفر القلب فى طلب محبوبه

واختلف المحبون: هل يبقى عند لقاء المحبوب أم يزول؟ على قولين.

فقالت طائفة: يزول. لأنه إنما يكون مع الغيبة وهو سفر القلب إلى المحبوب. فإذا انتهى السفر واجتمع بمحبوبه وضع عصا الاشتياق عن عاتقه وصار الاشتياق أنساً به ولذة بقربه.

---

(١) سورة الكهف: الآية ١١١ (٢) سورة العنكبوت الآية ٥

وقالت طائفة: بل يزيد ولايزول باللقاء.

قالوا: لان الحب يقوى بمشاهدة جمال المحبوب أضعاف ما كان حال غيبته. وإنما يوارى سلطانه فناءه ودهشته بمعاينة محبوبه، حتى إذا توارى عنه ظهر سلطان شوقه إليه، ولهذا قيل:

وأعظم ما يكون الشوق يوماً إذا دنت الخيام من الخيام

وقوله «المنغص للعيش» فلا ريب أن عيش المشتاق منغص حتى يلقى محبوبه فهناك تقر عينه ويزول عن عيشه تنغيصه وكذلك يزهد فى الخلق غاية التزهيد. لأن صاحبه طالب للأنس بالله والقرب منه. فهو أزهد شيء فى الخلق. إلا من أعانه على هذا المطلوب منهم وأوصله إليه. فهوأحب خلق الله إليه. ولا يأنس من الخلق بغيره ولا يسكن إلى سواه فعليك بطلب هذا الرفيق جهدك فإن لم تظفر به فاتخذ الله صاحباً ودع الناس كلهم جانباً.

مت بداء الهوى وإلا فخاطر واطرق الحى والعيون نواظر
لا تخف وحشة الطريق إذا جئت وكن فى خفارة الحب سائر
واصبر النفس ساعة عن سواهم فإذا لم تجب لصبر. فصابر
وصم اليوم. واجعل الفطر يوما فيه تلقى الحبيب بالبشر شاكر
وافطم النفس عن سواه فكل العيش بعد الفطام نحوك صائر
وتأمل سريرة القلب واستحى من الله يوم تبلى السرائر
واجعل الهم واحداً يكفك الله هموما شتى. فربك قادر
وانتظر يوم دعوة الخلق الى الله ربهم من بطون المقابر
واستمع ما الذى به أنت تدعى به من صفات تلوح وسط المحاضر
وسمات تبدو على أوجه ا لخلق عيانا تجلى على كل ناظر
يا أخا اللب ، إنما السير عزم ثم صبر مؤيد بالبصائر
يالها من ثلاثة من ينلها يرق يوم المزيد فوق المنابر
فاجتهد فى الذى يقال لك البشرى بذا يوم ضرب البشائر
عمل خالص بميزان وحى مع سر هناك فى القلب حاضر

منزلة الرغبة

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الرغبة»

قال الله عز وجل ﴿يدعوننا رغبا ورهبا﴾[1] والفرق بين «الرغبة» و«الرجاء» أن الرجاء طمع. والرغبة طلب فهى ثمرة الرجاء فإنه إذا رجا الشىء طلبه. والرغبة من الرجاء كالهرب من الخوف. فمن رجا شيئاً طلبه ورغب فيه. ومن خاف شيئا هرب منه.

والمقصود: أن الراجى طالب، والخائف هارب.

والرجاء طمع فى مغيب عنه مشكوك فى حصوله. وإن كان متحققا فى نفسه كرجاء العبد دخول الجنة فإن الجنة متحققة لا شك فيها وإنما الشك فى دخوله إليها وهل يوافى ربه بعمل يمنعه منها أم لا؟ بخلاف «الرغبة» فإنهالا تكون إلا بعد تحقق ما يرغب فيه فالإيمان فى الرغبة أقوى منه فى الرجاء.

منزلة الرعاية

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الرعاية»

وهى مراعاة العلم وحفظه بالعمل ومراعاة العمل بالإحسان والإخلاص. وحفظه من المفسدات ومراعاة الحال بالموافقة وحفظه بقطع التفريق فالرعاية صيانة وحفظ.

ومراتب العلم والعمل ثلاثة «رواية» وهى مجرد النقل وحمل المروى. و «دراية» وهى فهمه وتعقل معناه. و«رعاية» وهى العمل بموجب ما علمه ومقتضاه.

فالنقلة همتهم الرواية. والعلماء همتهم الدراية والعارفون همتهم الرعاية وقد ذم الله من لم يرع ما اختاره وابتدعه من الرهبانيه حق رعايته. فقال تعالى ﴿وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله. فما رعوها حق رعايتها﴾[1]

«رهبانية» منصوب «بابتدعوها» على الاشتغال إما بنفس الفعل المذكور - على قول الكوفيين - وإما بمقدر محذوف مفسر بهذا المذكور - على قول البصريين - أى وابتدعوا رهبانية وليس منصوباً بوقوع الجعل عليه. فالوقف التام عند قوله «ورحمة» ثم يبتدىء «ورهبانية ابتدعوها» أى لم نشرعها لهم بل هم ابتدعوها من عند أنفسهم ولم نكتبها عليهم

وفى نصب قوله «إلا ابتغاء رضوان الله» ثلاثة أوجه.

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٩٠ (٢) سورة الحديد الآية ٢٦

أحدها: أنه مفعول له أى لم نكتبها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله. وهذا فاسد فإنه لم يكتبها عليهم سبحانه كيف وقد أخبر: أنهم هم ابتدعوها؟ فهى مبتدعة غير مكتوبة وأيضاً فإن المفعول لأجله يجب أن يكون علة لفعل الفاعل المذكور معه فيتحد السبب والغاية نحو: قمت إكراماً فالقائم هو المكرم. وفعل الفاعل المعلل ههنا هو «الكتابة» و«ابتغاء رضوان الله» فعلهم لا فعل الله. فلا يصلح أن يكون علة لفعل الله لا ختلاف الفاعل.

وقيل: بدل من مفعول «كتبناها» أى ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله.

وهو فاسد أيضاً. إذ ليس ابتغاء رضوان الله عين الرهبانية فتكون بدل الشىء من الشىء ولا بعضها فتكون بدل بعض من كل ولا أحدهما مشتمل على الآخر. فتكون بدل اشتمال وليس بدل غلط.

فالصواب: أنه منصوب نصب الاستثناء المنقطع. أى لم يفعلوها ولم يبتدعوها إلا لطلب رضوان الله. ودل على هذا قوله «ابتدعوها» ثم ذكر الحامل لهم والباعث على ابتداع هذه الرهبانية وأنه هو طلب رضوان الله ثم ذمهم بترك رعايتها إذ من التزم لله شيئاً لم يلزمه الله إياه من أنواع القرب لزمه رعايته وإتمامه. حتى ألزم كثير من الفقهاء من شرع فى طاعة مستحبة بإتمامها وجعلواالتزامها بالشروع كالتزامها بالنذر. كما قال أبو حنيفة ومالك وأحمد فى إحدى الروايتين عنه وهو إجماع - أو كالإجماع - فى أحد النسكين.

قالوا: والالتزام بالشروع أقوى من الالتزام بالقول فكما يجب عليه رعاية ما التزمه بالنذر وفاء، يجب عليه رعاية ما التزمه بالفعل إتماماً.

وليس هذا موضع استقصاء هذه المسألة.

والقصد: أن الله سبحانه وتعالى ذم من لم يرع قربة ابتدعها لله تعالى حق رعايتها فكيف بمن لم يرع قربة شرعها الله لعباده وأذن بها وحث عليها

درجات الرعاية

قال صاحب المنازل:

«الرعاية» صون بالعناية وهى على ثلاث درجات الدرجة الأولى: رعاية الأعمال والثانية: رعاية الأحوال والثالثة: رعاية الأوقات»

فأما: رعاية الأعمال: فتوفيرها بتحقيرها والقيام بها من غير نظر إليها وإجراؤها على مجرى العلم، لا على التزين بها»

أما قوله«صون بالعناية» أى حفظ بالاعتناء، والقيام بحق الشىء الذى يرعاه ومنها راعى الغنم.

وقوله «أما رعاية الأعمال: فتوفيرها بحقيرها» فالتوفير: سلامة من طرفي التفريط بالنقص والإفراط بالزيادة على الوجه المشروع فى حدودها وصفاتها وشروطها وأوقاتها.

وأما تحقيرها: فاستصغارها فى عينه واستقلالها وأن ما يليق بعظمة الله وجلاله وحقوق عبوديته أمر آخر. وأنه لم يوفه حقه وأنه لايرضى لربه بعمله ولا بشىء منه.

وقد قيل: علامة رضى الله عنك: إعراضك عن نفسك وعلامة قبول عملك: احتقاره واستقلاله وصغره فى قلبك حتى إن العارف ليستغفر الله عقيب طاعته وقد كان رسول الله ﷺ إذا سلم من الصلاة استغفر الله ثلاثا[1]. وأمر الله عباده بالاستغفار عقيب الحج ومدحهم على الاستغفار. فمن شهد واجب ربه ومقدار عمله وعيب نفسه: لم يجد بدا من استغفار ربه منه واحتقاره إياه واستصغاره.

وأما «القيام بها» فهو توفيتها حقها وجعلها قائمة كالشهادة القائمة والصلاة القائمة و الشجرة القائمة على ساقها التى ليست بساقطة.

وقوله «من غير نظر إليها» أى من غير أن يلتفت إليها ويعددها ويذكرها مخافة العجب والمنة بها فيسقط من عين الله ويحبط عمله.

وقوله «وإجراؤها على مجرى العلم» هو أن يكون العمل على مقتضى العلم المأخوذ من مشكاة النبوة إخلاصاً لله وإرادة لوجهه وطلباً لمرضاته لا على وجه التزين بها عند الناس.

قال «وأما رعاية الأحوال: فهو أن يعد الاجتهاد مراءاة واليقين تشبعاً والحال دعوى»

أى يتهم نفسه فى اجتهاده: أنه راءى الناس. فلا يطغى به ولا يسكن إليه. ولا يعتد به.

وأما عدة اليقين تشبعاً فالتشبع: افتخار الإنسان بمالا يملكه ومنه قول النبى ﷺ «المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبى زور»[2]

وعد اليقين تشبعاً: يحتمل وجهين: أحدهما: أن ما حصل له من اليقين لم يكن به ولا منه ولا استحقه بعوض وإنما هو فضل الله وعطاؤه ووديعته عنده ومجرد منته عليه فهو خلعة خلعها سيده عليه والعبد وخلعته ملكه وله. فما للعبد فى اليقين مدخل. وإنما هو متشبع بماهو ملك لله وفضله ومنته على عبده.

---

(١) رواه مسلم (١٣١٠) وأحمد (٥/ ٢٧٥) وأبو داود (١٥١٣) والترمذى (٣٠٠) والنسائى (٣/ ٦٨) وابن ماجه(٩٢٨) عن ثوبان رضى الله عنه.

(١) رواه البخاري (٥٢١٩) ومسلم (٥٤٧٩، ٥٤٨٠) وأبو داود (٤٩٩٧) وأحمد (٦/ ١٦٧) عن عائشة رضى الله عنها.

والوجه الثانى: أن يتهم يقينه وأنه لم يحصل له اليقين على الوجه الذى ينبغى بل ما حصل له منه هو كالعارية لا الملك المستقر فهو متشبع بزعم نفسه بأن اليقين ملكه وله وليس كذلك وهذا لا يختص باليقين بل بسائر الأحوال فالصادق يعد صدقه تشبعاً وكذا المخلص يعد إخلاصه وكذا العالم لا تهامه لصدقه وإخلاصه وعلمه وأنه لم ترسخ قدمه فى ذلك ولم يحصل له فيه ملكة فهو كالمتشبع به.

ولما كان «اليقين» روح الأعمال وعمودها، وذروة سنامها: خصه بالذكر. تنبيهاً على ما دونه.

والحاصل: أنه يتهم نفسه فى حصول اليقين. فإذا حصل فليس حصوله به ولامنه ولا له فى شىء فهو يذم نفسه فى عدم حصوله ولا يحمدها عند حصوله.

وأما عد الحال دعوى: أى دعوى كاذبة اتهاماً لنفسه وتطهيراً لها من رعونة الدعوى وتخليصاً للقلب من نصيب الشيطان فإن الدعوى من نصيب الشيطان وكذلك القلب الساكن إلى الدعوى مأوى الشيطان أعاذنا الله من الدعوى ومن الشيطان.

فصل

قال «وأما رعاية الأوقات: فأن يقف مع كل خطوة ثم أن يغيب عن حضوره بالصفاء من رسمه ثم أن يذهب عن شهود صفو صفوه»

أى يقف مع كل حركة ظاهرة وباطنة بمقدار تصحيحها نية وقصداً وإخلاصاً ومتابعة فلا يخطو هجماً وهمجاً بل يقف قبل الخطو حتى يصحح الخطوة ثم ينقل قدم عزمه فإذا صحت له ونقل قدمه انفصل عنها. وقد صحت الغيبة عن شهودها ورؤيتها فيغيب عن شهود تقدمه بنفسه فإن رسمه هو نفسه فإذا غاب عن شهود نفسه وتقدمها بها فى كل خطوة فذلك عين الصفاء من رسمه الذى هو نفسه فعند ذلك يشاهد فضل ربه.

ولما كانت النفس محل الأكدار. سمى انفصاله عنها: صفاء وهذه الأمور تستدعى لطف إدراك واستعداداً من العبد. وذلك عين المنة عليه.

وأما ذهابه عن شهود صفوه: أى لا يستحضره فى قلبه. ويشهد ذلك الصفو المطلوب ويقف عنده فإن ذلك من بقايا النفس وأحكامها وهو كدر. فإذا تخلص من الكدر لا ينبغى له الالتفات والرجوع إليه فيصفو من الرسم ويغيب عن الصفو بمشاهدة المطلب الأعلى، والمقصد الأسنى.

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «المراقبة»

قال الله تعالى ﴿واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه﴾[1] وقال تعالى ﴿وكان الله على كل شيء رقيبا﴾[2] وقال تعالى ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾[3] وقال تعالى ﴿ألم يعلم بأن الله يرى﴾ [4] وقال تعالى ﴿فإنك بأعيننا﴾[5] وقال تعالى ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور﴾[6] الى غير ذلك من الآيات.

وفى حديث جبريل عليه السلام: أنه سأل النبى ﷺ عن الإحسان؟ فقال له: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[7]

«المراقبة» دوام علم العبد وتيقنه باطلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه فاستدامته لهذا العلم واليقين : هى «المراقبة» وهى ثمرة علمه بأن الله سبحانه رقيبٌ عليه ناظرٌ إليه سامعٌ لقوله وهومطلعٌ على عمله كل وقت وكل لحظة وكل نَفَس وكل طرفة عين.

قال أبو حفص لأبى عثمان النيسابورى: إذا جلست للناس فكن واعظاً لقلبك ونفسك ولا يغرنك اجتماعهم عليك فإنهم يراقبون ظاهرك والله يراقب باطنك.

وأرباب الطريق مجمعون على أن مراقبة الله تعالى فى الخواطر: سبب لحفظها فى حركات الظواهر. فمن راقب الله فى سره حفظه الله فى حركاته فى سره وعلانيته.

و«المراقبة» هى التعبد باسمه «الرقيب، الحفيظ، العليم، السميع، البصير» فمن عقل هذه الأسماء وتعبد بمقتضاها: حصلت له المراقبة. والله أعلم.

منزلة الإخلاص

ومن منازل (إياك نعبد وإياك نستعين) منزلة (الإخلاص)

قال الله تعالى ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾[8] وقال ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين. ألا لله الدين الخالص﴾[9] وقال لنبيه ﷺ ﴿قل

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٣٥
(٢) سورة الأحزاب : الآية ٥٢ .
(٣) سورة الحديد : الآية ٤ .
(٤) سورة العلق الآية ١٤ .
(٥) سورة الطور : الآية ٤٨
(٦) سورة غافر الآية ١٩
(٧) رواه البخاري (٥٠) ومسلم (٩٣) وأبو داود (٤٦٩٥) والترمذي (٢٦١٠) والنسائى (٨/ ٩٧) وابن ماجه (٦٣) عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه .
(٨) سورة البينة : الآية ٥
(٩) سورة الزمر الآية ٢-٣

الله أعبد مخلصاً له دينى، فاعبدوا ما شئتم من دونه﴾[1] وقال له ﴿قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين. لا شريك له وبذلك أمرت.وأنا أول المسلمين﴾[2] وقال ﴿الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾[3] قال الفضيل ابن عياض: هو أخلصه وأصوبه قالوا: يا أبا على ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل وإذا كان صوابا ولم يكن خالصاً: لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا والخالص: أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة. ثم قرأ قوله تعالى﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ [4] وقال تعالى ﴿ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن﴾[5] فإسلام الوجه: إخلاص القصد والعمل لله والاحسان فيه: متابعة رسوله ﷺ وسنته وقال تعالى﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾ [6] وهى الأعمال التى كانت على غير السنة أو أريد بها غير وجه الله قال النبى ﷺ لسعد بن أبى وقاص رضى الله عنه «إنك لن تخلف فتعمل عملا تبتغى به وجه الله تعالى: إلا ازددت به خيرا ودرجة ورفعة»[7] وفى الصحيح من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله ومناصحة ولاة الأمر ولزوم جماعة المسلمين. فإن دعوتهم تحيط من ورائهم»[8] أى لا يبقى فيه غل ولا يحمل الغل مع هذه الثلاثة بل تنفى عنه غله وتنقيه منه وتخرجه عنه فإن القلب يغل على الشرك أعظم غل وكذلك يغل على الغش وعلى خروجه عن جماعة المسلمين بالبدعة والضلالة فهذه الثلاثة تملؤه غلا ودغلا ودواء هذا الغل واستخراج أخلاطه: بتجريد الإخلاص والنصح ومتابعة السنة.

وسئل رسول الله ﷺ عن الرجل: يقاتل رياء، ويقاتل شجاعة ويقاتل حمية: أىُّ ذلك فى سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله»[9].

---

(1) سورة الزمر : الآية : ١٤-١٥

(2) سورة الأنعام : الآية ١٦٢ - ١٦٣ .

(3) سورة الملك : االآية ٢ .

(4) سورة الكهف : الآية ١١٠.

(5) سورة النساء : الآية ١٢٥ .

(6) سورة الفرقان : الآية ٢٣ .

(7) رواه البخارى (١٢٩٥) كتاب الجنائز، باب: رثاء النبى ﷺ سعد بن بن خولة .

(8) صحيح رواه أحمد (٥/١٨٣) وابن ماجه (٢٣٠) والدارمى (١/٧٥) والطبرانى فى «الكبير» (٤٨٩٠، ٤٩٢٥) وابن حبان (٦٧، ٦٨٠ ـ إحسان) وابن عبد البر فى «جامع بيان العلم» (١/٤٢) وابن أبى عاصم فى «السنة»(٩٤) عن زيد بن ثابت. ورواه أحمد (٣/٢٢٥) عن أنس بن مالك ورواه الترمذى (٢٦٥٨) عن ابن مسعود، ورواه أحمد (٤/ ٨٠، ٨٢) وابن ماجه (٣٠٥٦) والحاكم (١/٨٧) عن جبير بن مطعم رضى الله عنهم .

(9) رواه البخارى (٢٨١٠) ومسلم (٤٨٣٦) وأحمد (٤/٣٩٧، ٤٠٢، ٤٠٥) وأبو داود (٢٥١٧) والترمذى (١٦٤٦) والنسائى (٦/ ٢٣) وابن ماجه (٢٧٨٣) عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

وأخبر عن أول ثلاثة تسعر بهم النار: قارىء القرآن والمجاهد، والمتصدق بماله، الذين فعلو ذلك ليقال: فلان قارىء فلان شجاع، فلان متصدق، ولم تكن أعمالهم خالصة لله.

وفى الحديث الصحيح الإلهى يقول الله تعالى «أنا أغنى الشركاء عن الشرك. من عمل عملاً أشرك فيه غيرى فهو للذى أشرك به وأنا منه برئ»(١)

وفى الصحيح عنه ﷺ «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم»(٢) وقال تعالى ﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم﴾(٣).

(مغزى الإخلاص: تنقية العمل من الشوائب)

قال صاحب المنازل.

(الإخلاص: تصفية العمل من كل شوب)

أى لا يمازج عمله ما يشوبه من شوائب إرادات النفس: إما طلب التزين فى قلوب الخلق وإما طلب مدحهم، والهرب من ذمهم، أو طلب تعظيمهم، أو طلب أموالهم، أو خدمتهم ومحبتهم وقضائهم حوائجه أو غير ذلك من العلل والشوائب التى عقد متفرقاتها: هو إرادة ما سوى الله بعمله كائنا ما كان.

منزلة الاستقامة

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الاستقامة»

قال الله تعالى ﴿إن الذين قالوا: ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة: ألا تخافوا ولا تحزنوا. وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون﴾(٤) وقال ﴿إن الذين قالوا: ربنا الله. ثم استقاموا. فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون﴾(٥) وقال لرسوله ﷺ ﴿فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير﴾(٦).

فبين أن الاستقامة ضد الطغيان وهو مجاوزة الحدود فى كل شئ.

---

(١) رواه مسلم (٧٣٣١)، وابن ماجه (٤٢٠٢) والبغوى فى «شرح السنة» (٤١٣٦) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) رواه مسلم (٦٤٢٣) وأحمد (٢/ ٢٨٥ و ٥٣٩) وابن ماجه (٤١٤٣) والبغوى (١٤٥٠) عن أبى هريرة رضى الله عنه، وبعض الناس يفهمون هذا الحديث فهماً خاطئاً حيث لا يبالون بالأعمال ولا يقيمون لها وزناً، ويقولون: المهم ما فى القلب وينسون أو يتناسون أن النبى ﷺ قال فى تمام الحديث «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم. لكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» فالله عز وجل ينظر إلى الأعمال كما ينظر إلى القلوب.

(٣) سورة الحج: الآية ٣٧.

(٤) سورة فصلت: الآية ٣٠.

(٥) سورة الأحقاف: الآيتان ١٣، ١٤.

(٦) سورة هود: الآية ١١٢

وقال تعالى﴿قل: إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد. فاستقيموا إليه واستغفروه﴾[1] وقال تعالى ﴿وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً لنفتنهم فيه﴾[2].

سئل صديق الأمة وأعظمها استقامة - أبو بكر الصديق رضى الله عنه - عن الاستقامة؟ فقال (أن لا تشرك بالله شيئاً) يريد الاستقامة على محض التوحيد.

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه «الاستقامة: أن تستقيم على الأمر والنهى ولا تروغ روغان الثعالب».

وقال عثمان بن عفان رضى الله عنه «استقاموا: أخلصوا العمل لله».

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه، وابن عباس رضى الله عنهما «استقاموا أدوا الفرائض»

وقال الحسن «استقاموا على أمر الله. فعملوا بطاعته واجتنبوا معصيته»

وقال مجاهد«استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى لحقوا بالله»

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- يقول: استقاموا على محبته وعبوديته لم يلتفتوا عنه يمنة ولايسرة.

وفى صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله رضى الله عنه قال: قلت «يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحداً غيرك قال: «قل آمنت بالله. ثم استقم» [3].

وفيه عن ثوبان رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال «استقيموا. ولن تحصوا. واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»[4].

والمطلوب من العبد الاستقامة. وهى السداد. فإن لم يقدر عليها فالمقاربة. فإن نزل عنها: فالتفريط والإضاعة كما فى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «سددوا وقاربوا واعلموا أنه لن ينجو أحدٌ منكم بعمله. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل» [5].

فجمع فى هذا الحديث مقامات الدين كلها. فأمر بالاستقامة وهى السداد والإصابة فى

---

(١) سورة فصلت: الآية ٦. (٢) سورة الجن: الآية ١٦.

(٣) رواه مسلم (١٥٨) وأحمد (٤١٣/٣) والترمذى (٢٤١٠) وابن ماجه (٣٩٧٢)

(٤) صحيح رواه أحمد (٢٧٦/٥ - ٢٧٧ و ٢٨٢) وابن ماجة (٢٧٧) وابن حبان(١٠٣٧ - إحسان) والدارمى (١٦٨/١) والطبرانى فى «الصغير» (١١/١و ٨٨/٢) والحاكم (١/ ١٣٠) والبيهقى (٤٥٧/١) والخطيب فى تاريخه «تاريخه» (٢٩٣/١) والطبرانى فى «الكبير» (١٤٤٤)

(٥) رواه مسلم (٦٩٧٩) كتاب التوبة، باب: لن يدخل أحد الجنة بعمله، بل برحمة الله تعالى.

النيات والأقوال والأعمال.

وأخبر فى حديث ثوبان: أنهم لا يطيقونها فنقلهم إلى المقاربة وهى أن يقربوا من الاستقامة بحسب طاقتهم. كالذى يرمى إلى الغرض، فإن لم يصبه يقاربه ومع هذا فأخبرهم: أن الاستقامة والمقاربة لا تنجى يوم القيامة فلا يركن أحد إلى عمله. ولا يعجب به. ولايرى أن نجاته به. بل إنما نجاته برحمة الله وعفوه وفضله.

فالاستقامة كلمة جامعة، آخذة بمجامع الدين. وهى القيام بين يدى الله على حقيقة الصدق والوفاء بالعهد.

والاستقامة تتعلق بالأقوال، والأفعال، والأحوال، والنيات. فالاستقامة فيها: وقوعها لله. وبالله، وعلى أمر الله.

قال بعض العارفين: كن صاحب الاستقامة لا طالب الكرامة فإن نفسك متحركة فى طلب الكرامة. وربك يطالبك بالاستقامة.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله تعالى وروحه - يقول: أعظم الكرامة لزوم الاستقامة.

(منزلة التوكل)

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «التوكل»

قال الله تعالى ﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾(١) وقال ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾(٢) وقال ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾(٣) وقال عن أوليائه ﴿ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير﴾(٤) وقال لرسوله ﴿قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا﴾(٥) وقال لرسوله ﷺ ﴿فتوكل على الله إنك على الحق المبين﴾(٦) وقال له ﴿وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا﴾(٧) وقال له ﴿وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده﴾(٨) وقال له ﴿فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾(٩) وقال عن أنبيائه ورسله ﴿ومالنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا﴾(١٠) وقال عن أصحاب نبيه ﴿الذين قال لهم الناس: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم. فزادهم إيماناً وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل﴾(١١) وقال ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم. وإذا تليت

---

(١) سورة المائدة : الآية ٢٣ . (٢) سورة التوبة: الآية٥١ . (٣) سورة الطلاق : الآية ٣ .
(٤) سورة الممتحنة : الآية ٤ . (٥) سورة الملك : الآية ٢٩ . (٦) سورة النمل : الآية ٧٩.
(٧) سورة النساء : الآية ٨١ . (٨) سورة الفرقان: الآية ٥٨ . (٩) سورة آل عمران : الآية ١٥٩.
(١٠) سورة إبراهيم : الآية ١٢ . (١١)

عليهم آياته زادتهم إيماناً. وعلى ربهم يتوكلون﴾[1].

والقرآن مملوءٌ من ذلك.

وفى الصحيحين - فى حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب - **﴿هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون﴾**[2]

وفى صحيح البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال «حسبنا الله ونعم الوكيل. قالها إبراهيم ﷺ، حين ألقى فى النار. وقالها محمد ﷺ حين قالوا له(إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم. فزادهم إيماناً وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل)[3].

وفى الصحيحين: أن رسول الله ﷺ كان يقول **«اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت اللهم إنى أعوذ بعزتك، لا إله إلا أنت: أن تضلنى. أنت الحى الذى لا يموت. والجن والإنس يموتون»**[4]

وفى الترمذى عن عمر رضى الله عنه مرفوعاً **«لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطاناً»**[5]

وفى السنن عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ **«من قال -يعنى إذا خرج من بيته - بسم الله. توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله يقال له: هديت ووقيت وكفيت فيقول الشيطان لشيطان آخر: كيف لك برجل قد هدى وكفى ووقى؟»**[6]

«التوكل» نصف الدين والنصف الثانى «الإنابة» فإن الدين استعانة وعبادة فالتوكل هو الاستعانة والإنابة هى العبادة.

(معنى التوكل ودرجاته)

قال الإمام أحمد: التوكل عمل القلب. ومعنى ذلك: أنه عمل قلبى. ليس بقول اللسان ولا عمل الجوارح ولا هو من باب العلوم والإدراكات.

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٢ .

(٢) رواه البخارى (٥٧٠٥) ومسلم (٥١٤) والترمذى (٢٤٤٦) عن ابن عباس رضى الله عنهما .

(٣) رواه البخارى (٤٥٦٣) كتاب التفسير باب ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم﴾ الآية

(٤) رواه البخارى (٧٣٨٣) و مسلم (٦٧٦٨) عن ابن عباس رضى الله عنهما .

(٥) صحيح. رواه الترمذى (٢٣٤٤) وابن حبان(٧٣٠- حسان) وأحمد (١/ ٣٠و ٥٢) وأبو يعلى (٢٤٧) وابن ماجه (٤١٦٤) والحاكم (٣١٨/٤) وأبو نعيم فى «الحلية» (٦٩/١٠) وابن المبارك فى «الزهد» (٥٥٩) والبغوى (٤١٠٨) والقضاعى فى «مسند الشهاب» (١٤٤٤ و ١٤٤٥).

(٦) حسن. رواه أبو داود (٥٠٩٥) والترمذى (٣٤٢٦) والنسائى فى «عمل اليوم والليلة» (١٧٨) وابن حبان (٨٢٢ - إحسان) عن أنس بن مالك رضى الله عنه.

وقال بشر الحافى: يقول أحدهم: توكلت على الله. يكذب على الله، لو توكل على الله، رضى بمايفعل الله.

وسئل يحيى بن معاذ: متى يكون الرجل متوكلاً؟ فقال: إذا رضى بالله وكيلاً.

ومنهم: من يفسره بالثقة بالله والطمأنينة إليه والسكون إليه.

وأجمع القوم على أن التوكل لا ينافى القيام بالأسباب. فلا يصح التوكل إلا مع القيام بها وإلا فهو بطالة وتوكل فاسد.

قال سهل بن عبد الله: من طعن فى الحركة فقد طعن فى السنة ومن طعن فى التوكل فقد طعن فى الإيمان.

فالتوكل حال النبى ﷺ، والكسب سنته فمن عمل على حاله فلا يتركن سنته.

ومعنى التوكل: اعتماد على الوكيل، وقد يعتمد الرجل على وكيله مع نوع اقتراح عليه وإرادة وشائبة منازعة فإذا سلم إليه زال عنه ذلك ورضى بما يفعله وكيله وحال المفوض فوق هذا. فإنه طالب مريد ممن فوض إليه ملتمس منه أن يتولى أموره. فهو رضى واختيار وتسليم واعتماد فالتوكل يندرج فى التسليم وهو والتسليم يندرجان فى التفويض. والله سبحانه وتعالى أعلم.

وحقيقة الأمر أن التوكل حال مركبة من مجموع أمور. لا تتم حقيقة التوكل إلا بها.

فأول ذلك: معرفةٌ بالرب وصفاته: من قدرته وكفايته، وقيوميته وانتهاء الأمور إلى علمه وصدورها عن مشيئته وقدرته وهذه المعرفة أول درجة يضع بها العبد قدمه فى مقام التوكل.

قال شيخنا رضى الله عنه: ولذلك لايصح التوكل ولا يتصور من فيلسوف. ولا من القدرية النفاة القائلين: بأنه يكون فى ملكه ما لا يشاء ولايستقيم أيضاً من الجهمية النفاة لصفات الرب جل جلاله، ولا يستقيم التوكل إلا من أهل الإثبات.

فأى توكل لمن يعتقد أن الله لا يعلم جزئيات العالم سفليه وعلويه؟ ولا هو فاعل باختياره؟ ولا له إرادة ومشيئة ولا يقوم به صفة؟ فكل من كان بالله وصفاته أعلم وأعرف: كان توكله أصح وأقوى. والله سبحانه وتعالى أعلم.

الدرجة الثانية: إثبات فى الأسباب والمسببات.

فإن من نفاها فتوكله مدخول. وهذا عكس ما يظهرفى بدوات الرأى: أن إثبات الأسباب يقدح فى التوكل وأن نفيها تمام التوكل.

فاعلم أن نفاة الأسباب لا يستقيم لهم توكل ألبتة لأن التوكل من أقوى الأسباب فى حصول المتوكل فيه فهو كالدعاء الذى جعله الله سبباً فى حصول المدعو به فإذا اعتقد العبد أن توكله لم ينصبه الله سبباً ولا جعل دعاءه سبباً لنيل شىء فإن المتوكل فيه المدعو بحصوله: إن كان قد قدر حصل توكل أو لم يتوكل دعا أو لم يدع. وإن لم يقدر لم يحصل. توكل أيضا أو ترك التوكل.

وصرح هؤلاء: أن التوكل والدعاء عبودية محضة. لا فائدة لهما إلا ذلك. ولو ترك العبد التوكل والدعاء ما فاته شىء مما قدر له. ومن غلاتهم من يجعل الدعاء بعلم المؤاخذه على الخطأ والنسيان عديم الفائدة. إذ هو مضمون الحصول.

ورأيت بعض متعمقى هؤلاء - فى كتاب له -لا يجوز الدعاء بهذا وإنما يجوزه تلاوة لا دعاء. قال: لأن الدعاء به يتضمن الشك فى وقوعه لأن الداعى بين الخوف والرجاء والشك فى وقوع ذلك: شك فى خبر الله فانظر إلى ما قاد إنكار الأسباب من العظائم، وتحريم الدعاء بما أثنى الله على عباده وأوليائه بالدعاء به ويطلبه ولم يزل المسلمون من عهد نبيهم ﷺ وإلى الآن يدعون به فى مقامات الدعاء. وهو من أفضل الدعوات

وجواب هذا الوهم الباطل، أن يقال: بقى قسم ثالث غير ماذكرتم من القسمين لم تذكروه وهو الواقع. وهو أن يكون قضى بحصول الشىء عند حصول سببه من التوكل والدعاء فنصب الدعاء والتوكل سببين لحصول المطلوب. وقضى الله بحصوله إذا فعل العبد سببه فإذا لم يأت بالسبب امتنع المسبب وهذا كما قضى بحصول الولد إذا جامع الرجل من يُحبِّلها. فإذا لم يجامع لم يخلق الولد.

وقضى بحصول الشبع إذا أكل. والرىّ إذا شرب فإذا لم يفعل لم يشبع ولم يرو

وقضى بحصول الحج والوصول إلى مكة إذا سافر وركب الطريق فإذا جلس فى بيته لم يصل إلى مكة.

وقضى بدخول الجنة إذا أسلم وأتى بالأعمال الصالحة فإذا ترك الإسلام ولم يعمل الصالحات: لم يدخلها أبداً.

وقضى بانضاج الطعام بإيقاد النار تحته.

وقضى بطلوع الحبوب التى تزرع بشق الأرض وإلقاء البذر فيها فما لم يأت بذلك لم يحصل إلا الخيبة.

فوازن ما قاله منكرو الأسباب: أن يترك كل من هؤلاء السبب الموصل. ويقول: إن كان قضى لى وسبق فى الأزل حصول الولد، والشبع، والرى، والحج ونحوها فلا بد أن يصل إلى تحركت أو سكنت وتزوجت أو تركت، سافرت أو قعدت. وإن لم يكن قد قضى لى لم يحصل لى أيضاً فعلت أو تركت.

فهل يعد أحد هذا من جملة العقلاء؟ وهل البهائم إلا أفقه منه ؟ فإن البهيمة تسعى فى السبب بالهداية العامة.

فالتوكل من أعظم الأسباب التى يحصل بها المطلوب ويندفع بها المكروه فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل، ولكن من تمام التوكل: عدم الركون إلى الأسباب. وقطع علاقة القلب بها فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها. وحال بدنه قيامه بها.

فالأسباب محل حكمة الله وأمره ودينه والتوكل متعلق بربوبيته وقضائه وقدره. فلا تقوم عبودية الأسباب إلا على ساق التوكل. ولا يقوم ساق التوكل إلا على قدم العبودية. والله سبحانه وتعالى أعلم.

(التجريد أساس التوكل)

الدرجة الثالثة: رسوخ القلب فى مقام توحيد التوكل.

فإنه لا يستقيم توكل العبد حتى يصح له توحيده. بل حقيقة التوكل: توحيد القلب. فما دامت فيه علائق الشرك. فتوكله معلول مدخول وعلى قدر تجريد التوحيد: تكون صحة التوكل، فإن العبد متى التفت إلى غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبة من شعب قلبه فنقص من توكله على الله بقدر ذهاب تلك الشعبة ومن ههنا ظن من ظن أن التوكل لا يصح إلا برفض الأسباب. وهذا حق. لكن رفضها عن القلب لا عن الجوارح فالتوكل لا يتم إلا برفض الأسباب عن القلب، وتعلق الجوارح بها. فيكون منقطعاً منها متصلا بها. والله سبحانه وتعالى أعلم.

(اللجوء إلى الله يمنحنا السكينة)

الدرجة الرابعة: اعتماد القلب على الله، واستناده إليه وسكونه إليه.

بحيث لايبقى فيه اضطراب من تشويش الأسباب ولا سكون إليها بل يخلع السكون إليها من قلبه ويلبسه السكون إلى مسببها.

وعلامة هذا: أنه لا يبالى بإقبالها وإدبارها ولا يضطرب قلبه ويخفق عند إدبار ما يحب منها وإقبال ما يكره لأن اعتماده على الله وسكونه إليه، واستناده إليه قد حصنه من خوفها ورجائها فحاله حال من خرج عليه عدو عظيم لا طاقة له به فرأى حصناً مفتوحاً فأدخله ربه إليه وأغلق عليه باب الحصن. فهو يشاهد عدوه خارج الحصن. فاضطراب قلبه وخوفه من عدوه فى هذه الحال لا معنى له.

وكذلك من أعطاه ملك درهماً فسرق منه فقال له الملك: عندى أضعافه. فلا تهتم متى جئت إلى أعطيتك من خزائنى أضعافه فإذا علم صحة قول الملك، ووثق به واطمأن إليه، وعلم أن خزائنه مليئة بذلك - لم يحزنه فوته.

وقد مثل ذلك بحال الطفل الرضيع فى اعتماده وسكونه وطمأنينته بثدى أمه لا يعرف غيره وليس فى قلبه التفات إلى غيره كما قال بعض العارفين: المتوكل كالطفل لا يعرف شيئاً يأوى إليه إلا ثدى أمه كذلك المتوكل لا يأوى إلا إلى ربه سبحانه.

(سبحانه أهل المن والفضل)

الدرجة الخامسة: حسن الظن بالله عز وجل.

فعلى قدر حسن ظنك بربك ورجائك له. يكون توكلك عليه ولذلك فسر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله.

والتحقيق: أن حسن الظن به يدعوه إلى التوكل عليه إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنك به ولا التوكل على من لا ترجوه والله أعلم.

(إستسلام)

الدرجة السادسة: استسلام القلب له وانجذاب دواعيه كلها إليه وقطع منازعاته.

وبهذا فسره من قال: أن يكون العبد بين يدى الله كالميت بين يدى الغاسل يقلبه كيف أراد لا يكون له حركة ولا تدبير.

وهذا معنى قول بعضهم: التوكل إسقاط التدبير يعنى الاستسلام لتدبير الرب لك وهذا فى غير باب الأمر والنهى. بل فيما يفعله بك. لا فيما أمرك بفعله.

فالاستسلام كتسليم العبد الذليل نفسه لسيده وانقياده له وترك منازعات نفسه وإرادتها مع سيده والله سبحانه وتعالى أعلم.

(نفوض أمرنا إلى الله)

الدرجة السابعة: التفويض.

هو روح التوكل وليه وحقيقته وهوإلقاء أموره كلها إلى الله وإنزالها به طلبا واختياراً لا كرها واضطراراً بل كتفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب على أمره: كل أموره إلى أبيه العالم بشفقته عليه ورحمته وتمام كفايته وحسن ولا يته له وتدبيره له فهو يرى أن تدبير أبيه له خيرمن تدبيره لنفسه. وقيامه بمصالحه وتوليه لها خير من قيامة هو بمصالح نفسه وتوليه لها فلا يجد له أصلح ولا أرفق من تفويضه أموره كلها إلى أبيه وراحته من حمل كلفها وثقل حملها، مع عجزه عنها، وجهله بوجوه المصالح فيها وعلمه بكمال علم من فوض إليه، وقدرته وشفقته.

(الرضا ثمرة التوكل)

فإذا وضع قدمه فى هذه الدرجة. انتقل منها إلى درجة «الرضى»

وهى ثمرة التوكل. ومن فسر التوكل: بها فإنما فسره بأجل ثمراته، وأعظم فوائده فإنه إذا توكل حق التوكل رضى بما يفعله وكيله.

وكان شيخنا - رضى الله عنه - يقول: المقدور يكتنفه أمران: التوكل قبله والرضى بعده فمن توكل على الله قبل الفعل ورضى بالمقضى له بعد الفعل. فقد قام بالعبودية أو معنى هذا.

قلت: وهذا معنى قول النبى ﷺ فى دعاء الاستخارة «اللهم إنى أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم»[1] فهذا توكل وتفويض ثم قال «فإنك تعلم ولا أعلم وتقدر ولاأقدر وأنت علام الغيوب» فهذا تبرؤ إلى الله من العلم والحول والقوة، وتوسل إليه سبحانه بصفاته التى هى أحب ماتوسل إليه به المتوسلون ثم سأل ربه أن يقضى له ذلك الأمر إن كان فيه مصلحته عاجلا أو آجلا وأن يصرفه عنه إن كان فيه مضرته عاجلا أو آجلا. فهذا هو حاجته التى سألها فلم يبق عليه إلا الرضى بما يقضيه له. فقال «واقدر لى الخير حيث كان ثم رضّنى به»

فقد اشتمل هذا الدعاء على هذه المعارف الإلاهية والحقائق الإيمانية التى من جملتها: التوكل والتفويض قبل وقوع المقدور والرضى بعده وهوثمرة التوكل. والتفويض علامة صحته فإن لم يرض بما قضى له فتفويضه معلول فاسد.

---

(١) رواه البخارى (١١٦٢)، والنسائى: (٦/ ٨٠ـ٨١) وأبو داود (١٥٤٣) وابن ماجه (١٣٨٣)

فباستكمال هذه الدرجات الثمان يستكمل العبد مقام التوكل وتثبت قدمه فيه وهذا معنى قول بشر الحافي: يقول أحدهم: توكلت على الله يكذب على الله لو توكل على الله لرضي بما يفعله الله به.

وقول يحيى بن معاذ، وقد سئل: متى يكون الرجل متوكلاً؟، فقال: إذا رضي بالله وكيلاً.

(تعلق التوكل بأسماء الله الحسنى)

«التوكل» من أعم المقامات تعلقاً بالأسماء الحسنى.

فإن له تعلقاً خاصاً بعامة أسماء الأفعال، وأسماء الصفات.

فله تعلق باسم «الغفار، والتواب، والعفو، والرؤوف، والرحيم» وتعلق باسم «الفتاح، والوهاب، والرزاق، والمعطي، والمحسن» وتعلق باسم «المعز، المذل، الخافض، الرافع، المانع» من جهه توكله عليه في إذلال أعداء دينه، وخفضهم ومنعهم أسباب النصر، وتعلق بأسماء «القدرة، والإرادة» وله تعلق عام بجميع الأسماء الحسنى ولهذا فسره من فسره من الأئمة بأنه المعرفة بالله.

وإنما أراد أنه بحسب معرفة العبد يصح له مقام التوكل. وكلما كان بالله أعرف كان توكله عليه أقوى.

منزلة الصبر

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الصبر»

قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعاً.

وهو واجب بإجماع الأمة. وهو نصف الإيمان. فإن الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر.

وهو مذكور في القرآن على ستة عشر نوعاً.

الأول: الأمر به. نحو قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة﴾[1] وقوله ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾[2] وقوله: ﴿اصبروا وصابروا﴾[3] وقوله ﴿واصبر وما صبرك إلا بالله﴾[4]

---

(١) البقرة : الآية ٣٥.
(٢) البقرة : الآية ٤٥
(٣) آل عمران : الآية ٢
(٤) النحل : الآية ١٢٧

الثاني: النهى عن ضده. كقوله ﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل، ولا تستعجل لهم﴾[1] وقوله ﴿ولا تولوهم الأدبار﴾[2] فإن تولية الأدبار: ترك للصبر والمصابرة. وقوله ﴿ولا تبطلوا أعمالكم﴾[3] فإن إبطالها ترك الصبر على إتمامها. وقوله ﴿فلا تهنوا ولا تحزنوا﴾ فإن الوهن من عدم الصبر.

الثالث: الثناء على أهله، كقوله تعالى﴿الصابرين والصادقين - الآية﴾[4] وقوله ﴿والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس. أولئك الذين صدقوا. وأولئك هم المتقون﴾[5] وهو كثير فى القرآن.

الرابع: إيجابه سبحانه محبته لهم. كقوله﴿والله يحب الصابرين﴾[6]

الخامس: إيجاب معيته لهم. وهى معية خاصة. تتضمن حفظهم ونصرهم، وتأييدهم. ليست معية عامة. وهى معيه العلم، والإحاطة. كقوله:﴿واصبروا. إن الله مع الصابرين﴾[7] وقوله : ﴿والله مع الصابرين﴾[8].

السادس: إخباره بأن الصبر خير لأصحابه. كقوله ﴿ولئن صبرتم لهو خيرللصابرين﴾[9] وقوله ﴿وإن تصبروا خير لكم﴾[10]

السابع: إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم. كقوله تعالى:﴿ولنجزين الذى صبروا أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون﴾[11]

الثامن: إيجابه سبحانه الجزاء لهم بغيرحساب. كقوله تعالى:﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغيرحساب﴾[12].

التاسع: إطلاق البشرى لأهل الصبر. كقوله تعالى ﴿ولنبلونكم بشئ من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات. وبشر الصابرين﴾[13]

العاشر: ضمان النصر والمدد لهم. كقوله تعالى:﴿بلى، إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾ [14] ومنه قول النبىﷺ «واعلم أن النصر مع الصبر».

الحادى عشر: الإخبار منه تعالى بأن أهل الصبر هم أهل العزائم كقوله تعالى﴿ولمن

---

(١) الأحقاف: الآية ٣٥ (٢) الأنفال الآية ١٥ (٣) محمد . الآية ٣٣
(٤) آل عمران الآية ١٧ (٥) البقرة الآية ١٧٦ (٦) البقرة الآية ١٤٦
(٧) الأنفال . الآية ٤٧ (٨) البقرة الآية ٢٤٩ (٩) النحل الآية ١٢٦
(١٠) النساء الآية ٢٥ (١١) النحل. الآية ٩٦ (١٢) النحل الآية ٩٦
(١٣) البقرة . الآية ١٥٥ (١٤) سورة آل عمران : الآية ١٢٥ .
(١٥) صحيح، رواه أحمد (١/ ٣٠٧) عن ابن عباس رضى الله عنه

صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾ .[1]

الثانى عشر: الإخبار أنه ما يلقى الأعمال الصالحة وجزاءها والحظوظ العظيمة إلا أهل الصبر كقوله تعالى﴿ويلكم. ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون﴾ [2] وقوله ﴿وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾[3]

الثالث عشر: الإخبار أنه إنما ينتفع بالآيات والعبر أهل الصبر كقوله تعالى لموسى ﴿أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور. وذكرهم بأيام الله. إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ [4] وقوله فى أهل سبأ ﴿ فجعلناهم أحاديث. ومزقناهم كل ممزق إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ [5] وقوله فى سورة الشورى ﴿ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام. إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾[6].

الرابع عشر: الإخبار بأن الفوز المطلوب المحبوب. والنجاة من المكروه المرهوب، ودخول الجنة، إنما نالوه بالصبر. كقوله تعالى ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾ [7].

الخامس عشر: أنه يورث صاحبه درجة الإمامة. سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- يقول: بالصبر واليقين تنال الإمامة فى الدين. ثم تلا قوله تعالى ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ [8].

السادس عشر: اقترانه بمقامات الإسلام، والإيمان، كما قرنه الله سبحانه باليقين وبالإيمان. وبالتقوى والتوكل. وبالشكر والعمل الصالح والرحمة.

ولهذا كان الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر له. كما أنه لا جسد لمن لا رأس له. وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه «خير عيش أدركناه بالصبر» وأخبر النبى ﷺ فى الحديث الصحيح «أنه ضياء»[9] وقال «من يتصبر يصبره الله»[10].

---

(1) سورة الشورى : الآية ٤٣ .
(2) سورة القصص : الآية ٨٠ .
(3) فصلت : الآية ٣٥
(4) سورة إبراهيم : الآية ٥ .
(5) سورة سبأ : الآية ١٩ .
(6) سورة الشورى : الآية ٣٣
(7) سورة الرعد : الآية ٢٦ .
(8) سورة السجدة : الآية ٢٤ .
(9) جزء من حديث رواه مسلم (٥٢٣) كتاب الطهارة، باب: فضل الوضوء. والترمذى (٣٥١٧) عن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه .
(10) رواه البخارى (١٤٦٩) ومسلم (٢٣٨٦) والترمذى (٢٠٢٤) وأبو داود (١٦٤٤) وأحمد (٣/ ١٢) والنسائى (٥/ ٩٥) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه.

وفى الحديث الصحيح «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»(1).

وقال للمرأة السوداء التى كانت تصرع. فسألته: أن يدعو لها «إن شئت صبرت. ولك الجنة و إن شئت دعوت الله أن يعافيك. فقالت: إنى أتكشف فادع الله: أن لا أتكشف فدعا لها»(2).

وأمر الأنصار- رضى الله تعالى عنهم - بأن يصبروا على الأثرة التى يلقونها بعده حتى يلقوه على الحوض.

وأمر عند ملاقاة العدو بالصبر. وأمر بالصبر عند المصيبة وأخبر «أنه إنما يكون عند الصدمة الأولى»(3)

وأمر ﷺ المصاب بأنفع الأمور له وهو الصبر والاحتساب. فإن ذلك يخفف مصيبته ويوفر أجره والجزع والتسخط والتشكى يزيد فى المصيبة ويذهب الأجر.

وأخبر ﷺ أن الصبر خير كله فقال «ما أعطى أحد عطاء خيراً له وأوسع: من الصبر»(4).

تعريف الصبر

و«الصبر» فى اللغة: الحبس والكف ومنه: قتل فلان صبراً إذا أمسك وحبس. ومنه قوله تعالى ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه﴾(5) اى احبس نفسك معهم.

فالصبر: حبس النفس عن الجزع والتسخط. وحبس اللسان عن الشكوى. وحبس الجوارح عن التشويش.

وهو ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله. وصبر عن معصية الله وصبر على امتحان الله.

---

(1) رواه مسلم (٧٣٥٦) وأحمد (٤/ ٣٣٢ و ٣٣٣) و (٦/ ١٥ و ١٦) عن صهيب رضى الله عنه.

(2) رواه البخارى (٥٦٥٢) ومسلم (٦٤٤٩) عن ابن عباس رضى الله عنهما.

(3) رواه البخارى (١٣٠٢) ومسلم (٢١٠٤) وأحمد (٣/ ١٣٠) وأبو داود (٣١٢٤) والترمذى (٩٨٨) والنسائى (٤/ ٢٢).

(4) جزء من حديث أبى سعيد الخدرى السابق تخريجه

(5) سورة الكهف : الآية ٢٨ .

فالأولان: صبر على ما يتعلق بالكسب. والثالث: صبرعلى مالا كسب للعبد فيه.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها: أكمل من صبره على إلقاء إخوته له فى الجب، وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه. فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره لا كسب له فيها، ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر. وأما صبره عن المعصية: فصبر اختيار ورضى ومحاربة للنفس، ولا سيما مع الأسباب التى تقوى معها دواعى الموافقة. فإنه كان شاباً وداعية الشباب إليها قوية وعزبا ليس له ما يعوضه ويرد شهوته وغريباً والغريب لا يستحى فى بلد غربته مما يستحى منه من بين أصحابة ومعارفه وأهله ومملوكاً والمملوك أيضا ليس وازعه كوازع الحر. والمرأة جميلة. وذات منصب وهى سيدته وقد غاب الرقيب وهى الداعية له إلى نفسها والحريصة على ذلك أشد الحرص، ومع ذلك توعدته إن لم يفعل: بالسجن والصغار. ومع هذه الدواعى كلها: صبر اختياراً، وإيثاراً لما عند الله وأين هذا من صبره فى الجب على ماليس من كسبه؟

وكان يقول: الصبر على أداء الطاعات: أكمل من الصبر على اجتناب المحرمات وأفضل. فإن مصلحة فعل الطاعة: أحب إلى الشارع من مصلحة ترك المعصية. ومفسدة عدم الطاعة: أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية.

أنواع الصبر

وهو على ثلاثة أنواع: صبر بالله، وصبر لله، وصبر مع الله.

فالأول: أول الاستعانة به ورؤيته أنه هو المصبر وأن صبر العبد بربه لا بنفسه كما قال تعالى﴿واصبر وما صبرك إلا بالله﴾(1) يعنى إن لم يصبرك هو لم تصبر.

والثانى: الصبر لله. وهو أن يكون الباعث له على الصبر محبة الله، وإرادة وجهه والتقرب إليه لا لإظهار قوة النفس، والاستحماد إلى الخلق وغير ذلك من الأغراض.

والثالث: الصبر مع الله. وهو دوران العبدمع مراد الله الدينى منه ومع أحكامه الدينية. صابراً نفسه معها، سائراً بسيرها مقيما بإقامتها. يتوجه معها أين توجهت ركائبها. وينزل معها أين استقلت مضاربها.

---

(1) سورة النحل: الآية ١٢٧ .

فهذا معنى كونه صابراً مع الله، أى قد جعل نفسه وقفاً على أوامره ومحابه. وهو أشد أنواع الصبر وأصعبها وهو صبر الصديقين.

قال الجنيد : المسير من الدنيا إلى الآخرة سهل هين على المؤمن وهجران الخلق فى جنب الله شديد. والمسير من النفس إلى الله صعب شديد. والصبر مع الله أشد.

وسئل عن الصبر؟ فقال: تجرع المرارة من غير تعبّس.

وقال عمرو بن عثمان: هوالثبات مع الله، وتلقى بلائه بالرحب والدعة.

وقال الخواص: هوالثبات على أحكام الكتاب والسنة.

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه: الصبر مطية لا تكبو.

وقال الجريرى: الصبر أن لا يفرق بين حال النعمة وحال المحبة مع سكون الخاطر فيهما والتصبر: هو السكون مع البلاء، مع وجدان أثقال المحنة.

قال أبوعلى الدقاق: فاز الصابرون بعز الدارين. لأنهم نالوا من الله معيته. فإن الله مع الصابرين.

وقيل فى قوله تعالى﴿اصبروا وصابروا ورابطوا﴾[1] إنه انتقال من الأدنى إلى الأعلى فـ«الصبر» دون المصابرة و«المصابرة» دون «المرابطة» و«المرابطة» مفاعلة من الربط وهو الشد وسمى المرابط مرابطاً: لأن المرابطين يربطون خيولهم ينتظرون الفزع ثم قيل لكل منتظر قد ربط نفسه لطاعة ينتظرها: مرابط. ومنه قول النبى ﷺ «ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟ إسباغ الوضوء على المكارة وكثره الخطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعدالصلاة، فذلكم الرباط،فذلكم الرباط»[2] وقال «رباط يوم فى سبيل الله: خير من الدنيا وما فيها»[3]

«فالصبر» مع نفسك و«المصابرة» بينك وبين عدوك و«المرابطة» الثبات وإعداد العدة وكما أن الرباط لزوم الثغر لئلا يهجم منه العدو. فكذلك الرباط أيضا لزوم ثغر القلب. لئلا يهجم عليه الشيطان فيملكه أو يخربه أو يشعثه.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى فى كتابه بالصبر الجميل والصفح الجميل، والهجر الجميل. فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول«الصبر الجميل» هو الذى لا شكوى فيه ولا معه و«الصفح الجميل» هو الذى لا عتاب معه، و«الهجر الجميل» هوالذى لا أذى معه.

---

(١) سورة آل عمران الآية ٢

(٢) رواه مسلم (٥٧٦) واحمد (٢/ ٢٣٥و١ ٣و٤٣٨) والترمذى (٥١)

(٣) رواه البخارى (٢٨٩٢) كتاب الجهاد ، باب فضل رباط يوم فى سبيل الله

(الشكوى لا تنافى الصبر)

والشكوى إلى الله عز وجل لا تنافى الصبر. فإن يعقوب عليه السلام وعد بالصبر الجميل[1] والنبى إذا وعد لا يخلف ثم قال ﴿إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله﴾[2] وكذلك أيوب أخبر الله عنه: أنه وجده صابرا مع قوله: ﴿مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين﴾[3]

وإنما ينافى الصبر شكوى الله، لا الشكوى إلى الله، كما رأى بعضهم رجلا يشكو إلى آخر فاقة وضرورة. فقال: يا هذا، تشكوا من يرحمك إلى من لا يرحمك؟ ثم أنشد:

وإذا عَرَتْــكَ بليةٌ فاصبر لهـا ... صبر الكريم فإنه بــك أعلـم

وإذا شكــوت إلــى ابــن آدم إنمــا ... تشكــو الرحيــم إلى الذى لا يرحم

منزلة الرضى

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الرضى»

قال النبى ﷺ «ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً. وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولا»[4]

وقال «من قال حين يسمع النداء: رضيت بالله رباً. وبالإسلام ديناً. وبمحمد رسولا. غُفرت له ذنوبه»[5].

وهذان الحديثان عليهما مدار مقامات الدين، وإليهما ينتهى. وقد تضمنا الرضى بربوبيته سبحانه وألوهيته. والرضى برسوله، والانقياد له. والرضى بدينه، والتسليم له. ومن اجتمعت له هذه الأربعة: فهو الصدِّيق حقاً. وهى سهلة بالدعوى واللسان وهى من أصعب الأمور عند الحقيقة والامتحان. ولا سيما إذا جاء ما يخالف هوى النفس ومرادها من ذلك: تبين أن الرضى كان لسانه به ناطقاً فهو على لسانه لا على حاله.

فالرضى بإلهيته يتضمن الرضى بمحبته وحده، وخوفه، ورجائه، والإنابة إليه، والتبتل

---

(١) وذلك كما فى قوله تعالى ﴿فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾ [يوسف: ١٨].

(٢) سورة يوسف : الآية ٨٦ . (٣) سورة الأنبياء : الآية ٨٣ .

(٤) رواه مسلم فى الإيمان (١٥٠) والترمذى (٦٢٣) وأحمد (١/٢٠٨) وابن حبان (١٦٩٤/ إحسان) والبغوى (٢٥) عن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه

(٥) رواه مسلم (٨٢٨) وأحمد (١/١٨١) وأبى داود (٥٢٥) والترمذى (٢١٠) والنسائى (٢/٢٦) فى «عمل اليوم والليلة» (٢٧٣) وابن ماجه (٢١) وابن حبان (١٦٩٣) وابن خزيمة (٤٢١) عن سعد بن أبى قاص رضى الله عنه.

إليه والمجتلب قوى الإرادة والحب كلها إليه. فعل الراضى بمحبوبه كل الرضى. وذلك يتضمن عبادته والإخلاص له.

والرضى بربوبيته: يتضمن الرضى بتدبيره لعبده. ويتضمن إفراده بالتوكل عليه، والاستعانة به، والثقة به، والاعتماد عليه. وأن يكون راضياً بكل ما يفعل به.

فالأول: يتضمن رضاه بما يؤمر به. والثانى. يتضمن رضاه بما يقدر عليه.

أما الرضى بنبيه رسولاً: فيتضمن كمال الانقياد له، والتسليم المطلق إليه، بحيث يكون أولى به من نفسه، فلا يتلقى الهدى إلا من مواقع كلماته ولا يحاكم إلا إليه. ولا يحكم عليه غيره، ولا يرضى بحكم غيره ألبتة لا فى شىء من أسماء الرب وصفاته وأفعاله. ولها فى شىء من أذواق حقائق الإيمان ومقاماته ولا فى شىء من أحكام ظاهره وباطنه ولا يرضى فى ذلك بحكم غيره. ولا يرضى إلا بحكمه فإن عجز عنه كان تحكيمه غيره من باب غذاء المضطر إذا لم يجد ما يقيته إلا من الميتة والدم. وأحسن أحواله: أن يكون من باب التراب الذى إنما يتيمم به عند العجز عن استعمال الماء الطهور.

أما الرضى بدينه: فإذا قال، أو حكم، أو أمر، أو نهى: رضى كل الرضى. ولم يبق فى قلبه حرج من حكمه وسلم له تسليما ولو كان مخالفاً لمراد نفسه أو هواها، أو قول مقلده وشيخه وطائفته.

وههنا يوحشك الناس كلهم إلا الغرباء فى العالم. فإياك أن تستوحش من الاغتراب والتفرد. فإنه والله عين العزة، والصحبة مع الله ورسوله وروح الأنس به، والرضى به رباً، وبمحمد ﷺ رسولاً وبالإسلام ديناً.

بل الصادق كلما وجد مس الاغتراب، وذاق حلاوته وتنسم روحه. قال: اللهم زدنى اغتراباً ووحشة من العالم وأنساً بك، وكلما ذاق حلاوة هذا الاغتراب وهذا التفرد: رأى الوحشة عين الأنس بالناس والذل عين العز بهم. والجهل عين الوقوف مع آرائهم. وزبالة أذهانهم، والانقطاع عين التقيد برسومهم وأوضاعهم. فلم يؤثر بنصيبه من الله أحداً من الخلق. ولم يبع حظه من الله بموافقتهم فيمالا يجدى عليه إلا الحرمان. وغايته: مودة بينهم فى الحياة الدنيا. فإذا انقطعت الأسباب وحقت الحقائق وبعثر ما فى القبور، وحصل ما فى الصدور، وبليت السرائر، ولم يجد من دون مولاه الحق من قوة ولا ناصر: تبين له حينئذ مواقع الربح والخسران. وما الذى يخف أو يرجح به الميزان والله المستعان، وعليه التكلان.

ومن أعظم أسباب حصول الرضى: أن يلزم ما جعل الله رضاه فيه. فإنه يوصله إلى مقام الرضى ولا بد.

قيل ليحى بن معاذ: متى يبلغ العبد إلى مقام الرضى؟ فقال: إذا أقام نفسه على أربعة

أصول فيما يعامل به ربه فيقول: إن أعطيتنى قبلت وإن منعتنى رضيت، وإن تركتنى عبدت وإن دعوتنى أجبت.

وليس «الرضى والمحبة» كالرجاء والخوف. فإن الرضى و المحبة حالان من أحوال أهل الجنة. لا يفارقان المتلبس بهما فى الدنيا ولافى البرزخ، ولا فى الآخرة. بخلاف الخوف والرجاء فإنهما يفارقان أهل الجنة بحصول ما كانوا يرجونه وأمنهم مما كانوا يخافونه. وإن كان رجاؤهم لما ينالون من كرامته دائماً ، لكنه ليس رجاء مشوباً بشك. بل هو رجاء واثق بوعد صادق، من حبيب قادر. فهذا لون ورجاؤهم فى الدنيا لون.

وقال ابن عطاء: الرضى سكون القلب إلى قديم اختيار الله للعبد أنه اختار له الأفضل. فيرضى به.

قلت: وهذا رضى بما منه. وأما الرضى به: فأعلى من هذا وأفضل. ففرق بين من هو راض بمحبوبه، وبين من هو راض بما يناله من محبوبه من حظوظ نفسه. والله أعلم

شرط الرضا أن لايعترض العبد على الحكم ولا يتسخطه

وليس من شرط «الرضى» ألا يحس بالألم والمكاره بل ألا يعترض على الحكم ولا يتسخطه. ولهذا أشكل على بعض الناس الرضى بالمكروه، وطعنوا فيه. وقالوا: هذا ممتنع على الطبيعة وإنما هو الصبر، وإلا فكيف يجتمع الرضى والكراهة؟ وهما ضدان.

والصواب: أنه لا تناقض بينهما، وأن وجود التألم وكراهة النفس له لا ينافى الرضى كرضى المريض بشرب الدواء الكريه ورضى الصائم فى اليوم الشديد الحر بما يناله من ألم الجوع والظمإ، ورضى المجاهد بما يحصل له فى سبيل الله من ألم الجراح، وغيرها.

وطريق الرضى طريق مختصرة، قريبة جداً موصلة إلى أجل غاية. ولكن فيها مشقة ومع هذا فليست مشقتها بأصعب من مشقة طريق المجاهدة. ولا فيها من العقبات والمفاوز ما فيها. وإنما عقبتها همة عالية ونفس زكية، وتوطين النفس على كل ما يرد عليها من الله.

ويسهل ذلك على العبد: علمه بضعفه وعجزه ورحمته به، وشفقته عليه، وبره به. فإذا شهد هذا وهذا ولم يطرح نفسه بين يديه، ويرضى به وعنه، وتنجذب دواعى حبه ورضاه كلها إليه: فنفسه نفس مطرودة عن الله بعيدة عنه ليست مؤهلة لقربه وموالاته أو نفس ممتحنة مبتلاة بأصناف البلايا والمحن.

فطريق الرضى والمحبة: تُسيِّر العبد وهو مستلق على فراشه فيصبح أمام الركب بمراحل.

وثمرة الرضى: الفرح والسرور بالرب تبارك وتعالى.

وسئل أبو عثمان عن قول النبي ﷺ «أسألك الرضى بعد القضاء»[1] فقال: لأن الرضى قبل القضاء عزم على الرضى والرضى بعد القضاء هو الرضى.

وقيل: الرضى ارتفاع الجزع في أي حكم كان.

وقيل: سكون القلب تحت مجاري الأحكام.

وقيل: نظر القلب إلى قديم اختيار الله للعبد، وهو ترك السخط.

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى رضي الله عنهما «أما بعد، فإن الخير كله في الرضى. فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر»

(ثمرات الرضا اليانعة)

أحدها: أنه مفوض. والمفوض راض بكل ما اختاره له من فوض إليه ولاسيما إذا علم كمال حكمته ورحمته ولطفه وحسن اختياره له.

الثاني: أنه جازم بأنه لا تبديل لكلمات الله، ولا راد لحكمه، وأنه ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. فهوَ يعلم أن كلاً من البلية والنعمة بقضاء سابق وقدر حَتْم.

الثالث: أنه عبد محض. والعبد المحض لا يسخط جريان أحكام سيده المشفق البار الناصح المحسن. بل يتلقاها كلها بالرضى به وعنه.

الرابع: أنه محب. والمحب الصادق: من رضى بما يعامله به حبيبه.

الخامس: أنه جاهل بعواقب الأمور. وسيده أعلم بمصلحته وبما ينفعه.

السادس: أنه لا يريد مصلحة نفسه من كل وجه، ولو عرف أسبابها. فهو جاهل ظالم. وربه تعالى يريد مصلحته، ويسوق إليه أسبابها. ومن أعظم أسبابها: ما يكرهه العبد، فإن مصلحته فيما يكره أضعاف أضعاف مصلحته فيما يحب قال الله تعالى﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم.وعسى أن تكرهوا شيئاً وهوخير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم. والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾[2] وقال تعالى: ﴿فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾[3].

السابع: أنه مسلم. والمسلم من قد سلم نفسه لله. ولم يعترض عليه في جريان أحكامه عليه. ولم يسخط ذلك.

الثامن: أنه عارف بربه. حسن الظن به لا يتهمه فيما يجريه عليه من أقضيته وأقداره

---

(١) صحيح .رواه النسائي (٣/ ٥٤-٥٥) والحاكم (١/ ٥٢٤-٥٢٥) وصححه ووافقه الذهبي

(٢) سورة البقرة : الآية ٢١٦ (٣) سورة النساء :١٩.

فحسن ظنه به يوجب له استواء الحالات عنده ورضاه بما يختاره له سيده سبحانه.

التاسع: أنه يعلم أن حظه من المقدور ما يتلقاه به من رضى وسخط. فلا بد له منه. فإن رضى فله الرضى. وإن سخط فله السخط.

العاشر: علمه بأنه إذا رضى انقلب فى حقه نعمة ومنحة وخف عليه حمله، وأعين عليه. وإذا سخطه تضاعف عليه ثقله وكله ولم يزد إلا شدة فلو أن السخط يجدى عليه شيئاً لكان له فيه راحة، أنفع له من الرضى به.

ونكتة المسألة: إيمانه بأن قضاء الرب تعالى خير له، كما قال النبى ﷺ «والذى نفسى بيده، لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له. إن أصابته سراء شكر. فكان خيراً له. وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له. وليس ذلك إلا للمؤمن»[1].

الحادى عشر: أن يعلم أن تمام عبوديته فى جريان ما يكرهه من الاحكام عليه. ولو لم يجر عليه منها إلا ما يحب لكان أبعد شىء عن عبودية ربه. فلا تتم له عبوديته- من الصبر، والتوكل، والرضى، والتضرع، والافتقار، والذل، والخضوع، وغيرها - إلا بجريان القدر له بما يكرهه. وليس الشأن فى الرضى بالقضاء الملائم للطبيعة. إنما الشأن فى القضاء المؤلم المنافر للطبع.

الثانى عشر: أن يعلم أن رضاه عن ربه سبحانه وتعالى فى جميع الحالات يثمر رضى ربه عنه. فإذا رضى عنه بالقليل من الرزق: رضى ربه عنه بالقليل من العمل. وإذا رضى عنه فى جميع الحالات، واستوت عنده، وجده أسرع شىء إلى رضاه إذا ترضّاه وتملقه.

الثالث عشر: أن يعلم أن أعظم راحته، وسروره ونعيمه: فى الرضى عن ربه تعالى وتقدس فى جميع الحالات. فإن الرضى باب الله الأعظم ، ومستراح العارفين، وجنة الدنيا. فجدير بمن نصح نفسه أن تشتد رغبته فيه. وأن لا يستبدل بغيره منه.

الرابع عشر: أن السخط باب الهم والغم والحزن، وشتات القلب، وكسف البال وسوء الحال، والظن بالله خلاف ما هوأهله والرضى يخلصه من ذلك كله. ويفتح له باب جنة الدنيا قبل جنة الآخرة.

الخامس عشر: أن الرضى يوجب له الطمأنينة وبرد القلب، وسكونه وقراره. والسخط يوجب اضطراب قلبه، وريبته وانزعاجه، وعدم قراره.

السادس عشر: أن الرضى ينزل عليه السكينة التى لا أنفع له منها. ومتى نزلت عليه

---

(١) رواه مسلم (٧٣٥٦) كتاب الزهد والرقائق ، باب: المؤمن أمره كله خير. وأحمد (٤/ ٣٣٢، ٣٣٣و ٦/ ١٥، ١٦) عن صهيب رضى الله عنه .

السكينة: استقام وصلحت أحواله وصلح باله. والسخط يبعده منها بحسب قلته وكثرته. وإذا ترحلت عنه السكينة ترحل عنه السرور والأمن والدعة والراحة، وطيب العيش. فمن أعظم نعم الله على عبده: تنزل السكينة عليه ومن أعظم أسبابها: الرضى عنه فى جميع الحالات.

السابع عشر: أن الرضى يفتح له باب السلامة. فيجعل قلبه سليما نقياً من الغش والدغل والغلّ. ولا ينجو من عذاب الله إلا من أتى الله بقلب سليم. كذلك وتستحيل سلامة القلب مع السخط وعدم الرضى. وكلماكان العبد أشد رضى كان قلبه أسلم. فالخبث والدغل والغش: قرين السخط. وسلامة القلب وبره ونصحه: قرين الرضى. وكذلك الحسد: هو من ثمرات السخط وسلامة القلب منه من ثمرات الرضى.

الثامن عشر: أن السخط يوجب تلون العبد، وعدم ثباته مع الله. فإنه لا يرضى إلا بما يلائم طبعه ونفسه. والمقادير تجرى دائماً بما يلائمه وبما لا يلائمة. وكلما جرى عليه منها مالا يلائمه أسخطه. فلا تثبت له قدم على العبودية. فإذا رضى عن ربه فى جميع الحالات استقرت قدمه فى مقام العبودية. فلا يزيل التلون عن العبد شىء مثل الرضى.

التاسع عشر: أن السخط يفتح عليه باب الشك فى الله، وقضائه وقدره، وحكمته وعلمه. فقل أن يسلم الساخط من شك يداخل قلبه ويتغلغل فيه، وإن كان لا يشعر به، فلو فتش نفسه غاية التفتيش لوجد يقينه معلولاً مدخولاً. فإن الرضى واليقين أخوان مصطحبان، والشك والسخط قرينان.

العشرون: أن الرضى بالمقدور من سعادة ابن آدم، وسخطه من شقاوته، كما فى المسند والترمذى من حديث سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «من سعاده ابن آدم: استخارة الله عز وجل ومن سعادة ابن آدم رضاه بما قضى الله ومن شقوة ابن آدم: سخطه بما قضى الله. ومن شقاوة ابن آدم ترك استخارة الله»[1] فالرضا بالقضاء من أسباب السعادة. والتسخط على القضاء من أسباب الشقاوة.

الحادى والعشرون: أن الرضى يوجب له أن لا يأسى على ما فاته ولا يفرح بما آتاه. وذلك من أفضل الإيمان.

أما عدم أساه على الفائت: فظاهر وأما عدم فرحه بما آتاه. فلأنه يعلم أن المصيبة فيه مكتوبة من قبل حصوله. فكيف يفرح بشىء يعلم أن له فيه مصيبة منتظرة ولا بد؟.

(١) ضعيف. رواه أحمد (١/١٦٨) والترمذى (٢١٥١) والحاكم (١/٥١٨) وقال الترمذي: غريب لا نعرفه إلا من حديث محمد بن أبى حميد. وليس بالقوى عند أهل الحديث

الثانى والعشرون: أن من ملأ قلبه من الرضى بالقدر: ملأ الله صدره غنى وأمناً وقناعة. وفرغ قلبه لمحبته والإنابة إليه والتوكل عليه. ومن فاته حظه من الرضى: امتلأ قلبه بضد ذلك. واشتغل عما فيه سعادته وفلاحه.

فالرضى يفرغ القلب لله، والسخط يفرغ القلب من الله

الثالث والعشرون: أن الرضى يثمر الشكر، الذى هو من أعلى مقامات الإيمان، بل هو حقيقة الإيمان. والسخط يثمر ضده. وهو كفر النعم. وربما أثمر له كفر المنعم. فإذا رضى العبد عن ربه فى جميع الحالات: أوجب له ذلك شكره. فيكون من الراضين الشاكرين. وإذا فاته الرضى: كان من الساخطين. وسلك سبيل الكافرين.

الرابع والعشرون: أن الرضى ينفى عنه آفات الحرص والكلب على الدنيا. وذلك رأس كل خطيئة، وأصل كل بلية وأساس كل رزية فرضاه عن ربه فى جميع الحالات: ينفى عنه مادة هذه الآفات.

الخامس والعشرون: أن الشيطان إنما يظفر بالإنسان غالباً عند السخط والشهوة. فهناك يصطاده. ولا سيما إذا استحكم سخطه. فإنه يقول مالا يرضى الرب. ويفعل ما لا يرضيه. وينوى مالا يرضيه. ولهذا قال النبى ﷺ عند موت ابنه إبراهيم «يحزن القلب. وتدمع العين. ولا نقول إلا ما يرضى الرب»[1] فإن موت البنين من العوارض التى توجب للعبد السخط على القدر. فأخبر النبى ﷺ: أنه لا يقول فى مثل هذا المقام - الذى يُسْخِطُهُ أكثر الناس. فيتكلمون بما لا يرضى الله. ويفعلون مالا يرضيه - إلا ما يرضى ربه تبارك وتعالى.

السادس والعشرون: أن الرضى هو اختيار ما اختاره الله لعبده، والسخط كراهة ما اختاره الله له، وهذا نوع محادة. فلا يتخلص منه إلا بالرضى عن الله فى جميع الحالات.

السابع والعشرون: أن الرضى يخرج الهوى من القلب. فالراضى هواه تبعٌ لمراد ربه منه. أعنى المراد الذى يحبه ربه ويرضاه. فلا يجتمع الرضى واتباع الهوى فى القلب أبداً وإن كان معه شعبة من هذا وشعبة من هذا، فهو للغالب عليه منهما.

الثامن والعشرون: أن الرضى عن الله فى جميع الحالات يثمر للعبد رضى الله عنه - كما تقدم بيانه فى الرضى به - فإن الجزاء من جنس العمل.

التاسع والعشرون: أن الرضى بالقضاء أشق شىء على النفس. بل هو ذبحها فى

(١) رواه البخارى (١٣٠٣) ومسلم (٥٩١١) وأبو داود (٣١٢٦) وأحمد (٣/ ١٩٤) عن أنس بن مالك رضى الله عنه.

الحقيقة. فإنه مخالفة هواها وطبعها وإرادتها. ولا تصير مطمئنة قط حتى ترضى بالقضاء. فحينئذ تستحق أن يقال لها ﴿يا أيتها النفس المطمئنة. ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى﴾(1).

الثلاثون: أن الراضى متلق أوامر ربه - الدينية والقدرية - بالانشراح والتسليم، وطيب النفس، والاستسلام، والساخط يتلقاها بضد ذلك إلا ما وافق طبعه. وإرادته منها.

والرضى بذلك لا ينفعه ولايثاب عليه. فإنه لم يرض به لكون الله قدره وقضاه وأمر به. وإنما رضى به لموافقته هواه وطبعه فهو إنما رضى لنفسه وعن نفسه لا بربه لا عن ربه.

الحادى والثلاثون: أن المخالفات كلها أصلها من عدم الرضى. والطاعات كلها أصلها من الرضى وهذا إنما يعرفه حق المعرفة من عرف صفات نفسه، ومايتولد عنها من الطاعات والمعاصى.

الثانى والثلاثون: أن عدم الرضى يفتح باب البدعة، والرضى يغلق عنه ذلك الباب. ولو تأملت بدع الروافض، والنواصب، والخوارج. لرأيتها ناشئة من عدم الرضى بالحكم الكونى أو الدينى أو كليهما.

الثالث والثلاثون: أن الرضى معقد نظام الدين ظاهره وباطنه فإن القضايا لا تخلو من خمسة أنواع:

فتنقسم قسمين: دينية، وكونية. وهى مأمورات، ومنهيات، ومباحات، ونعم مُلِذَّة، وبلايا مؤلمة.

فإذا استعمل العبد الرضى فى ذلك كله. فقد أخذ بالحظ الوافر من الإسلام، وفاز بالقدح المعلى.

الرابع والثلاثون: أن الرضى يخلص العبد من مخاصمة الرب تعالى فى أحكامه وأقضيته. فإن السخط عليه مخاصمة له فيما لم يرض به العبد. وأصل مخاصمة إبليس لربه: من عدم رضاه بأقضيته وأحكامه الدينية والكونية.

الخامس والثلاثون: أن جميع مافى الكون أوجبته مشيئة الله، وحكمته، وملكه فهوموجب أسمائه وصفاته. فمن لم يرض بما رضى به ربه، لم يرض بأسمائه وصفاته فلم يرض به رباً.

السادس والثلاثون: أن كل قدر يكرهه العبد ولا يلائمه لا يخلو إما أن يكون عقوبة

(1) سورة الفجر : الآية ٢٧ - ٣٠.

على الذنب. فهو دواء لمرض. لولا تدارك الحكيم إياه بالدواء لترامى به المرض إلى الهلاك. أو يكون سبباً لنعمة لاتنال إلابذلك المكروه. فالمكروه ينقطع ويتلاشى. وما يترتب عليه من النعمة دائم لا ينقطع. فإذا شهد العبد هذين الأمرين انفتح له باب الرضى عن ربه فى كل ما يقضيه له ويقدره.

السابع والثلاثون: أن حكم الرب تعالى ماض فى عبده، وقضاؤه عدل فيه. كما فى الحديث «ماضٍ فيّ حكمك، عدلٌ فيّ قضاؤك»[1] ومن لم يرض بالعدل فهو من أهل الظلم والجور.

الثامن والثلاثون: أن عدم الرضى إما أن يكون لفوات ما أخطأه مما يحبه ويريده. وإما لاصابة ما يكرهه ويسخطه فإذا تيقن أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه. وماأصابه لم يكن ليخطئه: فلافائدة فى سخطه بعد ذلك إلافوات ما ينفعه وحصول ما يضره.

التاسع والثلاثون: أن الرضى من أعمال القلوب، نظير الجهاد من أعمال الجوارح فإن كل واحد منهما ذروة سنام الإيمان. قال أبو الدرداء «ذروة سنام الإيمان: الصبر للحكم، والرضى بالقدر»

الأربعون: أن أول معصية عصى الله بها فى هذا العالم: إنما نشأت من عدم الرضى فإبليس لم يرضى بحكم الله الذى حكم به كوناً من تفضيل آدم وتكريمه ولا بحكمه الدينى من أمره بالسجود لآدم، وآدم لم يرض بما أبيح له من الجنة. حتى ضمّ إليه الأكل من شجرة الحمى. ثم ترتبت معاصى الذرية على عدم الصبر وعدم الرضى.

الحادى والأربعون: أن الراضى واقف مع اختيار الله له. معرض عن اختياره لنفسه وهذا من قوة معرفته بربه تعالى ومعرفته بنفسه.

الثانى والأربعون: أن يعلم أن منع الله سبحانه وتعالى لعبده المؤمن المحب عطاء وابتلاءه إياه عافية قال سفيان الثورى: منعه عطاء وذلك: أنه لم يمنع عن بخل ولا عدم. وإنما نظر فى خير عبده المؤمن فمنعه إختياراً وحسن نظر.

وهذا كما قال. فإنه سبحانه لا يقضى لعبده المؤمن قضاء إلا كان خيراً له ساءه ذلك القضاء أو سرّه. فقضاؤه لعبده المؤمن المنع عطاء. وإن كان فى صورة المنع. ونعمة وإن كانت فى صوره محنة. وبلاؤه عافية وإن كان فى صوره بلية. ولكن لجهل العبد وظلمه لا

---

(١) صحيح. رواه أحمد (١/ ٣٩١، ٤٥٢) وأبو يعلى (٣٧١٢) وابن حبان (٩٧٢ ـ إحسان) والحاكم (١/ ٥٠٩) والطبرانى فى «الكبير» (١٠٣٥٢) وابن أبى أسامة فى «مسنده» (ص ٢٥١ ـ زوائد) عن ابن مسعود رضى الله عنه. وانظر «الصحيحة» (١٩٨).

يعد العطاء والنعمة والعافية إلا ما التذ به فى العاجل وكان ملائماً لطبعه. ولو رزق من المعرفة حظاً وافراً لعدّ المنع نعمة، والبلاء رحمة. وتلذذ بالبلاء أكثر من لذته بالعافية، وتلذذ بالفقر أكثر من لذته بالغنى. وكان فى حال القلة أعظم شكراً من حال الكثرة.

وهذه كانت حال السلف.

فالعاقل الراضى: من يعد البلاء عافية، والمنع نعمة، والفقر غنى

فالراضى: هو الذى يعد نعم الله عليه فيما يكرهه، أكثر وأعظم من نعمه عليه فيما يحبه كما قال بعض العارفين: يا ابن آدم نعمة الله عليك فيما تكره أعظم من نعمته عليك فيما تحب. وقد قال تعالى ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾[1] وقد قال بعض العارفين: إرض عن الله فى جميع ما يفعله بك. فإنه ما منعك إلا ليعطيك ولا ابتلاك إلا ليعافيك. ولاأمرضك إلا ليشفيك. ولا أماتك إلا ليحييك. فإياك أن تفارق الرضى عنه طرفة عين. فتسقط من عينه

الثالث والأربعون: أن يعلم أنه سبحانه هو الأول قبل كل شىء، والآخر بعد كل شىء، والمظهر لكل شىء، والمالك لكل شىء. وهو الذى يخلق ما يشاء ويختار. وليس للعبد أن يختار عليه، وليس لأحد معه اختيار. ولا يشرك فى حكمه أحداً. والعبد لم يكن شيئاً مذكوراً. فهو سبحانه الذى اختار وجوده. واختار أن يكون كما قدره له وقضاه: من عافية وبلاء، وغنى وفقر، وعز وذل، ونباهة وخمول. فكما تفرد سبحانه بالخلق، تفرد بالاختيار والتدبير - وليس للعبد شىء من ذلك - فإن الأمر كله لله. وقد قال تعالى لنبيه ﷺ ﴿ليس لك من الأمر شىء﴾[2] فإذا تيقن العبد أن الأمر كله لله، وليس له من الأمر قليل ولا كثير. لم يكن له معول- بعد ذلك - غير الرضى بمواقع الأقدار. وما يجرى به من ربه الاختيار.

الرابع والأربعون: أن رضى الله عن العبد أكبر من الجنة وما فيها. لأن الرضى صفة الله والجنة خلقه، قال الله تعالى ﴿ورضوان من الله أكبر﴾[3] بعد قوله ﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر. ذلك هو الفوز العظيم﴾[4] وهذا الرضى جزاء على رضاهم عنه فى الدنيا، ولماكان هذا الجزاء أفضل الجزاء، كان سببه أفضل الأعمال.

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢١٦
(٢) سورة آل عمران : الآية ١٢٧
(٣) سورة التوبة : الآية ٧٢
(٤) سورة التوبة : الآية ٧٢

الخامس والأربعون :أن العبد إذا رضى به وعنه فى جميع الحالات: لم يتخير عليه المسائل. وأغناه رضاه بما يقسمه له ويقدره ويفعله به عن ذلك. وجعل ذكره فى محل سؤاله. بل يكون من سؤاله له الإعانة على ذكره، وبلوغ رضاه. فهذا يعطى أفضل ما يعطاه سائل. كما جاء فى الحديث«من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ماأعطى السائلين»[1] فإن السائلين سألوه. فأعطاهم الفضل الذى سألوه. والراضون رضوا عنه فأعطاهم رضاه عنهم، ولا يمنع الرضى سؤاله أسباب الرضى، بل أصحابه ملحون فى سؤاله ذلك.

السادس والأربعون: أن الرضى آخذ بزمام مقامات الدين كلها. وهو روحها وحياتها. فإنه روح التوكل وحقيقته، وروح اليقين، وروح المحبة، وصحة المحب، ودليل صدق المحبة، وروح الشكر ودليله.

قال الربيع بن أنس: علامة حب الله: كثرة ذكره. فإنك لا تحب شيئاً إلا أكثرت من ذكره وعلامة الدين: الإخلاص لله فى السر والعلانية. وعلامة الشكر، الرضى بقدر الله والتسليم لقضائه.

فصار الرضى كالروح لهذه المقامات، والأساس الذى تنبنى عليه. ولا يصح شىء منها بدونه ألبتة. والله أعلم.

السابع والأربعون: أن الرضى يفتح باب حسن الخلق مع الله تعالى ومع الناس، فإن حسن الخلق من الرضى، وسوء الخلق من السخط، وحسن الخلق يبلغ بصاحبه درجة الصائم القائم،وسوء الخلق يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب

الثامن والأربعون: أن الرضى يثمر سرور القلب بالمقدور فى جميع الأمور، وطيب النفس وسكونها فى كل حال، وطمأنينة القلب عند كل مفزع مُهلع من أمور الدنيا، وبرد القناعة، واغتباط العبد بقسمه من ربه، وفرحه بقيام مولاه عليه، واستسلامه لمولاه فى كل شىء، ورضاه منه بما يجريه عليه، وتسليمه له الأحكام والقضايا واعتقاد حسن تدبيره وكمال حكمته ويذهب عنه شكوى ربه إلى غيره وتبرمه بأقضيته ولهذا سمى بعض العارفين الرضى: حسن الخلق مع الله. فإنه يوجب ترك الاعتراض عليه فى ملكه، وحذف فضول الكلام التى تقدح فى حسن خلقه. فلا يقول: ما أحوج الناس إلى مطر؟ ولا يقول: هذا يوم شديد الحر، أو شديد البرد، ولا يقول: الفقر بلاء، والعيال هم وغم، ولا يسمى شيئاً قضاه الله وقدره باسم مذموم إذا لم يذمه الله سبحانه وتعالى. فإن هذاكله ينافى رضاه.

---

(١) حسن. رواه البيهقى فى «الشعب» (٥٧٣) والأصبهانى فى «الترغيب والترهيب» (١٣٦٤) من حديث جابر بن عبد الله

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: أصبحت ومالى سرور إلا فى مواقع القدر

وقال ابن مسعود رضى الله عنه «الفقر والغنى مطيتان ما أبالى أيهما ركبت. إن كان الفقر فإن فيه الصبر. وإن كان الغنى فإن فيه البذل».

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: «ما أبالى على أى حال أصبحت وأمسيت: من شدة أو رخاء»

وقال يوماً لامرأته عاتكة، أخت سعيد بن زيد - وقد غضب عليها - «والله لأسوأنك. فقالت: أتستطيع أن تصرفنى عن الإسلام، بعد إذ هدانى الله له؟ قال: لا. فقالت : فأى شىء تسوءنى به إذاً؟»

تريد أنها راضية بمواقع القدر. لا يسوءها منه شىء إلا صرفها عن الإسلام. ولا سبيل له إليه.

فالإيمان بالقدر، والرضى به: يذهب عن العبد الهم والغم والحزن.

التاسع والأربعون : أن أفضل الأحوال: الرغبة فى الله ولوازمها. وذلك لا يتم إلا باليقين، والرضى عن الله. ولهذا قال سهل: حظ الخلق من اليقين على قدر حظهم من الرضى. وحظهم من الرضى على قدر رغبتهم فى الله.

الخمسون: أن الرضى يخلصه من عيب مالم يعبه الله. ومن ذم مالم يذمه الله. فإن العبد إذا لم يرض بالشىء عابه بأنواع المعايب. وذمه بأنواع المذام. وذلك منه قلة حياء من الله. وذم لما ليس له ذنب، وعيب لخلقه، وذلك يسقط العبد من عين ربه ولو أن رجلا صنع لك طعاماً وقدمه إليك فعبته وذممته، لكنت متعرضاً لمقته وإهانته ومستدعياً منه: أن يقطع ذلك عنك. وقد قال بعض العارفين: إن ذم المصنوع وعيبه - إذا لم يذمه صانعه - غيبة له وقدح فيه.

الحادى والخمسون: أن النبى ﷺ سأل الله الرضى بالقضاء. كمافى المسند والسنن «اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحينى إذاكانت الحياة خيراً لى، وتوفنى إذاكانت الوفاة خيراً لى. وأسألك خشيتك فى الغيب والشهادة. وأسألك كلمة الحق فى الغضب والرضى. وأسألك القصد فى الفقر والغنى وأسألك نعيما لا ينفد ، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضى بعد القضاء وأسألك برد العيش بعد الموت. وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم. وأسألك الشوق إلى لقائك فى غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة. اللهم زينا بزينة الإيمان. واجعلنا هداة مهتدين»[1]

(١) صحيح .رواه بن حبان (١٩٧١) والنسائى (٣/ ٥٥) وأحمد (/ ٢٦٤) والحاكم (١/ ٥٢٤).

فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: سأله الرضى بعد القضاء. لأنه حينئذ تبين حقيقة الرضى. وأما الرضى قبله: فإنما هو عزم على أنه يرضى إذا أصابه. وإنما يتحقق الرضى بعده.

الثاني والخمسون: أن الرضى بالقدر يخلص العبد من أن يرضى الناس بسخط الله. وأن يلمهم على مالم يؤته الله. وأن يحمدهم على ما هو عين فضل الله. فيكون ظالماً لهم فى الأول - وهو رضاهم وذمهم - مشركاً بهم فى الثانى - وهو حمدهم - فإذا رضى بالقضاء تخلص من ذمهم وحمدهم. فخلصه الرضى من ذلك كله.

الثالث والخمسون: أن الرضى يفرغ قلب العبد. ويقلل همه وغمه. فيتفرغ لعبادة ربه بقلب خفيف من أثقال الدنيا وهمومها وغمومها. كما ذكر ابن أبى الدنيا عن بشر بن بشار المجاشعي - وكان من العلماء - قال: قلت لعابد: أوصنى. قال: ألق نفسك مع القدر حيث ألقاك. فهوأحرى أن يفرغ قلبك. ويقلل همك. وإياك أن تسخط ذلك، فيحل بك السخط وأنت عنه فى غفلة لا تشعر به. فيلقيك مع الذين سخط الله عليهم.

وقال سفيان بن عيينة: من لم يصلح على تقدير الله لم يصلح على تقدير نفسه.

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله «لقد تركتنى هؤلاء الدعوات، ومالى فى شىء من الأمور كلها أرب، إلا فى مواقع قدر الله، وكان كثيراً ما يدعو: اللهم رضنى بقضائك، وبارك لى فى قدرك، حتى لا أحب تعجيل شىء أخرته. ولاتأخير شىء عجلته».

وقال: ما أصبح لى هوى فى شىء سوى ما قضى الله عز وجل.

الرابع والخمسون: أنه إذا لم يرض بالقدر وقع فى لوم المقادير. إما بقاله، وإما بقلبه وحاله. ولوم المقادير لومٌ لمُقدِّرها.

الخامس والخمسون: أنه إذا استوى الأمران بالنسبة إلى رضى الرب تعالى. فهذا رضيه لعبده فقدره. وهذا لم يرضه له فلم يقدره. فكمال الموافقة: أن يستويا بالنسبة إلى العبد. فيرضى مارضيه له ربه فى الحالين.

السادس والخمسون: أن المحبة والإخلاص والإنابة: لا تقوم إلا على ساق الرضى.

فالمحب راض عن حبيبه فى كل حاله. وقد كان عمران بن حصين رضى الله عنه استسقى بطنه، فبقى ملقى على ظهره مدة طويلة، لا يقوم ولا يقعد. وقد نقب له فى سريره موضع لحاجته. فدخل عليه مطرف بن عبد الله الشخير فجعل يبكى لمارأى من حاله. فقال له عمران: لم تبكى ؟ فقال: لأنى أراك على هذه الحال الفظيعة. فقال: لا تبك. فإن أحبه إلىَّ أحبه إليه. وقال: أخبرك بشىء لعل الله أن ينفعك به، واكتم على

حتى أموت. إن الملائكة تزورنى فآنس بها. وتسلم علىّ فاسمع تسليمها.

ولما قدم سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه إلى مكة - وقد كف بصره - جعل الناس يهرعون إليه ليدعو لهم. فجعل يدعو لهم . قال عبد الله بن السائب: فأتيته وأنا غلام. فتعرفت إليه. فعرفنى. فقلت: ياعم أنت تدعوا للناس فيشفون. فلو دعوت لنفسك لرد الله عليك بصرك. فتبسم. ثم قال: يا بنى قضاء الله أحب إلى من بصرى.

منزلة الشكر

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الشكر»

وهى من أعلى المنازل وهى فوق منزلة «الرضى» وزيادة فالرضى مندرج فى الشكر إذ يستحيل وجود الشكر بدونه.

وهو نصف الإيمان ـ كما تقدم ـ والإيمان نصفان: نصف شكر، ونصف صبر.

وقد أمر الله به ونهى عن ضده، وأثنى على أهله. ووصف به خواص خلقه. وجعله غاية خلقه وأمره. ووعد أهله بأحسن جزائه وجعله سببا للمزيد من فضله. وحارسًا وحافظًا لنعمته وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته. واشتق لهم اسما من أسمائه فإنه سبحانه هو «الشكور» وهو يوصل الشاكر إلى مشكوره بل يعيد الشاكر مشكوراً وهو غاية الرب من عبده. وأهله هم القليل من عباده قال الله تعالى ﴿واشكروا الله إن كنتم إياه تعبدون﴾(١) وقال ﴿واشكروا لى ولا تكفرون﴾(٢) وقال عن خليله إبراهيم ﷺ: ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتًا لله حنيفًا. ولم يك من المشركين شاكراً لأنعمه﴾(٣) وقال عن نوح عليه السلام ﴿إنه كان عبداً شكوراً﴾(٤) وقال تعالى ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا. وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة. لعلكم تشكرون﴾(٥) وقال تعالى ﴿واعبدوا واشكروا له إليه ترجعون﴾(٦) وقال تعالى: ﴿وسيجزى الله الشاكرين﴾(٧) وقال تعالى ﴿وإذا تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد﴾(٨) وقال تعالى ﴿إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾(٩)

وسمى نفسه «شاكراً» «وشكوراً» وسمى الشاكرين بهذين الاسمين فأعطهم من وصفه

---

(١) سورة البقرة الآية: ٧٢.
(٢) سورة البقرة الآية: ١٥٢.
(٣) سورة النحل الآيتان: ١٢٠، ١٢١..
(٤) سورة الإسراء الآية: ٣٠.
(٥) سورة النحل الآية: ٧٨.
(٦) سورة العنكبوت الآية. ١٧
(٧) سورة آل عمران الآية: ١٤٤
(٨) سورة إبراهيم الآية: ٧
(٩) سورة لقمان الآية: ٣١.

وسماهم باسمه وحسبك بهذا محبة للشاكرين وفضلا.

وإعادته للشاكرين مشكوراً. كقوله تعالى ﴿إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا﴾[1] ورضى الرب عن عبده به قوله: ﴿وإن تشكروا يرضه لكم﴾[2] وقلة أهله فى العالمين تدل على أنهم هم خواصه كقوله: ﴿وقليل من عبادى الشكور﴾[3] وفى الصحيحين عن النبى ﷺ «أنه قام حتى تورمت قدماه فقليل له: تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: أفلا أكون عبداً شكوراً؟»[4].

وقال لمعاذ «والله يامعاذ، إنى لأحبك فلا تنس أن تقول فى دبر كل صلاة: اللهم أعنى على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك»[5].

وفى المسند والترمذى من حديث ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ «كان يدعو بهؤلاء الكلمات: اللهم أعنى ولا تعن علىّ وانصرنى ولا تنصر علىّ وامكر لى ولا تمكر بى. واهدنى ويسر الهدى لى. وانصرنى على من بغى على. رب اجعلنى لك شاكراً، لك ذاكراً، لك راهبًا، لك مطاوعا، إليك مخبتًا. لك أواهًا منيبًا رب تقبل توبتى. واغسل حوبتى وأجب دعوتى وثبت حجتى واهد قلبى وسدد لسانى واسلل سخيمة صدرى»[6].

وأصل «الشكر» فى وضع اللسان: ظهور أثر الغذاء فى أبدان الحيوان ظهوراً بينًا يقال: شكرت الدابة تشكر شكراً على وزن سمنت تسمن سمنًا: إذا ظهر عليها أثر العلف، ودابة شكور: إذا ظهر عليها من السمن فوق ما تأكل. وتعطى من العلف.

وفى صحيح مسلم «حتى إن الدواب لتشكر من لحومهم»[7] أى لتسمن من كثرة ما تأكل منها.

---

(1) سورة الإنسان الآية: 22.

(2) سورة الزمر الآية: 7.

(3) سورة سبأ الآية: 3.

(4) رواه البخارى (٦٣٧١) ومسلم (٦٩٨٦، ٦٩٨٧) وأحمد (٤/ ٢٥١، ٢٥٢) والترمذى (٤١٢) والنسائى فى «الكبرى» كما فى «التحفة» (٨/ ٤٧٦) وابن ماجه (١٤١٩) عن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه. ورواه مسلم (٦٩٨٨) كتاب التوبة، باب: إكثار الأعمال والاجتهاد فى العبادة. عن عائشة رضى الله عنها ..

(5) صحيح. رواه أبو داود (١٥٢٢) والنسائى (٣/ ٥٣). وفى «عمل اليوم والليلة» (١٠٩) وأحمد (٥/ ٢٤٥، ٢٤٧) والحاكم (١/ ٢٧٣/ ٣/ ٢٧٣) وابن خزيمة (٧٥١) وابن حبان (٣/ ٢٣٤) وابن السنى فى «عمل اليوم والليلة» (١١٨).

(6) صحيح رواه أحمد (١/ ٢٢٧) والترمذى (٣٥٥١) وابن حبان (٢/ ١٥٠) وقال الترمذى حسن صحيح.

(7) صحيح. رواه أحمد (٢/ ٥١٠ ـ ٥١١) والترمذى (٣١٥٣) وابن ماجه (٤٠٨٠) والحاكم (٤/ ٤٨٨) وصححه ووافقه الذهبى.

وكذلك حقيقته في العبودية. وهو ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده: ثناء واعترافًا. وعلى قلبه: شهودًا ومحبة. وعلى جوارحه انقيادًا وطاعة.

و«الشكر» مبني على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور. وحبه له. واعترافه بنعمته. وثناؤه عليه بها. وأن لا يستعملها فيما يكره.

فهذه الخمس: هي أساس الشكر. وبناؤه عليها. فمتى عُدِمَ منها واحدة: اختل من قواعد الشكر قاعدة.

وكل من تكلم في الشكر وحدّه فكلامه إليها يرجع وعليها يدور.

فقيل: حده الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع.

وقيل: الثناء على المحسن بذكر إحسانه.

وقيل: هو عكوف القلب على محبة المنعم، والجوارح على طاعته وجريان اللسان بذكره والثناء عليه.

وقيل: هو مشاهدة المنة. وحفظ الحرمة.

وما ألطف ما قال حمدون القصار. شكر النعمة أن ترى نفسك فيها طفيليا.

وقيل: الشكر: إضافة النعم إلى مواليها بنعت الاستكانة له.

وقال الجنيد: الشكر أن لا ترى نفسك أهلاً للنعمة.

هذا معنى قول حمدون «أن يرى نفسه فيها طفيليًا».

وقال داود عليه السلام: يارب، كيف أشكرك؟ وشكري لك نعمة على من عندك تستوجب بها شكرًا. فقال: الآن شكرتني يا داود.

والشكر معه المزيد أبدًا. لقوله تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾[1] فمتى لم تر حالك في مزيد. فاستقبل الشكر.

وقيل: من كتم النعمة فقد كفرها ومن أظهرها ونشرها فقد شكرها.

وهذا مأخوذ من قوله ﷺ: «إن الله إذا أنعم على عبد بنعمة أحب أن يرى أثر نعمته على عبده»[2].

وفي هذا قيل:

ومن الرزية. أن شكري صامت ... عما فعلتَ. وأ بـرك ناطـق

---

(1) سورة إبراهيم الآية: ٩.

(2) صحيح رواه أحمد (٣/٤٧٤). والطبراني في «الكبير» (١٩/٦٢٣، ٦٢٤) وابن حبان (٥٤١٧ ـ إحسان) عن مالك بن نضلة رضي الله عنه.

وأرى الصنيعة منك ثم أُسِرها   إنى إذا لندى الكريم لسارق

الفرق بين الحمد والشكر

وتكلم الناس فى الفرق بين «الحمد» و«الشكر» أيهما أعلى وأفضل؟ وفى الحديث «الحمد رأس الشكر، فمن لم يحمد الله لم يشكره»[1].

والفرق بينهما: أن «الشكر» أعم من جهة أنواعه وأسبابه، وأخص من جهة متعلقاته. و«المد» أعم من جهة المتعلقات، وأخص من جهة الأسباب.

ومعنى هذا أن الشكر يكون: بالقلب خضوعًا واستكانة وباللسان ثناء واعترافًا وبالجوارح طاعة وانقياداً، ومتعلقه: النعم، دون الأوصاف الذاتية، فلا يقال: شكرنا الله على حياته وسمعه وبصره وعلمه وهو المحمود عليها كما هو محمود على إحسانه وعدله والشكر يكون على الإحسان والنعم.

فكل ما يتعلق به الشكر يتعلق به الحمد من غير عكس وكل ما يقع به الحمد يقع به الشكر من غير عكس. فإن الشكر يقع بالجوارح والحسد والحمد يقع بالقلب واللسان.

التحدث بنعمة الله شكر

قال تعالى: ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾[2].

وفى هذا التحديث المأمور به قولان.

أحدهما: أنه ذكر النعمة والإخبار بها. وقوله: أنعم الله على بكذا وكذا قال مقاتل: يعنى اشكر ما ذكر من النعم عليك فى هذه السورة: من جبر اليَتيم، والهدى بعد الضلال والإغناء بعد العيلة.

والتحدث بنعمة الله شكر. كما فى حديث جابر مرفوعًا« من صُنع إليه معروف فليجز به فإن لم يجد ما يجزى به فليثن فإنه إذا أثنى عليه فقد شكره. وإن كتمه فقد كفره ومن تحلى بما لم يعط كان كلابس ثوبى زور»[3].

فذكر أقسام الخلق ثلاثة: شاكر النعمة المثنى بها، والجاحد لها والكاتم لها. والمظهر أنه من أهلها وليس من أهلها فهو متحلٍ بما لم يعطه.

وفى أثر آخر مرفوع « من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير. ومن لم يشكر الناس لم

---

(١) ضعيف. رواه البيهقى فى «الشعب» (٤٣٩٥) وعبد الرزاق فى «المصنف» (١٠/ ٤٢٤) برقم (١٩٥٧٤). وفى سنده انقطاع بين قتادة وعبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه.

(٢) سورة الضحى: ١١.

(٣) حسن رواه أبو داود (٤٨١٣) والبخارى فى «الأدب المفرد» (٢١٥) والترمذى (٢٠٣٤) وقال: حسن غريب وانظر «الصحيحة» (٦١٧).

يشكر الله. والتحدث بنعمة الله شكر، وتركه كفر. والجماعة رحمة والفرقة عذاب»[1].

والقول الثاني: أن التحدث بالنعمة المأمور به في هذه الآية: هو الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته، وتعليم الأمة. قال مجاهد: هي النبوة قال الزجاج: أي بلغ ما أرسلت به، وحدث بالنبوة التي آتاك الله. وقال الكلبي: هو القرآن. وأمره أن يقرأه.

والصواب: أنه يعم النوعين. إذ كل منهما نعمة مأمور بشكرها والتحدث بها وإظهارها من شكرها.

منزلة الحياء

ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين «منزلة «الحياء»

قال الله تعالى﴿ألم يعلم بأن الله يرى؟﴾[2] وقال تعالى﴿إن الله كان عليكم رقيبا﴾[3] قال تعالى﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور﴾[4]

وفي الصحيح من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ «مر برجل-وهو يعظ أخاه في الحياء- فقال: دعه. فإن الحياء من الإيمان»[5]

وفيهما عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الحياء لا يأتي إلا بخير»[6]

وفيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ. أنه قال «الإيمان بضع وسبعون شعبة- أو بضع وستون شعبة- فأفضلها: قول لا إله إلا الله. وأدناها إماطة الأذى عن الطريق. والحياء شعبة من الإيمان»[7]

وفيهما عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال «كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها. فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه»[8].

وفي الصحيح عنه ﷺ «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت»[9] وفي هذا قولان.

---

(١) حسن رواه أحمد (٤/ ٢٧٨ و ٣٧٥.) وعبد الله بن أحمد في زياداته على المسند (٤/ ٣٧٥) والبزار (١٦٣٧) والطبراني كما في «المجمع» (٥/ ٢١٨) عن النعمان بن بشير رضي الله عنه وقال الهيثمي: رجالهم ثقات

(٢) سورة العلق : الآية ١٤. (٣) سورة النساء : الآية ١ (٤) سورة غافر : الآية ١٩.

(٥) رواه البخاري (٢٤) ومسلم (١٥٣)بوداود (٤٧٩٥) والنسائي (٨/ ١٢١) و أحمد (٢/ ٥٦) ومالك في الموطأ (٢/ ٩٠٥/ ١٠) والترمذي (٢٦١٥) وابن ماجه في «المقدمة» (٥٨)

(٦) رواه البخاري (٦١١٧) و مسلم (١٥٥)وأحمد (٤/ ٤٢٦).

(٧) رواه البخاري (٩) ومسلم (١٥١) وأبو داود (٤٦٧٦) وأحمد (٢/ ٤١٤ و ٤٤٥) والترمذي (٢٦١٤) والنسائي (٨/ ١١٠) وابن ماجه (٥٧)

(٨) رواه البخاري (٦١٠٢) ومسلم (٥٩١٨) والترمذي في الشمائل (٣٠٧) وابن ماجه (٤١٨٠).

(٩) رواه البخاري (٦١٢٠) وأحمد (٤/ ١٢١) وأبو داود (٤٧٩٧) وابن ماجه (٤١٨٣) والبيهقي (١٠/ ١٩٢)

أحدهما: أنه أمر تهديد. ومعناه الخبر، أى من لم يستح صنع ما شاء.

والثانى: أنه أمر إباحة. أى انظر إلى الفعل الذى تريد أن تفعله. فإن كان مما لا يستحى منه فافعله. والأول أصح. وهو قول الأكثرين.

وفى الترمذى مرفوعاً «استحيوا من الله حق الحياء. قالوا: إنا نستحيى يا رسول الله. قال: ليس ذلكم، ولكن من استحيى من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى. وليحفظ البطن وما حوى. وليذكر الموت والبلى. ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا. فمن فعل ذلك فقد استحيى من الله حق الحياء»[1]

حياة القلب فى الحياء

و«الحياء» من الحياة. ومنه «الحيا» للمطر لكن هو مقصور. وعلى حسب حياة القلب يكون فيه قوة خُلق الحياء. وقلة الحياء من موت القلب والروح. فكلما كان القلب أحيى كان الحياء أتم.

قال الجنيد- رحمه الله: الحياء رؤية الآلاء. ورؤية التقصير، فيتولد بينهما حالة تسمى الحياء. وحقيقته خلق يبعث على ترك القبائح. ويمنع من التفريط فى حق صاحب الحق.

ومن كلام بعض الحكماء: أحيوا الحياء بمجالسة من يُستحيى منه. وعمارة القلب: بالهيبة والحياء. فإذا ذهبا من القلب لم يبق فيه خير.

وقال الفضل بن عياض: خمس من علامات الشقوة: القسوة فى القلب. وجمود العين. وقلة الحياء. والرغبة فى الدنيا. وطول الأمل.

*****

وقد قُسِّمَ «الحياء» على عشرة أوجه: حياء جناية. وحياء تقصير. وحياء إجلال. وحياء كرم. وحياء حشمة. وحياء استصغار للنفس واحتقار لها. وحياء محبة. وحياء عبودية. وحياء شرف وعزة. وحياء المستحيى من نفسه.

فأما حياء الجناية: فمنه حياء آدم عليه السلام لما فرَّ هارباً فى الجنة.

وحياء التقصير: كحياء الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لايفترون، فإذا كان يوم

---

(1) ضعيف. رواه أحمد (1/387) والترمذى (2458) والحاكم (4/323) والبيهقى فى «شعب الإيمان» (7730 و10561) عن ابن مسعود رضى الله عنه وفى إسناده الصباح بن محمد وهو ضعيف. كما فى «التقريب» (1/364) ورواه الطبرانى فى «الصغير» (1/177) عن ابن مسعود من طريق آخر، وفيه السرى بن سهل وعبد الله بن رشيد، قال البيهقى: لا يحتج بهما كما فى «لسان الميزان» (3/16) ورواه الطبرانى بنحوه فى «الأوسط» عن عائشة وقال الهيثمى فى «المجمع» (10/284) فيه إبراهيم بن إسماعيل بن أبى حبيبة وهو متروك. ورواه أيضاً الطبرانى عن الحكم بن عمير وقال الهيثمى فى «المجمع» (10/284) فيه عيسى بن إبراهيم القرشى وهو متروك.

القيامة قالوا: سبحانك! ما عبدناك حق عبادتك.

وحياء الإجلال: هو حياء المعرفة. وعلى حسب معرفة العبد بربه يكون حياؤه منه.

وحياء الكرم: كحياء النبي ﷺ من القوم الذين دعاهم إلى وليمة زينب، وطولوا الجلوس عنده. فقام واستحى أن يقول لهم: انصرفوا.

وحياء الحشمة: كحياء على بن طالب رضى الله عنه أن يسأل رسول الله ﷺ عن المذى لمكان ابنته منه[1].

وحياء الاستحقار، واستصغار النفس: كحياء العبد من ربه عز وجل حين يسأله حوائجه، احتقاراً لشأن نفسه، واستصغاراً لها.

وقد يكون لهذا النوع سببان.

أحدهما: استحقار السائل نفسه. واستعظام ذنوبه وخطاياه.

الثانى: استعظام مسؤوله.

وأما حياء المحبة: فهو حياء المحب من محبوبه، حتى إنه إذا خطر على قلبه فى غيبته هاج الحياء من قلبه، وأحس به فى وجهه. ولا يدرى ماسببه. وكذلك يعرض للمحب عند ملاقاته محبوبه ومفاجأته له روعة شديدة ومنه قولهم «جمال رائع» وسبب هذا الحياء والروعة مما لا يعرفه أكثر الناس. ولاريب أن للمحبة سلطاناً قاهراً للقلب أعظم من سلطان من يقهرالبدن. فأين من يقهر قلبك وروحك إلى من يقهر بدنك؟.

وأما حياء العبودية: فهو حياء ممتزج من محبة وخوف، ومشاهدة عدم صلاح عبوديته لمعبوده، وأن قدره أعلى وأجل منها. فعبوديته له توجب استحياءه منه لا محالة.

وأما حياء الشرف والعزة: فحياء النفس العظيمة الكبيرة إذا صدر منها ما هو دون قدرها من بذل أو عطاء وإحسان. فإنه يستحى مع بذله حياء شرف نفس وعزة. وهذا له سببان.

أحدهما: هذا. والثانى: استحياؤه من الآخذ، حتى كأنه هو الآخذ السائل، حتى إن بعض أهل الكرم لا تطاوعه نفسه بمواجهته لمن يعطيه حياء منه. وهذا يدخل فى حياء التلوم. لأنه يستحيى من خجلة الآخذ.

وأما حياء المرء من نفسه: فهوحياء النفوس الشريفة العزيزة الرفيعة من رضاها لنفسها بالنقص وقناعتها بالدون. فيجد نفسه مستحياً من نفسه، حتى كأن له نفسين، يستحيى

(١) عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: كنت رجلاً مذاءً وكنت استحى ان اسأل النبى ﷺ لمكان ابنته فأمرت المقداد بن الأسود فسأله فقال «يغسل ذكره ويتوضأ» رواه البخارى (١٣٢) ومسلم (٦٨١) والنسائى ٩٧) والمذى هو ماء أبيض لزج رقيق يخرج عند الملاعبة أو تذكر الجماع أو ارادته.

بإحداهما من الأخرى. وهذا أكمل ما يكون من الحياء. فإن العبد إذا استحيى من نفسه. فهو بأن يستحي من غيره أجدر.

والحياء حالة حاصلة من امتزاج التعظيم بالمودة، فإذا اقترنا تولد بينهما الحياء.

والجنيد يقول: إن تولده من مشاهدة النعم، ورؤية التقصير. ومنهم من يقول: تولده من شعور القلب بما يستحي منه، فيتولد من هذا الشعور والنفرة حالة تسمى الحياء.

ولا تنافي بين هذه الأقوال. فإن للحياء عدة أسباب. قد تقدم ذكرها. فكل أشار إلى بعضها. والله أعلم.

منزلة الصدق

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الصدق»

وهى منزلة القوم الأعظم. الذى منه تنشأ جميع منازل السالكين ، والطريق الأقوم الذى من لم يسر عليه فهو من المنقطعين الهالكين. وبه تميز أهل النفاق من أهل الإيمان. وسكان الجنان من أهل النيران . وهو سيف الله فى أرضه الذى ما وضع على شيء إلا قطعه ولا واجه باطلاً إلا أرداه وصرعه. من صال به لم ترد صولته. ومن نطق به علت على الخصوم كلمته. فهو روح الأعمال ومحك الأحوال ، والحامل على اقتحام الأهوال، والباب الذى دخل منه الواصلون إلى حضرة ذى الجلال. وهو أساس بناء الدين، وعمود فسطاط اليقين. ودرجته تالية لدرجة النبوة التى هى أرفع درجات العالمين. ومن مساكنهم فى الجنات: تجرى العيون والأنهار إلى مساكن الصديقين. كما كان من قلوبهم إلى قلوبهم فى هذه الدار مدد متصل ومعين.

وقد أمر الله سبحانه أهل الإيمان: أن يكونوا مع الصادقين. وخص المنعم عليهم بالنبيين والصديقين والشهداء والصالحين. فقال تعالى﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾[1] وقال تعالى﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين﴾[2] فهم الرفيق الأعلى ﴿وحسن أولئك رفيقاً﴾ ولا يزال الله يمدهم بأنعمه وألطافه ومزيده إحساناً منه وتوفيقاً. ولهم مرتبة المعية مع الله. فإن الله مع الصادقين. ولهم منزلة القرب منه. إذ درجتهم منه ثانى درجة النبيين.

وأخبر تعالى أن من صدقه فهو خير له. فقال﴿فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم﴾[3].

وأخبر تعالى عن أهل البر. وأثنى عليهم بأحسن أعمالهم: من الإيمان والإسلام ،

---

(١) سورة التوبة : الآية ١١٩ . (٢) سورة النساء : الآية ٦٩ . (٣) سورة محمد : الآية ٢١

والصدقة والصبر ، بأنهم أهل الصدق فقال﴿ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين، وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا. والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس. أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾[1] وهذا صريح فى أن «الصدق»بالأعمال الظاهرة والباطنة. وأن «الصدق»هو مقام الإسلام والإيمان.

وقسم الله سبحانه الناس إلى صادق ومنافق. فقال﴿ليجزى الله الصادقين بصدقهم. ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم﴾[2]

والإيمان أساسه الصدق. والنفاق أساسه الكذب. فلا يجتمع كذب وإيمان إلا وأحدهما محارب للآخر.

وأخبر سبحانه: أنه فى يوم القيامة لا ينفع العبد و ينجيه من عذابه إلا صدقه قال تعالى ﴿هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم. لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار. خالدين فيها أبداً. رضى الله عنهم ورضوا عنه. ذلك الفوز العظيم﴾ [3] و قال تعالى ﴿والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون﴾[4] فالذى جاء بالصدق: هو من شأنه الصدق فى قوله وعمله وحاله. فالصدق: فى هذه الثلاثة.

فالصدق فى الأقوال: استواء اللسان على الأقوال ، كاستواء السنبلة على ساقها. والصدق فى الأعمال: استواء الأفعال على الأمر والمتابعة. كاستواء الرأس على الجسد. والصدق فى الأحوال: استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص. واستفراغ الوسع، وبذل الطاقة. فبذلك يكون العبد من الذين جاءوا بالصدق. وبحسب كمال هذه الأمور فيه وقيامها به: تكون صديقيته ، ولذلك كان لأبى بكر الصديق رضى الله عنه وأرضاه: ذروة سنام الصديقية ، سمى «الصديق» على الإطلاق، و«الصديق» أبلغ من الصدوق والصدوق أبلغ من الصادق.

فأعلى مراتب الصدق: مرتبة الصديقية. وهى كمال الانقياد للرسول ﷺ مع كمال الإخلاص للمرسل.

وقد أمر الله تعالى رسوله: أن يسأله أن يجعل مدخله ومخرجه على الصدق. فقال: ﴿وقل رب أدخلنى مدخل صدق ، وأخرجنى مخرج صدق. واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيراً﴾[5] وأخبر عن خليله إبراهيم ﷺ ، أنه سأله أن يهب له لسان صدق فى

---

(١) سورة البقرة الآية ١٧٧ (٢) سورة الأحزاب الآية ٢٤. (٣) سورة المائدة : الآية ١١٩

(٤) سورة الزمر : الآية ٣٤ . (٥) سورة الإسراء : الآية ٨ .

الآخرين. فقال﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾[1] وبشر عباده بأن لهم عنده قدم صدق ، ومقعدَ صدق. فقال تعالى﴿وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم﴾[2] وقال ﴿إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾[3].

فهذه خمسة أشياء: مدخل الصدق ، ومخرج الصدق، ولسان الصدق، وقدم الصدق، ومقعد الصدق.

وحقيقة الصدق في هذه الأشياء: هو الحق الثابت ، المتصل بالله ، الموصل إلى الله. وهو ما كان به وله من الأقوال والأعمال. وجزاء ذلك في الدنيا والآخرة.

فمدخل الصدق ومخرج الصدق: أن يكون دخوله وخروجه حقاً ثابتاً بالله، وفي مرضاته. بالظفر بالبغية، وحصول المطلوب، ضد مخرج الكذب ومدخله الذي لا غاية له يوصل إليها ولا له ساق ثابتة يقوم عليها. كمخرج أعدائه يوم بدر. ومخرج الصدق كمخرجه ﷺ هو وأصحابه في تلك الغزوة.

وكذلك مدخله ﷺ المدينة: كان مدخل صدق بالله، ولله، وابتغاء مرضاة الله. فاتصل به التأييد، والظفر والنصر، وإدراك ما طلبه في الدنيا والآخرة، بخلاف مدخل الكذب الذي رام أعداؤه أن يدخلوا به المدينة يوم الأحزاب. فإنه لم يكن بالله، ولا لله، بل كان محادة لله ورسوله، فلم يتصل به إلا الخذلان والبوار.

وكذلك مدخل من دخل من اليهود المحاربين لرسول الله ﷺ حصن بني قريظة. فإنه لما كان مدخل كذب: أصابه معهم ما أصابهم.

فكل مدخل معهم ومخرج كان بالله ولله. فصاحبه ضَامن علىَ الله. فهو مدخل صدق، ومخرج صدق.

وكان بعض السلف إذا خرج من داره: رفع رأسه إلى السماء، وقال: اللهم إني أعوذ بك أن أخرج مخرجاً لا أكون فيه ضامناً عليك.

يريد: أن لا يكون المخرج مخرج صدق. ولذلك فسر مدخل الصدق ومخرجه: بخروجه ﷺ من مكة، ودخوله المدينة. ولا ريب أن هذا على سبيل التمثيل. فإن هذا المدخل والمخرج من أجل مداخله ومخارجه ﷺ. وإلا فمداخله كلها مداخل صدق، ومخارجه مخارج صدق. إذ هي لله وبالله وبأمره، ولابتغاء مرضاته.

وما خرج أحد من بيته ودخل سوقه - أو مدخلاً آخر - إلا بصدق أو بكذب، فمخرج كل واحد ومدخله: لا يعدو الصدق والكذب. والله المستعان.

(١) سورة الشعراء : الآية٨٤ . (٢) سورة يونس : الآية ٢ . (٣) سورة القمر : الآيتان ٥٤ ، ٥٥ .

وأما لسان الصدق: فهو الثناء الحسن عليه ﷺ من سائر الأمم بالصدق. ليس ثناء بالكذب. كما قال عن إبراهيم وذريته من الأنبياء والرسل عليهم صلوات الله وسلامه ﴿وجعلنا لهم لسان صدق عليا﴾[1] والمراد باللسان ههنا: الثناء الحسن. فلما كان الصدق باللسان ،وهو محله. أطلق الله سبحانه ألسنة العباد بالثناء على الصادق، جزاء وفاقاً وعبر به عنه.

فإن اللسان يراد به ثلاثة معان: هذا، واللغة. كقوله تعالى ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم﴾[2] وقوله ﴿واختلاف ألسنتكم وألوانكم﴾[3] وقوله ﴿لسان الذى يلحدون إليه أعجمى. وهذا لسان عربى مبين﴾[4] ويراد به الجارحة نفسها. كقوله تعالى ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به﴾[5].

وأما قدم الصدق: ففسر بالجنة. وفسر بمحمد ﷺ. وفسر بالأعمال الصالحة.

وحقيقة «القدم» ما قدموه. وما يقدمون عليه يوم القيامة. وهم قدموا الأعمال والإيمان بمحمد ﷺ، ويقدمون على الجنة التى هى جزاء ذلك.

فمن فسره بها أراد: ما يقدمون عليه. ومن فسره بالأعمال وبالنبى ﷺ: فلأنهم قدموها .وقدموا الإيمان به بين أيديهم. فالثلاثة قدم صدق.

وأما مقعد الصدق: فهو الجنة عند الرب تبارك وتعالى.

ووصف ذلك كله بالصدق مستلزم ثبوته واستقراره، وأنه حق، ودوامه ونفعه، وكمال عائدته. فإنه متصل بالحق سبحانه، كائن به وله، فهو صدق غير كذب .وحق غير باطل. ودائم غير زائل. ونافع غير ضار. وما للباطل ومتعلقاته إليه سبيل ولا مدخل.

ومن علامات الصدق: طمأنينة القلب إليه. ومن علامات الكذب: حصول الريبة، كما فى الترمذى -مرفوعاً- من حديث الحسن بن على رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال «الصدق طمأنينة. والكذب ريبة»[6].

---

(1) سورة مريم . الآية ٥٠ .
(2) سورة إبراهيم . الآية ٤
(3) سورة الروم : الآية ٢٢ .
(4) سورة النحل : الآية ١٠٣
(5) سورة القيامة . الآية ١٦ .
(6) صحيح رواه الترمذى (٢٥١٨) والطيالسى (١١٧٨) والحاكم (٢/ ١٣ و ٤/ ٩٩) والطحاوى فى «مشكل الآثار» (٣/ ٣٥) وصححه الحاكم ووافقه الذهبى. وقال الترمذى: حسن صحيح.

وفى الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال«إن الصدق يهدى إلى البر. وإن البر يهدى إلى الجنة. وإن الرجل ليصدق حتى يُكتب عند الله صديقا. وإن الكذب يهدى إلى الفجور. وإن الفجور يهدى إلى النار. وإن الرجل ليكذب حتى يُكتب عند الله كذاباً» (١) فجعل الصدق مفتاح الصديقية ومبدأها. وهى غايته. فلا ينال درجتها كاذب ألبتة، لا فى قوله، ولا فى عمله. ولا فى حاله. ولا سيما كاذب على الله فى أسمائه وصفاته، ونفى ما أثبته، أو إثبات ما نفاه عن نفسه. فليس فى هؤلاء صديق أبداً.

وكذلك الكذب عليه فى دينه وشرعه. بتحليل ما حرمه. وتحريم مالم يحرمه. وإسقاط ما أوجبه، وإيجاب ما لم يوجبه. وكراهة ما أحبه، واستحباب مالم يحبه. كل ذلك منافٍ للصديقية.

وكذلك الكذب معه فى الأعمال: بالتحلى بحلية الصادقين المخلصين، والزاهدين المتوكلين. وليس فى الحقيقة منهم.

فلذلك كانت الصديقية: كمال الإخلاص والانقياد، والمتابعة للخبر والأمر، ظاهراً وباطناً، حتى إن صدق المتبايعين يحل البركة فى بيعهما. وكذبهما يمحق بركة بيعهما. كما فى الصحيحين عن حكيم بن حزام رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «البيعان بالخيار مالم يتفرقا. فإن صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما. وإن كذبا وكتما: مُحقت بركة بيعهما» (٢).

كلمات فى حقيقة الصدق

قال عبد الواحد بن زيد: الصدق الوفاء لله بالعمل.

وقيل: موافقة السر النطق.

وقيل: استواء السر والعلانية. يعنى أن الكاذب علانيته خير من سريرته. كالمنافق الذى ظاهره خير من باطنه.

وقيل: الصدق القول بالحق فى مواطن الهلكة

وقيل: كلمة الحق عند من تخافه وترجوه.

---

(١) رواه البخارى (٦٠٩٤) ومسلم (٦٥١٤)

(٢) رواه البخارى (٧٩ ٢) ومسلم (٣٧٨٤) والترمذى (١٢٤٦) والنسائى (٧/ ٢٤٤ و ٢٤٧).

منزلة الإيثار

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الإيثار»

قال الله تعالى: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾[1].

فالإيثار ضد الشح. فإن المؤثر على نفسه تارك لما هو محتاج إليه. والشحيح: حريص على ماليس بيده. فإذا حصل بيده شيء شح عليه. وبخل بإخراجه. فالبخل ثمرة الشح. والشح يأمر بالبخل، كما قال النبي ﷺ: «إياكم والشح. فإن الشح أهلك من كان قبلكم. أمرهم بالبخل فبخلوا. وأمرهم بالقطيعة فقطعوا»[2]

فالبخيل: من أجاب داعي الشح. والمؤثر: من أجاب داعي الجود.

كذلك السخاء عما في أيدي الناس هو السخاء. وهو أفضل من سخاء البذل.

قال عبد الله بن المبارك: سخاء النفس عما في أيدي الناس أفضل من سخاء النفس بالبذل.

وهذا المنزل: هو منزل الجود والسخاء والإحسان.

وسمى بمنزل «الإيثار» لأنه أعلى مراتبه، فإن المراتب ثلاث.

إحداها: أن لا ينقصه البذل، ولا يصعب عليه. فهو منزلة «السخاء»

الثانية: أن يعطى الأكثر، ويبقى له شيئاً، أو يبقى مثل ما أعطى. فهو «الجود»

الثالثة: أن يؤثر غيره بالشيء مع حاجته إليه، وهو مرتبة «الإيثار» وعكسها «الأثرة» وهو استئثاره عن أخيه بماهو محتاج إليه. وهي المرتبة التي قال فيها رسول الله ﷺ للأنصار رضى الله عنهم «إنكم ستلقون بعدى أثرة. فاصبروا حتى تلقونى على الحوض»[3] والأنصار: هم الذين وصفهم الله بالإيثار في قوله: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾[4] فوصفهم بأعلى مراتب السخاء، وكان ذلك فيهم معروفاً.

وكان قيس بن سعد بن عبادة رضى الله عنهما من الأجواد المعروفين. حتى إنه مرض مرة، فاستبطأ إخوانه في العيادة. فسأل عنهم؟ فقالوا: إنهم كانوا يستحيون مما لك عليهم من الدين. فقال: أخزى الله مالا يمنع الإخوان من الزيارة. ثم أمر منادياً ينادى: من كان لقيس عليه مال فهو منه في حل. فما أمسى حتى كسرت عتبة بابه، لكثرة من عاده.

(١، ٤) سورة الحشر. الآية ٩

(٢) حسن. رواه أحمد (٢/ ١٦٠) وأبو داود (١٦٩٨) والحاكم (١/ ١١).

(٣) رواه البخارى (٣٧٨٩) ومسلم(٤٦٩٧) والترمذى (٢١٨٩) والنسائى (٨/ ٢٢٤).

وقالوا له يوماً: هل رأيت أسخى منك؟ قال: نعم. نزلنا بالبادية على امرأة. فحضر زوجها. فقالت: إنه نزل بك ضيفان. فجاء بناقة فنحرها، وقال: شأنكم؟ فلما كان من الغد جاء بأخرى فنحرها. فقلنا: ما أكلنا من التى نحرت البارحة إلا اليسير. فقال: إنى لا أطعم ضيفانى البائت. فبقينا عنده يومين أو ثلاثة، والسماء تمطر. وهو يفعل ذلك. فلما أردنا الرحيل وضعنا مائة دينار فى بيته، وقلنا للمرأة: اعتذرى لنا إليه. ومضينا. فلما طلع النهار إذا نحن برجل يصيح خلفنا: قفوا. أيها الركب اللئام. أعطيتمونى ثمن قراى؟ ثم إنه لحقنا ، وقال: لتأخذنه أو لاطاعنتكم برمحى. فأخذناه وانصرف.

فتأمل سر التقدير، حيث قدر الحكيم الخبير - سبحانه - استئثار الناس على الأنصار بالدنيا - وهم أهل الإيثار - ليجازيهم على إيثارهم إخوانهم فى الدنيا على نفوسهم بالمنازل العالية فى جنات عدن على الناس. فتظهر حينئذ فضيلة إيثارهم ودرجته ويغبطهم من استأثر عليهم بالدنيا أعظم غبطة. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

فإذا رأيت الناس يستأثرون عليك - مع كونك من أهل الإيثار - فاعلم أنه لخير يراد بك. والله سبحانه وتعالى أعلم.

مراتب الجود

و«الجود» عشر مراتب.

أحدها: الجود بالنفس. وهو أعلى مراتبه، كما قال الشاعر:

يجود بالنفس، إذ ضَنَّ البخيلُ بِهَا ~ والجود بالنفس أقصى غاية الجود

الثانية: الجود بالرياسة. وهو ثانى مراتب الجود. فيحمل الجواد جوده على امتهان رياسته، والجود بها. والإيثار فى قضاء حاجات الملتمس.

الثالثة: الجود براحته ورفاهيته، وإجمام نفسه. فيجود بها تعباً وكداً فى مصلحة غيره. ومن هذا جود الإنسان بنومه ولذته لمسامره، كما قيل:

مُتَيَّمٌ بالنَّدَى، لو قال سائله: هب لى جميع كرى عينيك، لم يَنَم

الرابعة: الجود بالعلم وبذله. وهو من أعلى مراتب الجود. والجود به أفضل من الجود بالمال، لأن العلم أشرف من المال.

والناس فى الجود به على مراتب متفاوتة. وقد اقتضت حكمة الله وتقديره النافذ: أن لا ينفع به بخيلا أبداً.

ومن الجود به: أن تبذله لمن يسألك عنه، بل تطرحه عليه طرحاً.

ومن الجود بالعلم: أن السائل إذا سألك عن مسألة: استقصيت له جوابها جواباً شافيا، لا يكون جوابك له بقدر ما تدفع به الضرورة، كما كان بعضهم يكتب فى جواب الفتيا «نعم» أو «لا» مقتصراً عليها.

ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - فى ذلك أمراً عجيباً:

كان إذا سئل عن مسألة حكمية، ذكر فى جوابها مذاهب الأئمة الأربعة، إذا قدر، ومأخذ الخلاف، وترجيح القول الراجح. وذكر متعلقات المسألة التى ربما تكون أنفع للسائل من مسألته. فيكون فرحه بتلك المتعلقات واللوازم: أعظم من فرحه بمسألته. وهذه فتاويه - رحمه الله - بين الناس. فمن أحب الوقوف عليها رأى ذلك.

فمن جود الإنسان بالعلم: أنه لا يقتصر على مسألة السائل. بل يذكر له نظائرها ومتعلقها ومأخذها، بحيث يشفيه ويكفيه.

وقد سأل الصحابة رضى الله عنهم النبى ﷺ عن المتوضىء بماء البحر؟ فقال: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته»[1] فأجابهم عن سؤالهم. وجاد عليهم بما لعلهم فى بعض الأحيان إليه أحوج مما سألوه عنه.

وكانوا إذا سألوه عن الحكم نبههم على علته وحكمته. كما سألوه عن بيع الرطب بالتمر؟ فقال «أينقص الرطب إذا جف؟ قالوا: نعم. قال: فلا. إذن»[2] ولم يكن يخفى عليه ﷺ نقصان الرطب بجفافه، ولكن نبههم عل علة الحكم. وهذا كثير جداً فى أجوبته ﷺ. مثل قوله «إن بعت من أخيك ثمرة. فأصابتها جائحة فلا يحل لك أن تأخذ من مال أخيك شيئاً. بم يأخذ أحدكم مال أخيه؟ بغير حق؟»[3] وفى لفظ «أرأيت إن منع الله الثمرة: بم يأخذ أحدكم مال أخيه، بغير حق؟» فصرح بالعلة التى يحرم لأجلها إلزامه بالثمن. وهى منع الله الثمرة التى ليس للمشترى فيها صنع.

وكان خصومه - يعنى شيخ الإسلام ابن تيمية- يعيبونه بذلك. ويقولون: سأله السائل عن طريق مصر - مثلاً- فيذكر له معها طريق مكة، والمدينة، وخراسان، والعراق، والهند. وأى حاجة بالسائل إلى ذلك؟

---

(١) صحيح . رواه مالك (١/ ٢٢) وأحمد (٢/ ٢٣٧و٣٩٢) وأبو داود (٨٣) والترمذي (٦٩) والنسائى (١/ ٢١) وابن ماجه (٣٨٦) والدارمي (١/ ١٨٦) وابن الجارود (ص ٣٠) والحاكم (١/ ١٤٠-١٤١) وقال الترمذي: حسن صحيح

(٢) حسن رواه الترمذى (١٢٢٥) وأبو داود (٣٣٥٩) وابن حبان (٤٩٩٧ و ٥٠٠٣/ احسان) وأحمد (٢/ ١٧٥) والحاكم (٢/ ٣٨). ومالك فى الموطأ (٢/ ٦٢٤) والنسائى (٧/ ٢٦٩) والطيالسى (٢١٤) وابن ماجه (٢٢٤٦) وعبد الرزاق (١٤١٨٥) والدارقطنى (٣/ ٤٩) والبيهقى (٥/ ٢٩٤) والبغوى (٢٠٦٨)

(٣) رواه مسلم (٣٩٠٠) وأبو داود (٣٤٧٠) والنسائى (٧/ ٢٦٤ و ٢٦٥) وابن ماجه (٢٢١٩).

ولعمر الله ليس ذلك بعيب، وإنما العيب: الجهل والكبر، وهذا موضع المثل المشهور:

لقبوه بحامض. وهو خل   مثل من لم يصل إلى العنقود

الخامسة: الجود بالنفع بالجاه. كالشفاعة والمشى مع الرجل إلى ذى سلطان ونحوه. وذلك زكاة الجاه المطالب بها العبد. ،كما أن التعليم وبذل العلم زكاته.

السادسة: الجود ينفع البدن على اختلاف أنواعه. كما قال ﷺ «يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة. كل يوم تطلع فيه الشمس، يعدل بين اثنين: صدقة. ويعين الرجل فى دابته، فيحمله عليها، أويرفع له عليها متاعه: صدقة. والكلمة الطيبة: صدقة، وبكل خطوة يمشيها الرجل إلى الصلاة: صدقة. ويميط الأذى عن الطريق: صدقة» متفق عليه[1].

السابعة: الجود بالعرض، كجود أبي ضمضم[2] من الصحابة رضى الله عنهم. كان إذا أصبح قال «اللهم إنه لا مال لى، أتصدق به على الناس. وقد تصدقت عليهم بعرضى، فمن شتمنى ، أو قذفنى: فهو فى حل. فقال النبى ﷺ: «من يستطيع منكم أن يكون كأبى ضمضم؟»[3]

وفى هذا الجود من سلامة الصدر، وراحة القلب، والتخلص من معاداة الخلق ما فيه.

الثامنة: الجود بالصبر، والاحتمال والإغضاء. وهذه مرتبة شريفة من مراتبه. وهى أنفع لصاحبها من الجود بالمال،وأعز له وأنصر، وأملك لنفسه، وأشرف لها. ولا يقدر عليها إلا النفوس الكبار.

فمن صعب عليه الجود بماله فعليه بهذا الجود. فإنه يجتنى ثمرة عواقبه الحميدة فى الدنيا قبل الآخرة. وهذا جود الفتوة. قال تعالى﴿والجروح قصاص.فمن تصدق به فهو كفارة له﴾[4] وفى هذا الجود. قال تعالى﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها. فمن عفى وأصلح فأجره على الله. إنه لا يحب الظالمين﴾[5] فذكر المقامات الثلاثة فى هذه الآية: مقام العدل، وأذن فيه، ومقام الفضل، وندب إليه. ومقام الظلم، وحرمه.

---

(١) رواه مسلم (١٦٤١) وأحمد (٥/١٦٧) وأبو داود (١٢٨٥)والبيهقى فى «الكبرى(٣/٤٧)والبغوى (١٠٠٧).

(٢) أبو ضمضم ليس من الصحابة ففى الحديث أن الصحابة سألوا النبى ﷺعن أبى ضمضم فقال ﷺ رجل كان فيمن قبلكم.

(٣) ضعيف. رواه العقيلى (٤/٩٣) وفى إسناده محمد بن عبد الله العمى ، قال العقيلى: لا يقيم الحديث

(٤) سورة المائدة : الآية ٤٥   (٥) سورة الشوري : الآية ٤٠

التاسعة: الجود بالخُلق والبِشر والبسطة. وهو فوق الجود بالصبر، والاحتمال والعفو. وهو الذى بلغ بصاحبه درجة الصائم القائم. وهو أثقل ما يوضع فى الميزان. قال النبى ﷺ «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسط إليه»[1] وفى هذا الجود من المنافع والمسار، وأنواع المصالح مافيه. والعبد لا يمكنه أن يسعهم بخلقه واحتماله.

العاشرة: الجود بتركه ما فى أيدى الناس عليهم. فلا يلتفت إليه. ولا يستشرف له بقلبه، ولا يتعرض له بحاله، ولا لسانه. وهذ الذى قال عبد الله بن المبارك «إنه أفضل من سخاء النفس بالبذل»

فلسان حال القدر يقول للفقير الجواد: وإن لم أعطك ما تجود به على الناس. فجد عليهم بزهدك فى أموالهم. وما فى أيديهم، تفضل عليهم، وتزاحمهم فى الجود، وتنفرد عنهم بالراحة.

ولكل مرتبة من مراتب الجود مزيد وتأثير خاص فى القلب والحال. والله سبحانه قد ضمن المزيد للجواد، والإتلاف للممسك. والله المستعان.

منزلة الخلق

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين»منزلة «الخُلق»

قال الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾[2]. قال ابن عباس ومجاهد: لَعَلَى دين عظيم، لا دين أحب إلىَّ ولا أرضى عندى منه. وهو دين الإسلام.

وقال الحسن رضى الله عنه: هو آداب القرآن. وقال قتادة: هو مَا كان يأمر به من أمر الله. وينهى عنه من نهى الله. والمعنى: إنك لعلى الخلق الذى آثرك الله به فى القرآن.

وفى الصحيحين: أن هشام بن حكيم «سأل عائشة رضى الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ؟ فقالت: كان خلقه القرآن. فقال: لقد هممت أن أقوم ولا أسأل شيئاً».[3]

وقد جمع الله له مكارم الأخلاق فى قوله تعالى ﴿خذ العفو وأمر بالعرف. وأعرض عن الجاهلين﴾[4] قال جعفر بن محمد: أمر الله نبيه ﷺ بمكارم الأخلاق. وليس فى القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية. وقد ذكر: أنه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ لجبريل «ما هذا؟ قال: لاأدرى حتى أسأل، فسأل. ثم رجع إليه. فقال: إن الله يأمرك أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك، وتعفو عمن ظلمك»[5]

(١) رواه مسلم كتاب البر الصلة (٦٥٦٧) وأحمد (٥/١٧٣) وابن حبان (٤٦٨ و ٥٢٣).
(٢) سورة القلم: الآية: ٤٠. (٣) رواه مسلم (١٧٠٨) كتاب الصلاة باب: جامع صلاة الليل
(٤) سورة الأعراف الآية: ١٩٩.
(٥) مرسل. رواه الطبرى فى «تفسيره» (٩/١٥٥) وابن أبى حاتم كما فى «تفسير ابن كثير» (٢/٢٨٣).

ولا ريب أن للمطاع مع الناس ثلاث أحوال.

أحدها: أمرهم ونهيهم بما فيه مصلحتهم.

الثانى: أخذه منهم ما يبذلونه مما عليهم من الطاعة.

الثالث: أن الناس معه قسمان: موافق له موالٍ، ومعادٍ له معارضٍ. وعليه فى كل واحد من هذه واجب.

فواجبه فى أمرهم ونهيهم: أن يأمر بالمعروف. وهو المعروف الذى به صلاحهم وصلاح شأنهم. وينهاهم عن ضده.

وواجبه فيما يبذلونه له من الطاعة: أن يأخذ منهم ما سهل عليهم، وطوعت له به أنفسهم، سماحة واختياراً، ولا يحملهم على العنت والمشقة فيفسدهم.

وواجبه عند جهل الجاهلين عليه: الإعراض عنهم، وعدم مقابلتهم بالمثل والانتقام منهم لنفسه. فقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿خذ العفو وأمر بالعرف. وأعرض عن الجاهلين﴾ قال عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما: أمر الله نبيه أن يأخذ العفو من أخلاق الناس. وقال مجاهد: يعنى خذ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تخسيس، مثل قبول الأعذار، والعفو والمساهلة، وترك الاستقصاء فى البحث، والتفتيش عن حقائق بواطنهم.

وقال ابن عباس رضى الله عنهما: خذ ما عفا لك من أموالهم. وهو الفاضل عن العيال، وذلك معنى قوله تعالى﴿ويسألونك ماذا ينفقون قل: العفو﴾[1].

ثم قال تعالى﴿وأمر بالعرف﴾ وهوكل معروف. وأعرفه: التوحيد. ثم حقوق العبودية وحقوق العبيد.

ثم قال تعالى﴿وأعرض عن الجاهلين﴾ يعنى إذا سفه عليك الجاهل فلا تقابله بالسفه. كقوله تعالى﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما﴾[2] وعلى هذا فليست بمنسوخة. بل يعرض عنه مع إقامة حق الله عليه. ولا ينتقم لنفسه.

وهكذا كان خلقه ﷺ. قال أنس رضى الله عنه «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خُلقاً»[3] وقال «ما مسست ديباجاً ولا حريراً ألين من كف رسول الله ﷺ. ولا شممت رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله ﷺ. ولقد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين. فما قال لى قط: أفٍ. ولا قال لشىء فعلته: لم فعلته؟ ولا لشىء لم أفعله: ألا فعلت كذا؟»

(١) سورة البقرة : الآية ٢١٩ (٢) سورة الفرقان : الآية ٦٣

(٣) رواه البخاري (٦٢٠٣) ومسلم (١٤٧٢ و ٥٥١٨ و ٥٩٠٣)

متفق عليهما.

وأخبر رسول الله ﷺ «أن البر: هو حسن الخلق»

وفى صحيح مسلم عن النواس بن سمعان رضى الله عنه قال «سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم؟ فقال: البر حسن الخلق. والإثم ما حاك فى صدرك. وكرهت أن يطلع عليه الناس»[1]

فقابل البر بالإثم. وأخبر: أن البر حسن الخلق. والإثم: حواز الصدور. وهذا يدل على أن حسن الخلق: هوالدين كله. وهو حقائق الإيمان، وشرائع الإسلام. ولهذا قابله بالإثم.

وفى حديث آخر «البر: ما اطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك فى الصدر»[2] وقد فسر حسن الخلق بأنه البر. فدل على أن حسن الخلق: طمأنينة النفس والقلب. والإثم حواز الصدور، وما حاك فيها، واسترابت به، وهذا غير حسن الخلق وسوئه فى عرف كثير من الناس، كما سيأتى فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ «خياركم: أحاسنكم أخلاقاً»[3]

وفى الترمذى عن أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى ﷺ «ما من شيء أثقل فى ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق. وإن الله تعالى ليبغض الفاحش البذيء» قال الترمذى: حديث حسن صحيح[4].

وفيه أيضا- وصححه - عن أبى هريرة رضى الله عنه «أن رسول ﷺ سئل عن أكثر مايدخل الناس الجنة؟ فقال: تقوى الله وحسن الخلق. وسئل عن أكثرمايدخل الناس النار؟ فقال: الفم والفرج»[5]

وفيه أيضاً عن عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ - وصححه - «إن من أكمل المؤمنين إيماناً: أحسنهم خلقاً. وخياركم: خياركم لنسائهم»[6]

(١) رواه مسلم (٦٣٩٦، ٦٣٩٧) كتاب الأدب ،باب : تفسير البر والاثم . والترمذي في «الزهد» (٢٣٨٩) باب: ما جاء في البر والإثم (٢) حسن .رواه أحمد ٤/ ٢٢٨ والدارمي(٢/ ٢٤٥).

(٣) رواه البخاري (٦٠٢٩) و مسلم(٥٩١٩). والترمذى (١٩٧٥) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه. (٤) صحيح. رواه الترمذى (٢٠٠٢) وأبو داود (٤٧٩٩).

(٢) حسن. رواه الترمذي (٢٠٠٤) وابن حبان (٤٧٦) والحاكم (٤/ ٣٢٤).

(٦) حسن رواه الترمذى (٢٦١٢) وأحمد (٦/ ٤٧ و ٩٩) وابن أبي شيبة (٨/ ٥١٥ و ١١/ ٢٧) والحاكم (١/ ٥٣) وقال الترمذى «هذا حديث صحيح ولا نعرف لأبى قلابة سماعاً من عائشة ا .هـ.وقال الحاكم رواته ثقات على شرط الشيخين: وتعقبه الذهبى فقال: فيه انقطاعا.هـ قلت. وقد ورد الحديث بسند حسن عن أبى هريرة. رواه الترمذى (١١٦٢) وأحمد (٢/ ٢٥٠ و ٤٧٢) وابو داود (٤٦٨٢) والحاكم (١/ ٣) وابن حبان (٤٧٩/ إحسان) وابن أبي شيبة (٨/ ٥١٥ و ١١/ ٢٧) وفى الإيمان (١٧ و ١٨) والبغوى (٣٤٩٥) وأبو نعيم فى «الحلية» (٩/ ٢٤٨).

وفى الصحيح عن عائشة عنه ﷺ «إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم»[1] رواه أبو داود

وعن ابن عمر رضى الله عنهما عنه ﷺ «أنا زعيم ببيت فى ربض الجنة: لمن ترك المراء وإن كان محقاً، وببيت فى وسط الجنة: لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وببيت فى أعلى الجنة لمن حسن خُلقه»[2] رواه الطبرانى وإسناده صحيح.

فجعل البيت العلوى جزاءً لأعلى المقامات الثلاثة. وهى حسن الخلق. والأوسط لأوسطها ـ وهو ترك الكذب. والأدنى لأدناها وهو ترك المماراة، وإن كان معه حق، ولا ريب أن حسن الخلق مشتمل على هذا كله.

وفى الترمذى عن جابر رضى الله عنه عنه ﷺ «إن من أحبكم إلىّ، وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة: أحاسنكم أخلاقاً. وإن من أبغضكم إلى وأبعدكم منى يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون. قالوا: يا رسول الله. قد علمنا الثرثارون والمتشدقون. فما المتفيهقون؟ قال: المتكبرون»[3] الثرثار: هو كثير الكلام بغير فائدة دينية والمتشدق: المتكلم بملء فيه تفاصحاً وتعاظماً وتطاولاً، وإظهاراً لفضله على غيره. وأصله: من الفهق وهو الامتلاء.

أركان حسن الخلق

الدين كله خلق. فمن زاد عليك فى الخلق: زاد عليك فى الدين.

وقد قيل: إن حسن الخلق بذل الندى وكف الأذى واحتمال الأذى.

وقيل: حسن الخلق: بذل الجميل، وكف القبيح

وقيل: التخلى من الرذائل، والتحلى بالفضائل.

وحسن الخلق يقوم على أربعة أركان. لايتصورقيام ساقه إلاعليها: الصبر، والعفة، والشجاعة، والعدل.

فالصبر: يحمله على الاحتمال وكظم الغيظ، وكف الأذى، والحلم والأناة والرفق،

---

(١) صحيح. رواه أبوداود (٤٧٩٨) وأحمد (٦/ ٩٠ و ٩٤ و ١٨٧) وابن حبان (٤٨٠) والحاكم (١/ ٦٠) والبغوى (٣٥٠١).

(٢) حسن. رواه الطبرانى فى «الأوسط» (٨٧٨) وفى إسناده عقبة بن على وهو ضعيف. ولكن للحديث شواهد فقد رواه الطبرانى فى «الكبير» (١١٢٩٠) من حديث ابن عباس وفى إسناده سويد بن إبراهيم وهو ضعيف. ورواه أبو داود (٤٨٠٠) والطبرانى فى «الأوسط» من حديث أبى أمامة الباهلى وفى إسناده أيوب بن موسى السعدى وهو مجهول الحال. ورواه الطبرانى فى «الأوسط» (٥٣٢٨) وفى «الصغير» (٢/ ١٦) من حديث معاذ بن جبل وفى إسناده محمد بن الحصين وهو مجهول. وبالجملة فالحديث حسن بشواهده.

(٣) حسن. رواه الترمذى (١٨ ٢) والخطيب البغدادى فى «تاريخه» (٤/ ٦٣).

وعدم الطيش والعجلة.

والعفة: تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل، وتحمله على الحياء. وهو رأس كل خير. وتمنعه من الفحشاء، والبخل والكذب، والغيبة والنميمة.

والشجاعة: تحمله على عزة النفس، وإيثار معالى الأخلاق والشيم، وعلى البذل والندى، الذى هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقته. وتحمله على كظم الغيظ والحلم. فإنه بقوة نفسه وشجاعتها يمسك عنانها ويكبحها بلجامها عن النزغ والبطش. كما قال النبى ﷺ «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد: الذى يملك نفسه عند الغضب» [1] وهو حقيقة الشجاعة، وهى ملكة يقتدر بها العبد على قهر خصمه.

والعدل: يحمله على اعتدال أخلاقه، وتوسطه فيها بين طرفى الإفراط والتفريط، فيحمله على خلق الجود والسخاء الذى هو توسط بين الذل والقحة. وعلى خلق الشجاعة، الذى هو توسط بين الجبن والتهور. وعلى خلق الحلم، الذى هو توسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس.

ومنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة.

ومنشأ جميع الأخلاق السافلة، وبناؤها على أربعة أركان: الجهل. والظلم. والشهوة. والغضب.

فالجهل: يريه الحسن فى صورة القبيح، والقبيح فى صورة الحسن. والكمال نقصاً والنقص كمالاً.

والظلم: يحمله على وضع الشىء فى غير موضعه. فيغضب فى موضع الرضى. ويرضى فى موضع الغضب. ويجهل فى موضع الأناة. ويبخل فى موضع البذل. ويبذل فى موضع البخل. ويحجم فى موضع الإقدام. ويقدم فى موضع الإحجام. ويلين فى موضع الشدة. ويشتد فى موضع اللين. ويتواضع فى موضع العزة. ويتكبر فى موضع التواضع.

والشهوة: تحمله على الحرص والشح والبخل، وعدم العفة والنهمة و الجشع، والذل والدناءات كلها.

والغضب: يحمله على الكبر والحقد والحسد والعدوان والسفه.

---

(١) رواه البخاري (٦١١٤) كتاب الأدب، باب: الحذر من الغضب ومسلم (٢٦٠٩) كتاب الادب، باب: فضل من يملك نفسه عند الغضب. عن أبى هريرة رضى الله عنه.

ويتركب من بين كل خلقين من هذه الأخلاق: أخلاق مذمومة.

وملاك هذه الأربعة أصلان: إفراط النفس فى الضعف، وإفراطها فى القوة

فيتولد من إفراطها فى الضعف: المهانة والبخل والخسة واللؤم، والذل والحرص والشح وسفساف الأمور والأخلاق.

ويتولد من إفراطها فى القوة: الظلم والغضب والحدة، والفحش والطيش.

ويتولد من تزوج أحد الخلقين بالآخر: أولاد غية كثيرون. فإن النفس قد تجمع قوة وضعفاً. فيكون صاحبها أجبر الناس إذا قدر، وأذلهم إذا قُهر ظالم عنوف جبار، فإذا قهر صار أذل من امرأة، جبان عن القوى، جرىء على الضعيف

فالأخلاق الذميمة: يولد بعضها بعضاً، كما أن الأخلاق الحميدة: يولد بعضها بعضاً.

وكل خلق محمود مكتنف بخلقين ذميمين وهو وسط بينهما. وطرفاه خلقان ذميمان كالجود: الذى يكتنفه خلقا البخل والتبذير. والتواضع: الذى يكتنفه خلقا الذل والمهانة. والكبر والعلو.

فإن النفس متى انحرفت عن «التوسط» انحرفت إلى أحد الخلقين الذميمين ولابد فإذا انحرفت عن خلق«التواضع» انحرفت: إما إلى كبر وعلو، وإما إلى ذل ومهانة وحقارة. وإذا انحرفت عن خلق «الحياء» انحرفت: إما إلى قحة وجرأة، وإما إلى عجز وخور ومهانة بحيث يطمع فى نفسه عدوه. ويفوته كثير من مصالحه ويزعم أن الحامل له على ذلك الحياء. وإنما هو المهانة والعجز، وموت النفس.

وكذلك إذا انحرفت عن خلق «الصبرالمحمود» انحرفت: إما إلى جزع وهلع وجشع وتسخط، وإما إلى غلظة كبد، وقسوة قلب، وتحجر طبع. كما قال بعضهم:

تبكى علينا. ولا نبكى على أحد فنحن أغلظ أكباداً من الإبل

وإذا انحرفت عن خلق «الحلم» انحرفت: إما إلى الطيش والترف والحدة والخفة وإما إلى الذل والمهانة والحقارة. ففرق بين من حلمه حلم ذل ومهانة وحقارة وعجز، وبين من حلمه حلم اقتدار وعزة وشرف. كما قيل:

كل حلم أتى بغير اقتدار حجة لاجىء إليها اللئام

وإذا انحرفت عن خلق «الأناة والرفق» انحرفت: إما إلى عجلة وطيش وعنف، وإما إلى تفريط وإضاعة. والرفق والأناة بينهما.

وإذا انحرفت عن خلق «العزة» التى وهبها الله للمؤمنين، انحرفت: إما إلى كبر وإما

إلى ذل. والعزة المحمودة بينهما.

وإذا انحرفت عن خلق «الشجاعة» انحرفت: إما إلى تهور وإقدام غير محمود، وإما إلى جبن وتأخر مذموم.

وإذا انحرفت عن خلق «المنافسة فى المراتب العالية والغبطة» انحرفت: إما إلى حسد، وإما إلى مهانة، وعجز وذل ورضى بالدون.

وإذا انحرفت عن «القناعة» انحرفت: إما إلى حرص وكَلَب، وإما إلى خسة ومهانة وإضاعة.

وإذا انحرفت عن خلق«الرحمة» انحرفت: إما إلى قسوة، وإما إلى ضعف قلب وجبن نفس، كمن لا يقدم على ذبح شاة، ولا إقامة حد، وتأديب ولد. ويزعم أن الرحمة تحمله على ذلك. وقد ذبح أرحم الخلق ﷺ بيده فى موضع واحد ثلاثاً وستين بَدَنَة. وقطع الأيدى من الرجال والنساء، وضرب الأعناق. وأقام الحدود ورجم بالحجارة حتى مات المرجوم. وكان أرحم خلق الله على الإطلاق وأرأفهم.

وكذلك طلاقة الوجه، والبشر المحمود. فإنه وسط بين التعبيس والتقطيب وتصعير الخد، وطى البِشْرعن البَشَر، وبين الاسترسال بذلك مع كل أحد، بحيث يذهب الهيبة ويزيل الوقار، ويطمع فى الجانب، كما أن الانحراف الأول يوقع الوحشة والبغضة والنفرة فى قلوب الخلق.

وصاحب الخلق الوسط: مهيب محبوب، عزيز جانبه حبيب لقاؤه.

منزلة التواضع

ومن منازل«إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «التواضع»

قال الله تعالى: ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً﴾[1] أى سكينة ووقاراً متواضعين غير أشرين ولا مرحين ولا متكبرين قال الحسن: علماء حلماء. وقال محمد بن الحنفية: أصحاب وقار وعفة لا يسفهون. وإن سفه عليهم حلموا.

«والهون» بالفتح فى اللغة. الرفق واللين. و«الهون» بالضم: الهوان. فالمفتوح منه: صفة أهل الإيمان. والمضموم: صفة أهل الكفران. وجزاؤهم من الله النيران.

وقال تعالى﴿ياأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم

(١) سورة الفرقان الآية ٦٣.

ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾[1].

لما كان الذل منهم ذل رحمة وعطف وشفقة وإخبات عداه بأداة «على» تضميناً لمعانى هذه الأفعال. فإنه لم يرد به ذل الهوان الذى صاحبه ذليل. وإنما هوذل اللين والانقياد الذى صاحبه ذلول، فالمؤمن ذلول.

وقوله «أعزة على الكافرين» هو من عزة القوة والمنعة والغلبة قال عطاء رضى الله عنه: للمؤمنين كالوالد لولده. وعلى الكافرين كالسبع على فريسته.

كما قال فى الآية الأخرى﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾[2] وهذا عكس حال من قيل فيهم.

كبراً علينا، وجبناً عن عدوكم   لبئست الخلتان: الكبر و الجبن

وفى صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله أوحى إلى: أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد. ولا يبغى أحد على أحد»[3]

وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر»[4]

وفى الصحيحين مرفوعاً «ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ مستكبر»[5]

وفى حديث احتجاج الجنة والنار «أن النار قالت: مالى لا يدخلنى إلا الجبارون، والمتكبرون؟ وقالت الجنة: مالى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم»[6] وهو فى الصحيح.

وفى صحيح مسلم عن أبى سعيد وعن أبى هريرة رضى الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ «يقول الله عز وجل: العزة إزارى. والكبرياء ردائى. فمن نازعنى عذبته»[7]

---

(١) سورة المائدة الآية ٥٤.

(٢) سورة الفتح الآية ٢٩.

(٣) رواه مسلم (٧٠٧٠) كتاب صفة الجنة والنار ، باب: الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار.

(٤) رواه مسلم (٢٥٩و٢٦١) كتاب الإيمان ، باب : تحريم الكبر وبيانه والترمذى (١٩٩٩)

(٥) رواه البخارى (٢٦٥٠) ومسلم (٨٠٤٧) والترمذى (٢٦٥٠) والنسائى فى «الكبرى» كما فى «تحفه الأشراف» (٣/ ١١) وابن ماجه (٤١١٦)

(٦) رواه البخارى (٤٨٥٠) ومسلم (٧٠٣٥)

(٧) رواه مسلم (٦٥٥٧) كتاب الأدب ، باب : تحريم الكبر والنهى عن تقنيط الانسان من رحمة الله تعالي ورواه أبو داود (٤٠٩٠) وابن ماجه (٤١٧٤)من حديث أبى هريرة وحده.

وكان النبى ﷺ يمرعلى الصبيان فيسلم عليهم

وكانت الأمة تأخذ بيده ﷺ. فتنطلق به حيث شاءت.

وكان ﷺ إذا أكل لعق أصابعه الثلاث.

وكان ﷺ يكون فى بيته فى خدمة أهله، ولم يكن ينتقم لنفسه قط.

وكان ﷺ يخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويحلب الشاة لأهله، ويعلف البعير ويأكل مع الخادم. ويجالس المساكين، ويمشى مع الأرملة واليتيم فى حاجتهما، ويبدأ من لقيه بالسلام، ويجيب دعوة من دعاه. ولو إلى أيسر شىء.

وكان ﷺ هين المؤنة، لين الخلق. كريم الطبع. جميل المعاشرة. طلق الوجه بساماً، متواضعاً من غير ذلة جواداً من غير سرف رقيق القلب رحيماً بكل مسلم خافض الجناح للمؤمنين، لين الجانب لهم.

وقال ﷺ «ألا أخبركم بمن يحرم على النار؟ - أو تحرم عليه النار - تحرم عل كل قريب هين لين سهل»[١] رواه الترمذى وقال: حديث حسن.

وقال «لو دعيت إلى ذراع - أو كراع- لأجبت، ولو أهدى إلى ذراع - أو كراع-لقبلت»[٢] رواه البخارى

وكان ﷺ يعود المريض. ويشهد الجنازة. ويركب الحمار، ويجيب دعوة العبد.

وكان يوم قريظة على حمار مخطوم بحبل من ليف عليه إكاف من ليف.

(معنى التواضع)

سئل الفضيل بن عياض عن التواضع؟ فقال: يخضع للحق، وينقاد له. ويقبله ممن قاله

وقيل: التواضع أن لا ترى لنفسك قيمة. فمن رأى لنفسه قيمة فليس له فى التواضع نصيب.

---

(١) صحيح بشواهده. رواه الترمذى (٢٤٨٨) وأحمد (١/ ٤١٥) وابن حبان (٤٦٩ و ٤٧٠ - احسان) والطبرانى فى «الكبير» (١٠٥٦٢) والبغوى فى «شرح السنة» (٣٥٠٥) وخرائطى فى «مكارم الأخلاق» (١١، ٢٣) وانظر الصحيحة (٩٣٨).

(٢) رواه البخارى (٢٥٦٨) كتاب الهبة، باب . القليل من الهبة

وقال الجنيد بن محمد: هو خفض الجناح، ولين الجانب

وقال ابن عطاء: هو قبول الحق ممن كان. والعز فى التواضع. فمن طلبه فى الكبر فهو كتطلب الماء من النار.

وقال إبراهيم بن شيبان: الشرف فى التواضع. والعز فى التقوى. والحرية فى القناعة.

وقال عروة بن الزبير رضى الله عنهما: رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه على عاتقه قربة ماء فقلت «يا أمير المؤمنين؛ لا ينبغى لك هذا. فقال: لما أتانى الوفود سامعين مطيعين. دخلت نفسى نخوة فأردت أن أكسرها»

وولى أبو هريرة رضى الله عنه إمارة مرة. فكان يحمل حزمة الحطب على ظهره ويقول: طرّقوا للأمير.

وركب زيد بن ثابت مرة. فدنا ابن عباس ليأخذ بركابه. فقال: مه يا ابن عم رسول الله! فقال: هكذا أمرنا أن نفعل بكبرائنا. فقال: أرنى يدك. فأخرجها إليه فقبلها. فقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت رسول الله ﷺ.

وقسم عمر بن الخطاب رضى الله عنه بين الصحابة رضى الله عنهم حللاً، فبعث إلى معاذ حلة مثمنة. فباعها. واشترى بثمنها ستة أعبد وأعتقهم. فبلغ ذلك عمر. فبعث إليه بعد ذلك حلة دونها. فعاتبه معاذ. فقال عمر: لأنك بعت الأولى. فقال معاذ: وماعليك؟ ادفع لى نصيبى وقد حلفت لأضربن بها رأسك فقال عمر رضى الله عنه: رأسى بين يديك. وقد يرفق الشاب بالشيخ.

ومر الحسن على صبيان معهم كسر خبز فاستضافوه فنزل فأكل معهم ثم حملهم إلى منزله فأطعمهم وكساهم وقال: اليد لهم. لأنهم لا يجدون شيئاً غير ما أطعمونى ونحن نجد أكثر منه.

وقال رجاء بن حيوة. قومت ثياب عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه: - وهو يخطب - باثنى عشر درهماً. وكانت قباء وعمامة وقميصاً وسراويل ورداء وخفين وقلنسوة.

ورأى محمد بن واسع ابناً له يمشى مشية منكرة فقال: تدرى بكم شريت أمك؟ بثلاثمائة درهم، وأبوك - لاكثّر الله فى المسلمين مثله - أنا، وأنت تمشى هذه المشية؟

وقال حمدون القصار: التواضع أن لا ترى لأحد إلى نفسك حاجة لا فى الدين ولا

فى الدينا.

وقال بعضهم: رأيت فى الطواف رجلاً بين يديه شاكرية يمنعون الناس لأجله عن الطواف، ثم رأيته بعد ذلك بمدة على جسر بغداد يسأل شيئاً. فتعجبت منه. فقال لى: إنى تكبرت فى موضع يتواضع الناس فيه، فابتلانى الله بالذل فى موضع يترفع الناس فيه.

وبلغ عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه: أن ابناً له اشترى خاتماً بألف درهم. فكتب إليه عمر: بلغنى أنك اشتريت فصاً بألف درهم. فإذا أتاك كتابى فبع الخاتم. وأشبع به ألف بطن. واتخذ خاتماً بدرهمين. واجعل فصه حديداً صينياً واكتب عليه: رحم الله امرأ عرف قدر نفسه. والله أعلم

منزلة الذكر

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «الذكر».

وهى منزلة القوم الكبرى، التى منها يتزودون وفيها يتجرون. وإليها دائماً يترددون.

و«الذكر» منشور الولاية، الذى من أُعْطِيَهُ اتصل، ومن مُنِعَهُ عُزِلَ. وهو قوت قلوب القوم، الذى متى فارقها صارت الأجساد لها قبوراً. وعمارة ديارهم. التى إذا تعطلت عنه صارت بوراً. وهو سلاحهم الذى يقاتلون به قطاع الطريق. وماؤهم الذى يطفئون به التهاب الطريق. ودواء أسقامهم الذى متى فارقهم انتكست منهم القلوب. والسبب الواصل، والعلاقة التى كانت بينهم وبين علام الغيوب.

إذا مرضنا تداوينا بذكركم فنترك الذكر أحياناً فننتكس

به يستدفعون الآفات، ويستكشفون الكربات. وتهون عليهم به المصيبات. إذا أظلهم البلاء. فإليه ملجأهم. وإذا نزلت بهم النوازل. فإليه مفزعهم. فهو رياض جنتهم التى فيها يتقلبون. ورءوس أموال سعادتهم التى بها يتجرون. يدع القلب الحزين ضاحكاً مسروراً. ويوصل الذاكر إلى المذكور بل يدع الذاكر مذكوراً.

وفى كل جارحة من الجوارح عبودية مؤقتة. و «الذكر» عبودية القلب واللسان وهى غير مؤقتة. بل هم يأمرون بذكر معبودهم ومحبوبهم فى كل حال: قياماً، وقعوداً، وعلى جنوبهم. فكما أن الجنة قيعان، وهو غراسها. فكذلك القلوب بور خراب وهو عمارتها، وأساسها.

وهو جلاء القلوب وصقالها. ودواؤها إذا غشيها اعتلالها. وكلما ازداد الذاكر فى ذكره استغراقاً: ازداد المذكور محبة إلى لقائه واشتياقاً. وإذا واطأ فى ذكره قلبه للسانه: نسى فى جنب ذكره كل شىء وحفظ الله عليه كل شىء وكان له عوضاً عن كل شىء.

به يزول الوقر عن الأسماع، والبكم عن الألسن، وتنقشع الظلمة عن الأبصار.

زين الله بن ألسنة الذاكرين. كما زين بالنور أبصار الناظرين. فاللسان الغافل: كالعين العمياء، والأذن الصماء، واليد الشلاء.

وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده، مالم يغلقه العبد بغفلته.

قال الحسن البصرى رحمه الله: تفقدوا الحلاوة فى ثلاثة أشياء: فى الصلاة وفى الذكر. وقراءة القرآن. فإن وجدتم... وإلا فاعلموا أن الباب مغلق.

وبالذكر: يصرع العبد الشيطان. كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان.

قال بعض السلف: إذا تمكن الذكر من القلب، فإن دنا منه الشيطان صرعه كما يُصرع الإنسان إذا دنا منه الشيطان. فيجتمع عليه الشياطين. فيقولون: ما لهذا؟ فيقال: قد مسه الإنسى.

وهو روح الأعمال الصالحة. فإذا خلا العمل عن الذكر كان كالجسد الذى لا روح فيه. والله أعلم.

الذكر فى القرآن

وهو فى القرآن على عشرة أوجه.

الأول: الأمر به مطلقاً ومقيداً.

الثانى: النهى عن ضده من الغفلة والنسيان.

الثالث: تعليق الفلاح باستدامته وكثرته.

الرابع: الثناء على أهله، والإخبار بما أعد الله لهم من الجنة والمغفرة.

الخامس: الإخبار عن خسران من لها عنه بغيره.

السادس: أنه سبحانه جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم له.

السابع: الإخبار أنه أكبر من كل شىء.

الثامن: أنه جعله خاتمة الأعمال الصالحة، كما كان مفتاحها.

التاسع: الإخبار عن أهله بأنهم هم أهل الانتفاع بآياته. وأنهم أولو الألباب دون غيرهم.

العاشر: أنه جعله قرين جميع الأعمال الصالحة وروحها. فمتى عدمته كانت كالجسد بلا روح.

فصل
فى تفصيل ذلك

أما الأول: فكقوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً. وسبحوه بكرة وأصيلاً * هو الذى يصلى عليكم وملائكته. ليخرجكم من الظلمات إلى النور. وكان بالمؤمنين رحيماً﴾[1] وقوله تعالى ﴿واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخيفة﴾[2].

وفيه قولان. أحدهما: فى سرك وقلبك. والثانى: بلسانك بحيث تسمع نفسك وأما النهى عن ضده: فكقوله ﴿ولا تكن من الغافلين﴾[3] وقوله ﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾[4].

وأما تعليق الفلاح بالإكثار منه: فكقوله ﴿واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾[5].

وأما الثناء على أهله، وحسن جزائهم: فكقوله ﴿إن المسلمين والمسلمات - إلى قوله - والذاكرين الله كثيراً والذاكرات: أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾[6].

وأما خسران من لها عنه، فكقوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تُلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله. ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾[7].

وأما جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم له، فكقوله ﴿فاذكرونى أذكركم. واشكروا لى ولا تكفرون﴾[8]. وأما الإخبار عنه بأنه أكبر من كل شىء فكقوله تعالى ﴿اتلُ ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة. إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر﴾[9] وفيها أربعة أقوال.

أحدها: أن ذكر الله أكبر من كل شىء. فهو أفضل الطاعات. لأن المقصود بالطاعات

---

(1) سورة الأحزاب : الآية ٤١ - ٤٤
(2) سورة الأعراف : الآية ٢٠٤
(3) سورة الأعراف الآية ٤ ٢
(4) سورة الحشر : الآية ١٩
(5) سورة الأنفال الآية ٤٥ و ٦٢ ١
(6) سورة الأحزاب الآية ٣٥
(7) سورة المنافقون : الآية ٩
(8) سورة البقرة : الآية ١٥٢
(9) سورة العنكبوت الآية ٤٥

كلها: إقامة ذكره. فهو سر الطاعات وروحها.

الثانى: أن المعنى: أنكم إذا ذكرتموه ذكركم. فكان ذكره لكم أكبر من ذكركم له. فعلى هذا: المصدر مضاف إلى الفاعل. وعلى الأول: مضاف إلى المذكور.

الثالث: أن المعنى: ولذكر الله أكبر من أن يبقى معه فاحشة ومنكر. بل إذا تمَّ الذكر: مَحَقَ كل خطيئة ومعصية. هذا ما ذكره المفسرون.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يقول: معنى الآية: أن فى الصلاة فائدتين عظيمتين.

إحداهما: نهيها عن الفحشاء والمنكر.

والثانية: اشتمالها على ذكر الله وتضمنها له ولما تضمنته من ذكر الله أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر.

وأما ختم الأعمال الصالحة به: فكما ختم به عمل الصيام بقوله ﴿ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون﴾(١).

وختم به الحج فى قوله ﴿فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً﴾(٢).

وختم به الصلاة كقوله ﴿فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم﴾(٣).

وختم به الجمعة كقوله ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض. وابتغوا من فضل الله. واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾(٤) ولهذا كان خاتمة الحياة الدنيا. وإذا كان آخر كلام العبد: أدخله الله الجنة.

وأما اختصاص الذاكرين بالانتفاع بآياته. وهم أولو الألباب والعقول. فكقوله تعالى ﴿إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب. الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾(٥)

وأما مصاحبته لجميع الأعمال، واقترانه بها، وأنه روحها: فإنه سبحانه قرنه بالصلاة. كقوله ﴿وأقم الصلاة لذكرى﴾(٦) وقرنه بالصيام وبالحج ومناسكه بل هو روح الحج، ولبه

(١) سورة البقرة الآية ١٨٥
(٢) سورة البقرة الآية ٢٠٠
(٣) سورة النساء الآية ١٠٣
(٤) سورة الجمعة الآية ١٠
(٥) سورة آل عمران: الآيتان ١٩٠، ١٩١.
(٦) سورة طه الآية ١٤

ومقصوده. كما قال النبى ﷺ «إنما جعل الطواف بالبيت والسعى بين الصفا والمروة ورمى الجمار: لإقامه ذكر الله»(١)

وقرنه بالجهاد. وأمر بذكره عند ملاقاة الأقران، ومكافحة الأعداء. فقال تعالى﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله لعلكم تفلحون﴾(٢) وفى أثر إلهى يقول الله تعالى «إن عبدى - كل عبدى - الذى يذكرنى وهو ملاقٍ قرنه»

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يستشهد به.

وسمعته يقول: المحبون يفتخرون بذكر من يحبونه فى هذه الحال. كما قال عنترة:

ولقد ذكرتُكِ والرماح كأنها　　أشطان بئر فى لبان الأدهم

وقال الآخر:

ذكرتك والخطىُّ يخطُر بيننا　　وقد نهلت منا المثقفة السمر

قال آخر:

ولقد ذكرتك والرماح شواجر　　نحوى وبيض الهند تقطر من دمى

وهذا كثير فى أشعارهم. وهو مما يدل على قوة المحبة. فإن ذكر المحب محبوبه فى تلك الحال-التى لا يهم المرء فيها غير نفسه - يدل على أنه عنده بمنزلة نفسه، أو أعز منها. وهذ دليل على صدق المحبة. والله أعلم.

الذاكرون هم أهل السبق

والذاكرون: هم أهل السبق، كما روى مسلم فى صحيحه من حديث العلاء عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال«كان رسول الله ﷺ يسير فى طريق مكة. فمر على جبل يقال له جمدان (٣). فقال: سيروا هذا جمدان سبق المفردون. قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: الذاكرون الله كثيراً والذاكرات»(٤)

«والمفردون» إما الموحدون. وإما الآحاد الفرادى.

وفى المسند - مرفوعاً- من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه «ألا أنبئكم بخير

---

(١) ضعيف . رواه أبو داود (١٨٨٨) والترمذى (٩٠٢) وقال: حسن صحيح .قلت : فى اسناده عبيد الله بن أبى زياد القداح قال الحافظ فى التقريب (١/ ٥٣٣) ليس بالقوي. وقال ابن حبان: كان ممن ينفرد عن القاسم بما لا يتابع عليه، وكان ردىء الحفظ كثير الوهم. لم يكن فى الاتقان بالحال التى يقبل ما انفرد ، ولا يجوز الاحتجاج بأخباره إلا ما وافقه الثقات (المجروحين : ٢/ ٦٦).

(٢) سورة الأنفال · الآية ٤٥　　(٣) بضم الجيم وسكون الميم فى آخره نون : جبل على ليلة من المدينة .

(٤) رواه مسلم (٦٦٨٢) كتاب الدعوات، باب: الحث على ذكر الله تعالى.

أعمالكم، وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم وخيرلكم من إعطاء الذهب والفضة، وأن تلقوا عدوكم. فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: ذكر الله عز وجل»[١].

وروى شعبة عن أبى إسحاق قال: سمعت الأغر قال: أشهد على أبى هريرة وأبى سعيد رضى الله عنهما. أنهما شهدا على رسول الله ﷺ قال «لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة. وغشيتهم الرحمة. ونزلت عليهم السكينة. وذكرهم الله فيمن عنده»[٢] وهو فى صحيح مسلم.

*****

ويكفى فى شرف الذكر: أن الله يباهى ملائكته بأهله. كما فى صحيح مسلم عن معاوية رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ «خرج على حلقة من أصحابه. فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله. ونحمده على ما هدانا للإسلام ومنَّ به علينا، قال: آلله ما أجلسكم إلا ذلك؟ قالوا: آلله ما أجلسنا إلا ذلك، قال: أما إنى لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكن أتانى جبريل، فأخبرنى: أن الله يباهى بكم الملائكة»[٣].

وسأل أعرابى رسول الله ﷺ «أى الأعمال أفضل؟ فقال: أن تفارق الدنيا ولسانك رطب من ذكر الله»[٤]

وقال له رجل «إن شرائع الإسلام قد كثرت علىّ، فمرنى بأمر أتشبث به. فقال: لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله»[٥]

وفى المسند وغيره من حديث جابر. قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ. فقال: أيها الناس. ارتعوا فى رياض الجنة. قلنا: يا رسول الله، وما رياض الجنة؟ فقال: مجالس الذكر»[٦]

وروى النبى ﷺ عن أبيه إبراهيم ﷺ - ليلة الإسراء- أنه قال له «أقرىء أمتك منى السلام. وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء. وأنها قيعان وأن غراسها: سبحان الله.

---

(١) صحيح . رواه أحمد (٥/ ١٩٥) والترمذى (٣٣٧٧) وابن ماجه (٣٧٩٠) والحاكم(١/ ٤٩٦) والبيهقى فى «شعب الإيمان» (٥١٩) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي

(٢) رواه مسلم فى الذكر والدعاء (٦٧٢٨) والترمذى (٣٣٧٨) وابن ماجه (٣٧٩١).

(٣) رواه مسلم فى الذكر والدعاء (٦٧٢٩) والترمذى (٣٣٧٩) والنسائى

(٤) صحيح. رواه أحمد (٤/ ١٨٨ و١٩٠) والبغوى فى «شرح السنة» (١٢٤٥) وأبو نعيم فى الحلية (٦/ ١١٢).

(٥) صحيح. رواه أحمد (٤/ ١٨٨ و١٩٠) وابن حبان (٨١٤) والحاكم (١/ ٤٩٥) والترمذى (٣٣٧٥) وابن ماجه (٣٧٩٣).

(٦) ضعيف . رواه أحمد (٣/ ١٥٠) والترمذى (٣٥١٠).عن أنس رضى الله عنه. وفى سنده محمد بن ثابت البنانى وهو ضعيف كما فى «والتقريب» (٢/ ١٤٨)

والحمد لله. ولا إله إلا الله، والله أكبر» رواه الترمذى وأحمد وغيرهما(١).

وفى الصحيحين من حديث أبى موسى رضى الله عنه عن النبى ﷺ «مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكره: مثل الحى والميت»(٢)

ولفظ مسلم «مثل البيت الذى يذكر الله فيه، والبيت الذى لا يذكر الله فيه: مثل الحى والميت»(٣)

فجعل بيت الذاكر بمنزلة بيت الحى، وبيت الغافل بمنزلة بيت الميت. وهو القبر.

وفى اللفظ الأول: جعل الذاكر بمنزلة الحى. والغافل بمنزلة الميت.

فتضمن اللفظان: أن القلب الذاكر كالحى فى بيوت الأحياء والغافل كالميت فى بيوت الأموات. ولا ريب أن أبدان الغافلين قبور لقلوبهم. وقلوبهم فيها كالأموات فى القبور كما قيل:

فنسيان ذكر الله موت قلوبهم ... وأجسامهم قبل القبور قبور
وأرواحهم فى وحشة من جسومهم ... وليس لهم حتى النشور نشور

وكما قيل:

فنسيان ذكر الله موت قلوبهم ... وأجسامهم فهى القبور الدوارس
وأرواحهم فى وحشة من حبيبهم ... ولكنها عند الخبيث أوانس

وفى الصحيح: فى الأثر الذى يرويه رسول الله ﷺ عن ربه تبارك وتعالى «من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم»(٤)

وقد ذكرنا فى الذكر نحو مائة فائدة فى كتابنا (الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب) وذكرنا هناك أسرار الذكر، وعظم نفعه، وطيب ثمرته.

(١) حسن. رواه الترمذى (٢٤٦٢) عن ابن مسعود. وفى سنده عبد الرحمن بن إسحاق وهو ضعيف. ولكن للحديث شواهد منها ما رواه أحمد (٥/٤١٨) وابن حبان (٨٢١ ـ احسان) عن أبى أيوب الأنصارى. وحسنه المنذرى فى «الترغيب والترهيب» (٢/٤٤٥) وله شاهد آخر من حديث ابن عمر عند الطبرانى فى «الكبير» (١٣٣٥٤) وآخر من حديث أبى هريرة عند أحمد (٢/٣٣٣) وبالجملة فالحديث حسن. وانظر «الصحيحة» (١٠٥) و«قيعان» جمع «قاع» وهو المكان المستوى الواسع فى وطأة من الأرض يعلوه ماء السماء، فيمسكه، ويستوى نباته» ا.هـ من «النهاية» لابن الأثير.

(٢) رواه البخارى (٦٤٠٧) كتاب الدعوات باب: فضل ذكر الله عز وجل ومسلم (١٧٩٢). كتاب الصلاة، باب استحباب صلاة النافلة فى بيته.

(٣) رواه مسلم (١٧٩٢) كتاب الصلاة، باب: استحباب صلاة النافلة فى بيته وجوازها فى المسجد

(٤) رواه البخارى (٧٤٠٥) ومسلم (٦٦٧٩) وأحمد (٢/٢٥١ ، ٥١٦) والترمذى (٣٦٠٣) وابن ماجه (٣٨٢٢).

فصل

ومن منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» منزلة «المحبة»

وهى المنزلة التى فيها تنافس المتنافسون. وإليها شخص العاملون. وإلى علمها شمر السابقون. وعليها تفانى المحبون. وبروح نسيمها تروح العابدون. فهى قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرة العيون. وهى الحياة التى من حرمها فهو من جملة الأموات. والنور الذى من فقده فهو فى بحار الظلمات. والشفاء الذى من عدمه حلت بقلبه جميع الأسقام. واللذة التى من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام. وهى روح الإيمان والأعمال، والمقامات والأحوال. التى متى خلت منها فهى كالجسد الذى لا روح فيه. تحمل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا إلا بشق الأنفس بالغيها. وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبداً واصليها. وتبوؤهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكونوا لولاها داخليها. وهى مطايا القوم التى مسراهم على ظهورها دائماً إلى الحبيب. وطريقهم الأقوم الذى يبلغهم إلى منازلهم الأولى من قريب. تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة. إذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصيب. وقد قضى الله - يوم قدر مقادير الخلائق بمشيئته وحكمته البالغة -: أن المرء مع من أحب. فيالها من نعمة على المحبين سابغة.

تالله لقد سبق القوم السعاة، وهم على ظهور الفرش نائمون. وقد تقدموا الركب بمراحل، وهم فى سيرهم واقفون.

من لى بمثل سيرك المدلل تمشى رويداً وتجى فى الأول

أجابوا منادى الشوق إذ نادى بهم: حى على الفلاح. وبذلوا نفوسهم فى طلب الوصول إلى محبوبهم، وكان بذلهم بالرضى والسماح. وواصلوا إليه المسير بالإدلاج والغدو والرواح. تالله لقد حمدوا عند الوصول سراهم. وشكروا مولاهم على ما أعطاهم. وإنما يحمد القوم السرى عند الصباح.

فحيهلاً. إن كنت ذا همة. فقد حدا بك حادى الشوق فاطو المراحلا
وقل لمنادى حبهم ورضاهم إذا ما دعا «لبيك» ألفاً كواملا
ولا تنظر الأطلال من دونهم. فإن نظرت إلى الأطلال عدن حوائلا
ولا تنتظر بالسير رفقة قاعدٍ ودعه. فإن الشوق يكفيك حاملا
وخذ منهم زاداً إليهم. وسر على طريق الهدى والفقير تصبح واصلا
وأحى بذكراهم سُراك، إذا ونت ركابك، فالذكرى تعيدك عاملا

وإما تخافنِ الكلال فقل لها: أمامك. ورد الوصل. فابغ المناهلا

وخذ قبسًا من نورهم. ثم سرية فنورهم يهديك . ليس المشاعلا

وحى على واد الأراك، فقل به عساك تراهم فيه، إن كنت قائلا

وإلا ففى نعمان عند معرف إلا حبه[1] فاطلبهم إذا كنت سائلا

وإلا ففى جمع[2] بليلته. فإن تفت، فمتى؟ ياريح من كان غافلا

وحى على جنات عدن بقربهم منازلك الأولى بها كنت نازلا

ولكن سباك الكلشحون. لأجل ذا وقفت على الأطلال تبكى المنازلا

فدعها رسومًا دراسات. فما بها مقيل. فجاورها فليت منازلا

رسوم عفت يفنى بها الخلق كم بها قتيل؟ وكم فيها لذا الخلق قائلا

وخذ يمنة عنها على المنهج الذى عليه سرى وقد المحبة آهلا

وقل: ساعدى، يانفس بالصبر ساعة فعند اللقاء ذا الكد يصبح زائلا

فما هى إلا ساعة. ثم تنقضى ويصبح ذو الأحزان فرحان حاذلا

أول نقدة من أثمان المحبة: بذل الروح. فما للمفلس الجبان البخيل وسوْمها؟

بدم المحب يباع وصلهم فمن الذى يبتاع بالثمن؟

تالله ماهزلت فيستامها المفلسون. ولا كدست فيبيعها بالنسيئة المعسرون. لقد أقيمت للعرض فى سوق من يزيد. فلم يرض لها بثمن دون بذل النفوس. فتأخر البطالون. وقام المحبون ينظرون: أيهم يصلح أن يكون ثمنا؟ فدارت السلعة بينهم. ووقعت فى يد ﴿أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾[3]

لما كثر المدعون للمحبة طولبوا بإقامة البينة على صحة الدعوى. فلو يعطى الناس بدعواهم لادعى الخلىُّ حرقة الشجى. فتنوع المدعون فى الشهود. فقيل لا تقبل هذه الدعوى إلا ببينة ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله﴾ [4].

فتأخر الخلق كلهم. وثبت أتباع الحبيب فى أفعاله وأقواله وأخلاقه. فطولبوا بعدالة البينة بتزكية ﴿ يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لا ئم ﴾ [5].

---

(١) يقصد عرفة . (٢) جمع مزدلفة . (٣) سورة المائدة: الأيه ٥٤٠
(٤) سورة آل عمران: الأيه :٣١. (٥) سورة المائدة: الأيه :٥٤

فتأخر أكثر المحبين وقام المجاهدون، فقيل لهم: إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم. فهلموا إلى بيعة ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ (١). فلما عرفوا عظمة المشترى، وفضل الثمن، وجلالة من جرى على يديه عقد التبايع: عرفوا قدر السلعة، وأن لها شأناً. فرأوا من أعظم الغبن أن يبيعوها لغيره بثمن بخس. فعقدوا معه بيعة الرضوان بالتراضى، من غير ثبوت خيار. وقالوا «والله لا نقيلك ولا نستقيلك»

فلما تم العقد وسلموا المبيع، قيل لهم: مذ صارت نفوسكم وأموالكم لنا رددناها عليكم أوفر ما كانت، وأضعافها معاً ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً. بل أحياء عند ربهم يرزقون* فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ (٢).

إذا غرست شجرة المحبة فى القلب، وسُقيت بماء الإخلاص ومتابعة الحبيب أثمرت أنواع الثمار. وآتت أكلها كل حين بإذن ربها. أصلها ثابت فى قرار القلب. وفرعها متصل بسدرة المنتهى.

لا يزال سعى المحب صاعداً إلى حبيبه لا يحجبه دونه شىء ﴿إليه يصعد الكلم الطيب، والعمل الصالح يرفعه﴾ (٣).

الأسباب الجالبة للمحبة

الأسباب الجالبة للمحبة، والموجبة لها. عشرة.

أحدها: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به، كتدبر الكتاب الذى يحفظه العبد ويشرحه. ليتفهم مراد صاحبه منه.

الثانى: التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض. فإنها توصله إلى درجة المحبوبية بعد المحبة.

الثالث: دوام ذكره على كل حال: باللسان والقلب، والعمل والحال. فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر.

الرابع: إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى، والتسنم إلى محابه، وإن صعب المرتقى.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها. وتقلبه فى رياض هذه المعرفة ومباديها. فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبه لامحالة. ولهذا كانت المعطلة والفرعونية والجهمية قطاع الطريق على القلوب بينها وبين الوصول إلى المحبوب.

السادس: مشاهدة بره وإحسانه وآلائه، ونعمه الباطنة والظاهرة. فإنها داعية إلى محبته.

السابع - وهو من أعجبها - انكسار القلب بكليته بين يدى الله تعالى. وليس فى التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات.

الثامن: الخلوة به وقت النزول الإلهى، لمناجاته وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه. ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما ينتقى أطايب الثمر. ولاتتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام، وعلمت أن فيه مزيداً لحالك، ومنفعة لغيرك

العاشر: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل.

فمن هذه الأسباب العشرة: وصل المحبون إلى منازل المحبة. ودخلوا على الحبيب. وملاك ذلك كله أمران: استعداد الروح لهذا الشأن، وانفتاح عين البصيرة. وبالله التوفيق.

محبة العبد لربه ومحبة الرب لعبده

الكلام فى هذه المنزلة معلق بطرفين: طرف محبة العبد لربه. وطرف محبة الرب لعبده. والناس فى إثبات ذلك ونفيه أربعة أقسام: فأهل يحبهم ويحبونه على إثبات الطرفين، وأن محبة العبد لربه فوق كل محبة تقدر. ولا نسبة لسائر المحاب إليها. وهى حقيقة «لا إله إلا الله» وكذلك عندهم محبة الرب لأوليائه وأنبيائه ورسله: صفة زائدة على رحمته، وإحسانه وعطائه. فإن ذلك أثر المحبة وموجَبُها. فإنه لما أحبهم كان نصيبهم من رحمته وإحسانه وبره أتم نصيب.

والجهمية المعطلة عكس هؤلاء. فإنه عندهم لا يُحِبُّ ولا يُحَبُّ. ولم يمكنهم تكذيب النصوص. فأولوا نصوص محبة العباد له على محبة طاعته وعبادته. والازدياد من الأعمال لينالوا بها الثواب. وإن اطلقوا عليهم بها لفظ «المحبة» فلما ينالون به من الثواب والأجر، والثواب المنفصل عندهم: هو المحبوب لذاته. والرب تعالى محبوب لغيره حب الوسائل.

وأولوا نصوص محبته لهم بإحسانه إليهم وإعطائهم الثواب. وربما أولوها بثنائه عليهم ومدحه لهم. ونحو ذلك. وربما أولوها بإرادته لذلك. فتارة يؤولونها بالمفعول المنفصل. وتارة يؤولونها بنفس الإرادة.

ويقولون: الإرادة إن تعلقت بتخصيص العبد بالأحوال والمقامات العلية: سميت

«محبة» إن تعلقت بالعقوبة والانتقام: سميت «غضباً» وإن تعلقت بعموم الإحسان والإنعام الخاص: سميت «براً» وإن تعلقت بإيصاله فى خفاء، من حيث لايشعر، ولا يحتسب: سميت «لطفاً» وهى واحدة. لها أسماء وأحكام باعتبار متعلقاتها.

ومن جعل محبته للعبد ثناءه عليه ومدحه له: ردها إلى صفة الكلام. فهى عنده من صفات الذات، لا من صفات الأفعال. والفعل عنده نفس المفعول. فلم يقم بذات الرب محبة لعبده، ولا لأنبيائه ورسله ألبتة.

ومن ردها إلى صفة «الإرادة» جعلها من صفات الذات باعتبار أصل الإرادة، ومن صفات الأفعال باعتبار تعلقها.

ولما رأى هؤلاء أن المحبة إرادة، وأن الإرادة لا تتعلق إلا بالمحدث المقدور، والقديم يستحيل أن يراد: أنكروا محبة العباد، والملائكة والأنبياء، والرسل له. وقالوا: لا معنى لها إلا إرادة التقرب إليه، والتعظيم له، وإرادة عبادته. فأنكروا خاصة الإلهية، وخاصة العبودية. واعتقدوا أن هذا من موجبات التوحيد والتنزيه. فعندهم لا يتم التوحيد والتنزيه إلا بجحد حقيقة الإلهية، وجحد حقيقة العبودية.

وجميع طرق الأدلة - عقلاً ونقلاً وفطرة، وقياساً واعتباراً، وذوقاً ووجداً - تدل على إثبات محبة العبد لربه، والرب لعبده.

وقد ذكرنا لذلك قريباً من مائة طريق فى كتابنا الكبير فى المحبة [1]. وذكرنا فيه فوائد المحبة، وماتثمر لصاحبها من الكمالات، وأسبابها وموجباتها، والرد على من أنكرها. وبيان فساد قوله، وأن المنكرين لذلك قد أنكروا خاصة الخلق والأمر، والغاية التى وجدوا لأجلها فإن الخلق والأمر، والثواب، والعقاب: إنما نشأ عن «المحبة» ولأجلها. وهى الحق الذى به خلقت السموات والأرض. وهى الحق الذى تضمنه الأمر والنهى. وهى سر التأليه. وتوحيدها: هو شهادة أن لا إله إلا الله.

وليس كما زعم المنكرون: أن «الإله» هو الرب الخالق. فإن المشركين كانوا مقرين بأنه لا رب إلا الله، ولا خالق سواه، وبأنه وحده المنفرد بالخلق والربوبية. ولم يكونوا مقرين بتوحيد الإلهية. وهو المحبة والتعظيم، بل كانوا يؤلهون مع الله غيره. وهذا هو الشرك الذى لا يغفره الله، وصاحبه ممن اتخذ من دون الله أنداداً.

قال الله تعالى ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله﴾[2] فأخبر أن من أحب من دون الله شيئاً، كما يحب الله تعالى: فهو ممن اتخذ من دون

---

(١) وهو كتاب روضة المحبين.

(٢) سورة البقرة : الآية ١٦٥ .

الله أنداداً﴾، فهذا ند فى المحبة، لا فى الخلق والربوبية فإن أحداً من أهل الأرض لم يثبت هذا الند فى الربوبية، بخلاف ند المحبة. فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أنداداً فى الحب والتعظيم ثم قال: ﴿والذين آمنوا أشد حباً لله﴾ وفى تقدير الآية قولان.

أحدهما «والذين آمنوا أشد حباً لله» من أصحاب الأنداد لأندادهم وآلهتهم التى يحبونها، ويعظمونها من دون الله

والثانى: «والذين آمنوا أشد حباً لله» من محبة المشركين بالأنداد لله فإن محبة المؤمنين خالصة، ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها والمحبة الخالصة أشد من المشتركة. والقولان مرتبان على القولين فى قوله تعالى «يحبونهم كحب الله» فإن فيها قولان.

أحدهما: يحبونهم كما يحبون الله فيكون قد أثبت لهم محبة الله ولكنها محبة يشركون فيها مع الله أنداداً

والثانى أن المعنى يحبون أندادهم كما يحب المؤمنون الله ثم بين أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يُرجح القول الأول، ويقول: إنما ذموا بأن أشركوا بين الله وبين أندادهم فى المحبة. ولم يخلصوها لله كمحبة المؤمنين له.

وهذه التسوية المذكورة فى قوله تعالى حكاية عنهم وهم فى النار يقولون لآلهتهم وأندادهم، وهى محضرة معهم فى العذاب ﴿تالله إن كنا لفى ضلال مبين. إذ نسويكم برب العالمين﴾ [1] ومعلوم أنهم لم يسووهم برب العالمين فى الخلق والربوبية. وإنما سووهم به فى المحبة والتعظيم وهذا أيضا هو العدل المذكور فى قوله تعالى ﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ [2] أى يعدلون به غيره فى العبادة التى هى المحبة والتعظيم وهذا أصح القولين

وقيل: الباء بمعنى «عن» والمعنى: ثم الذين كفروا عن ربهم يعدلون عن عبادته إلى عبادة غيره. وهذا ليس بقوى إذ لا تقول العرب عدلت بكذا، أى عدلت عنه. وإنما جاء هذا فى فعل السؤال نحو سألت بكذا أى عنه كأنهم ضمنوه اعتنيت به واهتممت ونحو ذلك

وقال تعالى ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله﴾ [3] وهى تسمى آية المحبة قال أبو سليمان الدارنى لما ادعت القلوب محبة الله. أنزل الله لها محنة ﴿إن كنتم

---

(١) سورة الشعراء : الآية ٩٧، ٩٨.
(٢) ، (٣) سورة آل عمران الآية: ٣١

تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله﴾.

قال بعض السلف: ادعى قوم محبة الله. فأنزل الله آية المحنة ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله﴾.

وقال«يحببكم الله» إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها، وفائدتها. فدليلها وعلامتها: اتباع الرسول ﷺ وفائدتها وثمرتها محبة المرسل لكم فما لم تحصل المتابعة فليست محبتكم له حاصلة. ومحبته لكم منفية.

وقال تعالى﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه، فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه. أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين. يجاهدون فى سبيل الله. ولا يخافون لومة لائم﴾ [1] فقد ذكر لهم أربع علامات.

أحدها: أنهم « أذلة على المؤمنين» قيل: معناه أرقاء، رحماء مشفقين عليهم. عاطفين عليهم. فلما ضمن «أذلة» هذا المعنى عداه بأداه «على» قال عطاء: للمؤمنين كالولد لوالده، والعبد لسيده، وعلى الكافرين كالاسد عل فريسه ﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾[2].

العلامة الثالثة [3]: الجهاد فى سبيل الله بالنفس واليد، واللسان والمال، وذلك تحقيق دعوى المحبة.

العلامة الرابعة: أنهم لا تأخذهم فى الله لومة لائم. وهذا علامة صحة المحبة فكل محب يأخذه اللوم عن محبوبه فليس بمحب على الحقيقة. كما قيل:

لا كان من لسواك فيه بقية   يجد السبيل بها إليه اللوم

وقال تعالى: ﴿أولئك الذين يدعوا ويبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب - إلى قوله- محذوراً﴾ [4] فذكر المقامات الثلاث: الحب. وهو ابتغاء القرب إليه، والتوسل إليه بالأعمال الصالحة. والرجاء والخوف: يدل على أن ابتغاء الوسيلة أمر زائد على رجاء الرحمة وخوف العذاب.

ومن المعلوم قطعاً: أنك لا يتنافس إلا فى قرب من تحب قربه، وحُبُّ قربه تبع لمحبة ذاته. بل محبه ذاته أوجبت محبة القرب منه. وعند الجهمية والمعطلة: ما من ذلك كله شىء. فإنه عندهم لا تقرب ذاته من شىء، ولا يقرب من ذاته شىء، ولا يُحَبُّ لذاته.

---

(1) سورة المائدة الآية: ٥٤.   (2) سورة الفتح الآية: ٢٩
(3) لعله قصد من الأولى اثنين لأنها ﴿أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين﴾.
(4) سورة الإسراء آية: ٥٧.

ولا يُحِبُّ.

فأنكروا حياة القلوب، ونعيم الارواح، وبهجة النفوس، وقرة العيون، واعلى نعيم الدنيا والآخرة. ولذلك ضُربت قلوبهم بالقسوة، وضُربت دونهم ودون الله حجب على معرفته ومحبته. فلا يعرفونه ولا يحبونه. ولا يذكرونه إلا عند تعطيل أسمائه وصفاته فذكرهم أعظم آثامهم وأوزارهم. بل يعاقبون من يذكره بأسمائه وصفاته ونعوت جلاله. ويرمونهم بالأدواء التى هم أحق بها وأهلها، وحَسْب ذى البصيرة وحياة القلب: ما يرى على كلامهم من القسوة والمقت، والتنفير عن محبة الله عز وجل ومعرفته وتوحيده. والله المستعان.

وقال تعالى: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدين وجهه﴾ [1] وقال الحبابه وأولياؤه: ﴿إنما نطعمكم لوجه اله. لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً﴾ [2].

وقال تعالى: ﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى﴾ [3] فجعل غاية أعمال الابرار والمقربين والمحبين: إرادة وجهه.

وقال تعالى: ﴿وإن كنته تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد ممحسنات منكن أجراً عظيماً﴾ [4] فجعل إرادته غير إرادة الآخرة. وهذه الإرادة لوجهه موجبة لللذة امنظر إليه فى الآخرة، كما فى مستدرك الحاكم وصحيح ابن حبان فى الحديث المرفوع عن النبى ﷺ: أنه كان يدعوا «اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق: أحينى إذا كانت الحياة خيراً لى، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى. وأسألك خشيتك فى الغيب والشهادة وأسألك كلمة الحق فى الغضب والرضى. وأسألك القصد فى الفقر والغنى. وأسألك نعيما لا ينفد أسألك قرة عين لا تنقطع. وأسألك الرضى بعد القضاء، وبرد العيش بعد الموت وأسألك لذة النظرة إلى وجهك. وأسألك الشوق إلى لقائك، فى غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة. اللهم زينا بزينة الإيمان. واجعلنا هداة مهتدين» [5].

فقد اشتمل هذا الحديث الشريف على ثبوت لذة النظر إلى وجه الله، وعلى ثبوت الشوف إلى لقائه. وعند الجهمية لا وجه له سبحانه ولا ينظر إليه - فضلاً أن يحصل به

---

(١) سورة الأنعام الآيه ٥٢ (٢) سورة. الإنسان الآيه . ٨.
(٣) سورة الطور: الآيه ٢٠ ، ٢١ (٤) سورة الاحزاب ٢٩ الآيه ٢٩
(٥) صحيح رواه أحمد (٤/ ٢٦٤) والنسائى (٣/ ٥٥) والحاكم (١/ ٥٢٤) وابن حبان (١٩٧١ - احسان) وابن منده فى «الرد على الجهمية» (٨٦) والدارمى فى «الرد على الجهمية» (ص ٦) واللالكائى فى «أصول الاعتقاد» (٨٤٥) وصححه الحاكم ووافقه الذهبى

للة. كما سمع بعضهم داعياً يدعو بهذا الدعاء فقال: ويحك! هب أن له وجهاً، أفتلتذ بالنظر إليه ؟.

وفى الصحيح عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله. وأن يكره أن يعود فى الكفر - بعد إذ أنقذه الله منه -كما يكره أن يلقى فى النار»[1].

وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «يقول الله تعالى: من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى من أداء ما افترضته عليه. ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه. فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها. ولئن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذنى لأعيذنه» [2] وفى الصحيحين عنه أيضاً عن النبى ﷺ «إذا أحب الله العبد دعا جبريل، فقال: إنى أحب فلانا، فأحبه. فيحبه جبريل. ثم ينادى فى السماء، فيقول: إن الله يحب فلانا فأحبوه. فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول فى الأرض»[3]. وذكر فى البغض عكس ذلك.

وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها فى حديث أمير السرية الذى كان يقرأ «قل هو الله أحد» لأصحابه فى كل صلاة، وقال: لأنها صفة الرحمن. فأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبى ﷺ «أخبروه: أن الله يحبه» [4]. وفى جامع الترمذى من حديث أبى إدريس الخولانى عن أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال «كان من دعاء داود عليه السلام: اللهم إنى أسألك حبك وحب من يحبك، والعمل الذى يبلغنى حبك. اللهم اجعل حبك أحب إلى من نفسى وأهلى. ومن الماء البارد»[5] وفيه أيضاً من حديث عبد الله بن يزيد الخطمى: أن النبى ﷺ كان يقول فى دعائه «اللهم ارزقنى حبك، وحب من ينفعنى حبه عندك. اللهم ما رزقتنى مما أحب فاجعله قوة لى فيما تحب، وما زويت عنى مما أحب فاجعله فراغاً فيما تحب» [6].

والقرآن والسنة مملوآن بذكر من يحبه الله سبحانه من عباده المؤمنين. وذكر ما يحبه من

---

(١) رواه البخارى (٢١) ومسلم (١٦٤) وأحمد (٣/ ١٠٣ و١٧٢و ١٧٤) والنسائى (٨/ ٩٦)

(٢) سبق تخريجه .

(٣) رواه البخارى (٧٤٨٥) ومسلم (٦٥٨١) وأحمد (٢/ ٢٦٧و ٤١٣)

(٤)رواه البخارى (٧٣٧٥) ومسلم (١٨٥٩) والنسائى (٢/ ١٧٠).

(٥) ضعيف. رواه الترمذى (٣٤٩٠) والحاكم (٢/ ٤٣٣) وفى إسناده عبد الله بن ربيعة بن يزيد وهو مجهول كما فى «التقريب» (١/ ٤١٤).

(٦) ضعيف رواه الترمذى (٣٤٩١) وفى سنده انقطاع بين محمد بن إبراهيم بن أبى عدى وحماد بن سلمة .

أعمالهم وأقوالهم وأخلاقهم. كقــوله تعالى ﴿والله يحب الصــابرين﴾ [1] ﴿والله يحب المحسنين﴾ [2]﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾ [3] ﴿إن الله يحب الذين يقاتلــون فى سـبيله صفا كأنهم بنيان مرصـوص﴾ [4] ﴿فإن الله يحب المتقــين﴾[5].

وقوله فى ضد ذلك ﴿والله لا يحب الفساد﴾ [6] ﴿والله لا يحب كل مختال فخور﴾ ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ ﴿إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً﴾.

وكم فى السنة «أحب الأعمال إلى الله كذا وكذا»، «وإن الله يحب كذا وكذا» كقوله «أحب الأعمال إلى الله: الصلاة على أول وقتها، ثم بر الوالدين، ثم الجهاد فى سبيل الله» و«أحب الأعمال إلى الله: الإيمان بالله، ثم الجهاد فى سبيل الله. ثم حج مبرور»[7] و«أحب العمل إلى الله: مادام عليه صاحبه»[8] وقوله «إن الله يحب أن يؤخذ برخصه»[9].

وأضعاف أضعاف ذلك. وفرحه العظيم بتوبة عبده الذى هو أشد فرح يعلمه العباد وهو من محبته للتوبة وللتائب.

فلو بطلت مسألة المحبة لبطلت جميع مقامات الإيمان والإحسان. ولتعطلت منازل السير إلى الله. فإنها روح كل مقام ومنزلة وعمل. فإذا خلا منها فهو ميت لاروح فيه. ونسبتها إلى الأعمال كنسبة الإخلاص إليها. بل هى حقيقة الإخلاص، بل هى نفس الإسلام. فإنه الاستسلام بالذل والحب والطاعة لله. فمن لا محبة له لا إسلام له ألبتة بل هى حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله. فإن «الإله» هو الذى يألهه العباد حباً وذلا، وخوفاً ورجاء، وتعظيما وطاعة له. بمعنى «مألوه» هو الذى تألهه القلوب. أى تحبه وتذل له.

أصل «التأله» التعبد. و«التعبد» آخر مراتب الحب. يقال: عبده الحب وتيمه: إذا ملكه وذلله لمحبوبه.

فـ «المحبة» حقيقة العبودية. وهل تمكن الإنابة بدون المحبة والرضى، والحمد والشكر، والخوف والرجاء ؟ وهل الصبر فى الحقيقة إلا صبر للمحبين ؟ فإنه إنما يتوكل على المحبوب فى حصول محابه ومراضيه

وكذلك «الزهد» فى الحقيقة:

---

(1) سورة آل عمران الآية : ١٤٦ (2) سورة : آل عمران الآية ١٣٤، ١٤٨
(3) سورة البقرة الآية ٢٢٢ (4) سورة الصف الآية ٤
(5) سورة :آل عمران: الآية :٧٦ والتوبة :الآية: ٥،٨. (6) سورة : البقرة : الآية : ٢٠٥.
(7) رواه البخارى (٢٦) كتاب الإيمان، باب من قال إن الإيمان هو العمل.
(8) تقدم تخريجه . (9) سبق تخريجه .

هو زهد المحبين. فإنهم يزهدون فى محبة ما سوى محبوبهم لمحبته. وكذلك «الحياء» فى الحقيقة: إنما هو حياء المحبين. فإنه يتولد من بين الحب والتعظيم. وأما مالا يكون عن محبة: فذلك خوف محض.

وكذلك مقام «الفقر» فإنه فى الحقيقة فقر الأرواح إلى محبوبها. وهو أعلى أنواع الفقر. فإنه لا فقر أتم من فقر القلب إلى من يحبه. لا سيما إذا وحده فى الحب، ولم يجد منه عوضاً سواه. هذا حقيقة الفقر عند العارفين.

وكذلك «الغنى» هو غنى القلب بحصول محبوبه. وكذلك «الشوق» إلى الله تعالى ولقائه. فإنه لب المحبة وسرها. كما سيأتى.

فمنكر هذه المسألة ومعطلها من القلوب: معطل لذلك كله. وحجابه أكثف الحجب. وقلبه أقسى القلوب، وأبعدها عن الله. وهو منكر لخلة إبراهيم عليه السلام. فإن «الخلة» كمال المحبة. وهو يتأول «الخليل» بالمحتاج. فخليل الله عنده: هو المحتاج. فكم - على قوله - من خليل من بر وفاجر، بل مؤمن وكافر. إذ كثير من الفجار والكفار من ينزل حوائجه كلها بالله صغيرها وكبيرها. ويرى نفسه أحوج شىء إلى ربه فى كل حالة.

فلا بالخلة أقر المنكرون، ولا بالعبودية، ولا بتوحيد الإلهية، ولا بحقائق الإسلام والإيمان والإحسان. ولهذا ضحى خالد بن عبد الله القسرى بمقدم هؤلاء وشيخهم جعد بن درهم، وقال فى يوم عيد الله الأكبر، عقيب خطبته «أيها الناس، ضحوا. تقبل الله ضحاياكم. فإنى مضح بالجعد بن درهم. فإنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً. تعالى الله عما يقول «الجعد علواً كبيراً» ثم نزل فذبحه، فشكر المسلمون سعيه. ورحمه الله وتقبل منه.

فصل
فى الغـربة

قال شيخ الإسلام «(باب الغربة) قال الله تعالى ﴿فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم﴾ [1]».

استشهاده بهذه الآية فى هذا الباب: يدل على رسوخه فى العلم والمعرفة، وفهم القرآن. فإن الغرباء فى العالم: هم أهل هذه الصفة المذكورة فى الآية. وهم الذين أشار

(١) سورة هود : الآية ١١٦.

إليهم النبى ﷺ فى قوله «بدأ الإسلام غريباً. وسيعود غريباً كما بدأ. فطوبى للغرباء. قيل: ومن الغرباء يا رسول الله ؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس» [1] وعن عمرو بن أبى عمرو - مولى المطلب بن حنطب - عن المطلب بن حنطب عن النبى ﷺ قال «طوبى للغرباء. قالوا: يارسول الله، ومن الغرباء ؟ قال: الذين يزيدون إذا نقص الناس». [2]

فإن كان هذا الحديث بهذا اللفظ محفوظاً - لم ينقلب على الرواى لفظه وهو «الذين ينقصون إذا زاد الناس» - فمعناه· الذين يزيدون خيراً وإيماناً وتقى إذا نقص الناس من ذلك. والله أعلم.

وفى حديث الأعمش عن أبى إسحاق عن أبى الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال. قال رسول ﷺ «إن الإسلام بدأ غريباً. وسيعود غريباً كما بدأ. فطوبى للغرباء. قيل: ومن الغرباء، يا رسول الله ؟ قال: النُّزاع من القبائل» [3] وفى حديث عبد الله بن عمرو قال. قال النبى ﷺ - ذات يوم، ونحن عنده - «طوبى للغرباء. قيل: ومن الغرباء، يارسول الله ؟ قال: ناس صالحون قليل فى ناسٍ كثير. من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم» [4].

و عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ قال «إن أحب شىء إلى الله الغرباء. قيل: ومن الغرباء؟ قال: الفراورن بدينهم. يجتمعون إلى عيسى ابن مريم عليه السلام يوم القيامة» [5].

(١) حسن رواه الطبرانى فى الكبير(٦/ ١٦٤)برقم(٥٨٦٧)وفى الصغير(١/ ١٠٤)وفى الأوسط (٤٢٢- مجمع البحرين) والقضاعى فى«مسند الشهاب» (١٠٥٥) من حديث سهل بن سعد.وقال الهيثمى فى «المجمع» (٧/ ٢٧٨) رواه الطبرانى فى الثلاثة ورجاله رجال الصحيح غير بكر بن سليم وهو ثقة ا.هـ قلت: بكر بن سليم ذكره ابن حبان فى «الثقات» (٨/ ١٤٩) قال أبو حاتم: شيخ يكتب حديثه. قلت فمثله يستشهد به. والله أعلم.

(٢) ضعيف لإرساله. المطلب بن حنطب، قال عنه ابن سعد كما فى «تهذيب الكمال» (٢٨/ ٨٤). «كان كثير الحديث، وليس يحتج بحديثه لأنه يرسل عن النبى ﷺ كثيراً، وليس له لقى وعامة أصحابه يُدَلِّسُون» وقال الحافظ فى «التقريب» (٢/ ٢٥٤) صدوق كثير التدليس والإرسال. ا.هـ.

(٣) صحيح. رواه أحمد (١/ ٣٩٨) وابن ماجه (٣٩٨٨) والبغوى فى «شرح السنة» (١/ ١١٨) والدارمى (٢/ ٣١١ - ٣١٢). من حديث ابن مسعود. وقال البيهقي: «النزاع جمع نزيع ونازع، وهو الغريب الذى نزع من أهله وعشيرته. وأراد بقوله «طوبى للغرباء» المهاجرين الذين هجروا أوطانهم فى الله عز وجل

(٤) صحيح. رواه أحمد (٢/ ١٧٧، ٢٢٢) والفسوى فى «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٥١٧) والأجرى فى «الغرباء» (٦) وابن المبارك فى «الزهد» (٧٧٥) وابن وضاح فى «البدع والنهى عنها» (ص٧١) والطبرانى فى الأوسط (٨٩٨٦ - ط الحرمين) وقال الهيثمى فى «المجمع» (٧/ ٢٧٨) رواه أحمد والطبرانى فى الأوسط وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف. ا.هـ. قلت فى بعض طرق الحديث أن الراوى عن ابن لهيعة هو عبد الله بن المبارك. ورواية ابن المبارك عن ابن لهيعة صحيحة كما قرر أهل العلم. والله أعلم

(٥) ضعيف رواه أحمد فى «الزهد» (ص ١٤٩) وعنه أبو نعيم فى «الحلية» (١/ ٢٥) مرفوعًا وفى سنده سفيان بن وكيع بن الجراح، قال الحافظ فى «التقريب» كان صدوقًا إلا إنه ابتلى بوراقه فأدخل عليه ما ليس من حديثه· فنصح فلم يقبل، فسقط حديثه ا هـ وفى السند أيضًا ابن جريج وهو مدلس وقد عنعن ورواه أحمد فى «الزهد» (ص٧٧) والأجرى فى «الغرباء» (ص٤٩) موقوفًا على عبد الله بن عمرو بن العاص وفى سنده محمد بن مسلم وهو صدوق يخطئ كما فى «التقريب» وعثمان بن عبد الله مقبول كما فى«التقريب».

وفى حديث آخر «بدأ الإسلام غريباً. وسيعود غريباً كما بدأ. فطوبى للغرباء. قيل: ومن الغرباء، يا رسول الله ؟ قال: الذين يحيون سنتى. ويعلمونها الناس»[١]

وقال نافع عن مالك «دخل عمر بن الخطاب المسجد. فوجد معاذ بن جبل جالساً إلى بيت النبى ﷺ، وهو يبكى. فقال له عمر: ما يبكيك، يا أبا عبد الرحمن ؟ هلك أخوك ؟ قال: لا. ولكن حديثاً حدثنيه حبيبى ﷺ، وأنا فى هذا المسجد. فقال: ما هو قال: إن الله يحب الأخفياء الأحفياء الأتقياء الأبرياء. الذين إذا غابوا لم يفتقدوا. وإذا حضروا لم يعرفوا. قلوبهم مصابيح الهدى. يخرجون من كل فتنة عمياء مظلمة»[٢].

فهؤلاء هم الغرباء الممدوحون المغبطون. ولقلتهم فى الناس جداً: سموا «غرباء» فإن أكثر الناس على غير هذه الصفات. فأهل الإسلام فى الناس غرباء. والمؤمنون فى أهل الإسلام غرباء. وأهل العلم فى المؤمنين غرباء. وأهل السنة - الذين يميزونها من الأهواء والبدع - فهم غرباء. والداعون إليها الصابرون على أذى المخالفين: هم أشد هؤلاء غربة. ولكن هؤلاء هم أهل الله حقاً. فلا غربة عليهم. وإنما غربتهم بين الأكثرين، الذين قال الله عز وجل فيهم ﴿وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾ [٣] فاولئك هم الغرباء من الله ورسوله ودينه. وغربتهم هى الغربة الموحشة. وإن كانوا هم المعروفين المشار إليهم. كما قيل:

فليس غريباً من تناءت دياره ... ولكنّ من تنأين عنه غريب

فالغربة ثلاثة أنواع: غربة أهل الله وأهل سنة رسوله بين هذا الخلق. وهى الغربة التى مدح رسول الله ﷺ أهلها. وأخبر عن الدين الذى جاء به: أنه «بدأ غريباً» وأنه «سيعود غريباً كما بدأ»وأن «أهله يصيرون غرباء».

وهذه الغربة قد تكون فى مكان دون مكان، ووقت دون وقت، وبين قوم دون قوم. ولكن أهل هذه «الغربة» هم أهل الله حقاً. فإنهم لم يأووا إلى غير الله. ولم ينتسبوا إلى غير رسوله ﷺ. ولم يدعوا إلى غير ما جاء به. وهم الذين فارقوا الناس أحوج ما كانوا إليهم. فإذا انطلق الناس يوم القيامة مع آلهتهم بقوا فى مكانهم. فيقال لهم «ألا تنطلقون حيث انطلق الناس ؟ فيقولون: فارقنا الناس، ونحن أحوج إليهم منا اليوم. وإنا ننتظر ربنا الذى كنا نعبده»[٤].

---

(١) ضعيف رواه البيهقى فى الزهد (٧ ٢) والخطيب في«شرف أصحاب الحديث» (ص ٢٣).
(٢) صحيح. رواه الآجرى في«الغرباء» (٣٨) والبيهقى فى «الأسماء والصفات» (ص (٤٩٩ ، ٤٥).
(٣) سورة الأنعام الآية ١١٦
(٤) رواه البخارى (٧٤٣٩) كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه.

فهذه «الغربة» لا وحشة على صاحبها. بل هو آنس ما يكون إذا استوحش الناس وأشد ما تكون وحشته إذا استأنسوا. فوليه الله ورسوله والذين آمنوا. وإن عاداه أكثر الناس وجفوه.

وفي حديث القاسم عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال - عن الله تعالى - «إن أغبط أوليائي عندي: لمؤمن. خفيف الحاذ، ذو حظ من صلاته. أحسن عبادة ربه. وكان رزقه كفافاً، وكان مع ذلك غامضاً في الناس. لا يشار إليه بالأصابع. وصبر على ذلك حتى لقي الله. ثم حلت منيته، وقل تراثه، وقلت بواكيه» (١).

ومن هؤلاء الغرباء: من ذكرهم أنس في حديثه عن النبي ﷺ «رب أشعث أغبر. ذي طمرين لا يؤبه له. لو أقسم على الله لأبره» (٢).

وفي حديث أبي إدريس الخولاني عن معاذ بن جبل عن النبي ﷺ قال «ألا أخبركم عن ملوك أهل الجنة ؟ قالوا : بلى، يا رسول الله. قال: كل ضعيف أغبر، ذي طمرين لا يؤبه له. لو أقسم على الله لأبره»(٣)وقال الحسن: المؤمن في الدنيا كالغريب. لا يجزع من ذلها، ولا ينافس في عزها، للناس حال. وله حال. الناس منه في راحة. وهو من نفسه في تعب.

ومن صفات هؤلاء الغرباء - الذين غبطهم النبي ﷺ -: التمسك بالسنة، إذا رغب عنها الناس. وترك ما أحدثوه، وإن كان هو المعروف عندهم. وتجريد التوحيد. وإن أنكر ذلك أكثر الناس. وتَرْكُ الانتساب إلى أحد غير الله ورسوله، لا شيخ، ولا طريقة، ولا مذهب، ولا طائفة. بل هؤلاء الغرباء منتسبون إلى الله بالعبودية له وحده، وإلى رسوله بالاتباع لما جاء به وحده. وهؤلاء هم القابضون على الجمر حقاً. وأكثر الناس - بل كلهم - لائم لهم. فلغربتهم بين هذا الخلق: يعدونهم أهل شذوذ وبدعة، ومفارقة للسواد الأعظم.

ومعنى قول النبي ﷺ «هم النزاع من القبائل» أن الله سبحانه بعث رسوله، وأهل

---

(١) ضعيف. رواه وكيع في الزهد (١٣٣) و نعيم بن حماد في زيادات الزهد لابن المبارك (٥٤) والترمذي (٢٣٤٧) والحاكم (٤/ ١٢٣) . وقال هذا إسناد للشاميين صحيح عندهم ولم يخرجاه. وتعقبه الذهبي بقوله: لا بل إلى الضعف هو.

(٢) حسن رواه الطحاوي في «المشكل» (١/ ٢٩٢) والحاكم (٤/ ٣٢٨) وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٧) وفي إسناده المطلب بن عبد الله وهو صدوق كثير التدليس كما في «التقريب» وقد عنعنه وكثير بن زيد المدني. قال الحافظ «صدوق يخطئ». ولكن للحديث شواهد يرتقي بها أنظرها في «تخريج أحاديث مشكلة الفقر» للألباني (١٢٥)

(٣) ضعيف رواه ابن ماجه (٤١١٥) والطبراني في «الكبير» (١٥٩) وفي«مسند الشاميين»(١١٩٢) وفي سنده سويد بن عبد العزيز وهو لين الحديث كما في «التقريب» (٢/ ٣٤٠).

الأرض على أديان مختلفة. فهم بين عُبّاد أوثان ونيران، وعُبّاد صور وصلبان، ويهود وصابئة وفلاسفة. وكان الإسلام فى أول ظهوره غريباً. وكان من أسلم منهم، واستجاب لله ولرسوله، غريباً فى حيه وقبيلته، وأهله وعشيرته.

فكان المستجيبون لدعوة الإسلام نزاعاً من القبائل. بل آحاداً منهم. تغربوا عن قبائلهم وعشائرهم . ودخلوا فى الإسلام. فكانوا هم الغرباء حقاً. حتى ظهر الإسلام، وانتشرت دعوته. ودخل الناس فيه أفواجاً. فزالت تلك الغربة عنهم. ثم أخذ فى الاغتراب والترحل، حتى عاد غريباً كما بدأ. بل الإسلام الحق الذى كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه هو اليوم أشد غربة منه فى أول ظهوره. وإن كانت أعلامه ورسومه الظاهرة مشهورة معروفة. فالإسلام الحقيقى غريب جداً. وأهله غرباء أشد الغربة بين الناس.

وكيف لا تكون فرقة واحدة قليلة جداً، غريبة بين اثنتين وسبعين فرقة ذات أتباع ورئاسات، ومناصب وولايات. ولا يقوم لها سوق إلا بمخالفة ما جاء به الرسول ؟ فإن نفس ما جاء به: يضاد أهواءهم ولذاتهم، وما هم عليه من الشبهات والبدع التى هى منتهى فضيلتهم وعملهم، والشهوات التى هى غايات مقاصدهم وإراداتهم ؟

فكيف لا يكون المؤمن السائر إلى الله على طريق المتابعة غريباً بين هؤلاء الذين قد اتبعوا أهواءهم، وأطاعوا شحهم، وأعجب كل منهم برأيه ؟ كما قال النبى ﷺ «مروا بالمعروف. وانهوا عن المنكر. حتى إذا رأيتم شحاً مطاعاً وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذى رأى برأيه. ورأيت أمراً لا يدان لك به، فعليك بخاصة نفسك. وإياك وعوامهم. فإن وراءكم أياماً صبر الصابر فيهن كالقابض على الجمر»[1] ولهذا جعل للمسلم الصادق فى هذا الوقت - إذا تمسك بدينه -: أجر خمسين من الصحابة. ففى سنن أبى داود والترمذى - من حديث أبى ثعلبة الخشنى - قال «سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم. لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾[2] فقال: بل ائتمروا بالمعروف. وتناهوا عن المنكر. حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذى رأى برأيه. فعليك بخاصة نفسك ودع عنك العوام. فإن من وراءكم أيام الصبر. الصبر فيهن مثل قبض على الجمر. للعامل فيهن أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله. قلت: يا رسول الله، أجر خمسين منهم ؟ قال: أجر خمسين منكم»[3] وهذا

(١) هذا حديث أبى ثعلبة الخشنى والذى سيذكره المصنف بعد هذا. (٢) سورة المائدة الآية ١٠٥.

(٣) ضعيف. رواه الترمذى (٥٨ ٣) وأبو داود (٤٣٤١) وابن ماجه (٤٠١٤) وابن حبان (٣٨٥ - احسان) وأبو نعيم فى «الحلية» (٢/ ٣٠) والطحاوى فى «مشكل الآثار» (٢/ ٦٤-٦٥) . وفى سنده عتبة بن أبى حكيم وهو صدوق يخطئ كثيراً كما فى «التقريب» (٢/ ٤) وعمرو بن جارية، وأبى أمية الشعبانى - واسمه يُحْمِدُ وقيل: عبد الله بن أخامر. وهما لم يوثقهما غير ابن حبان.

الأجر العظيم إنما هو لغربته بين الناس، والتمسك بالسنة بين ظلمات أهوائهم وآرائهم.

فإذا أراد المؤمن، الذى قد رزقه الله بصيرة فى دينه، وفقهاً فى سنة رسوله، وفهماً فى كتابه، وأراه ما الناس فيه: من الأهواء والبدع والضلالات، وتنكبهم عن الصراط المستقيم، الذى كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه. فإذا أراد أن يسلك هذا الصراط: فليوطن نفسه على قدح الجهال، وأهل البدع فيه، وطعنهم عليه، وإزرائهم به. وتنفير الناس عنه، وتحذيرهم منه. كما كان سلفهم من الكفار يفعلون مع متبوعه وإمامه ﷺ. فأما إن دعاهم إلى ذلك، وقدح فيما هم عليه: فهنالك تقوم قيامتهم. ويبغون له الغوائل. وينصبون له الحبائل. ويجلبون عليه بخيل كبيرهم ورجله.

فهو غريب فى دينه لفساد أديانهم، غريب فى تمسكه بالسنة، لتمسكهم بالبدع. غريب فى اعتقاده، لفساد عقائدهم. غريب فى صلاته، لسوء صلاتهم. غريب فى طريقه، لضلال وفساد طرقهم. غريب فى نسبته، لمخالفة نسبهم. غريب فى معاشرته لهم لأنه يعاشرهم على ما لا تهوى أنفسهم.

وبالجملة: فهو غريب فى أمور دنياه وآخرته. لا يجد من العامة مساعداً ولامعيناً. فهو عالم بين جهال. صاحب سنة بين أهل بدع. داع إلى الله ورسوله بين دعاة إلى الأهواء والبدع آمر بالمعروف، ناهٍ عن المنكر بين قوم المعروف لديهم منكر والمنكر معروف.

فصل

النوع الثانى من الغربة

غربة مذمومة. وهى غربة أهل الباطل، وأهل الفجور بين أهل الحق. فهى غربة بين حزب الله المفلحين، وإن كثر أهلها فهم غرباء على كثرة أصحابهم وأشياعهم. أهل وحشة على كثرة مؤنسهم. يعرفون فى أهل الأرض. ويخفون على أهل السماء.

فصل

النوع الثالث: غربة مشتركة، لا تحمد ولا تذم

وهى الغربة عن الوطن فإن الناس كلهم فى هذه الدار غرباء. فإنها ليست لهم بدار مقام. ولا هى الدار التى خلقوا لها. وقد قال النبى ﷺ لعبدالله بن عمر رضى الله عنهما «كن فى الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل» (١) وهكذا هو فى نفس الأمر. لأنه أمر أن يطالع ذلك بقلبه. ويعرفه حق المعرفة. ولى من أبيات فى هذا المعنى:

---

(١) رواه البخارى (٦٤١٦) كتاب الرقاق، باب: قول النبى ﷺ «كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»

وحــى على جــنـات عــدن. فإنها منازلك الأولــى. وفيهــا المخيم

ولكننا ســبى العــدو. فهل تــرى نعــود إلى أوطانـنـا، ونــسـلـم ؟

وأى اغــتراب فــوق غربتــنا التى لها أضــحت الأعداء فينا تحــكم ؟

وقد زعموا: أن الغــريب إذا نــأى وشطــت به أوطانه. ليــس ينـعم

فمن أجل ذا لا ينعــم العبد ساعــة من الــعمر، إلا بعــد ما يتــألم

وكيف لا يكون العبد فى هذه الدار غريباً، وهو على جناح سفر. لا يحل عن راحلته إلا بين أهل القبور ؟ فهو مسافر فى صورة قاعد. وقد قيل:

وماهـــذه الأيــــام إلا مراحـــل يحــث بهـــا داع إلى الموت قاصـد

وأعجب شىء - لو تأملــت - أنهــا منــازل تطوى. والمســافر قاعــد

فصل
فى الحــــياة

قال صاحب المنازل:

«(باب الحياة) قال الله تعالى ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه﴾ (١)».

استشهاده بهذه الآية فى هذا الباب ظاهراً جداً. فإن المراد بها: من كان ميت القلب، بعدم روح العلم و الهدى و الإيمان. فأحياه الرب تعالى بروح أخرى، غير الروح التى أحيا بها بدنه، و هى روح معرفته و توحيده، ومحبته وعبادته وحده لا شريك له. إذ لا حياة للروح إلا بذلك. و إلا فهى فى جملة الأموات. و لهذا وصف الله تعالى من عدم ذلك بالموت، فقال ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه﴾ وقال تعالى ﴿إنك لا تسمع الموتى. ولا تسمع الصم الدعاء﴾ (٢) وسمى وحيه روحاً. لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح. فقال تعالى ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا. ما كنت تدرى ما الكتاب و لا الإيمان. و لكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا﴾ (٣) فأخبر: أنه «روح» تحصل به الحياة، و أنه «نور» تحصل به الإضاءة. و قال تعالى ﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون﴾ (٤) و قال تعالى ﴿رفيع الدرجات ذو العرش، يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده. لينذر يوم التلاق﴾(٥) فالوحى حياة الروح، كما أن الروح حياة البدن. ولهذا من فقد هذه الروح: فقد فقد الحياة النافعة فى الدنيا و

(١) سورة الأنعام : الآية ١٢٢. (٢) سورة النمل : الآية ٨٠. (٣) سورة الشورى : الآية ٥٢
(٤) سورة النحل : الآية ٢ (٥) سورة غافر الآية ١٥

الآخرة. أما فى الدنيا: فحياته حياة البهائم. وله المعيشة الضنك. و أما فى الآخرة: فله جهنم، لا يموت فيها ولا يحيا.

وقد جعل الله الحياة الطيبة لأهل معرفته و محبته و عبادته. فقال تعالى ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى، وهو مؤمن. فلنحيينه حياة طيبة، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ (١) وقد فسرت «الحياة الطيبة» بالقناعة والرضى، والرزق الحسن وغير ذلك. والصواب: أنها حياة القلب ونعيمه، وبهجته وسروره بالإيمان و معرفة الله، ومحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه فإنه لا حياة أطيب من حياة صاحبها. ولا نعيم فوق نعيمه، إلا نعيم الجنة، كما كان بعض العارفين يقول: إنه لتمر بى أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة فى مثل هذا إنهم لفى عيش طيب. وقال غيره: إنه ليمر بالقلب أوقات يرقص فيها طرباً.

وإذا كانت حياة القلب حياة طيبة تبعته حياة الجوارح. فإنه ملكها. ولهذا جعل الله المعيشة الضنك لمن أعرض عن ذكره. و هى عكس الحياة الطيبة.

وهذه الحياة الطيبة تكون فى الدور الثلاث. أعنى: دار الدنيا، ودار البرزخ. ودار القرار. والمعيشة الضنك أيضاً تكون فى الدور الثلاث. فالأبرار فى النعيم هنا وهنالك. والفجار فى الجحيم هنا وهنالك، قال الله تعالى ﴿للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة و لدار الآخرة خير﴾ (٢) وقال تعالى ﴿وأن استغفروا ربكم، ثم توبوا إليه، يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى. ويؤت كل ذى فضل فضله﴾ (٣) فذكر الله سبحانه و تعالى، ومحبته وطاعته، والإقبال عليه: ضامن لأطيب الحياة فى الدنيا والآخرة. والإعراض عنه والغفلة ومعصيته: كفيل بالحياة المنغصة، والمعيشة الضنك فى الدنيا والآخرة.

[مراتب الحياة]

وللحياة مراتب. ونحن نشير إليها.

المرتبة الأولى: حياة الأرض بالنبات. قال تعالى ﴿و الله أنزل من السماء ماء. فأحيا به الأرض بعد موتها. إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون﴾ (٤) وقال فى الماء ﴿وأحيينا به بلدة ميتاً. كذلك الخروج﴾ (٥) وقال ﴿وأنزلنا من السماء ماء طهوراً * لنحيى به بلدة ميتاً﴾ (٦) وجعل هذه الحياة دليلا على الحياة يوم المعاد. وهذه حياة حقيقية فى هذه المرتبة، مستعملة فى كل لغة، جارية على ألسن الخاصة والعامة. قال الشاعر يمدح عبد المطلب:

(١) سورة النحل الآية ٩٧ (٢) سورة النحل : الآية ٣. (٣) سورة هود الآية ٣.
(٤) سورة النحل الآية ٦٥. (٥) سورة ق : الآية ١١. (٦) سورة الفرقان : الآية ٤٨، ٤٩.

بشية الحمد أحيا الله بلدتنا لما فقدنا الحيا، واجلوزَّ المطر

وهذا أكثر من أن نذكر شواهده.

المرتبة الثانية حياة النمو والاغتذاء. وهذه الحياة مشتركة بين النبات والحيوان الذى يعيش بالغذاء. قال الله تعالى ﴿وجعلنا من الماء كل شىء حى﴾ (١).

المرتبة الثالثة حياة الحيوان المغتذى بقدر زائد على نموه واغتذائه وهى إحساسه وحركته. ولهذا يألم بورود الكيفيات المؤلمة عليه، وبتفرق الاتصال، ونحو ذلك. وهذه الحياة فوق حياة النبات. وهذه الحياة تقوى وتضعف فى الحيوان الواحد بحسب أحواله. فحياته بعد الولادة: أكمل منها وهو جنين فى بطن أمه. وحياته وهو صحيح معافى أكمل منها وهو سقيم عليل.

فنفس هذه الحياة تتفاوت تفاوتاً عظيماً فى محالها، فحياة الحية أكمل من حياة البعوضة، ومن قال غير هذا فقد كابر الحس والعقل.

المرتبة الرابعة: حياة الحيوان الذى لا يتغذى بالطعام والشراب كحياة الملائكة، وحياة الأرواح بعد مفارقتها لأبدانها، فإن حياتها أكمل من حياة الحيوان المغتذى، ولهذا لا يلحقها كلال ولا فتور، ولا نوم ولا إعياء، قال تعالى ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾(٢) وكذلك الأرواح إذا تخلصت من هذه الأبدان، وتجردت: صار لها حياة أخرى أكمل من هذه إن كانت سعيدة، وإن كانت شقية، كانت عاملة ناصبة فى العذاب.

المرتبة الخامسة: التى أشار إليها المصنف. و هى «حياة العلم من موت الجهل» فإن الجهل موت لأصحابه. كما قيل:

وفى الجـــهل قبل الموت موت لأهله وأجســـامهم قبل القبـــور قبـــور

وأرواحهم فى وحشـــة من جسومهـــم فليـــس لهـم حتى النشـــور نشـــور

فإن الجاهل ميت القلب والروح، وإن كان حى البدن. فجسده قبر يمشى به على وجه الأرض. قال الله تعالى ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه. وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس. كمن مثله فى الظلمات، ليس بخارج منها﴾ (٣) وقال تعالى ﴿إن هو إلا ذكر و قرآن مبين. لينذر من كان حياً. ويحق القول على الكافرين﴾ (٤) وقال تعالى ﴿إنك لا تسمع الموتى و لا تسمع الصم الدعاء﴾ (٥) وقال تعالى ﴿إن الله يسمع من يشاء. وما أنت بمسمع من فى القبور﴾ (٦) و شبههم فى موت قلوبهم بأهل القبور، فإنهم قد ماتت أرواحهم، وصارت

(١) سورة الأنبياء الآية ٣٠ (٢) سورة الأنبياء الآية ٢ (٣) سورة الأنعام الآية ١٢٢
(٤) سورة يس الآية ٦٩، ٧٠. (٥) سورة الروم الآية ٥٢. (٦) سورة فاطر الآية ٢٢

أجسامهم قبوراً لها، فكما أنه لا يسمع أصحاب القبور، كذلك لا يسمع هؤلاء. وإذا كانت الحياة هى الحس والحركة، وملزومهما، فهذه القلوب لما لم تحس بالعلم و الإيمان، ولم تتحرك له كانت ميتة حقيقة. وليس هذا تشبيهاً لموتها بموت البدن، بل ذلك موت القلب و الروح.

وقد ذكر الإمام أحمد فى كتاب الزهد من كلام لقمان، أنه قال لابنه «يا بنى جالس العلماء، و زاحمهم بركبتيك. فإن الله يحيى القلوب بنور الحكمة، كما يحيى الأرض بوابل القطر» وقال معاذ بن جبل «تعلموا العلم: فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة. لأنه معالم الحلال والحرام، و منار سبل أهل الجنة. وهو الأنيس فى الوحشة، والصاحب فى الغربة، والمحدث فى الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والزين عند الأخلاء. يرفع الله به أقواماً، فيجعلهم فى الخير قادة، وأئمة تقتص آثارهم، ويقتدى بأفعالهم، وينتهى إلى رأيهم. ترغب الملائكة فى خلتهم، وبأجنحتها تمسحهم. يستغفر لهم كل رطب ويابس، وحيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه لأن العلم حياة القلوب من الجهل ومصابيح الأبصار من الظلم. يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار، والدرجات العلى فى الدنيا والآخرة. التفكر فيه يعدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام. به توصل الأرحام. وبه يعرف الحلال من الحرام. وهو إمام العمل. والعمل تابع له. يلهمه السعداء. ويحرمه الأشقياء» رواه الطبرانى وابن عبد البر و غيرهما. وقدروى مرفوعاً إلى النبى ﷺ[1]. والوقف أصح

والمقصود: قوله «لأن العلم حياة القلوب من الجهل» فالقلب ميت. وحياته بالعلم والإيمان.

المرتبة السادسة: حياة الإرادة و الهمة، وضعف الإرادة، والطلب، من ضعف حياة القلب، وكلما كان القلب أتم حياة، كانت همته أعلى، وإرادته ومحبته أقوى، فإن الإرادة والمحبة تتبع الشعور بالمراد المحبوب، وسلامة القلب من الآفة التى تحول بينه وبين طلبه وإرادته، فضعف الطلب، وفتور الهمة: إما من نقصان الشعور والإحساس، وإما من وجود الآفة المضعفة للحياة، فقوة الشعور، وقوة الإرادة، دليل على قوة الحياة، وضعفهما دليل على ضعفها. وكما أن علو الهمة، وصدق الإرادة، والطلب من كمال الحياة: فهو سبب إلى حصول أكمل الحياة وأطيبها. فإن الحياة الطيبة إنما تنال بالهمة العالية، والمحبة الصادقة

---

(١) ضعيف. رواه ابن عبد البر فى «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٥٤، ٥٥) مرفوعًا وفى سنده عبد الرحيم بن زيد العمى، كذَّبهُ ابن معين كما فى «التقريب» (٢/ ٥٠٤) وضعفه ابن عبد البر بقوله: ليس له إسناد قوى.

والإرادة الخالصة. فعلى قدر ذلك تكون الحياة الطيبة. وأخس الناس حياة أخسهم همة. وأضعفهم محبة وطلباً، وحياة البهائم خير من حياته. كما قيل:

نهارك، يا مغـــرور سهـو و غفلةٌ ... ولَيْـــلُكَ نـــومٌ والــرَّدَى لك لازم

وتكـدح فيما ســـوف تنكر غِبَّهُ ... كـذلك فى الدنيا تعيش البهائـــم

تُسَرُّ بما يَفْنى. وتفـــــرح بالمُنَى ... كما غُرَّ باللذات فى النوم حـــالم

والمقصود: أن حياة القلب بالعلم و الإرادة و الهمة. والناس إذا شاهدوا ذلك من الرجل قالوا: هو حى القلب، و حياة القلب بدوام الذكر، وترك الذنوب، كما قال عبد الله بن المبارك. رحمه الله:

رأيت الذنوب تميت القـلوب ... وقد يــورث الذل إدمـــانهـــا

وترك الذنوب حيــاة القـلوب ... وخير لنفســـــك عصيـــانهـــا

وهل أفسد الدين إلا المــــلو ... ك، و أحبار سوء و رهبانها ؟

وباعوا النفوس، و لم يربحوا ... ولـــم يغـــل فى البيـــع أثمـــانها

فقد رتـــع القوم فى جـــيفة ... يبين لذى اللـب خســـرانـــهـا

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يقول: من واظب على «يا حى يا قيوم. لا إله إلا إنت» كل يوم - بين سنة الفجر و صلاة الفجر - أربعين مرة. أحيى الله بها قلبه.

وكما أن الله سبحانه جعل حياة البدن بالطعام و الشراب، فحياة القلب بدوام الذكر، والإنابة إلى الله، وترك الذنوب، والغفلة الجاثمة على القلب. والتعلق بالرذائل و الشهوات المنقطعة عن قريب يضعف هذه الحياة، و لا يزال الضعف يتوالى عليه حتى يموت، وعلامة موته، أنه لا يعرف معروفاً، و لا ينكر منكراً، كما قال عبد الله بن مسعود «أتدرون من ميت القلب، الذى قيل فيه:

ليس من مات فاستراح بميت ... إنما الميت ميت الأحياء ؟

قالوا: و من هو ؟ قال: الذى لا يعرف معروفاً و لا ينكر منكراً».

والرجل: هو الذى يخاف موت قلبه، لا موت بدنه. إذ أكثر هؤلاء الخلق يخافون موت أبدانهم، ولا يبالون بموت قلوبهم. ولا يعرفون من الحياة إلا الحياة الطبيعية، وذلك من موت القلب و الروح، فإن هذه الحياة الطبيعية شبيهة بالظل الزائل، و النبات السريع

الجفاف، والنائم الذى يخيل كأنه حقيقة، فإذا استيقظ عرف أنه كان خيالاً، كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه «لو أن الحياة الدنيا من أولها إلى آخرها أوتيها رجل واحد، ثم جاءه الموت، لكان بمنزلة من رأى فى منامه ما يسره، ثم استيقظ فإذا ليس فى يده شىء» وقد قيل «إن الموت موتان: موت إرادى، وموت طبيعى. فمن أمات نفسه موتاً إرادياً كان موته الطبيعى حياة له» ومعنى هذا: أن الموت الإرادى هو قمع الشهوات المردية، وإخماد نيرانها المحرقة، و تسكين هوائجها المتلفة. فحينئذ يتفرغ القلب والروح للتفكر فيما فيه كمال العبد، و معرفته، و الاشتغال به. ويرى حينئذ أن إيثار الظل الزائل عن قريب على العيش اللذيذ الدائم: أخسر الخسران. فأما إذا كانت الشهوات وافدة، واللذات مؤثرة، والعوائد غالبة، والطبيعة حاكمة. فالقلب حينئذ: إما أن يكون أسيراً ذليلاً، أو مهزوماً مخرجاً عن وطنه ومستقره الذى لا قرار له إلا فيه، أو قتيلا ميتاً ومالجرح به إيلام. وأحسن أحواله: أن يكون فى حرب، يدال له فيها مرة، ويدال عليه مرة. فإذا مات العبد موته الطبيعى: كانت بعده حياة روحه بتلك العلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والأحوال الفاضلة التى حصلت له بإماتة نفسه. فتكون حياته ههنا على حسب موته الإرادى فى هذه الدار.

و هذا موضع لا يفهمه إلا ألباء الناس و عقلاؤهم. ولا يعمل بمقتضاه إلا أهل الهمم العلية، والنفوس الزكية الأبية.

المرتبة السابعة من مراتب الحياة:

حياة الأخلاق، والصفات المحمودة، التى هى حياة راسخة للموصوف بها. فهو لا يتكلف الترقى فى درجات الكمال. ولا يشق عليه. لاقتضاء أخلاقه وصفاته لذلك، بحيث لو فارقه ذلك لفارق ما هو من طبيعته وسجيته. فحياة من قد طبع على الحياء والعفة والجود والسخاء، والمروءة و الصدق والوفاء ونحوها: أتم من حياة من يقهر نفسه، ويغالب طبعه، حتى يكون كذلك. فإن هذا بمنزلة من تعارضه أسباب الداء وهو يعالجها ويقهرها بأضدادها. وذلك بمنزلة من قد عوفى من ذلك.

وكلما كانت هذه الأخلاق فى صاحبها أكمل كانت حياته أقوى وأتم. و لهذا كان خلق «الحياء» مشتقاً من «الحياة» اسماً و حقيقة. فأكمل الناس حياة: أكملهم حياء. و نقصان حياء المرء من نقصان حياته. فإن الروح إذا ماتت لم تحس بما يؤلمها من القبائح. فلا تستحى منها. فإذا كانت صحيحة الحياة أحست بذلك، فاستحيت منه. وكذلك سائر الأخلاق الفاضلة، و الصفات الممدوحة تابعة لقوة الحياة. وضدها من نقصان الحياة. ولهذا كانت حياة الشجاع أكمل من حياة الجبان. وحياة السخى أكمل من حياة البخيل. وحياة

الفطن الذكى أكمل من حياة الفَدْم البليد. ولهذا لما كان الأنبياء- صلوات الله و سلامه عليهم - أكمل الناس حياة حتى إن قوة حياتهم تمنع الأرض أن تبلى أجسامهم- كانوا أكمل الناس فى هذه الأخلاق. ثم الأمثل فالأمثل من أتباعهم.

فانظر الآن إلى حياة حَلاَّف مهين هَمَّاز مَشَّاء بنميم، مَنَّاع للخير معتد أثيم. عتل بعد ذلك زنيم. وحياة جواد شجاع، بَرٌّ عادل عفيف محسن - تجد الاول ميتاً بالنسبة إلى الثانى. ولله در القائل:

و ما للمرء خير فى حياة إذا ما عد من سقط المتاع

المرتبة الثامنة من مراتب الحياة: حياة الفرح و السرور، وقرة العين بالله. وهذه الحياة إنما تكون بعد الظفر بالمطلوب، الذى تقر به عين طالبه. فلاحياة نافعة له بدونه. وحول هذه الحياة يدندن الناس كلهم. وكلهم قد أخطأ طريقها. وسلك طرقاً لا تفضى إليها. بل تقطعه عنها، إلا أقل القليل.

فدار طلب الكل حول هذه الحياة. و حُرِمَها أكثرهم.

و سبب حرمانهم إياها: ضعف العقل والتميز والبصيرة، وضعف الهمة والإرادة. فإن مادتها بصيرةٌ وقَّادةٌ، وهمةٌ نقادةٌ. والبصيرة كالبصر تكون عمى وعوراً وعمشاً ورمداً، وتامة النور والضياء. وهذه الآفات قد تكون لها بالخلقة فى الأصل. وقدتحدث فيها بالعوارض الكسبية.

و المقصود: أن هذه المرتبة من مراتب الحياة هى أعلى مراتبها، و لكن كيف يصل إليها من عقله مَسبِىٌ فى بلاد الشهوات، وأمله موقوف على اجتناء اللذات، و سيرته جارية على أسوأ العادات، ودينه مستهلك بالمعاصى و المخالفات، و همته واقفة مع السفليات، و عقيدته غير متلقاة من مشكاة النبوات ؟ !.

فهو فى الشهوات منغمس، وفى الشبهات منتكس، وعن الناصح معرض، وعلى المرشد معترض، وعن السراء نائم، وقلبه فى كل وادٍ هائم. فلو أنه تجرد من نفسه. ورغب عن مشاركة أبناء جنسه. وخرج من ضيق الجهل إلى فضاء العلم. و من سجن الهوى إلى ساحة الهدى، ومن نجاسة النفس، إلى طهارة القدس: لرأى الإلف الذى نشأ بنشأته، وزاد بزيادته، وقوى بقوته، و شرف عند نفسه و أبناء جنسه بحصوله، و سد[1] قذى فى عين بصيرته، و شجا فى حلق إيمانه، و مرضاً مترامياً إلى هلاكه.

---

(١) كذا فى الأصول. والظاهر أن كلمة «وسد» زائدة. فإن المعنى دونها صحيح. أو محرفة عن كلمة «وجد» (قاله الفقى) .

فإن قلت: قد أشرت إلى حياة غير معهودة بين أموات الأحياء. فهل يمكنك وصف طريقها، لا صِلَ إلى شيء من أذواقها. فقد بان لي أن ما نحن فيه من الحياة حياة بهيمية. ربما زادت علينا فيها البهائم بخلوها عن المنكرات و المنغصات و سلامة العاقبة؟.

قلت: لعمر الله إن اشتياقك إلى هذه الحياة، و طلب علمها و معرفتها: لدليل على حياتك. و أنك لست من جملة الأموات.

فأول طريقها: أن تعرف الله، و تهتدى إليه طريقاً يوصلك إليه، و يحرق ظلمات الطبع بأشعة البصيرة، فتقوم بقلبه شاهد من شواهد الآخرة. فينجذب إليها بكليته. ويزهد فى التعلقات الفانية. و يدأب فى تصحيح التوبة، و القيام بالمأمورات الظاهرة والباطنة، و ترك المنهيات الظاهرة و الباطنة، ثم يقوم حارساً على قلبه. فلا يسامحه بخطرة يكرهها الله، و لا بخطرة فضول لا تنفعه. فيصفو بذلك قلبه عن حديث النفس ووسواسها. فَيُفْدَى من أسرها. و يصير طليقاً. فحينئذ يخلو قلبه بذكر ربه، و محبته والإنابة إليه. و يخرج من بين بيوت طبعه و نفسه، إلى فضاء الخلوة بربه و ذكره،كما قيل:

وأخرج من بين البيوت لعلنى | أحدث عنك النفس فى السر خالياً

فحينئذ يجتمع قلبه وخواطره و يحدث نفسه على إرادة ربه، و طلبه و الشوق إليه.

فإذا صدق فى ذلك رزق محبة الرسول ﷺ، واستولت روحانيته على قلبه. فجعله إمامه ومعلمه، وأستاذه وشيخه وقدوته، كما جعله الله نبيه ورسوله وهادياً إليه. فيطالع سيرته ومبادىء أمره، وكيفية نزول الوحى عليه، ويعرف صفاته وأخلاقه، وآدابه فى حركاته وسكونه، ويقظته ومنامه، وعبادته ومعاشرته لأهله وأصحابه، حتى يصير كأنه معه من بعض أصحابه.

فإذا رسخ قلبه فى ذلك: فُتِحَ عليه بفهم الوحى المنزل عليه من ربه، بحيث لو قرأ السورة شاهد قلبه ما أنزلت فيه، وما أريد بها. وحظه المختص به منها، من الصفات والأخلاق، والأفعال المذمومة. فيجتهد فى التخلص منها كما يجتهد فى الشفاء من المرض المخوف. وشاهد حظَّهُ من الصفات والأفعال الممدوحة. فيجتهد فى تكميلها وإتمامها.

فإذا تمكن من ذلك: انفتح فى قلبه عين أخرى. يشاهد بها صفات الرب جل جلاله، حتى تصير لقلبه بمنزلة المرئى لعينه. فيشهد علو الرب سبحانه فوق خلقه، واستواءه على عرشه، ونزول الأمر من عنده بتدبير مملكته، وتكليمه بالوحى، وتكليمه لعبده جبريل به، و إرساله إلى من يشاء بما يشاء، وصعودالأمور إليه، وعرضها عليه

فيشاهد قلبه رباً قاهراً فوق عباده، آمراً ناهياً، باعثاً لرسله، منزلاً لكتبه، معبوداً

مطاعاً. لا شريك له. ولا مثيل، ولا عدل له. ليس لأحد معه من الأمر شيء، بل الأمر كله له. فيشهد ربه سبحانه قائماً المُلك والتدبير. فلا حركة ولا سكون، ولا نفع ولا ضر، ولا عطاء ولا منع، ولا قبض ولا بسط إلا بقدرته وتدبيره. فيشهد قيام الكون كله به، وقيامه سبحانه بنفسه. فهو القائم بنفسه، المقيم لكل ما سواه.

فإذا رسخ قلبه فى ذلك: شهدالصفة المصححة لجميع صفات الكمال. و هى «الحياة» التى كمالها يستلزم كمال السمع و البصر، و القدرة و الإرادة، و الكلام، وسائر صفات الكمال. و صفة «القيومية» الصحيحة المصححة لجميع الأفعال. فالحى القيوم: من له كل صفة كمال. و هو الفعال لما يريد.

فإذا رسخ قلبه فى ذلك: فتح له مشهد «القرب» و «المعية» فيشهده سبحانه معه، غير غائب عنه، قريباً غير بعيد، مع كونه فوق سماواته على عرشه، بائنا من خلقه، قائماً بالصنع و التدبير، و الخلق و الأمر. فيحصل له - مع التعظيم و الإجلال - الأنس بهذه الصفة. فيأنس به بعد أن كان مستوحشاً. و يقوى به بعد أن كان ضعيفاً. ويفرح به بعد أن كان حزيناً. و يجد بعد أن كان فاقداً. فحينئذ يجد طعم قوله «و لا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه. فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به. وبصره الذى يبصر به. و يده التى يبطش بها. و رجله التى يمشى بها. ولئن سألنى لأعطينه. و لئن استعاذنى لأعيذنه»[1].

فأطيب الحياة على الإطلاق: حياة هذا العبد. فإنه محب محبوب، متقرب إلى ربه، وربه قريب منه. قد صار له حبيبه لفرط استيلائه على قلبه، ولهجه بذكره. وعكوف همته على مرضاته، بمنزلة سمعه و بصره و يده و رجله. وهذه آلات إدراكه وعمله وسعيه. فإن سمع سمع بحبيبه، وإن أبصر أبصر به. وإن بطش بطش به. و إن مشى مشى به.

فإن صعب عليك فهم هذا المعنى، و كون المحب الكامل المحبة يسمع و يبصر ويبطش و يمشى بمحبوبه. وذاته غائبة عنه. فاضرب عنه صفحاً. وخل هذا الشأن لأهله

خل الهوى لأناس يعرفون به   قد كابدوا الحب حتى لان أصْعبه

فإن السالك إلى ربه لا تزال همته عاكفة على أمرين: استفراغ القلب فى صدق الحب، و بذل الجهد فى امتثال الأمر. فلا يزال كذلك حتى يبدو على سره شواهد معرفته، و آثار صفاته وأسمائه. ولكن يتوارى عنه ذلك أحياناً. و يبدو أحياناً. يبدو من عين الجود. ويتوارى بحكم الفترة. والفترات أمر لازم للعبد. فكل عامل له شرة، ولكل شرة

---

(١) سبق تخريجه.

فترة. فأعلاها فترة الوحى. وهى للأنبياء، وفترة الحال الخاص للعارفين، وفترة الهمة للمريدين. وفترة العمل للعابدين. وفى هذه الفترات أنواع من الحكمة والرحمة، والتعرفات الإلهية، وتعريف قدر النعمة. وتجديد الشوق إليها، ومحض التواجد إليها وغير ذلك.

ولا تزال تلك الشواهد تتكرر وتتزايد، حتى تستقر، وينصبغ بها قلبه، وتصير الفترة غير قاطعة له. بل تكون نعمة عليه، وراحة له، وترويحاً وتنفيساً عنه.

فهمة المحب إذا تعلقت روحه بحبيبه، عاكفاً على مزيد محبته، و أسباب قوتها. فهو يعمل على هذا. ثم يترقى منه إلى طلب محبة حبيبه له. فيعمل على حصول ذلك. ولا يعدم الطلب الأول، ولا يفارقه ألبتة. بل يندرج فى هذا الطلب الثانى. فتتعلق همته بالأمرين جميعاً. فإنه إنما يحصل له منزلة «كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به» بهذا الأمر الثانى. وهو كونه محبوباً لحبيبه. كما قال فى الحديث «فإذا أحببته كنت سمعه وبصره الخ» فهو يتقرب إلى ربه، حفظاً لمحبته له، واستدعاء لمحبة ربه له.

فحينئذ يَشُدُّ مئزر الجد فى طلب محبة حبيبه له بأنواع التقرب إليه. فقلبه: للمحبة و الإنابة و التوكل، والخوف والرجاء. ولسانه: للذكر وتلاوة كلام حبيبه. وجوارحه: للطاعات. فهو لا يفتر عن التقرب من حبيبه.

وهذا هو السير المفضى إلى هذه الغاية التى لا تنال إلا به. ولا يتوصل إليها إلا من هذا الباب، وهذه الطريق. وحينئذ تجمع له فى سيره جميع متفرقات السلوك: من الحضور، والهيبة، والمراقبة، ونفى الخواطر، وتخلية الباطن.

فإن المحب يشرع - أولاً - فى التقربات بالأعمال الظاهرة. وهى ظاهر التقرب. ثم يترقى من ذلك إلى حال التقرب. وهو الانجذاب إلى حبيبه بكليته بروحه وقلبه، وعقله وبدنه. ثم يترقى من ذلك إلى حال الإحسان. فيعبد الله كأنه يراه. فيتقرب إليه حينئذ من باطنه بأعمال القلوب: من المحبة والإنابة، والتعظيم والإجلال والخشية. فينبعث حينئذ من باطنه الجود ببذل الروح، والجود فى محبة حبيبه بلا تكلف. فيجود بروحه ونفسه، وأنفاسه وإرادته، وأعماله لحبيبه حالاً، لا تكلفاً. فإذا وجد المحب ذلك فقد ظفر بحال التقرب وسره وباطنه. وإن لم يجده فهو يتقرب بلسانه وبدنه وظاهره فقط. فليدم على ذلك. وليتكلف التقرب بالأذكار والأعمال على الدوام. فعساه أن يحظى بحال القرب.

ووراء هذا «القرب الباطن» أمر آخر أيضاً. وهو شىء لا يعبر عنه بأحسن من عبارة أقرب الخلق إلى الله ﷺ عن هذا المعنى. حيث يقول حاكياً عن ربه تبارك وتعالى «من تقرب منى شبراً تقربت منه ذراعاً. ومن تقرب منى ذراعاً تقربت منه باعاً. ومن أتانى

يمشى أتيته هرولة»[1] فيجد هذا المحب فى باطنه ذوق معنى هذا الحديث ذوقاً حقيقياً.

فذكر من مراتب القرب ثلاث. ونبه بها على مادونها وما فوقها. فذكر تقرب العبد إليه بالبر. وتقربه سبحانه إلى العبد ذراعاً. فإذا ذاق العبد حقيقة هذا التقرب انتقل منه إلى تقرب الذراع. فيجد ذوق تقرب الرب إليه باعاً. فإذا ذاق حلاوة هذا القرب الثانى: أسرع المشى حينئذ إلى ربه. فيذوق حلاوة إتيانه هرولة. وههنا منتهى الحديث، منبهاً على أنه إذا هرول عبده إليه كان قرب حبيبه منه فوق هرولة العبد إليه. فإما أن يكون قد أمسك عن ذلك لعظيم شاهد الجزاء، أو لأنه يدخل فى الجزاء الذى لم تسمع به أذن، ولم يخطر على قلب بشر. أو إحالة له على المراتب المتقدمة. فكأنه قيل له: وقس على هذا. فعلى قدر ما تبذل منك متقرباً إلى ربك: يتقرب إليك بأكثر منه. وعلى هذا فلازم هذا التقرب المذكور فى مراتبه. أى من تقرب إلى حبيبه بروحه وجميع قواه، وإرادته وأقواله وأعماله: تقرب الرب منه سبحانه بنفسه فى مقابلة تقرب عبده إليه.

وليس القرب فى هذه المراتب كلها قرب مسافة حسيه، ولا مماسة[2]. بل هو قرب حقيقى. والرب تعالى فوق سماواته على عرشه، والعبد فى الأرض.

وهذا الموضع هو سر السلوك، وحقيقة العبودية. وهو معنى الوصول الذى يدندن حوله القوم.

وملاك هذا الأمر: هو قصد التقرب أولاً. ثم التقرب ثانياً. ثم حال القرب ثالثاً. وهو الانبعاث بالكلية إلى الحبيب.

وحقيقة هذا الانبعاث: أن تفنى بمراده عن هواك، وبما منه عن حظك. بل يصير ذلك هو مجموع حظك ومرادك. وقد عرفت أن من تقرب إلى حبيبه بشىء من الأشياء جوزى على ذلك بقرب هو أضعافه. وعرفت أن أعلى أنواع التقرب: تقرب العبد بجملته- بظاهره وباطنه، وبوجوده - إلى حبيبه. فمن فعل ذلك فقد تقرب بكله، ولن تبق منه بقية لغير حبيبه. كما قيل:

---

(١) رواه البخارى (٧٤٠٥) ومسلم (٦٦٧٩) وأحمد (٢/ ٢٥١) والترمذى (٣٦٠٣) وابن ماجه (٣٨٢٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) أى ليس هذا القرب كما يعتقده الملاحدة القائلون بحلول الله فى خلقه واتحاده واختلاطه بهم. بل الله عز وجل قريب من خلقه وهو مستوٍ على عرشه.

وأما معنى الحديث «من تقرب منى شبراً تقربت منه ذراعًا، ومن تقرب منى ذراعًا تقربت منه باعًا، ومن أتانى يمشى أتيته هرولة» فمعناه سرعة قبول الله تعالى واقباله على عبده المتقرب إليه المتوجه بقلبه وجوارحه وأن مجازاة الله للعامل له أكمل من عمل العامل. وأن من صدق فى الإقبال على ربه وإن كان بطيئاً جازاه الله تعالى بأكمل من عمله وأفضل. والله تعالى أعلم.

لاكان من لسواك فيه بقية   يجد السبيل بها إليه العُذّل

وإذا كان المتقرب إليه بالأعمال يُعطى أضعاف أضعاف ما تقرب به. فما الظن بمن أعطى حال التقرب وذوقه ووجده ؟ فما الظن بمن تقرب إليه بروحه، وجميع إرادته وهمته، وأقواله وأعماله ؟.

وعلى هذا فكما جاد لحبيبه بنفسه، فإنه أهل أن يجاد عليه، بأن يكون ربه سبحانه هو حظه ونصيبه، عوضاً عن كل شيء، جزاءً وفاقاً. فإن الجزاء من جنس العمل. وشواهد هذا كثيرة.

منها: قوله تعالى ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً. ويرزقه من حيث لا يحتسب. ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾[1] ففرق بين الجزاءين كما ترى. وجعل جزاء المتوكل عليه كونه سبحانه حسبه وكافيه.

ومنها: أن الشهيد لما بذل حياته لله أعاضه الله سبحانه حياة أكمل منها عنده فى محل قربه وكرامته.

ومنها: أن من بذل لله شيئاً أعاضه الله خيراً منه.

ومنها: قوله تعالى: ﴿فاذكرونى أذكركم، واشكروا لى ولا تكفرون﴾ [2].

ومنها: قوله فى الحديث القدسى «من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه»[3].

ومنها : قوله « من تقرب منى شبراً تقربت منه ذراعاً » الحديث .

فالعبد لا يزال رابحاً على ربه أفضل مما قدّم له . وهذا المتقرب ، بقلبه وروحه وعمله: يفتح عليه ربه بحياة لا تشبه ما الناس فيه من أنواع الحياة . بل حياة من ليس كذلك بالنسبة إلى حياته : كحياة الجنين فى بطن أمه بالنسبة إلى حياة أهل الدنيا ولذتهم فيها . بل أعظم من ذلك

فهذا نموذج من بيان شرف هذه الحياة وفضلها وإن كان علم هذا يوجب لصاحبه حياة طيبة . فكيف إن انصبغ القلب به ، وصار حالاً ملازماً لذاته ؟ فالله المستعان .

فهذه الحياة : هى حياة الدنيا ونعيمها فى الحقيقة فمن فقدها ففقده لحياته الطبيعية أولى به .

---

(١) سورة الطلاق الآيتان: ٣، ٤.   (٢) سورة البقرة الآية: ١٥٢.   (٣) سبق تخريجه.

هذى حياة الفتى. فإن فقدت ففقده للحياة أليق به

فلا عيش إلا عيش المحبين ، الذين قرت أعينهم بحبيبهم ، وسكنت نفوسهم إليه ، واطمأنت قلوبهم به ، واستأنسوا بقربه ، وتنعموا بحبه . ففى القلب فاقة لا يسدها إلا محبة الله ، والإقبال عليه ، والإنابة إليه ، ولا يلم شعثه بغير ذلك ألبتة . ومن لم يظفر بذلك : فحياته كلها هموم وغموم ، وآلام وحسرات . فإنه إن كان ذا همة عالية تقطعت نفسه على الدنيا حسرات . فإن همته لا ترضى فيها بالدون وإن كان مهينا خسيسا فعيشه كعيش أخس الحيوانات . فلا تقر العيون إلا بمحبة الحبيب الأول .

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل فى الأرض يألفه الفتى وحنينه أبدا لأول منزل

المرتبة التاسعة من مراتب الحياة : حياة الأرواح بعد مفارقتها الأبدان وخلاصها من هذا السجن وضيقه . فإن من ورائه فضاء وروحاً وريحاناً وراحة . نسبة هذه الدار إليه : كنسبة بطن الأم إلى هذه الدار ، أو أدنى من ذلك . قال بعض العارفين: لتكن مبادرتك إلى الخروج من الدنيا كمبادرتك إلى الخروج من السجن الضيق إلى أحبتك ، والاجتماع بهم فى البساتين المونقة . قال الله تعالى فى هذه الحياة ﴿فأما إن كان من المقربين : فروح وريحان وجنة نعيم﴾[1] .

ويكفى فى طيب هذه الحياة : مرافقة الرفيق الأعلى ، ومفارقة الرفيق المؤذى المنكد ، الذى تنغص رؤيته ومشاهدته الحياة ، فضلاً عن مخالطته وعشرته ، إلى الرفيق الأعلى الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ، فى جوار الرب الرحمن الرحيم .

قد قلت ، إذ مدحوا الحياة فأسرفوا فى الموت ألف فضيلة لا تعرف

منها : أمان لقائه بلقائه وفراق كل معاشر لا ينصف

ولو لم يكن فى الموت من الخير إلا أنه باب الدخول إلى هذه الحياة ، وجسر يعبر منه إليها : لكفى به تحفة للمؤمن .

جزى الله عنا الموت خيراً . فإنه أبر بنا من كل بر وألطف

يُعَجِّل تخليص النفوس من الأذى ويدنى إلى الدار التى هى أشرف

فالاجتهاد فى هذا العمر القصير ، والمدة القليلة ، والسعى والكدح ، وتحمل الأثقال،

(١) سورة الواقعة الآية ٨٨، ٨٩.

والتعب والمشقة : إنما هو لهذه الحياة . والعلوم والأعمال : وسيلة إليها . وهى يقظة . وما قبلها من الحياة نوم وهى عين ، وما قبلها أثر وهى حياة جامعة بين فقد المكروه ، وحصول المحبوب فى مقام الأنس ، وحضرةالقدس ، حيث لا يتعذر مطلوب ، ولا يفقد محبوب . حيث الطمأنينة والراحة ، والبهجة والسرور . حيث لا عبارة للعبد عن حقيقة كنهها . لأنها فى بلد لا عهد لنا به . ولا إلف بيننا وبين ساكنه . فالنفس - لإلفها لهذا السجن الضيق النكد زماناً طويلاً - تكره الانتقال منه إلى ذلك البلد . وتستوحش إذا استشعرت مفارقته

وحصول العلم بهذه الحياة : إنما وصل إلينا بخبر إلهى ، على يد أكمل الخلق وأعلمهم وأنصحهمﷺ . فقامت شواهدها فى قلوب أهل الإيمان . حتى صارت لهم بمنزلة العيان . ففرت نفوسهم من هذا الظل الزائل ، والخيال المضمحل ، والعيش الفانى المشوب بالتنغيص وأنواع الغصص ،رغبة فى هذه الحياة ، وشوقاً إلى ذلك الملكوت ، ووجداً بهذا السرور ، وطرباً على هذا الحد ، واشتياقاً لهذا النسيم ، الوارد من محل النعيم المقيم .

ولعمر الله إن من سافر إلى بلد العدل والخصب ، والأمن والسرور : صبر فى طريقه على كل مشقة ، وإعواز وجدب . وفارق المتخلفين أحوج ما كان إليهم ، وأجاب المنادى إذا نادى به : حى على الفلاح . وبذل نفسه فى الوصول بذل المحب بالرضى والسماح ، وواصل السير بالغدو والرواح . فحمد عند الوصول مسراه ، وإنما يحمد المسافر السرى عند الصباح .

عند الصباح يحمد القوم السُّرَى وفى الممات يحمد القوم اللقا

وما هذا - والله - بالصعب ولا بالشديد ، مع هذا العمر القصير ، الذى هو بالنسبة إلى تلك الدار كساعة من نهار ﴿كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثو إلا ساعة من نهار﴾[1] ﴿ ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم ﴾[2] ﴿كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾[3] ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة﴾[4] ﴿ قال : كم لبثتم فى الأرض عدد سنين * قالوا : لبثنا يوماً ، أو بعض يوم فاسأل العادين * قال : إن لبثتم إلا قليلاً . لو أنكم كنتم تعلمون ﴾[5] فلو أن أحدنا يجر على وجهه - يتقى به الشوك والحجارة - إلى هذه الحياة : لم يكن ذلك كثيراً ولا غبناً فى

(١) سورة الأحقاف الآية ٣٥
(٢) سورة يونس الآية ٤٥
(٣) سورة النازعات الآية ٤٦
(٤) سورة الروم الآية ٥٥ .
(٥) سورة المؤمنون الآية ١١٢ ١١٣

جنب ما يوقله .

فواحسرتاه على بصيرة شاهدت هاتين الحياتين على ماهما عليه ، وعلى همة تؤثر الأدنى على الأعلى . وما ذاك إلا بتوفيق من أزمة الأمور بيديه . ومنه ابتداء كل شيء وانتهاؤه إليه ، أقعد نفوس من غلبت عليهم الشقاوة عن السفر إلى هذه الدار ، جذب قلوب من سبقت لهم منه الحسنى . وأقامهم فى الطريق ، وسهل عليهم ركوب الأخطار . فأضاع أولئك مراحل أعمارهم مع المتخلفين وقطع هؤلاء مراحل أعمارهم مع السائرين. وعقدت الغيرة وثار العجاج ، فتوارى عنه السائرون والمتخلفون . وسينجلى عن قريب . فيفوز العاملون . ويخسر المبطلون .

ومن طيب هذه الحياة ولذتها : قال النبى ﷺ « مامن نفس تموت - لها عند الله خير - يسرها أن ترجع إلى الدنيا ، وأن لها الدنيا وما فيها ، إلا الشهيد . فإنه يتمنى الرجوع إلى الدنيا . لما يرى من كرامة الله له »[1] يعنى ليقتل فيه مرة أخرى . وسمع بعض العارفين منشداً ينشد :

إنمـــا العيش فى بهيمة اللـــــ	ذة ، وهو مـــا يقوله الفلسفى
حكم كـأس المنون : أن يتساوى	فى حساها البليد والألمعـــــى
ويصير الغنى تحـت ثـرى الأر	ض . كما صار تحتها اللوذعى
فسل الأرض عنهما إن أوال الشـ	ـك والشبهة الســؤال الجــلـى

فقال : قاتله الله ، ما أشد معاندته للدين والعقل ! هذا نفس عدو الفطرة ، والشريعة، والعقل والإيمان والحكمة . يا مسكين : أمن أجل أن الموت تساوى فيه الصالح والطالح ، والعالم والجاهل ، وصاروا جميعاً تحت أطباق الثرى : أيجب أن يتساووا فى العاقبة ؟ أما تساوى قوم سافروا من بلد إلى بلد فى الطريق ؟ فلما بلغوا القصد نزل كل واحد فى مكان كان معداً له ، وتلقى بغير ما تلقى به رفيقه فى الطريق ؟ أما لكل قوم دار فأجلس كل واحد منهم حيث يليق به ؟ وقوبل هذا بشيء ،و هذا بضده ؟ أما قدم على الملك من جاءه بما يحبه . فأكرمه عليه ، ومن جاءه بما يسخطه ، فعاقبه عليه ؟ أما قدم ركب المدينة . فنزل بعضهم فى قصورها وبساتينها وأماكنها الفاضلة . ونزل قوم على قوارع الطريق بين الكلاب ؟ أما قدم اثنان من بطن الأم الواحدة . فصار هذا إلى الملك ، وهذا إلى الأسر والعناء ؟

---

(١) رواه البخارى (٢٨١٧) و مسلم (٤٧٨٤) وأحمد (١٢٦/٣) والترمذى (١٦٦١) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه

وقولك « سل الأرض عنهما » أما إنا قد سألناها ، فأخبرتنا : أنها قد ضمت أجسادهم وجثثهم وأوصالهم ، لاكفرهم وإيمانهم ، ولا أنسابهم وأحسابهم ، ولا حلمهم وسفههم ، ولا طاعتهم ومعصيتهم ، ولا يقينهم وشكهم ، ولا توحيدهم وشركهم، ولا جورهم وعدلهم ، ولا علمهم وجهلهم . فأخبرتنا عن هذه الجثث البالية والأبدان المتلاشية، والأوصال المتمزقة ، وقالت : هذا خبر ما عندى .

وأما خبر تلك الأرواح ، وما صارت إليه : فسلوا عنها كتب رب العالمين ، ورسله الصادقين ، وخلفاءهم الوارثين . سلوا القرآن ، فعنده الخبر اليقين . وسلوا من جاء به ، فهو بذلك أعرف العارفين . وسلوا العلم والإيمان ، فهما الشاهدان المقبولان . وسلوا العقول والفطر ، فعندها حقيقة الخبر ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات : أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات . سواء محياهم ومماتهم ؟ ساء ما يحكمون ﴾[1] تعالى الله - أحكم الحاكمين - عن هذا الظن والحسبان الذى لا يليق إلا بأجهل الجاهلين .

ثم قال : الناظر فى هذا الباب رجلان رجل ينظر إلى الأشياء ، ورجل ينظر فى الأشياء . فالأول : يحار فيها . فإن صورها وأشكالها وتخطيطها تستفرغ ذهنه وحسه ، وتبدد فكره وقلبه . فنظره إليها بعين حسه ، لا يفيده منها ثمرة الاعتبار . ولا زبدة الاختبار . لأنه لما فقد الاعتبار أولاً ، فإنه فقد الاختيار ثانياً .

وأما الناظر فى الأشياء : فإن نظره يحثه على العبور من صورها إلى حقائقها والمراد بها . وما اقتضى وجودها من الحكمة البالغة ، والعلم التام . فيفيده هذا النظر تمييز مراتبها ، ومعرفة نافعها من ضارها ، وصحيحها من سقيمها ، وباقيها من فانيها ، وقشرها من لبها . ويميز بين الوسيلة والغاية ، وبين وسيلة الشيء ووسيلة ضده ، فيعرف حينئذ أن الدنيا قشر والآخرة لبه وأن الدنيا محل الزرع ، والآخرة وقت الحصاد . وأن الدنيا معبر وممر ، والآخرة دار مستقر .

وإذا عرف أن الدنيا طريق وممر : كان حريا بتهيئة الزاد لقراره ، ويعلم حينئذ أنه لم ينشأ فى هذه الدار للاستيطان والخلود . ولكن للجواز إلى مكان آخر ، هو المنزل والمتبوأ . وأن الإنسان دعى إلى ذلك بكل شريعة ، وعلى لسان كل نبى ، وبكل إشارة ودليل . ونصب له على ذلك علم ، وضرب لأجله كل مثل . ونبه عليه بنشأته الأولى ومبادئه ، وسائر أحواله ، وأحوال طعامه وشرابه ، وأرضه وسمائه . بحيث أزيلت عنه الشبهة ، وأوضحت له المحجة ، وأقيمت عليه الحجة وأعذر إليه غاية الإعذار ، وأمهل أتم الإمهال. فاستبان لذى العقل الصحيح والفطرة السليمة أن الظعن[2] عن هذا المكان

(١) سورة الجاثية الآية ٢١

(٢) أى الرحيل

ضروری ، والانتقال عنه حق لامرية فيه . وأن له محلا آخر . له قد أنشيء. ولأجله قد خلق . وله هيئ . فمصيره إليه . وقدومه بلا ريب عليه . وأن داره هذه : منزل عبور ، لا منزل قرار.

وبالجملة : من نظر فى الموجودات ، ولم يقنع بمجرد النظر إليها وحدها : وجدها دالة على أن وراء هذه الحياة حياة أخرى أكمل منها . وأن هذه الحياة بالنسبة إليها كالمنام بالنسبة إلى اليقظة . وكالظل بالنسبة إلى الشخص . وسمعها كلها تنادى بما نادى به ربها وخالقها وفاطرها ﴿يا أيها الناس ، إن وعد الله حق . فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾[1] وتنادى بلسان الحال ؛ بما نادى به ربها بصريح المقال ﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء . فاختلط به نبات الأرض . فأصبح هشيماً تذروه الرياح . وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾[2] وقال تعالى ﴿ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام . حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت، وظن أهلها أنهم قادرون عليها : أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً . فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس . كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ﴾[3] وقال تعالى ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة ، وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد . كمثل غيث أعجب الكفار نباته . ثم يهيج ، فتراه مصفراً . ثم يكون حطاماً،وفى الآخرة عذاب شديد . ومغفرة من الله ورضوان . وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾[4] ثم ندبهم إلى المسابقة إلى الدار الآخرة الباقية التى لا زوال لها . فقال ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض . أعدت للذين آمنوا بالله ورسله . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . والله ذو الفضل العظيم ﴾[5] .

وسمع بعض العارفين منشداً ينشد عن بعض الزنادقة عند موته - وهو محمد بن زكريا الرازى المتطبب - :

لعمـــــرى ما أدرى - وقد آذن البلى	بعاجل ترحالى - إلى أين ترحالى؟
وأيـن محل الـــروح بعـــد خروجه	عن الهيكل المنحل والجســـد البالى؟

فقال : وما علينا من جهله . إذا لم يدر أين ترحاله ؟ ولكننا ندرى إلى أين ترحالنا وترحاله . أما ترحاله : فإلى دار الأشقياء ، ومحل المنكرين لقدرة الله وحكمته ، والمكذبين بما اتفقت عليه كلمة المرسلين عن ربهم ﴿ أولئك الذين كفروا بربهم . وأولئك الأغلال فى أعناقهم ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾[6] ﴿وقالوا : أئذا ضللنا

(١) سورة فاطرالآية ٤ . (٢) سورة الكهف الآية ٤٥ . (٣) سورة يونس الآية ٢٤ .
(٤) سورة الحديد الآية ٢٠ . (٥) سورة الحديد الآية ٢١ . (٦) سورة الرعد الآية ٥ .

في الأرض أئنا لفي خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون . قل : يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون ولوترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا . فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون ﴾[1]

وأما ترحالنا، أيها المسلمون، المصدقون بلقاء ربهم، وكتبه ورسله فإلى نعيم دائم، وخلود متصل ، ومقام كريم ، وجنة عرضها السموات والأرض في جوار رب العالمين، وأرحم الراحمين، وأقدر القادرين، وأحكم الحاكمين، الذي له الخلق والأمر، وبيده النفع والضر، الأول بالحق، الموجود بالضرورة، المعروف بالفطرة، الذي أقرت به العقول، ودلت عليه كل الموجودات، وشهدت بوحدانيته وربوبيته جميع المخلوقات، وأقرت بها الفطر . المشهود وجوده وقيومته بكل حركة وسكون، بكل ما كان وما هو كائن وما سيكون . الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأنبت به حدائق ذات بهجة من أنواع النباتات، وبث به في الأرض جميع الحيوانات **﴿أمن جعل الأرض قراراً . وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً﴾**[2] الذي يجيب المضطر إذا دعاه ، ويغيث الملهوف إذا ناداه . ويكشف السوء ويفرج الكربات . ويقيل العثرات . الذي يهدى خلقه في ظلمات البر والبحر ، ويرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته . فيحيى الأرض بوابل القطر . الذي يبدأ الخلق ثم يعيده . ويرزق من في السماء والأرض من خلقه وعبيده. الذي يملك السمع والأبصار والأفئدة . ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، ويدبر الأمر **﴿الذي بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه﴾**[3] **﴿ الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك . وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾**[4] المستعان به على كل نائبة وفادحة، والمقصود منه كل بر وكرامة. الذي عنت له الوجوه، وخشعت له الأصوات، وسبحت بحمده الأرض والسموات، وجميع الموجودات الذي لا تسكن الأرواح إلا بحبه ، ولا تطمئن القلوب إلا بذكره، ولا تزكو العقول إلا بمعرفته، ولا يدرك النجاح إلا بتوفيقه، ولا تحيا القلوب إلا بنسيم لطفه وقربه ، ولا يقع أمر إلا بإذنه ، ولا يهتدى ضال إلا بهدايته ،ولا يستقيم ذو أود إلا بتقويمه ، ولا يفهم أحد إلا بتفهيمه . ولا يتخلص من مكروه إلا برحمته، ولا يحفظ شيء إلا بكلاءته، ولا يفتتح أمر إلا باسمه، ولا يتم إلا بحمده، ولا يدرك مأمول إلا بتيسيره، ولا تنال سعادة إلا بطاعته، ولا حياة إلا بذكره ومحبته ومعرفته، ولا طابت الجنة إلا بسماع خطابه ورؤيته . الذي وسع كل شيء رحمة وعلماً، وأوسع كل مخلوق فضلاً وبراً .

---

(١) سورة السجدة الآية ١ ١٢

(٢) سورة النمل الآية ٦١

(٣) سورة المؤمنون الآية ٨٨.

(٤) سورة الفرقان الآية ٢، ٣.

فهو الإله الحق. والرب الحق. والملك الحق. والمتفرد بالكمال المطلق من كل الوجوه. المبرأ عن النقائص والعيوب من كل الوجوه. لا يبلغ المثنون - وإن استوعبوا جميع الأوقات بكل أنواع الثناء - ثناء عليه، بل ثناؤه أعظم من ذلك. فهو كما أثنى على نفسه. هذا الجبار.

وأما الدار: فلا تعلم نفس حسنها وبهاءها، وسعتها ونعيمها. وبهجتها وروحها وراحتها. فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت. ولا خطر على قلب بشر. فيها ما تشتهى الأنفس، وتلذ الأعين. فهى الجامعة لجميع أنواع الأفراح والمسرات، الخالية من جميع المنكدات والمنغصات، ريحانة تهتز، وقصر مشيد، وزوجة حسناء، وفاكهة نضيجة.

فترحالنا أيها - الصادقون المصدقون - إلى هذه الدار بإذن ربنا وتوفيقه وإحسانه.

وترحال الكاذبين المكذبين إلى الدار التى أعدت لمن كفر بالله ولقائه، وكتبه ورسله.

ولن يجمع الله بين الموحدين له - الطالبين لمرضاته، الساعين فى طاعته، الدائبين فى خدمته، المجاهدين فى سبيله - وبين الملحدين، الساعين فى مساخطه، الدائبين فى معصيته، المستفرغين جهدهم فى أهوائهم وشهواتهم: فى دار واحدة، إلا على سبيل الجواز والعبور. كما جمع بينهما فى هذه الدنيا. ويجمع بينهم فى موقف القيامة. فحاشاه من هذا الظن السيىء الذى لا يليق بكماله وحكمته.

فصل

وفى هذه المرتبة تعلم حياة الشهداء، وأنهم عند ربهم يرزقون، وأنها أكمل من حياتهم فى هذه الدنيا، وأتم وأطيب. وإن كانت أجسادهم متلاشية، ولحومهم متمزقة. وأوصالهم متفرقة، وعظامهم نخرة. فليس العمل على الطلل، إنما الشأن فى الساكن. قال الله تعالى ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً. بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾[1] وقال تعالى ﴿ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء. ولكن لا تشعرون﴾[2] وإذا كان الشهداء إنما نالوا هذه الحياة بمتابعة الرسل وعلى أيديهم. فما الظن بحياة الرسل فى البرزخ؟ ولقد أحسن القائل ما شاء:

فالعيش نوم والمنية يقظة ... والمرء بينهما خيال سارى

فللرسل والشهداء والصديقين من هذه الحياة - التى هى يقظة من نوم الدنيا - أكملها وأتمها. وعلى قدر حياة العبد فى هذا العالم يكون شوقه إلى هذه الحياة، وسعيه وحرصه على الظفر بها. والله المستعان.

(١) سورة آل عمران الآية ١٦٨.
(٢) سورة البقرة الآية ١٥٤.

الحياة الدائمة الباقية بعد طَيّ هذا العالم. وذهاب الدنيا وأهلها فى دار الحيوان. وهى الحياة التى شمر إليها المشمرون. وسابق إليها المتسابقون. وتنافس فيها المتنافسون. وهى التى أجرينا الكلام إليها. ونادت الكتب السماوية ورسل الله جميعهم عليها. وهى التى يقول من فاته الاستعداد لها ﴿ إذا دكت الأرض دكاً دكاً * وجاء ربك والملك صفاً صفاً * وجىء يومئذ بجهنم، يومئذ يتذكر الإنسان. وأنى له الذكرى ؟ * يقول : يا ليتنى قدمت لحياتى. فيومئذ لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد﴾[1] وهى التى قال الله عز وجل فيها ﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب، وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون﴾[2] .

و الحقيقة المتقدمة كالنوم بالنسبة إليها. وكل ماتقدم - من وصف السير ومنازله، وأحوال السائرين، وعبوديتهم الظاهرة والباطنة - فوسيلة إلى هذه الحياة. وإنما الحياة الدنيا: بالنسبة إليها، كما قال النبىﷺ « ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يدخل أحدكم إصبعه فى اليم فلينظربم ترجع ؟ »[3] .

وكما قيل : تنفست الآخرة. فكانت الدنيا نفساً من أنفاسها. فأصاب أهل السعادة نفس نعيمها. فهم على هذا النفس يعملون. وأصاب أهل الشقاوة نفس عذابها. فهم على ذلك النفس يعملون.

وإذا كانت حياة أهل الإيمان والعمل الصالح فى هذه الدار حياة طيبة. فما الظن بحياتهم فى البرزخ، وقد تخلصوا من سجن الدنيا وضيقها ؟ فما الظن بحياتهم فى دار النعيم المقيم الذى لا يزول. وهم يرون وجه ربهم تبارك وتعالى بكرة وعشياً ويسمعون خطابه ؟ .

فإن قلت : ما سبب تخلف النفس عن طلب هذه الحياة التى لا خطر لها، وما الذى زهدها فيها ؟ وما سبب رغبتها فى الحياة الفانية المضمحلة، التى هى كالخيال والمنام ؟ أفساد فى تصورها وشعورها ؟ أم تكذيب بتلك الحياة ؟ أم لآفة فى العقل، وعمى هناك ؟ أم إيثار للحاضر المشهود بالعيان على الغائب المعلوم بالإيمان ؟

قيل : بل ذلك لمجموع أمور مركبة من ذلك كله.

وأقوى الأسباب فى ذلك: ضعف الإيمان. فإن الإيمان هو روح الأعمال. وهو الباعث عليها. والآمر بأحسنها، والناهى عن أقبحها. على قدر قوة الإيمان يكون أمره

(١) سورة الفجر الآية ٢١ : ٢٦.   (٢) سورة العنكبوت الآية ٦٤   (٣) سبق تخريجه.

ونهيه لصاحبه، وائتمار صاحبه وانتهاؤه. قال الله تعالى ﴿قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين﴾ (١).

وبالجملة : فإذا قوى الإيمان قوى الشوق إلى هذه الحياة. واشتد طلب صاحبه لها

السبب الثانى : جثوم الغفلة على القلب. فإن الغفلة نوم القلب. ولهذا تجد كثيراً من الأيقاظ فى الحس نياماً فى الواقع. فتحسبهم أيقاظاً وهم رقود، ضد حال من يكون يقظان القلب وهو نائم . فإن القلب إذا قويت فيه الحياة لا ينام إذا نام البدن. وكمال هذه الحياة كان لنبينا ﷺ. ولمن أحيا الله قلبه بمحبته واتباع رسالته على بصيرة من ذلك بحسب نصيبه منهما.

فالغفلة واليقظة يكونان فى الحس والعقل والقلب، فمستيقظ القلب وغافله كمستيقظ البدن ونائمه. وكما أن يقظة الحس على نوعين. فكذلك يقظة القلب على نوعين.

فالنوع الأول من يقظة الحس : أن صاحبها ينفذ فى الأمور الحسية. ويتوغل فيها بكسبه وفطانته، واحتياله وحسن تأتيه .

والنوع الثانى : أن يقبل على نفسه وقلبه وذاته. فيعتنى بتحصيل كماله. فيلحظ عوالى الأمور وسفسافها. فيؤثر الأعلى على الأدنى. ويقدم خير الخيرين بتفويت أدناهما. ويرتكب أخف الشرين خشية حصول أقواهما. ويتحلى بمكارم الأخلاق ومعالى الشيم. فيكون ظاهره جميلاً، وباطنه أجمل من ظاهره، وسريرته خيراً من علانيته. فيزاحم أصحاب المعالى عليها كما يتزاحم أهل الدنيا والدرهم عليهما. فبهذه اليقظة يستعد للنوعين الآخرين منهما.

أحدهما : يقظة تبعثه على اقتباس الحياة الدائمة الباقية، التى لا خطر لها، من هذه الحياة الزائلة الفانية، التى لاقيمة لها.

فإن قلت : مثل لى، كيف تقتبس الحياة الدائمة من الحياة الفانية ؟ وكيف يكون هذا ؟ فإنى لاأفهمه.

قلت : وهذا أيضاً من نوم القلب، بل من موته. وهل تقتبس الحياة الدائمة إلا من هذه الحياة الزائلة ؟ وأنت قد تشعل سراجك من سراج آخر قد أشفى على الانطفاء. فيتقد الثانى ويضىء غاية الإضاءة، ويتصل ضوءه. وينطفىء الأول. والمقتبس لحياته الدائمة من حياته المنقطعة : إنما ينتقل من دار منقطعة إلى دار باقية. وقدتوسط الموت بين الدارين. فهو قنطرة لا يعبر إلى تلك الدار إلا عليها، وباب لا يدخل إليها إلا منه. فهما حياتان فى

(١) سورة البقرة الآية ٩٣ .

دارين بينهما موت ؛ وكما أن نور تلك الدار مقتبس من نور هذه الدار، فحياتها كذلك مقتبسة من حياتها. فعلى قدر نور الإيمان في هذه الدار يكون نور العبد في تلك الدار . وعلى قدر حياته في هذه الدار تكون حياته هناك.

نعم هذا النور والحياة، الذي يقتبس منه ذلك النور والحياة، لا ينقطع ،بل يضيء للعبد في البرزخ، وفي موقف القيامة،وعلى الصراط. فلا يفارقه إلى دار الحيوان. يطفأ نور الشمس وهذاالنور لا يطفأ. وتبطل الحياة المحسوسة وهذه الحياة لا تبطل. هذا أحد نوعي يقظة القلب.

النوع الثاني : يقظة تبعث على حياة. لا تدركها العبارة. ولا ينالها التوهم.ولا يطابق فيها اللفظ لمعناه ألبتة. والذي يشار به إليها: حياة المحب مع حبيبه، الذي لا قوام لقلبه وروحه وحياته إلا به ولا غنى له عنه طرفة عين. ولا قرة لعينه، ولا طمأنينة لقلبه، ولا سكون لروحه، إلا به. فهو أحوج إليه من سمعه وبصره وقوته، بل ومن حياته. فإن حياته بدونه عذاب وآلام، وهموم وأحزان. فحياته موقوفة على قربه وحبه ومصاحبته. وعذاب حجابه عنه : أعظم من العذاب الآخر. كما أن نعيم القلب والروح بإزالة ذلك الحجاب : أعظم من النعيم بالأكل والشرب، والتمتع بالحور العين. فهكذاعذاب الحجاب أعظم من عذاب الجحيم. ولهذا جمع الله سبحانه لأوليائه بين النعيمين في قوله ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾[1] فالحسنى الجنة. والزيادة: رؤية وجهه الكريم في جنات عدن. وجمع لأعدائه بين العذابين في قوله ﴿كلا. إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون * ثم إنهم لصالوا الجحيم﴾[2] .

والمقصود : أن الغفلة هي نوم القلب عن طلب هذه الحياة . وهي حجاب عليه. فإن كشف هذا الحجاب بالذكر وإلا تكاثف حتى يصير حجاب بطالة ولعب، واشتغال بما لا يفيد. فإن بادر إلى كشفه، وإلا تكاثف حتى يصير حجاب معاص وذنوب صغار تبعده عن الله. فإن بادر إلى كشفه وإلا تكاثف حتى يصير حجاب كبائر توجب مقت الرب تعالى له، وغضبه ولعنته فإن بادر إلى كشفه، وإلا تكاثف حتى صار حجاب بدع عملية يعذب العامل فيها نفسه. ولا تجدي عليه شيئاً فإن بادر إلى كشفه، وإلا تكاثف حتى صار حجاب بدع قولية اعتقادية. تتضمن الكذب على الله ورسوله، والتكذيب بالحق الذي جاء به الرسول. فإن بادر إلى كشفه وإلا تكاثف حتى صار حجاب شك وتكذيب يقدح في أصول الإيمان الخمسة. وهي : الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، ولقائه. فلغلظ

(١) سورة يونس الآية ٢٦
(٢) سورة المطففين الآية ١٥

حجابه وكثافته، وظلمته وسواده : لا يرى حقائق الإيمان. ويتمكن منه الشيطان، يعده ويمنيه، والنفس الأمارة بالسوء تهوى وتشتهى . وسلطان الطبع قد ظفر بسلطان الإيمان. فأسره وسجنه، إن لم يهلكه. وتولى تدبير المملكة واستخدام جنود الشهوات، وأقطعها العوائد التى جرى عليها العمل. وأغلق باب اليقظة. وأقام عليه بواب الغفلة. وقال: إياك أن نؤتى من قبلك. واتخذ حاجباً من الهوى، وقال : إياك أن تمكن أحداً يدخل على إلا معك. فأمر هذه المملكة قد صار إليك وإلى البواب. فيا بواب الغفلة، ويا حاجب الهوى ليلزم كل منكما ثغره، فإن أخليتما فسد أمر مملكتنا، وعادت الدولة لغيرنا، وسامنا سلطان الإيمان شر الخزى والهوان. ولانفرح بهذه المدينة أبداً.

فلا إله إلاالله إذا اجتمعت على القلب هذه العساكر، مع رقة الإيمان، وقلة الأعوان، والإعراض عن ذكر الرحمن، والانخراط فى سلك أبناء الزمان، وطول الأمل المفسد للإنسان- أن آثرالعاجل الحاضر على الغائب الموعود به بعد طى هذه الاكوان. فالله المستعان وعليه التكلان.

فهذا فصل مختصر نافع فى ذكر الحياة وأنواعها، والتشويق إلى أشرفهاوأطيبها. فمن صادف من قلبه حياة انتفع به، وإلا فَخُودٌ تزف إلى ضرير مقعد.

فصل

(باب التوحيد)

« التوحيد » أول دعوة الرسل . وأول منازل الطريق . وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله تعالى . قال تعالى ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه . فقال : يا قوم اعبدوا الله. ما لكم من إله غيره ﴾[1] و قال هود لقومه ﴿اعبدوا الله مالكم من إله غيره ﴾[2] وقال صالح لقومه ﴿اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾[3] وقال شعيب لقومه ﴿اعبدوا الله مالكم من إله غيره ﴾[4] وقال تعالى ﴿ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً : أن اعبدوا الله ، واجتنبوا الطاغوت﴾[5] .

فالتوحيد : مفتاح دعوة الرسل . ولهذا قال النبى ﷺ لرسوله معاذ بن جبل رضى الله عنه - وقد بعثه إلى اليمن - « إنك تأتى قوماً أهل كتاب . فليكن أولَ ما تدعوهم إليه: عبادة الله وحده . فإذا شهدوا أن لا إله إلاَّ الله . وأن محمداً رسول الله . فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات فى اليوم والليلة - وذكر الحديث »[6] وقال ﷺ

(١) سورة الأعراف الآية ٥٩ . (٢) سورة الأعراف الآية ٦٥ (٣) سورة الأعراف الآية ٧٣.

(٤) سورة الأعراف الآية ٨٥ . (٥) سورة النحل الآية ٣٦

(٦) رواه البخارى (٣٤٧) ومسلم (١٩، ٢٩) وأحمد (١/ ٢٣٢) وأبو داود (١٥٨٤) والترمذى (٦٢٥) والنسائى (٥/ ٢-٤)

«أمرتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله »[1] ولهذا كان الصحيح: أن أول واجب يجب على المكلف : شهادة أن لا إله إلا الله . لا النظر ، ولا القصد إلى النظر ، ولا الشك - كما هى أقوال لأرباب الكلام المذموم .

فالتوحيد : أول ما يدخل به فى الإسلام ، وآخر ما يخرج به من الدنيا .كما قال النبى ﷺ « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله : دخل الجنة » [2]فهو أول واجب ، و آخر واجب . فالتوحيد : أول الأمر وآخره .

و التوحيد الذى دعت إليه رسل الله نوعان: توحيد فى المعرفة والإثبات ، وتوحيد فى المطلب والقصد .

فالاول : هو حقيقة ذات الرب تعالى، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله ، وعلوه فوق سمواته على عرشه، وتكلمه بكتبه، وتكليمه لمن شاء من عباده، وإثبات عموم قضائه، وقدره، وحكمه. وقد أفصح القرآن عن هذا النوع جد الإفصاح كما فى أول سورة الحديد، وسورة طه، وآخر سورة الحشر، وأول سورة تنزيل السجدة، وأول سورة آل عمران، وسورة الإخلاص بكمالها. وغير ذلك.

النوع الثانى: مثل ما تضمنته سورة « قل : يا أيها الكافرون » وقوله ﴿قل يا أهل الكتاب تعالَوْا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم - الآية ﴾[3] وأول سورة «تنزيل الكتاب » وآخرها، وأول سورة « يونس» ووسطها وآخرها وأول سورة «الأعراف» وآخرها، وجملة سورة « الأنعام» وغالب سور القرآن، بل كل سورة فى القرآن فهى متضمنة لنوعى التوحيد.

بل نقول قولا كلياً : إن كل آية فى القرآن فهى متضمنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه. فإن القرآن : إما خبر عن الله، وأسمائه وصفاته وأفعاله. فهو التوحيد العلمى الخبرى . وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع كل ما يعبد من دونه. فهو التوحيد الإرادى الطلبى. وإما أمر ونهى، وإلزام بطاعته فى نهيه وأمره. فهى حقوق التوحيد ومكملاته. وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته ، وما فعل بهم فى الدنيا ، وما يكرمهم به فى الآخرة . فهو جزاء توحيده وإما خبر عن أهل الشرك ، وما فعل بهم فى الدنيا من النكال ، وما يحل بهم فى العقبى من العذاب . فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد.

---

(1) رواه البخارى (25) ومسلم (128) عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما

(2) حسن . رواه أحمد (5/233) والحاكم (1/351) والبيهقى فى «الأسماء والصفات»ص53

(3) سورة آل عمران الآية: 64.

فالقرآن كله فى التوحيد وحقوقه وجزائه ، وفى شأن الشرك وأهله وجزائهم فـ ﴿الحمد لله﴾ توحيد ﴿رب العالمين﴾ توحيد ﴿الرحمن الرحيم﴾ توحيد ﴿مالك يوم الدين﴾ توحيد ﴿إياك نعبد﴾ توحيد ﴿وإياك نستعين﴾ توحيد ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ توحيد متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد ، الذين أنعم الله عليهم ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ الذين فارقوا التوحيد . ولذلك شهد الله لنفسه بهذا التوحيد. وشهد له به ملائكته، وأنبياؤه ورسله. قال ﴿شَهِدَ الله أَنَّه لا إله إلاَّ هُوَ. وَالمَلائكَةُ ، وأُولُوا العِلم. قَائِماً بِالقِسْطِ. لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ العزيزُ الحكيمُ . إنَّ الدِّينَ عند الله الإسْلاَمَ﴾ (١).

فتضمنت هذه الآية الكريمة إثبات حقيقة التوحيد، والرد على جميع هذه الطوائف، والشهادة ببطلان أقوالهم ومذاهبهم. وهذا إنما يتبين بعد فهم الآية ببيان ما تضمنته من المعارف الإلهية ، والحقائق الإيمانية .

فتضمنت هذه الآية : أجل شهادة ، وأعظمها ، وأعدلها، وأصدقها، من أجلِّ شاهد، بأجلِّ مشهود به . وعبارات السلف فى « شهد » تدور على الحكم والقضاء، والإعلام والبيان، والإخبار . قال مجاهد : حكَمَ، وقضى . وقال الزجاج : بيَّنَ . وقالت طائفة : أعلم وأخبر . وهذه الأقوال كلها حق لا تنافى بينها فإن « الشهادة » تتضمن كلام الشاهد وخبره ، وقوله. وتتضمن إعلامه ، وإخباره وبيانه. فلها أربع مراتب. فأول مراتبها: علم، ومعرفة، واعتقاد لصحة المشهود به، وثبوته. وثانيها : تكلمه بذلك، ونطقه به، وإن لم يُعلم به غيره. بل يتكلم به مع نفسه ويذكرها، وينطق بها أو يكتبها. وثالثها: أن يُعلم غيره بما شهد به، ويخبره به، يبينه له. ورابعها : أن يلزمه بمضمونها ويأمره به .

فشهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية، والقيام بالقسط : تضمنت هذه المراتب الأربع : علم الله سبحانه بذلك. وتكلمه به ، وإعلامه، وإخباره لخلقه به، وأمرهم وإلزامهم به.

أما مرتبة العلم: فإن الشهادة بالحق تتضمنها ضرورة، وإلا كان الشاهد شاهداً بما لا علم له به. قال الله تعالى ﴿إلا من شهد بالحق وهم يعلمون﴾(٢) وقال النبى ﷺ «على مثلها فاشهد»(٣) وأشار إلى الشمس.

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٨، ١٩.
(٢) سورة الزخرف الآية ٨٦.
(٣) ضعيف رواه العقيلى فى «الضعفاء» (٤/ ٧٠) وابن عدى فى «الكامل» (٦ / ٢٠٧) والحاكم وأبو نعيم فى «الحلية» كما فى «تلخيص الحبير» (٤/١٩٨) من حديث ابن عباس رضى الله عنه وفى إسناده محمد بن سليمان بن مسمول وهو ضعيف وقال البيهقى : لم يرو من وجه يعتمد عليه .

ولها مرتبة التكلم والخبر : فمن تكلم بشيء وأخبر به فقد شهد به، وإن لم يتلفظ بالشهادة قال تعالى ﴿قل . هلُمَّ شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا . فإن شهدوا فلا تشهد معهم ﴾[1] وقال تعالى ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً. أشهدوا خلقهم؟ ستكتب شهادتهم ويُسألون﴾[2]. فجعل ذلك منهم شهادة ، وإن لم يتلفظوا بلفظ الشهادة، ولم يؤدوها عند غيرهم. قال النبي ﷺ « عَدَلَتْ شهادةُ الزور الإشراك بالله»[3] فشهادة الزور هي قول الزور . كما قال تعالى ﴿واجتنبوا قول الزور. حنفاء لله غير مشركين به ﴾[4] وعند نزول هذه الآية قال رسول الله ﷺ « عدلت شهادة الزور الإشراك بالله » فسمى قول الزور شهادة . وسمى الله تعالى إقرار العبد على نفسه شهادة. قال تعالى ﴿يا أيهاالذين آمنوا ، كونوا قوامين بالقسط شهداء لله.ولو على أنفسكم﴾[5] فشهادة المرء على نفسه : هي إقراره على نفسه. وفي الحديث الصحيح في قصة ماعز الأسلمي «لما شهد على نفسه أربع مرات رجمه رسول الله ﷺ»[6] وقال تعالى ﴿قالوا: شهدنا على أنفسنا. وغرتهم الحياة الدنيا. وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾[7]

وهذا - وأضعافه - يدل على أن الشاهد عند الحاكم وغيره : لا يشترط في قبول شهادته أن يتلفظ بلفظ الشهادة . كما هو مذهب مالك ، وأهل المدينة. وظاهر كلام أحمد . ولا يعرف عن أحد من الصحابة والتابعين اشتراط ذلك . وقد قال ابن عباس «شهد عندي رجال مرضيون - وأرضاهم عندي عمر - أن رسول الله ﷺ نهى عن الصلاة بعد الصبح حتى تطلع الشمس، وبعد العصرحتى تغرب الشمس »[8] ومعلوم أنهم لم يتلفظوا بلفظ الشهادة. والعشرة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة لم يتلفظ في شهادته لهم بلفظ الشهادة. بل قال « أبو بكر في الجنة ، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة »[9] الحديث.

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٥ . (٢) سورة الزخرف الآية ١٩ .

(٣) ضعيف رواه أبو داود(٣٥٩٩) والترمذي (٢٣) وابن ماجه (٢٣٧٢) وابن سلام في«الايمان » (ص٤٩) وقال الترمذي هذا حديث غريب. وانظر«الضعيفة» (١١١٠).

(٤) سورة الحج الآية ٣١. (٥) سورة النساء الآية ١٣٥ .

(٦) رواه البخاري (٦٨١٤) ومسلم (٤٣٤٣) وأبو داود (٤٤٣) والترمذي (١٤٢٩) والنسائي (٢/ ٦٤) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه

(٧) سورة الأنعام الآية ٢٣

(٨) رواه البخاري (٥٨١)و مسلم (١٨٩) وأحمد (١/ ٣٩) وأبو داود (١٢٧٦) والترمذي (١٨٣) والنسائي (١/ [illegible]) وابن ماجه (١٢٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما

(٩) صحيح رواه أحمد (١/ ١٩٣) والترمذي (٣٧٤٧) عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه رواه أحمد (١/ [illegible]) من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه

وأجمع المسلمون على أن الكافر إذا قال « لا إله إلا الله محمد رسول الله » فقد دخل في الإسلام. وشهد شهادة الحق. ولم يتوقف إسلامه على لفظ الشهادة وأنه قد دخل في قوله « حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله» وفي لفظ آخر «حتى يقولوا لا إله إلا الله » فدل على أن مجرد قولهم « لا إله إلا الله » شهادة منهم. وهذا أكثر من أن تذكر شواهده من الكتاب والسنة. فليس مع من اشتراط لفظ الشهادة . دليل يعتمد عليه. والله أعلم .

فصل

وأما مرتبة الإعلام والإخبار ، فنوعان : إعلام بالقول. وإعلام بالفعل. وهذا شأن كل معلم لغيره بأمر : تارة يعلمه بقوله وتارة بفعله. ولهذا كان من جعل داراً مسجداً، وفتح بابها لكل من دخل إليها، وأذن بالصلاة فيها : معلماً أنها وقف. وإن لم يتلفظ به. وكذلك من وجد متقرباً إلى غيره بأنواع المسار: معلماً له ولغيره أنه يحبه ، وإن لم يتلفظ بقوله، وكذلك بالعكس. وكذلك شهادة الرب جل جلاله وبيانه وإعلامه : يكون بقوله تارة، وبفعله تارة أخرى . فالقول : هو ما أرسل به رسله. وأنزل به كتبه. ومما قد علم بالاضطرار : أن جميع الرسل أخبروا عن الله : أنه شهد لنفسه « بأنه لا إله إلا هو » وأخبر بذلك . وأمر عباده أن يشهدوا به. وشهادته سبحانه « أن لا إله إلا هو » معلومة من جهة كل من بلغ عنه كلام.

وأما بيانه وإعلامه بفعله : فهو ما تضمنه خبره تعالى عن الأدلة الدالة على وحدانيته التي تعلم دلالتها بالعقل والفطرة . وهذا أيضاً يستعمل فيه لفظ الشهادة، كما يستعمل فيه لفظ الدلالة، والإرشاد والبيان. فإن الدليل يبين المدلول عليه ويظهره، كما يبينه الشاهد والمخبر . بل قد يكون البيان بالفعل أظهر وأبلغ . وقد يسمى شاهد الحال نطقاً وقولاً وكلاماً . لقيامه مقامه ، وأدائه مؤداه. كما قيل :

وقالت له العينان : سمعاً وطاعة وحَــدَّرتا بالــــدر لما يثقب

وقال الآخر :

شـكا إليَّ جملي طـول السُّرى صـبراً جميلي . فكلانا مبتلى

وقال الآخر:

امتلأ الحـوض ، وقال : قَـطْني مهلاً رويداً . قد ملأت بطني

ويسمى هذا شهادة أيضاً. كما في قوله تعالى ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد

الله، شاهدين على أنفسهم بالكفر﴾[1] فهذه شهادة منهم على أنفسهم بما يفعلون من أعمال الكفر وأقواله. فهى شهادة بكفرهم. وهم شاهدون على أنفسهم بما شهدت به.

والمقصود: أن الله سبحانه يشهد بما جعل آياته المخلوقة دالة عليه. فإن دلالتها إنما هى بخلقه وجعله. ويشهد بآياته القولية الكلامية المطابقة لما شهدت به آياته الخلقية. فتتطابق شهادة القول وشهادة الفعل. كما قال تعالى ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾[2] أى أن القرآن حق. فأخبر أنه يدل بآياته الأفقية والنفسية على صدق آياته القولية الكلامية. وهذه الشهادة الفعلية قد ذكرها غير واحد من أئمة العربية والتفسير. قال ابن كيسان: شهد الله بتدبيره العجيب وأموره المحكمة عند خلقه: أنه لا إله إلا هو.

فصل

وأما المرتبة الرابعة - وهى الأمر بذلك والإلزام به، وإن كان مجرد الشهادة لا يستلزمه، لكن الشهادة فى هذا الموضع تدل عليه وتتضمنه- فإنه سبحانه شهد به شهادة من حكم به، وقضى وأمر، وألزم عباده به. كما قال تعالى ﴿وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه﴾[3] وقال تعالى ﴿وقال الله: لا تتخذوا إلهين اثنين. إنما هو إله واحد﴾[4] وقال تعالى ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾[5] وقال تعالى ﴿ولا تجعل مع الله إلهاً آخر﴾[6] وقال الله سبحانه وتعالى ﴿ولا تدع مع الله إلهاً آخر﴾[7] والقرآن كله شاهد بذلك.

ووجه استلزام شهادته سبحانه لذلك: أنه إذا شهد أنه لا إله إلا هو، فقد أخبر، وبيّن وأعلم، وحكم وقضى: أن ما سواه ليس بإله. وأن إلهية ما سواه أبطل الباطل، وإثباتها أظلم الظلم. فلا يستحق العبادة سواه. كما لا تصلح الإلهية لغيره. وذلك يستلزم الأمر باتخاذه وحده إلهاً، والنهى عن اتخاذ غيره معه إلهاً. وهذا يفهمه المخاطب من هذا النفى والإثبات. كما إذا رأيت رجلاً يستفتى أو يستشهد، أو يستطب من ليس أهلاً لذلك، ويدع من هو أهل له فتقول هذا ليس بمفتٍ ولا شاهد ولا طبيب. المفتى فلان. والشاهد فلان. والطبيب فلان. فإن هذا أمر منك ونهى.

وأيضاً فإن الأدلة قد دلت على أنه سبحانه وحده المستحق للعبادة فإذا أخبر أنه هو وحده المستحق للعبادة، تضمن هذا الإخبار أمر العباد وإلزامهم بأداء ما يستحقه الرب

(1) سورة التوبة الآية ١٧
(2) سورة فصلت الآية ٥٣. (3) سورة الإسراء الآية ٢٣ (4) سورة النحل الآية ٥١
(5) سورة البينة الآية ٥ (6) سورة الإسراء الآية ٢٢، ٣٩. (7) سورة القصص الآية ٨٨

تعالى عليهم وأن القيام بذلك هو خالص حقه عليهم. فإذا شهد سبحانه أنه «لا إله إلا هو» تضمنت شهادته الأمر والإلزام بتوحيده.

وأيضاً فلفظ «الحكم» و «القضاء» يستعمل فى الجمل الخبرية. فيقال للجملة الخبرية «قضية» و «حكم» وقد حُكم فيها بكيت وكيت، قال تعالى ﴿ألا إنهم من إفكهم ليقولون:وَلَدَ اللَّهُ، وإنهم لكاذبون* أصطفى البنات على البنين؟ مالكم؟ كيف تحكمون﴾[1] فجعل هذا الإخبار المجرد منهم حكماً. وقال فى موضع آخر ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون﴾[2] لكن هذا حكم لاإلزام معه، والحكم والقضاء بأنه لا إله إلا هو متضمن للإلزام. والله سبحانه أعلم.

فصل

وقوله تعالى «قائماً بالقسط» القسط: هو العدل. فشهد الله سبحانه: أنه قائم بالعدل فى توحيده. وبالوحدانية فى عدله. و «التوحيد» و«العدل» هما جماع صفات الكمال. فإن «التوحيد» يتضمن تفرده سبحانه بالكمال والجلال والمجد والتعظيم الذى لا ينبغى لأحد سواه. و«العدل» يتضمن وقوع أفعاله كلها على السداد والصواب وموافقة الحكمة.

فهذا توحيدالرسل وعدلهم: إثبات الصفات، والأمر بعبادة الله وحده لا شريك له. وإثبات القدر والحِكَم. والغايات المطلوبة المحمودة بفعله وأمره. لا توحيد الجهمية والمعتزلة والقدرية، الذى هو إنكار الصفات وحقائق الأسماء الحسنى، وعدلهم، الذى هو: التكذيب بالقدر، أو نفى الحِكَم والغايات والعواقب الحميدة التى يفعل الله لأجلها ويأمر. وقيامه سبحانه بالقسط فى شهادته يتضمن أموراً

أحدها: أنه قائم بالقسط فى هذه الشهادة التى هى أعدل شهادة على الإطلاق. وإنكارها وجحودها أعظم الظلم على الإطلاق. فلا أعدل من التوحيد ولا أظلم من الشرك. فهو سبحانه قائم بالعدل فى هذه الشهادة قولاً وفعلاً، حيث شهد بها، وأخبر وأعلم عبادة. وبين لهم تحقيقها وصحتها. وألزمهم بمقتضاها. وحكم به. وجعل الثواب والعقاب عليها. وجعل الأمر والنهى من حقوقها وواجباتها. فالدين كله من حقوقها. والثواب كله عليها. والعقاب كله على تركها.

وهذا هو العدل الذى قام به الرب تعالى فى هذه الشهادة فأوامره كلها تكميل لها، وأمر بأداء حقوقها ونواهيه كلها صيانة لها عما يهضمها ويضادها وثوابه كله عليها وعقابه كله على تركها، وترك حقوقها وخلقه السماوات والأرض وما بينهما كان بها ولأجلها وهى الحق الذى خلقت به. وضدها هو الباطل والعبث الذى نزه نفسه عنه

(١) سورة الصافات الآية ١٥١-١٥٤ (٢) القلم الآية ٣٥، ٣٦

وأخبر: أنه لم يخلق به السماوات والأرض، قال تعالى- رداً على المشركين المنكرين لهذه الشهادة - ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً. ذلك ظن الذين كفروا. فويل للذين كفروا من النار﴾[1] وقال تعالى ﴿حم* تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم* ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى. والذين كفروا عما أنذروا معرضون﴾[2] وقال ﴿وهو الذى جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً. وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب.ما خلق الله ذلك إلا بالحق﴾[3] وقال ﴿أولم يتفكروا فى أنفسهم؟ ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى. وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون﴾[4] وقال ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين* ماخلقناهما إلا بالحق﴾[5] وهذا كثير فى القرآن. والحق الذى خلقت به السماوات والأرض ولأجله: هو التوحيد. وحقوقه من الأمر والنهى، والثواب والعقاب. فالشرع والقدر، والخلق والأمر، والثواب والعقاب قائم بالعدل. والتوحيد صادر عنهما. وهذا هو الصراط المستقيم الذى عليه الرب سبحانه وتعالى. قال تعالى- حكاية عن نبيه هود - ﴿إنى توكلت على الله ربى وربكم. ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها. إن ربى على صراط مستقيم﴾[6] فهو سبحانه على صراط مستقيم فى قوله وفعله. فهو يقول الحق. ويفعل العدل ﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً. لا مبدل لكلماته. وهو السميع العليم﴾[7] ﴿والله يقول الحق. وهو يهدى السبيل﴾[8].

فالصراط المستقيم- الذى عليه ربنا تبارك وتعالى-: هو مقتضى التوحيد والعدل. قال تعالى ﴿وضرب الله مثلاً: رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شئ. وهو كَلّ على مولاه. أينما يوجهه لا يأت بخير. هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل؟ وهو على صراط مستقيم﴾[9] فهذا مثل ضربه الله لنفسه وللصنم. فهو سبحانه الذى يأمر بالعدل. وهو على صراط مستقيم. والصنم مثل العبد الذى هو كَلّ على مولاه. أينما يوجهه لا يأت بخير

والمقصود: أن قوله تعالى ﴿قائماً بالقسط﴾ هو كقوله ﴿إن ربى على صراط مستقيم﴾ وقوله﴿قائماً بالقسط﴾ نصب على الحال. وفيه وجهان. أحدهما: أنه حال من الفاعل فى «شهد الله»والعامل فيها الفعل والمعنى على هذا: شهد الله حال قيامه بالقسط: أنه لا إله إلا هو. والثانى أنه حال من قوله «هو»والعامل فيها، معنى النفى. أى لا إله إلا هو، حال كونه قائماً بالقسط وبين التقديرين فرق ظاهر. فإن التقدير الأول: يتضمن أن المعنى: شهد الله - متكلماً بالعدل، مخبراً به، آمراً به، فاعلاً له، مجازياً به- أنه لا إله إلا هو.

---

(١) سورة ص الآية ٢٧. (٢) سورة الأحقاف الآية ١-٣ (٣) سورة يونس الآية ٥
(٤) سورة الروم الآية ٨. (٥) سورة الدخان الآية ٨. - (٦) سورة هود الآية ٥٦
(٧) سورة الأنعام الآية ١١٥. (٨) سورة الأحزاب الآية ٤ (٩) سورة النحل الآية ٧٦

فإن العدل يكون فى القول والفعل. و «المقسط» هو العادل فى قوله وفعله. فشهد الله قائماً بالعدل- قولاً وفعلاً- أنه لا إله إلا هو. وفى ذلك تحقيق لكون هذه الشهادة شهادة عدل وقسط. وهى أعدل شهادة، كما أن المشهود به أعدل شىء وأصحه وأحقه. وإذا كان القيام بالقسط يكون فى القول والفعل كان المعنى: أنه كان سبحانه يشهد وهو قائم بالعدل عالم به، لا بالظلم. فإن هذه الشهادة تضمنت قولاً وعملاً. فإنها تضمنت: أنه هو الذى يستحق العبادة وحده دون غيره، وأن الذين عبدوه وحده: هم المفلحون السعداء. وأن الذين أشركوا به غيره هم الضالون الأشقياء. فإذا شهد قائماً بالعدل- المتضمن جزاء المخلصين بالجنة، وجزاء المشركين بالنار-: كان هذا من تمام موجب الشهادة وتحقيقها. وكان قوله «قائماً بالقسط» تنبيها على جزاء الشاهد بها والجاحد لها. والله أعلم.

فصل

وأما التقدير الثانى- وهو أن يكون قوله «قائماً» حالاً مما بعد «إلا»- فالمعنى: أنه لا إله إلا هو قائماً بالعدل. فهو وحده المستحق الإلهيه، مع كونه قائماً بالقسط. قال شيخنا: وهذا التقدير أرجح. فإنه يتضمن: أن الملائكة وأولى العلم يشهدون له بأنه لا إله إلا هو، وأنه قائم بالقسط.

قلت: مراده أنه إذا كان قوله ﴿قائماً بالقسط﴾ حالاً من المشهود به. فهو كالصفة له. فإن الحال صفة فى المعنى لصاحبها. فإذا وقعت الشهادة على ذى الحال وصاحبها كان كلاهما مشهوداً به. فيكون «الملائكة وأولو العلم» قد شهدوا بأنه قائم بالقسط. كما شهدوا بأنه لا إله إلا هو. والتقدير الأول لا يتضمن ذلك. فإنه إذا كان التقدير: شهد الله - قائماً بالقسط - أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم يشهدون أنه لا إله إلا هو: كان القيام بالقسط حالاً من اسم «الله» وحده.

وأيضا فكونه قائماً بالقسط فيما شهد به أبلغ من كونه حالاً من مجرد الشهادة

فإن قيل: فإذا كان حالاً من «هو» فهلا اقترن به؟ ولم فصل بين صاحب الحال وبينها بالمعطوف، فجاء متوسطاً بين صاحب الحال وبينها؟.

قلت: فائدته ظاهرة. فإنه لو قال «شهد الله أنه لا إله إلا هو قائماً بالقسط والملائكة وأولو العلم» لأوهم عطف الملائكة وأولى العلم على الضمير فى قوله «قائما بالقسط» ولا يحسن العطف لأجل الفصل. وليس المعنى على ذلك قطعاً. وإنما المعنى على خلافه. وهو أن قيامه بالقسط مختص به، كما أنه مختص بالإلهية. فهو وحده الإله المعبود المستحق العبادة. وهو وحده المجازى المثيب المعاقب بالعدل

قوله «لا إله إلا هو» ذكر محمد بن جعفر أنه قال: الأولى وصف وتوحيد، والثانية: رسم وتعليم، أى قولوا «لا إله إلا هو» ومعنى هذا. أن الأولى تضمنت أن الله سبحانه شهد بها وأخبر بها. والتالى للقرآن إنما يخبر عن شهادته هو. وليس فى ذلك شهادة من التالى نفسه. فأعاد سبحانه ذكرها مجردة ليقولها التالى. فيكون شاهداً هو أيضاً.

وأيضاً فالأولى : خبر عن الشهادة بالتوحيد. والثانية: خبر عن نفس التوحيد. وختم بقوله «العزيز الحكيم» فتضمنت الآية توحيده وعدله، وعزته وحكمته. فالتوحيد: يتضمن ثبوت صفات كماله، ونعوت جلاله، وعدم المماثل له فيها وعبادته وحده لا شريك له. و«العدل» يتضمن وضعه الأشياء موضعها، وتنزيلها منازلها، وأنه لم يخص شيئاً منها إلا بمخصص اقتضى ذلك. وأنه لا يعاقب من لا يستحق العقوبة، ولا يمنع من يستحق العطاء، وإن كان هو الذى جعله مستحقاً. و «العزة» تتضمن كمال قدرته وقوته وقهره. و«الحكمة» تتضمن كمال علمه وخبرته، وأنه أمر ونهى، وخلق وقدر، لما له فى ذلك من الحكم والغايات الحميدة التى يستحق عليها كمال الحمد.

فاسمه «العزيز» يتضمن الملك. واسمه «الحكيم» يتضمن الحمد. وأول الآية يتضمن التوحيد. وذلك حقيقة «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد. وهو على كل شىء قدير» وذلك أفضل ما قاله رسول الله ﷺ والنبيون من قبله. و«الحكيم» الذى إذا أمر بأمر كان حسناً فى نفسه. وإذا نهى عن شىء كان قبيحاً فى نفسه. وإذا أخبر بخبر كان صدقاً، وإذا فعل فعلاً كان صواباً. وإذا أراد شيئاً كان أولى بالإرادة من غيره. وهذا الوصف على الكمال لا يكون إلا لله وحده.

فتضمنت هذه الآية وهذه الشهادة: الدلالة على وحدانيته المنافية للشرك. وعدله المنافى للظلم. وعزته المنافية للعجز. وحكمته المنافية للجهل والعيب. ففيها الشهادة له بالتوحيد، والعدل، والقدرة والعلم والحكمة ولهذا كانت أعظم شهادة.

ولا يقوم بهذه الشهادة على وجهها من جميع الطوائف إلا أهل السنة. وسائر طوائف أهل البدع لا يقومون بها فالفلاسفة أشد الناس إنكاراً وجحوداً لمضمونها، من أولها إلى آخرها.

وطوائف الاتحادية : هم أبعد خلق الله عنها من كل وجه ، وطائفه الجهمية تنكر حقيقتها من وجوه:

منها: أن «الإله» هو الذى تألهه القلوب ، محبة له ، واشتياقاً إليه ، وإنابة . وعندهم أن الله لا يحب ولا يحب

ومنها : أن «الشهادة» كلامه وخبره عما شهد به . وهو عندهم لا يقول ولا يتكلم. ولا يشهد ولا يخبر.

ومنها: أنها تتضمن مباينته لخلقه بذاته وصفاته .وعند فرعونيهم : أنه لا يباين الخلق ولا يحايثهم . وليس فوق العرش إله يعبد ، ولا رب يصلى له ويسجد. وعند حلوليتهم: أنه حال فى كل مكان بذاته ، حتى فى الأمكنة التى يستحيي من ذكرها. فهؤلاء مثبتة الجهمية .وأولئك نفاتهم.

ومنها : أن قيامه بالقسط فى أفعاله وأقواله ، وعندهم : أنه لم يقم ولا يقوم به فعل ولا قول ألبتة. وأن قوله مخلوق من بعض المخلوقات ، وفعله هو المفعول المنفصل . وأما أن يكون له فعل يكون به فاعلاً حقيقة: فلا.

ومنها : أن «القسط» عندهم لا حقيقة له. بل كل ممكن فهو قسط. وليس فى مقدوره ما يكون ظلماً وقسطاً بل الظلم عندهم هو المحال الممتنع لذاته . والقسط هو الممكن . فنزه الله سبحانه نفسه - على قولهم - عن المحال الممتنع لذاته الذى لا يدخل تحت القدرة.

ومنها: أن العزة هى القوة والقدرة .وعندهم لا يقوم به صفة ولا له صفة وقدرة تسمى قدرة وقوه.

ومنها: أن «الحكمة» هى الغاية التى يفعل لأجلها ، وتكون هى المطلوبة بالفعل . ويكون وجودها أولى من عدمها.وهذا عندهم ممتنع فى حقه سبحانه. فلا يفعل لحكمة ولا غايه . بل لا غاية لفعله ولا أمره وما ثم إلا محض المشيئة المجردة عن الحكمة والتعليل.

ومنها: أن «الإله» هو الذى له الأسماء الحسنى والصفات العلى: وهو الذى يفعل بقدرته ومشيته وحكمته. وهو الموصوف بالصفات والأفعال والمسمى بالأسماء التى قامت بها حقائقها ومعانيها .وهذا لايثبته على الحقيقة الا اتباع الرسل. وهم أهل العدل والتوحيد.

فالجهمية والمعتزلة : تزعم أن ذاته لا تُحب . ووجهه لا يرى ، ولا يلتذ بالنظر إليه . ولا تشتاق القلوب إليه . فهم فى الحقيقة منكرون الإلهية .

والقدرية : تنكر دخول أفعال الملائكة والجن والإنس وسائر الحيوان تحت قدرته ومشيئته وخلقه فهم منكرون فى الحقيقة لكمال عزته وملكه.

والجبرية:تنكر حكمته،وأن يكون له فى أفعاله وأوامره غاية يفعل ويأمر لأجلها فهم منكرون فى الحقيقة لحكمته وحمده.

وأتباع ابن سينا والنصير الطوسي وفروخهما: ينكرون أن يكون ماهية غير الوجود المطلق ، وأن يكون له وصف ثبوتي زائد على ماهية الوجود فهم في الحقيقة منكرون لذاته وصفاته وأفعاله ، لا يتحاشون من ذلك.

والاتحادية : أدهى وأمر . فإنهم رفعوا القواعد من الأصل ، وقالوا: ما ثم وجود خالق ووجود مخلوق. بل الخلق المشبه هو عين الحق المنزة . كل ذلك من عين واحدة. بل هو العين الواحدة.

فهذه الشهادة العظيمة: كل هؤلاء هم بها غير قائمين . وهي متضمنة لإبطال ما هم عليه ، ورده . كما تضمنت إبطال ما عليه المشركون ، ورده . وهي مبطلة لقول طائفتي الشرك والتعطيل . ولا يقوم بهذه الشهادة إلا أهل الإثبات الذين يثبتون لله ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات. وينفون عنه مماثلة المخلوقات. ويعبدونه وحده لا يشركون به شيئاً.

وإذا كانت شهادته سبحانه تتضمن بيانه للعباد ، ودلالتهم وتعريفهم بما شهد به . وإلا فلو شهد شهادة لم يتمكنوا من العلم بها: لم ينتفعوا . ولم يقم عليهم بها الحجة. كما أن الشاهد من العباد إذا كانت عنده شهادة ولم يبينها ، بل كتمها. لم ينتفع بها أحد، ولم تقم بها حجة. وإذا كان لا ينتفع بها إلا ببيانها فهو سبحانه قد بينها غاية البيان بطرق ثلاثة : السمع ، والبصر ، والعقل.

أما السمع: فبسمع آياته المتلوة القولية المتضمنة لإثبات صفات كماله ونعوت جلاله، وعلوه على عرشه فوق سبع سماواته ، وتكلمه بكتبه، وتكليمه لمن شاء من عباده تكلماً وتكليماً. حقيقة لا مجازاً.

وفي هذه إبطال لقول من قال: إنه لم يُرِدْ من عباده ما دلت عليه آياته السمعية من إثبات معانيها وحقائقها التي وضعت لها ألفاظها . فإن هذا ضد البيان والإعلام . ويعود على مقصود الشهادة بالإبطال والكتمان وقد ذم الله من كتم شهادة عنده من الله. وأخبر أنه من أظلم الظالمين. فإذا كانت عند العبد شهادة من الله تحقق ما جاء به رسوله من أعلام نبوته وتوحيد الرسل ،وأن إبراهيم وأهل بيته كانوا على الإسلام كلهم . وكتم هذه الشهادة . كان من أظلم الظالمين - كما فعله أعداء رسول الله ﷺ من اليهود . الذين كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم - فكيف يظن بالله سبحانه أنه كتم شهادة الحق التي يشهد بها الجهمية والمعتزلة والمعطلة ، ولايشهد بها لنفسه . ثم يشهد لنفسه بما يضادها ويناقضها ، ولا يجامعها بوجه ما؟ سبحانك هذا بهتان عظيم ! فإن الله سبحانه شهد لنفسه بأنه استوى على العرش ، وبأنه القاهر فوق عباده ، وبأن ملائكته يخافونه من فوقهم، وأن الملائكة تعرج إليه بالأمر . وتنزل من عنده به . وأن العمل الصالح يصعد إليه ، وأنه يأتي

ويجيء. ويتكلم ، ويرضى ويغضب ، ويحب ويكره ، ويتأذى ، ويفرح ويضحك، وأنه يسمع ويبصر ، وأنه يراه المؤمنون بأبصارهم يوم لقائه ، إلى غير ذلك مما شهد به لنفسه ، وشهد له به رسله. وشهدت له الجهمية بضد ذلك ، وقالوا: شهادتنا أصح وأعدل من شهاده النصوص. فإن النصوص تضمنت كتمان الحق وإظهار خلافه.

فشهاده الرب تعالي: تكذب هؤلاء أشد التكذيب . وتتضمن أن الذى شهد به قد بينه وأوضحه وأظهره ، حتى جعله فى أعلى مراتب الظهور والبيان. وأنه لو كان الحق فيما يقوله المعطلة والجهمية لم يكن العباد قد انتفعوابما شهد به سبحانه . فإن الحق فى نفس الأمر - عندهم - لم يشهد به لنفسه. والذى شهد به لنفسه، وأظهره وأوضحه: فليس بحق. ولايجوز أن يستفاد منه الحق واليقين

وأما آياته العيانية الخلقية ، والنظر فيها والاستدلال بها: فإنهاتدل على ما تدل عليه آياته القولية والسمعية .وآيات الرب : هى دلائله وبراهينه التى بها يعرفه العباد ، وبها يعرفون أسماءه وصفاته .وتوحيده ،وأمره ونهيه .فالرسل تخبر عنه بكلامه الذى تكلم به. وهو آياته القولية . ويستدلون على ذلك بمفعولاته التى تشهد على صحة ذلك .وهى آياته العيانية .والعقل يجمع بين هذه وهذه . فيجزم بصحة ما جاءت به الرسل . فتتفق شهادة السمع والبصر والعقل والفطرة وهو سبحانه - لكمال عدله ورحمته ، وإحسانه وحكمته ، ومحبته للعذر ، وإقامته للحجة - لم يبعث نبياً من الأنبياء إلا ومعه آية تدل على صدقة فيما أخبر به . قال تعالى﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾[1] وقال تعالى ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم . فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون * بالبينات والزبر﴾[2] وقال تعالي﴿ قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم . فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين؟ فإن كذبوك فقد كذب رسول من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير﴾[3] وقال تعالى﴿وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك﴾ [4] وقال تعالى﴿وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير﴾[5]

حتى إن من أخفى آيات الرسل آيات هود عليه السلام .حتى قال له قومه ﴿يا هود ما جئتنا ببينة﴾[6] ومع هذا فبينته من أظهر البينات . وقد أشار إليها بقوله ﴿ إنى أشهد الله. واشهدوا : أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون إنى توكلت على

---

(١) سورة الحديد الآية ٢٥.

(٢) سورة النحل الآية ٤٣، ٤٤.

(٣) سورة آل عمران الآية ١٨٣، ١٨٤

(٤) سورة فاطر الآية ٤.

(٥) سورة فاطر الآية ٢٥.

(٦) سورة هود الاية ٥٣.

الله ربي وربكم . ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها * إن ربي على صراط مستقيم ﴾ (١)

فهذا من أعظم الآيات: أن رجلاً واحد يخاطب أمة عظيمة بهذا الخطاب ، غير جزع ولا فزع ، ولاخوار ، بل واثق مما قاله جازم به ، قد أشهد الله أولاً على براءته من دينهم ، ومما هم عليه إشهاد واثق به ، معتمد عليه ، معلم لقومه: أنه وليه وناصره ، و أنه غير مسلطهم عليه.

ثم أشهدهم - إشهاد مجاهر لهم بالمخالفة - : أنه برىء من دينهم وآلهتهم ، التى يوالون عليها ويعادون . ويبذلون دماءهم وأموالهم فى نصرتها.

ثم أكد عليهم ذلك بالاستهانة بهم ، واحتقارهم وازدرائهم ، وأنهم لو يجتمعون كلهم على كيده ، وشفاء غيظهم منه ، ثم يعاجلونه ولا يمهلونه . وفى ضمن ذلك : أنهم أضعف وأعجز وأقل من ذلك ، وأنكم لو رمتموه لا نقلبتم بغيظكم مكبوتين مخذولين.

ثم قرر دعوته أحسن تقرير. وبين أنه ربه تعالى وربهم ، الذى نواصيهم بيده: هو وليه ووكليه ، القائم بنصره وتأييده ، وأنه على صراط مستقيم ، فلا يخذل من توكل عليه وآمن به .ولا يشمت به أعداءه ، ولا يكون معهم عليه. فإن صراطه المستقيم الذى هو عليه - فى قوله وفعله - يمنع ذلك ويأباه.

وتحت هذا الخطاب : أن من صراطه المستقيم: أن ينتقم ممن خرج عنه وعمل بخلافه . وينزل به بأسه . فإن الصراط المستقيم : هو العدل الذى عليه الرب تعالى . ومنه انتقامه من أهل الشرك والإجرام .و نصره أولياءه ورسله على أعدائهم . وأنه يذهب بهم ، ويستخلف قوماً غيرهم ، ولا يضره ذلك شيئاً . وأنه القائم سبحانه على كل شىء حفظاً ورعاية وتدبيراً وإحصاء؟

فأى آية وبرهان ودليل أحسن من آيات الأنبياء وبراهينهم وأدلتهم ؟ وهى شهادة من الله سبحانه لهم . بينها لعباده غاية البيان . وأظهرها لهم غاية الإظهار بقوله وفعله . فى الصحيح عنه ﷺ أنه قال «مامن نبى من الأنبياء إلا وقد أوتى من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى . فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»(٢)

ومن أسمائه تعالى«المؤمن» وهو - فى أحد التفسيرين - المصدق الذى يصدق الصادقين بما يقيم لهم من شواهد صدقهم . فهوالذى صدق رسله وأنبياءه فيما بلغوا عنه. وشهد

---

(١) سورة هود ٥٤ : ٥٦.

(٢) رواه البخارى (٤٩٨١) ومسلم (٣٧٨) عن أبى هريرة رضى الله عنه

لهم بأنهم صادقون بالدلائل التى دل بها على صدقهم قضاء وخلقاً. فإنه سبحانه أخبر - وخبره الصدق. وقوله الحق - أنه لا بد أن يرى العباد من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين لهم: أن الوحى الذى بلغته رسله حق. فقال تعالى ﴿سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم. حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ [1] أى القرآن . فإنه هو المتقدم فى قوله ﴿قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به؟ ﴾[2] ثم قال ﴿أولم يكف بربك : أنه على كل شىء شهيد﴾ فشهد سبحانه لرسوله بقوله: أن ما جاء به حق . ووعده أن يرى العباد من آياته الفعلية الخلقية: ما يشهد بذلك أيضاً. ثم ذكرماهوأعظم من ذلك وأجل، وهو شهادته سبحانه على كل شىء. فإن من أسمائه«الشهيد» الذى لا يغيب عنه شىء. ولايعزب عنه مثقال ذره فى الأرض ولا فى السماء. بل هومطلع على كل شىء مشاهد له، عليم بتفاصيله .وهذا الاستدلال بأسمائه وصفاته. والأول استدلال بقوله وكلماته ، والاستدلال بالآيات الأفقية والنفسية استدلال بأفعاله ومخلوقاته.

فإن قلت: قد فهمت الاستدلال بكلماته والاستدلال بمخلوقاته . فبين لى كيفية الاستدلال بأسمائه وصفاته . فإن ذلك أمر لا عهد لنا به فى تخاطبنا وكتبنا.

قلت: أجل هو لعمر الله كما ذكرت . وشأنه أجل وأعلي. فإن الرب تعالى هو المدلول عليه . ، وآياته هى الدليل والبرهان.

فاعلم الله سبحانه فى الحقيقة هو الدال على نفسه بآياته . فهوالدليل لعباده فى الحقيقة بما نصبه لهم من الدلالات والآيات. وقد أودع فى الفطر التى لم تتنجس بالتعطيل والجحود: أنه سبحانه الكامل فى أسمائه وصفاته وأنه الموصوف بكل كمال ، والمنزه عن كل عيب ونقص . فالكمال كله ، والجمال والجلال والبهاء ، والعزة والعظمة والكبرياء : كله من لوازم ذاته . يستحيل أن يكون على غير ذلك . فالحياة كلها له .والعلم كله له ، والقدرة كلها له ، والسمع والبصر والإراده. والمشيئة والرحمة والغنى ، والجود والإحسان والبر ، كله خاص له قائم به . وما خفى على الخلق من كماله أعظم وأعظم مما عرفوه منه. بل لا نسبة لما عرفوه من ذلك إلى مالم يعرفوه.

ومن كماله المقدس : اطلاعه على كل شىء. وشهادته عليه ، بحيث لا يغيب عنه وجه من وجوه تفاصيله ولا ذرة من ذراته ، باطناً وظاهراً .ومن هذا شأنه : كيف يليق بالعباد أن يشركوا به . وأن يعبدوا معه غيره؟ وأن يجعلوا معه إلهاً آخر؟ وكيف يليق بكماله أن يقر من يكذب عليه أعظم الكذب ، ويخبر عنه بخلاف ما الأمر عليه. ثم ينصره على ذلك ويؤيده ، ويعلى كلمته . ويرفع شأنه . ويجيب دعوته ، ويهلك عدوه،

(1) سورة فصلت الآية ٥٣ . (2) سورة فصلت الآية ٥٢ .

ويظهر على يديه من الآيات والبراهين والأدلة ما تعجز عن مثله قوى البشر . وهو - مع ذلك - كاذب عليه مفترٍ ، ساعٍ فى الأرض بالفساد؟

ومعلوم أن شهادته سبحانه على كل شيء ، وقدرته على كل شيء ، وحكمته وعزته وكماله المقدس يأبى ذلك كل الإباء . ومن ظن ذلك به ، وجوزه عليه: فهو من أبعد الخلق من معرفته، وإن عرف منه بعض صفاته ، كصفة القدرة ، وصفة المشيئة.

والقرآن مملوء من هذه الطريق . وهى طريق الخاصة ، بل خاصة الخاصة هم الذى يستدلون بالله على أفعاله . وما يليق به أن يفعله ومالا يفعله.

وإذا تدبرت القرآن رأيته ينادى على ذلك . فيبديه ويعيده لمن له فهم وقلب واع عن الله . قال الله تعالى **﴿ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فمامنكم من أحد عنه حاجزين﴾**[1] أفلا تراه كيف يخبر سبحانه : أن كماله وحكمته وقدرته تأبى أن يقر من تقول عليه بعض الأقاويل ؟ بل لا بد أن يجعله عبرة لعباده ، كما جرت بذلك سنته فى المتقولين عليه.

وقال تعالى **﴿أم يقولون افترى على الله كذبا فإن يشأ الله يختم على قلبك﴾**[2] ههنا انتهى جواب الشرط . ثم أخبر خبراً جازماً غير معلق: أنه يمحو الله الباطل . ويحق الحق وقال تعالى **﴿وما قدروا الله حق قدره ، إذ قالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء﴾**[3] فأخبر أن من نفى عنه الإرسال والكلام لم يقدره حق قدره. ولا عرفه كما ينبغى ، ولا عظمه كما يستحق . فكيف من ظن أنه ينصر الكاذب المفترى عليه ويؤيده؟ ويظهر على يديه الآيات والأدلة؟ وهذا فى القرآن كثير جداً. يستدل بكماله المقدس ، وأوصافه وجلاله على صدق رسله ، وعلى وعده ووعيده . ويدعو عباده إلى ذلك . كما يستدل بأسمائه وصفاته على وحدانيته ، وعلى بطلان الشرك. كما فى قوله **﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم * هو الله الذى لا إله إلا هو . الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحان الله عما يشركون﴾** [4] وأضعاف أضعاف ذلك فى القرآن.

ويستدل سبحانه بأسمائه وصفاته على بطلان ما نسب إليه من الأحكام والشرائع الباطلة ، وأن كماله المقدس يمنع من شرعها كقوله **﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا: وجدنا عليها آباءنا . والله أمرنا بها . قل: إن الله لا يأمر بالفحشاء. أتقولون على الله ما لا تعلمون؟﴾**[5]

---

(١) سورة الحاقة الآية ٤٤ . ٤٧
(٢) سورة الشورى الاية ٢٤
(٣) سورة الأنعام الآية ١ .
(٤) سورة الحشر الآيج ٢٢، ٢٣
(٥) سورة الاعراف الآية ٢٨ .

وقوله عقيب ما نهى عنه وحرمه من الشرك والظلم والفواحش والقول عليه بلا علم ﴿كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً﴾[1] فاعلمك أن ما كان سيئه فى نفسه فهو يكرهه. وكماله يأبى أن يجعله شرعاً له ودينا . فهو سبحانه يدل عباده بأسمائه وصفاته على ما يفعله ويأمربه ،وما يحبه ويبغضه، ويثيب عليه ويعاقب عليه. ولكن هذه الطريق لا يصل إليها إلا خاصة الخاصة. فلذلك كانت طريقة الجمهور الدلالات بالآيات المشاهدة. فإنها أوسع وأسهل تناولاً. والله سبحانه يفضل بعض خلقه على بعض. ويرفع درجات من يشاء. وهو العليم الحكيم.

فالقرآن العظيم قد اجتمع فيه مالم يجتمع فى غيره. فإنه هو الدعوة والحجة . وهو الدليل والمدلول عليه. وهو الشاهد والمشهود له . وهو الحكم والدليل . وهو الدعوى والبينة . وقال تعالي﴿أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه؟﴾[2] أى من ربه . وهو القرآن . وقال تعالى لمن طلب آية تدل على صدق رسوله ﴿أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم؟ إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون. قل : كفى بالله بينى وبينكم شهيداً . يعلم ما فى السموات والأرض .والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون﴾[3] فأخبر سبحانه أن الكتاب الذى أنزله على رسوله يكفى عن كل آية . ففيه الحجة والدلالة على أنه من الله ، وأن الله سبحانه أرسل به رسوله. وفيه بيان ما يوجب لمن اتبعه السعادة ، وينجيه من العذاب . ثم قال ﴿قل كفى بالله بينى وبينكم شهيداً يعلم ما فى السموات والأرض﴾ فإذا كان الله سبحانه عالماً بجميع الأشياء: كانت شهادته أصدق شهادة وأعدلها. فإنها شهادة بعلم تام ، محيط بالمشهود به . فيكون الشاهد به أعدل الشهداء وأصدقهم. وهو سبحانه يذكر علمه عند شهادته، وقدرته وملكه عند مجازاته ، وحكمته عند خلقه وأمره، ورحمته عند ذكر إرسال رسوله .وحلمه عند ذكر ذنوب عباده ومعاصيهم .وسمعه عند ذكر دعائهم. ومسألته وعزته وعلمه عند قضائه وقدره.

فتأمل وورود أسمائه الحسنى فى كتابه ، وارتباطها بالخلق والأمر ، والثواب والعقاب.

ومن هذا قوله تعالى ﴿ويقول الذين كفروا : لست مرسلاً . قل: كفى الله شهيداً بينى وبينكم . ومن عنده علم الكتاب﴾[4] فاستشهد على رسالته بشهادة الله له ، ولا بد أن تعلم هذه الشهادة . وتقوم بها الحجة على المكلفين له ،وكذلك قوله ﴿قل : أى شىء أكبر

---

(1) سورة الإسراء الاية ٣٩.

(2) سورة هود الآية ١٧

(3) سورة العنكبوت الآية ٥١، ٥٢.

(4) سورة الرعد الآية ٤٣.

شهادة ؟ قل : الله شهيد بيني وبينكم ﴾[1] وكذلك قوله ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه. والملائكة يشهدون ، وكفى بالله شهيداً ﴾[2] وكذلك قوله ﴿يس . والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين﴾ وقوله ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق. وإنك لمن المرسلين﴾[3] وقوله ﴿ والله يعلم أنك لرسوله﴾[4] وقوله ﴿ محمد رسول الله﴾[5] فهذا كله شهادة منه لرسوله . قد أظهرها وبينها. وبين صحتها غاية البيان. بحيث قطع العذر بينه وبين عباده. وأقام الحجة عليهم . فكونه سبحانه شاهداً لرسوله : معلوم بسائر أنواع الأدلة: عقليها ونقليها وفطريها وضروريها ونظريها.

ومن نظر فى ذلك وتأمله : علم أن الله سبحانه شهد لرسوله أصدق الشهادة. وأعدلها وأظهرها. وصدقه بسائر أنواع التصديق : بقوله الذى أقام البراهين على صدقه فيه، وبفعله وإقراره ،وبما فطر عليه عباده : من الإقرار بكماله ،وتنزيهه عن القبائح ، وعما لا يليق به . وفى كل وقت يحدث من الآيات الدالة على صدق رسوله ما يقيم به الحجة، ويزيل به العذر ، ويحكم له ولأتباعه بما وعدهم به من العز والنجاة والظفر والتأييد.ويحكم على أعدائه ومكذبيه بما توعدهم به: من الخزى والنكال والعقوبات المعجلة، الدالة على تحقيق العقوبات المؤجلة ﴿هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله.وكفى بالله شهيداً﴾[6] فيظهره ظهورين: ظهوراً بالحجة، والبيان،والدلالة، وظهوراً بالنصر والظفر والغلبة،والتأييد حتى يظهره على مخالفيه.ويكون منصوراً

وقوله ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه ،والملائكة يشهدون﴾ فما فيه من الخبر عن علم الله الذى لا يعلمه غيره : من أعظم الشهادة بأنه هو الذى أنزله . كما قال فى الآية الأخرى :﴿ أم يقولون افتراه . قل : فأتوا بعشر سور مثله مفتريات . وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين. فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله. وأن لا إله إلا هو . فهل أنتم مسلمون؟﴾[7]

وليس المراد مجرد الإخبار بأنه أنزله- وهو معلوم له ، كما يعلم سائر الأشياء . فإن كل شيء معلوم له من حق وباطل – وإنما المعنى : أنزله مشتملاً على علمه . فنزوله مشتملاً على علمه : هو آية كونه من عنده ،وأنه حق وصدق. ونظير هذا قوله :﴿قل: أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض﴾[8] ذكر ذلك سبحانه تكذيباً ورداً على من

---

(1) سورة الأنعام الاية ١٩ . (2) سورة النساء الآية ١٦٦ (3) سورة البقرة الآية ٢٥٢
(4) سورة المنافقون الآية ١ . (5) سورة الفتح الآية ٢٨ (6) سورة التوبة الآية ٣٣
(7) سورة هود الآية ١٣ ، ١٤ . (8) سورة الفرقان الآية ٦

قال ﴿افتراء﴾ (١).

ومن شهادته أيضا: ما أودعه فى قلوب عباده: من التصديق الجازم ، واليقين الثابت، والطمأنينة بكلامه ووحيه. فإن العادة تحيل حصول ذلك بما هو من أعظم الكذب، والافتراء على رب العالمين ، والإخبار عنه بخلاف ما هو عليه من أسمائه وصفاته. بل ذلك يوقع أعظم الريب والشك . وتدفعه الفطر والعقول السليمة ، كما تدفع الفطر - التى فطر عليها الحيوان - الأغذية الخبيثة الضارة التى لا تغذى . كالأبوال والأنتان فإن الله - سبحانه - فطر القلوب على قبول الحق والانقياد له ، والطمأنينة به ، والسكون إليه ومحبته . وفطرها على بغض الكذب والباطل ، والنفور عنه ، والريبة به ، وعدم السكون إليه . ولو بقيت الفطر على حالها ، لما آثرت على الحق سواه ، ولما سكنت إلا إليه، ولا اطمأنت إلا به ، ولا أحبت غيره.

ولهذا ندب الله -عز وجل - عباده إلى تدبر القرآن . فإن كل من تدبره ، أوجب له تدبره علماً ضرورياً ويقيناً جازماً ، أنه حق وصدق . بل أحق كل حق ،وأصدق كل صدق. وأن الذى جاء به أصدق خلق الله ، وأبرهم ، وأكملهم علماً وعملاً ،ومعرفة . كما قال تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾(٢).وقال تعالى ﴿أفلا يتدبرون القرآن ، أم على قلوب أقفالها﴾ (٣).

فلو رفعت الأقفال عن القلوب ، لباشرتها حقائق القرآن ، واستنارت فيها مصابيح الإيمان. وعلمت علماً ضرورياً يكون عندها كسائر الأمور الوجدانية - من الفرح ، والألم، والحب، والخوف - أنه من عند الله . تكلم به حقاً ، وبلغه رسوله جبريل عنه إلى رسوله محمد . فهذا الشاهد فى القلب من أعظم الشواهد. وبه احتج هرقل على أبى سفيان حيث قال له : «فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه . بعد أن يدخل فيه؟ فقال: لا . فقال له : وكذلك الإيمان إذا خالطت حلاوته بشاشة القلوب ، لا يسخطه أحد».

وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى فى قوله : ﴿بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم﴾ (٤) وقوله ﴿ويرى الذين أوتوا العم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به﴾ (٥) وقوله: ﴿ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك : هو الحق ﴾ (٦) وقوله : .﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمي﴾ (٧) وقوله : ﴿ويقول الذين كفروا : لولا أنزل عليه آية من ربه ، قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب﴾ (٨)

---

(١) سورة الفرقان الآية ٤. (٢) سورة النساء الآية ٨٢. (٣) سورة محمد الآية ٢٤.
(٤) سورة العنكبوت الآية ٤٩. (٥) سورة الحج الآية ٥٤. (٦) سورة سبأ الآية ٦
(٧) سورة الرعد الآية ٢١٩. (٨) سورة الرعد الاية ٢٧.

يعني : ان الآيات التي يقترحونها ، لا توجب هداية . بل الله هوالذى يهدي ويضل. ثم نبههم على أعظم آية وأجلها ،وهي طمأنينة قلوب المؤمنين بذكره الذي أنزله. فقال ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله﴾ (١) اى بكتابه وكلامه ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ فطمأنينة القلوب الصحيحة ، والفطر السليمة به ؛ وسكونها إليه : من أعظم الآيات . إذ يستحيل في العادة : أن تطمئن القلوب وتسكن إلى الكذب والافتراء والباطل.

فإن قيل. فلم لم يذكر الله سبحانه شهادة رسله مع الملائكة ، فيقول: شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة والرسل ، وهم أعظم شهادة من أولى العلم؟

قيل: في ذلك عدة فوائد.

إحداها: أن أولى العلم أعم من الرسل والأنبياء فيدخلون هم وأتباعهم.

وثانيها: أن في ذكر «أولى العلم» في هذه الشهادة ، وتعليقها بهم: ما يدل على أنها من موجبات العلم ومقتضياته .وأن من كان من أولى العلم: فإنه يشهد بهذه الشهادة. كما يقال إذا طلع الهلال واتضح ، فإن كل من كان من أهل النظر يراه. وإذا فاحت رائحة ظاهرة ، فكل من كان من أهل الشم يشم هذه الرائحة قال تعالى﴿وبرزت الجحيم لمن يرى﴾ (٢) أى كل من له رؤية يراها حينئذ عياناً ، ففي هذا بيان أن من لم يشهد له الله سبحانه بهذه الشهادة ، فهو من أعظم الجهال . وإن علم من أمور الدنيا ما لم يعلمه غيره. فهو من أولى الجهل، لا من أولى العلم . وقد بينا أنه لم يقم بهذه الشهادة ، ويؤديها على وجهها : إلا أتباع الرسل أهل الإثبات ، فهم أولو العلم . وسائر من عداهم: أولو الجهل ، وإن وسعوا القول وأكثروا الجدال.

ومنها: الشهادة من الله - سبحانه - لأهل هذه الشهادة : أنهم «أولو العلم » فشهادته لهم أعدل وأصدق من شهادة الجهمية والمعطلة والفرعونية لهم بأنهم جهال. وأنهم حشوية ، وأنهم مشبهة ، وأنهم مجسمة ونوابت ونواصب . فكفاهم أصدق الصادقين لهم بأنهم من « أولى العلم» إذ شهدوا له بحقيقة ما شهد به لنفسه، من غير تحريف ولا تعطيل، أثبتوا له حقيقة هذه الشهادة ومضمونها. وخصومهم نفوا عنه حقائقها ، وأثبتوا له ألفاظها ، ومجازاتها

وفي ضمن هذه الشهادة الإلهية الثناء على أهل العلم الشاهدين بها وتعديلهم فإنه - سبحانه - قرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته ،واستشهد بهم - جلا وعلا- على أجل مشهود به . وجعلهم حجة على من أنكر هذه الشهادة .كمايحتج بالبينة على من أنكر

(١) سورة الرعد الآية ٢٨.
(٢) سورة النازعات الآية ٣٦

الحق . فالحجة قامت بالرسل على الخلق وهؤلاء نواب الرسل وخلفاؤهم فى إقامة حجج الله على العباد.

فصل

وقد فسرت «شهادة أولى العلم» بالإقرار وفسرت بالتبيين والإظهار ، والصحيح : أنها تتضمن الأمرين . فشهادتهم إقرار ، وإظهار ، وإعلام . وهم شهداء الله على الناس يوم القيامة . قال الله تعالى﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس. ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾[1] وقال تعالى: ﴿هوسمـــاكم المسلمـــــين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس﴾ [2] فأخبر :أنه جعلهم عدولاً خياراً. ونوه بذكرهم قبل أن يوجدهم لما سبق فى علمه من اختاره لهم شهداء يشهدون على الأمم يوم القيامة . فمن لم يقم بهذه الشهادة - علماً ، ومعرفة إقراراً ودعوة وتعليماً ، وإرشاداً - فليس من شهداء الله .والله المستعان.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ. وَسَلَامٌ على المرسلينَ. وَالحمدُ للّهِ رب العالمين﴾[3].

فنختم الكتاب بهذه الآية، حامدين للّه، مثنين عليه بما هو أهله. وبما أثنى به على نفسه.

والحمد لله رب العالمين حمداً طيباً مباركاً فيه، كما يحب ربنا ويرضى. وكما ينبغى لكرم وجهه، وعزّ جلاله. غير مكْفِىٍّ ولا مكفور، ولا مُوَدَّع، ولا مستغنىً عنه ربنا.

ونسأله أن يُوزعنا شكر نعمته، وأن يوفقنا لأداء حقه. وأن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته. وأن يجعل ما قصدنا له- فى هذا الكتاب وفى غيره- خالصاً لوجهه الكريم، ونصيحة لعباده.

فيا أيها القارىء له، لك غُنمه وعلى مؤلفه غُرمه. لك ثمرته وعليه تَبِعَتُه. فما وجدتَ فيه من صواب وحق فاقبله. ولا تلتفت إلى قائله. بل انظر إلى ما قال، لا إلى من قال. وقد ذم اللّه تعالى من يردُّ الحق إذا جاء به مَنْ يُبغضه. ويقبله إذا قاله مَنْ يحبه. فهذا خُلُق الأمة الغضبية. قال بعض الصحابة «اقبل الحق ممن قاله، وإن كان بغيضاً. ورد الباطل على من قاله، وإن كان حبيباً» وما وجدت فيه من خطأ: فإن قائله لم يَألُ جهد الإصابة. ويأبى اللّه إلا أن يتفرد بالكمال.

---

(1) سورة البقرة الآية ١٤٣.
(2) سورة الحج ٧٨.
(3) سورة الصافات الآية ١٨ - ١٨٢

كما قيل:

والنَّقصُ في أصـــــلِ الطبيعةِ كَامِنٌ ... فَبَنُو الطبيعةِ نقصهم لا يُجحد

وكيف يُعصَم من الخطأ من خُلق ظَلوماً جَهولاً؟ ولكن من عُدَّت غلطاته أقرب إلى الصواب ممن عدت إصاباته.

وعلى المتكلم في هذا الباب وغيره: أن يكون مصدر كلامه عن العلم بالحق. وغايته: النصيحة لله، ولكتابه ولرسوله، ولإخوانه المسلمين. وإن جعل الحق تبعاً للهوى: فسد القلب والعمل والحال والطريق. قال الله تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الحقُّ أَهْواءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمواتُ والأَرْضُ ومَنْ فِيهِنَّ﴾[1].

وقال النبي ﷺ: «لاَ يُؤمِنُ أَحدُكُمْ حَتَّى يكُونَ هَوَاهُ تَبَعاً لما جِئْتُ بِهِ»[2] فالعلم والعدل: أصل كل خير، والظلم والجهل: أصل كل شر. والله تعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق. وأمره أن يعدل بين الطوائف. ولا يتبع هوى أحد منهم. فقال تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ واسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهواءَهُمْ. وقُلْ: آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللهُ مِن كتَاب. وأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ. اللهُ رَبُّنا ورَبُّكُمْ. لَنَا أَعْمَالُنَا، وَلَكُمْ أَعْمَالُكُم. لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وبَيْنَكُمْ. اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وإِلَيْهِ المَصِيرُ﴾[3].

والحمد لله رب العالمين. وصلى الله وسلم وبارك على خاتم المرسلين محمد وعلى آله أجمعين.

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٧١.

(٢) ضعيف. رواه الخطيب البغدادي في «تاريخه» (٤/ ٣٦٩) وقد بسط الكلام على هذا الحديث الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» فراجعه

(٣) سورة الشورى الآية ١٥.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة